

11.5.2016



أصوات عربية

(ما تقوله لنا، ولماذا هو مهم)

جيمس زغبي

ترجمة: د. سرى خريس

عبلة عودة

جيمس زغبي

أصوات عربية

(ما تقوله لنا، ولماذا هو مهم)

ترجمة: د. سرى خريس
وعبلة عودة

تحرير: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

DS36.7 .Z6412 2011
.Zogby, James J
[Arab voices]

أصوات عربية: (ما تقوله لنا و لماذا هو مهم) / تأليف جيمس زغبـــي؛ ترجمة سري خريس، عبلة عودة؛ تحرير أحمد خريس.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.

ص 342 ؛ 15×23.5 سم.

ترجمة كتاب: Arab voices: what they are saying to us, and why it matters

تدمك: 978-9948-17-015-0

1 - العالم العربي-الحياة الفكرية. 2 - الوحدة العربية.

3 - العالم العربي-الأحوال السياسية.

أ-خريس، سري. ب-عودة، عبلة.

ج-خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

James J. Zogby

Arab Voices: What They Are Saying to Us, and Why it Matters



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



الإهداء

إلى ...

... إيلين ...

لأحكامها الصائبة

والتزامها العميق بالعدالة.

المحتويات

الجزء الثالث

الأصوات العربية، ما أهميتها؟

الأخطاء والإخفاقات

الجزء الرابع

تصحيح الأوضاع

الخاتمة

تصدير

لقد سعدت أيما سعادة لصدور ترجمة هذا الكتاب القيم، وسيجد القارئ المهتم الكثيرَ حول العلاقة بين العرب والولايات المتحدة الأمريكية. فثمة موقفان أساسيان يطبعان تلك العلاقة، يتمثل أحدهما في التماهي المطلق مع الثقافة الأمريكية وما تمثله من قيم وأنماط معيشة وسياسة أحياناً، ويَظهر هذا الأمر كثيراً لدى قطاع من الطلاب العرب الذين تخرجوا في الجامعات الأمريكية، وشبابنا المأخوذين بقيم الاستهلاك وهوليوود. أما الآخر فيقف على النقيض تماماً عندما يدعو إلى الحرب عليها ومناهضتها لا على المستوى السياسي وحسب، وإنما على المستويات الثقافية والدينية والاجتماعية، والسبب الرئيسي لذلك موقفها من بعض القضايا العربية المعاصرة؛ أي أننا إزاء حالتين متطرفتين في التعامل مع القوة الكبرى في العالم.

ويأتي مؤلف الكتاب جيمس زغبي، عبر وجهة نظر داخلية بوصفه أمريكياً - عربياً، ليوضح أسباب المشاعر المتناقضة التي يحملها العربي إزاء الولايات المتحدة الأمريكية، وهو يرجع ذلك بصورة أساسية إلى انعدام التواصل الحقيقي بين المجتمع الأمريكي والمجتمعات العربية، فضلاً عن صنّاع القرار في الطرفين والنخب السياسية التي تعتمد في آرائها على كتابات تخلو من الدقة والنزاهة. وربما أعادت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ما بني من علاقات قبلها إلى المربع الأول، فزادت الأمور تعقيداً.

إن ما يطالب به زغبي أن تشيع ثقافة حوار حقيقية بين الطرفين، ولا يتم ذلك وفق تصوره إلا عبر القدرة على الاستماع إلى الآخر، وتنوير الشعبين حول زيف الأساطير المتعلقة بالشخصيتين العربية والأمريكية على حد سواء.أرجو أن يجد القارئ العربي المتعة والفائدة اللتين حصّلتهما بقراءة

هذا الكتاب، كما أرجو أن يتحفنا مؤلفه بنتاجات أخرى متميزة، والشكر موصول إلى مشروع «كلمة» للترجمة لدوره الرائد في تعزيز الحوار بيننا وبين الآخر.

أ. يوسف العتيبة

سفير دولة الإمارات العربية المتحدة في واشنطن

المقدمـــة

في الثاني من أكتوبر عام 2001، تولّت شارلوت بيرز (Charlotte Beers)؛ المديرة التنفيذية في مجال الإعلام سابقاً، قيادة جهود وزارة الخارجية الأمريكية لتحسين التواصل مع العالم العربي، وذلك بعد مرور أقل من شهر على وقوع أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. بدأت بيرز حياتها المهنية مديرةً لقسم الإنتاج في شركة أرزّ العم بينز (Uncle Ben's Rice)، وكانت تلك بداية متواضعة لامرأة مثيرة للإعجاب مثل شخصيتها. تقاعدت بيرز في عام 1997، وكانت حينها تشغل منصب نائب رئيس قسم التسويق في شركة أوغلفي وماذير (Ogilvy and Mather)[1]. وفي العام ذاته، ظهرت بيرز على غلاف مجلة فورتشن (Fortune) في عددها الذي خُصص للحديث عن أقوى النساء في الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما تولت منصب وكيل وزارة الخارجية حيث كانت مسؤولة عن إدارة الدبلوماسية الخارجية والعلاقات الدولية، راهن البيت الأبيض على قدرة بيرز – التي تمتعت بخبرة طويلة في قيادة حملات ترويج لشامبو هيد آند شولدرز (Head and Shoulders) وبطاقات أميريكان إكسبرس الائتمانية– على خلق صورة جديدة للولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الجزء من العالم، حيث كنا في حاجة ماسة إلى إثبات حسن النية، ودفع دول هذا الإقليم إلى التعاون معنا.

لقد عوّلتُ كثيراً على قدرات بيرز، على الرغم من أن العديد من زملائي –ممن اختصوا في شؤون الشرق الأوسط– كانوا متشككين للغاية في هذا الأمر. لم تعمل بيرز في واشنطن من قبل، وكانت خبرتها في شؤون الشرق الأوسط هزيلة، لكنني أدركت أيضاً أنها إذا التزمت بقواعد عالمها الذي تعرفه حق المعرفة – عالم التسويق والإعلان– فإنها ستُحدث تأثيراً إيجابياً على العلاقات العربية – الأمريكية.

التقيتُ بيرز بعد مضي بضعة أسابيع على وجودها في وزارة الخارجية، وقبل مغادرتها للبدء بأول جولة لها في الشرق الأوسط. استعانت بيرز بي مستشيرةً، ذلك

(1) شركة أوغلفي وماذير: وكالة عالمية تختص بالإعلانات والتسويق والعلاقات العامة، وتقع في مانهاتن وتمتلكها مجموعة و. ب. ب. (WPP Group) (المترجم).

أن العالم العربي وعالم السياسات الدولية والشؤون الخارجية جديدان عليها. كانت نصيحتي بسيطة ومختصرة حين قلت لها: «استمعي إلى الآخرين»، «استمعي إلى ما يقوله العرب، وحاولي أن تدركي ما يفكرون فيه وما يحاولون إخبارنا به، وبالأخص ما يرغبون في سماعه مِنّا. فلْتستوعبي الأسئلة التي يطرحونها قبل أن تحاولي تزويدهم بالإجابة». لقد كانت إجابتي تلك أشبه -إلى حد كبير- بما اعتادت والدتي أن تقوله لي: «إن أردت أن يسمعك الآخرون، فعليك أن تستمع إليهم أولاً».

انطلقت بيرز بعد ذلك في رحلة خارجية زارت فيها دولاً عدة لتشرع في تحقيق هدفها الأول المتعلق ديمغرافياً بشعوب العالم العربي، واعتمدت خطة بيرز على التعرف إلى المنطقة عن طريق البدء بمحادثات مع تلك الشعوب التي حاولت فهم عقليتها. أعتقد أنها كانت خطة «عبقرية» بحق.

على أي حال، علمتُ فيما بعد من مسؤول في وزارة الخارجية كان قد رافق بيرز أن نتائج مختلطة انبثقت عن جولة الاستماع تلك. حظيت بيرز بترحيب رسمي شديد الحماسة عندما حطّت في المغرب ومصر. ولكن عندما تحول النقاش إلى الحديث عن سياسة الولايات المتحدة، طرح العرب، وعلى نحو متكرر، أسئلة صعبة وبخاصة فيما يتعلق بفلسطين، وعندها تكشفت سياسة أمريكا ذات المعايير المزدوجة، فقد انحازت الأخيرة دوماً إلى إسرائيل ضد الدول العربية. وعلى الرغم من أنني حذّرت بيرز مِن أن مثل هذه المواضيع تحظى بالأولوية في العقول العربية، قيل لي إن مسار المحادثات هذا قد أحبطها، لأنه ابتعد عن رسالتها التي سعت إلى إيصالها لشعوب العالم العربي، ألا وهي إقناعهم بأن الولايات المتحدة دولة خيّرة ومتسامحة.

أصدرت بيرز، عند عودتها إلى الولايات المتحدة، أمراً بافتتاح مركز إعلامي تجاوز حدود الدولة ليصل إلى لندن، ومن شأنه الاستجابة للقضايا التي عجزت عن معالجتها. لقد كان هذا قراراً حكيماً. وعلى أي حال، لم يثنِ بيرز عن تحقيق خطتها الأصلية شيء، فتابعت مهمتها عبر حملات دعائية لخلق صورة جديدة للقاعدة (Al-Qaeda) والولايات المتحدة الأمريكية، وكان هدفها كسب قلوب العرب والمسلمين وعقولهم في كل أنحاء العالم.

منذ تلك اللحظة، سارت الأمور نحو الهاوية ولا يُعزى ذلك إلى أن بيرز لم تكترث بنصيحتي لها، لكنها، ولسوء الحظ، تجاهلت أهم قواعد عالمها ألا وهي قاعدة التسويق. فعلى سبيل المثال، أنشأت شركة أوغلفي وماذير، حيث كانت بيرز تعمل في السابق، فرعاً لها في العالم العربي يعِد زبائنه، عبر موقعه الإلكتروني، بتحقيق «فهم فريد من نوعه للثقافة العربية بأشكالها المتنوعة وقدرة متميزة لإيجاد حلول تواصليّة تنسجم مع هذه الثقافة»[1]. يمثل هذا الوعد منهجاً تسويقياً نموذجياً، بيد أن بيرز اختارت، بعد إخفاق جولتها في العالم العربي، طريقة مستهلكة، سبق للولايات المتحدة أن تعاملت بها مع الشرق الأوسط وهي: تصرف دون أن تأبه [بالآخر].

لم يكن أمراً مدهشاً البتّة أن الحملات الدعائية التي قادتها بيرز لم تنسجم مطلقاً مع الثقافة العربية. فعلى سبيل المثال، ثمة الملصق الخاص بن لادن (Bin Laden) - «مطلوب حياً أو ميتاً»- الذي حاولت بيرز أن تفرضه على الصحف العربية كإعلان مدفوع الثمن. لم يخفق الملصق في تحقيق هدفه فحسب، وإنما وفّر دعاية مجانية لشخص بن لادن. كما نتج عن هذا الملصق ردّ فعل عنيف حين علّق الإعلاميون العرب على لغته، وعدوها عدائية، وأنها تعكس ميلاً نحو القتل، وتنبثق من عقلية رعاة البقر.

ونلفي جانباً رئيساً آخر في حملة بيرز يتمثل في سلسلة من الإعلانات وأفلام الفيديو التي تصور مسلمين جاؤوا من عوالم شتى وتآلفوا سوية، وهم ينعمون بحياة سعيدة في الولايات المتحدة. يصور أحد هذه الإعلانات مُسعفاً مسلماً أمريكياً يقول: «لم يحتقرني أحد يوماً لأني مسلم»[2].

على أي حال، أدت جهود بيرز إلى خلق مفهوم سلبي مفاده أن الولايات المتحدة تحاول أن تؤثر في عقول الآخرين عن طريق المال، فقد عرضت بيرز مبالغ طائلة مقابل ظهور هذه الإعلانات وبث أفلام الفيديو تلك في محطات تلفازية مختلفة في العالم الإسلامي. أما المشكلة الثانية فتكمن في أن الموضوع الإيجابي الرئيس لهذه الإعلانات

(1) Edmond Moutran, Memac Ogilvy's Web site «splash page,» http://www.memacogilvy.com/main.html.

(2) Jarrett Murphy, «U.S. Propaganda Pitch Halted,» CBS News, January 16, 2003, http://wwwcbsnews.com/stories/2003/01/16/world/main536756. shtml.

نافس على نحو مباشر الأخبار المتعلقة بالتقارير غير الودية، التي تتحدث عن أعداد ضخمة من المهاجرين المسلمين حاصرهم قسم الترحيل في وزارة العدل.

قمتُ كذلك بمشاهدة أحد الإعلانات التلفازية الخاصة ببيرز، وذلك قبل عرضه على الجمهور، واعتقدت أنه مدهش بصورة لافتة. تظهر في الإعلان عداءة مغربية حازت أحد الأوسمة، وهي تعدو بمفردها بينما يتحدث صوتها الداخلي بعذوبة عن الحاجة لتحقيق الاحترام المتبادل. سعى هذا الإعلان إلى الترويج لمبدأ التسامح والاحترام، وكان إعلاناً بسيطاً وقوياً وفصيحاً للغاية.

وعلى الرغم من أن الإعلان قد أثار مشاعري، فقد كان بإمكاني التكهن أن هذا الإعلان المثير للإعجاب سيخفق عند عرضه على شاشات التلفاز في العالم العربي. بداية، كانت لغة الإعلان من ابتكار أمريكيين، وهي تخاطب أقرانهم من الأمريكيين، دون أن تعكس فهماً لطبيعة الجمهور المقصود، كما أنها لم تلائم السياق العربي المنشود. والأهم من ذلك، أن العدّاءة كانت تجري وقد ارتدت سروالاً قصيراً! من الواضح أن الشعوب التي سعت حكومة الولايات المتحدة إلى التأثير عليها إيجاباً لن تشاهد مثل هذا الإعلان، وإن فعلت، فستشعر بالإهانة. وعلى غرار العديد من الإعلانات التي ظهرت خلال تولي بيرز منصبها ذاك، أخفق هذا الإعلان في تحقيق هدفه.

لقد كانت بيرز امرأة ذكية وتتمتع بخبرة متميزة، كما أنها تفوّقت في مجال اختصاصها، غير أن جهودها المرتبطة بإدارة الشؤون والسياسة الخارجية للبلاد فشلت على نطاق واسع. أدركت بيرز آنذاك أنها لو حاولت [قديماً] بيع الأرز بالطريقة ذاتها التي روجت بها لأمريكا، ما كان لأرزّ العم بينز أن يغادر أرفف المحلات التجارية. ولذا، سعى البيت الأبيض إلى البحث عن طرق مغايرة لتطوير رسالته. ففي آذار من عام 2003 وحين كانت الحرب العراقية الأمريكية في أوجها – وعندما تطلب الأمر الترويج لصورة إيجابية للجيش الأمريكي على نحو جاد للغاية يفوق أي جهد بذلته بيرز من قبل – تنحّت شارلوت بيرز وغادرت منصبها في وزارة الخارجية الأمريكية.

وخلافاً للجهود الإعلامية التي تجاوزت حدود الولايات المتحدة الأمريكية وباءت بالفشل، كانت الفترة الوجيزة التي قضتها بيرز في وزارة الخارجية لافتة للنظر، لأنها

تمكنت في أثنائها-وبالدرجة الأولى- من إبراز جوهر التاريخ الحديث للعلاقات الأمريكية - العربية. لم تفتقر الحملات التي قادتها بيرز إلى المهارة التقنية أو التمويل اللازم، لكنها أوجزت العديد من خصائصها الإيجابية عبر استبدال جداول الأعمال سياسية الطابع بفهم واقعي لحال الشرق الأوسط، ويُقال الشيء ذاته عن الجهود الأخرى التي بذلتها الولايات المتحدة في العالم العربي. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار انتقال الحكومة الأمريكية من مبادراتها التعاونية إلى الدبلوماسية الخارجية، ومن المفاوضات المباشرة إلى الغزو العسكري، فسندرك أن الجهود التي استبدلت الواقع بمفاهيم مبتذلة وإيديولوجيات صارمة مُنيت بالفشل في نهاية المطاف. إن المخاطر المتعلقة بالشرق الأوسط في الوقت الحاضر شديدة جداً، ولم يعد في وسع الولايات المتحدة الأمريكية المقامرة بالأموال والقدرات والمصادر والأرواح في لعبة ستكون الخاسر الأوحد فيها.

إن الحقيقة التي يتوجب إدراكها تتلخص في أن الشرق الأوسط إقليم غاية في الأهمية بالنسبة إلى مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، والأمن والاستقرار العالميين. لقد توغلت الولايات المتحدة واستثمرت عميقاً في منطقة الشرق الأوسط، أكثر من أي بقعة أخرى، منذ أن انتهت حربها في فيتنام مطلعَ السبعينيات. وفي أثناء تلك الفترة التي اقتربت من أربعين عاماً، أنفقت الولايات المتحدة مزيداً من المال، وباعت مزيداً من الأسلحة، وكرّست مزيداً من الجهود السياسية، وأرسلت قوات إضافية لتخوض مزيداً من الحروب. ونتيجة لذلك، فُقد المزيد من أرواح الأمريكيين في الشرق الأوسط؛ أكثر من أي بقاع العالم الأخرى. وبينما أقوم بتأليف كتابي هذا، في هذه اللحظة، يقوم ما يزيد على المائة والخمسين ألف شاب وشابة أمريكية، انضم إليهم خمسون ألفاً من الجنود البريطانيين وقوات حلف الناتو، بخوض حروب داخل حدود هذه المنطقة وفي جوارها أيضاً. وفضلاً عن ذلك، يرتبط مئات الآلاف من الأمريكيين والأوروبيين بشكل مباشر بالشرق الأوسط عبر أعمال وشركات تجارية تعدّ حيوية للغاية بالنسبة إلى مصالح بلادهم الاقتصادية. ومن ثم، فإن أي صراع يدور في الشرق الأوسط سيؤثر في تدفق الموارد الرئيسة إلى كل من أوروبا وآسيا، وأي عدائية تجاه السياسات الأمريكية من شأنها أن تُعقد العلاقات بين العالم العربي وأمم أوروبا الغربية. إن طريقة معالجة أصحاب

القرار من السياسيين الأمريكيين للقضايا الحساسة الحاسمة في ذلك الجزء من العالم مهمة وحيوية للغاية بالنسبة إلى السلام والازدهار العالميين، ولاسيما أن الولايات المتحدة قد تبنت دوراً قيادياً فيما يتعلق بالحرب والسلام في الشرق الأوسط. فعلى سبيل المثال، يعزى الدور الرئيس إلى الولايات المتحدة في استثارة حلف الناتو وغيره من الحلفاء للإطاحة بطالبان، ومطاردة منظمة القاعدة وتقديم أفرادها للمحاكمة، ممن يتخذون من أفغانستان ملجأ لهم. وبالإضافة إلى ذلك، فالولايات المتحدة، وليس أي دولة أخرى، هي التي لم تنجز مهمتها في أفغانستان، وتجاوزت سلطة الأمم المتحدة، وقامت بتزوير ائتلاف خاص بها لغزو العراق واحتلاله. وأخيراً تحتكر الولايات المتحدة الدور الرئيس في المفاوضات المستمرة لإنهاء الصراع العربي - الإسرائيلي.

إن هذه الأسباب مجتمعة تشير إلى أن تحقيق فهم أفضل للعالم العربي لا يشكل جلّ اهتمام الولايات المتحدة، ولا يعدّ -أيضاً- مجرد تمرين ذهني قد تهتم بعض الجامعات أو الكليات الأمريكية بممارسته. ولا يبدو كذلك أن التوصل إلى هذا الفهم يشكل أحد بدائل الامتداد الثقافي. تشكل الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ثقلاً اقتصادياً ودبلوماسياً وعسكرياً هائلاً، مما يجعل من معرفة الشعوب التي تقطن في العالم العربي، وإدراك طريقة تفكيرها وحاجاتها وآمالها أمراً في غاية الأهمية. نحن بحاجة ماسة إلى إدراك افتراضاتنا ومفاهيمنا الخاطئة المرتبطة بالعرب وتمييزها، والأهم من ذلك، إدراكنا الواقع الحقيقي المرتبط بهذا الجزء من العالم. يحتاج الأمريكيون إلى هذا النوع من المعرفة لمساعدة الولايات المتحدة - والعالم بأسره- على تجنب الإخفاق السياسي الذريع الذي وقع في الماضي القريب.

بدأت علاقتي بالعالم العربي في وقت مبكر جداً، منذ الولادة تحديداً، وقد هاجرت عائلة والدتي من لبنان إلى الولايات المتحدة قرب نهاية القرن الماضي. أما والدي، فغادر لبنان وهو شاب بالغ في عشرينيات القرن. تزوج والداي واستقرا في مدينة يوتيكا (Utica) في ولاية نيويورك، حيث ترعرعت في مجتمع غني بميراث أخلاقي. كبرتُ وانضممت إلى الكشافة والتحقتُ بمدرسة كاثوليكية ولعبتُ دور مساعد الكاهن عند المذبح، ولعبتُ مع فريق ليجون الأمريكي للبيسبول[1]، وتعلمتُ الحكايات الشعبية

(1) فريق ليجون للبيسبول: فريق للهواة يتكون لاعبوه من مجموعة مراهقين ينتشرون في خمسين ولاية، وقد بدأت فكرة تأسيسه عام 1925 في ولاية داكوتا الجنوبية. (المترجم)

الخرافية من جدتي، ورقصتُ الدّبكة في الاحتفالات العائلية، وتابعتُ أنا ووالدي وأعمامي وأخوالي أخبار الوطن.

لقد تعمق ارتباطي بالمجتمع العربي الأمريكي كلما تقدم بي العمر، فقمت بتأسيس عدد من المنظمات العربية الأمريكية المحلية وقيادتها. وفضلاً عن ذلك، أقوم بكتابة عمود أسبوعي يُنشر في اثنتي عشرة دولة عربية، كما أقدم برامج حوارية تعالج القضايا المعاصرة، وتُعرض عبر الوطن العربي بأكمله. وبفضل الاتصالات التي حظيت بها مع القادة العرب وصانعي القرارات، بالإضافة إلى الشهرة التي اكتسبتها منظمة زغبي الدولية (Zogby International) التي تُعنى باستطلاع آراء الجمهور والناخبين، والتي أسسها شقيقي جون (John) داخل الولايات المتحدة الأمريكية، حظيت رفقةَ أخي، بامتياز إدارة استطلاع آراء الجمهور العربي منذ عام 1996.

كانت استطلاعاتنا في بادئ الأمر ذات نطاق ضيق، فقد حاولنا قياس مدى رضى المستهلكين عن سلطة المياه وغرفة التجارة في المملكة العربية السعودية. ثم طُلب منّا القيام باستطلاع على مستوى المنطقة العربية كلها لمعرفة البرامج التي يفضلها المشاهدون العرب، وقياس مستوى ثقة المستهلك بالمنتجات المطروحة في الأسواق العربية، فضلاً عن استطلاع مشاعرهم تجاه الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا وغيرها من الدول على امتداد البسيطة.

طُلب مِنّا في العقد الماضي استطلاع اهتمامات داخلية معقدة، مثلما فعلنا عندما قُمنا بإجراء استطلاع خاص بهذا الكتاب، لقياس المشاعر المتفاوتة إزاء الإصلاح ونحو قضايا متشابكة تتعلق بالهوية العربية وأخرى تتعلق بتجلية الاهتمامات السياسية لدى الساسة العرب. لقد مكنتنا هذه الجهود من مراقبة سير الأمور من الداخل، والتعرف إلى المشاعر العميقة والخصوصية الثقافية لأمة بأكملها.

لم تتضح الصورة الكاملة لهذه الأمة عبر حوار حظي بدعم إعلامي واسع الانتشار فقط، وإنما عن طريق عدد لا يُحصى من اللقاءات غير المرتبة سلفاً مع عرب يمارسون حياتهم اليومية. فعلى سبيل المثال، كنت، قبل سنين عدّة، مسافراً في رحلة من واشنطن إلى جدة، فجلست بجوار شابة سعودية كانت قد تخرجت للتو في جامعة جورج

تاون. لم تتحدث تلك الفتاة اللغة الإنجليزية بلكنة معينة، أما لباسها- ارتدت جينزاً معاصراً وقميصاً ذا أكمام قصيرة- فجعلها تبدو، إلى حد كبير، مثل العديد من الفتيات الأمريكيات اللواتي كن في العشرينيات من أعمارهن. لكن، لحظة هبوط الطائرة في مطار المملكة العربية السعودية، أخرجت الفتاة عباءة (الرّداء التقليدي) من حقيبة صغيرة حملتها معها- على غرار جميع النساء السعوديات اللواتي كن على متن الطائرة- وقامت بارتدائها. لم يثر هذا الفعل دهشتي مطلقاً، غير أني سألتها إن كانت تعارض ارتداء النقاب الذي من شأنه أن يغطي وجهها، ذلك أننا كنا نتحدث في المقام الأول عن الحياة التي قضتها في واشنطن. وعندها أجابت الفتاة دون أي تردد: «على الإطلاق! في الواقع، إنني أفتقده. لقد سئمت النظرات الشبقة. أما هنا، فبإمكاني أن أسير حيثما أشاء وأتحدث مع الآخرين عندما يلائمني ذلك ولن يراني سوى من أرغب». يجدر بالذكر هنا، أن أغلب المناظرات التي تقع في الولايات المتحدة لا تفسح المجال لامرأة متعلمة ومثقفة ذكية وغربية التفكير، وتسعد بارتداء النقاب في الوقت ذاته. ولا يُعزى ذلك بالطبع إلى عدم وجود مثل هذه المرأة على أرض الواقع!

تكونت حياتي كرجل بالغ من آلاف من تلك اللحظات، التي وإن بدت عابرة فقد كانت مؤثرة ويصعب تصنيفها ضمن مقياس الصواب والخطأ، ولا تُشتق منها غالباً دروس أخلاقية. تعكس هذه الأحداث العشوائية ببساطة العالم العربي على حقيقته، وواقع الحياة الذي تعيشه تلك الشعوب الحقيقية، لا الحياة المفبركة والنماذج النمطية التي تعكسها وسائل الإعلام الغربية.

وتكمن الحقيقة في أن «تفسير» العرب والعالم العربي بطريقة غير مباشرة أمر غير متأت، مهما كان المضطلع به ذكياً وملتزماً تجاه هذا الجزء من العالم. فلا يمكنك، على سبيل المثال، أن تفهم الراديكالية العربية إلا إذا كنت قد تحدّثت بالفعل ساعاتٍ طويلة مع الشباب الذين انضموا إلى جماعة الإخوان المسلمين في تونس. ولن تُقدّر إعجاب العرب بثقافة البوب الأمريكية إلا إذا قضيت وقتاً كافياً في مركز المملكة (Kingdom Center) في الرياض، وحاولت شق طريقك بين جموع الشباب السعوديين الذين ارتدوا ملابس مزركشة جعلتهم يشبهون إلى حد كبير المراهقين في نيويورك أو لوس

أنجلوس. لا يُعقل أن تدرك المشاعر المعقدة التي تختلج داخل صدور العرب الأمريكيين دون أن تحاول فهم ما يعنيه أن تعيش داخل جلودهم، ولا يمكنك أن تدرك ما يجول داخل «العقل العربي» إلاّ إذا حاولت ربطه بواقعه وظروفه.

إن إنشاء علاقة إيجابية ناجحة مع العالم العربي يعدّ أمراً أساسياً بالنسبة إلى مصالح الولايات المتحدة ومصالح العالم أجمع، لكنني أدرك في الوقت ذاته أن مثل هذا الأمر يصعب تحقيقه دون أن نسعى إلى توسيع آفاق فهمنا للعالم العربي، لنتجاوز الجدل العتيق، البالي، المحدود الذي شوّه صورة هذا العالم وشعوبه. لن تتمكن الولايات المتحدة من تجنب الأخطاء ذاتها التي وصمت هيبتنا وعرّضت حلفاءنا للشبهة وألحقت الضرر بمصالحنا المشتركة في الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من أن العديد من أمم الغرب بدت بعيدة عن العالم العربي، في الوقت الحاضر على وجه الخصوص، فإن مجرد الاستماع إلى العرب بإمكانه أن يقرّب الهوة الشاسعة التي تفصل تلك الأمم بعضها عن بعض. لقد قابلت أحد الأشخاص الذين فهموا هذه الجزئية على أفضل وجه وهو الشيخ عبدالله بن زايد (Abdullah bin Zayed)، الذي يشغل اليوم منصب وزير الخارجية الإماراتي، وهو ميال إلى الهدوء والتأمل، ولعل هاتين الصفتين تميزان من انتسب إليهم جميعاً، ووالده هو الشيخ زايد؛ مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة وأول حاكم للبلاد، وقد نال الشيخ زايد احترام الوطن العربي كله، لقوة شخصيته القيادية وما تمتع به من إنسانية وإحساس واثق بالكرامة.

وعلى الرغم من أن الشيخ عبدالله في عمر ابني، فإنه يتمتع بخاصية ميزت والدي أيضاً، ألا وهي قدرة كليهما على الاستماع إلى الآخرين. فعلى سبيل المثال، تجده في الاجتماعات حين يحتدم النقاش– وأذكر هنا قول والدتي: «الرجال الأقل شأناً دائماً ما يُعبرون عن جهلهم بأعلى الأصوات»– وقد وضع يداً فوق الأخرى، محاولاً التركيز بعينيه لفهم ما يجري حوله. وعلى غرار والدي، إذا ما تحدث فإنه يتحدث برفق وهدوء ليجبر الآخرين على الاستماع له. وبالفعل، يستمع معظم الحاضرين إلى ما يقوله لأنه رجل حكيم على الرغم من أنه في الثلاثينيات من عمره.

عرف العديد من سفراء الولايات المتحدة في دولة الإمارات العربية المتحدة

خصال الشيخ عبدالله الطيبة، كما أدرك هؤلاء السفراء أيضاً أن الشيخ عبدالله يمكن أن يكون ناقداً صارماً لسياسة بلدهم، على الرغم من أنه يُكنّ احتراماً كبيراً لعلاقة وطنه بالولايات المتحدة.

في عام 2002، دعاني الشيخ عبدالله – وكان آنذاك وزيراً للثقافة والإعلام– إلى المشاركة في اجتماع وزراء دول الخليج العربي. أصاب القلق هؤلاء الوزراء حيال تدهور صورة العرب والإسلام في الغرب، وسعوا إلى إيجاد سبل لتغيير هذه المفاهيم المغلوطة. طُلب مني أن أُوجز أمام الحضور ما يعرفه الأمريكيون وما يجهلونه عن المنطقة وما يمكن فعله لتحسين رأي العامة، كما قمت بوصف ما أعلمه بشأن الجهود الأمريكية للمشاركة في الدبلوماسية الخارجية في الوطن العربي.

نشأ عن ذلك نقاش بين الوزراء انتقدوا خلاله جهد الولايات المتحدة، وتحدثوا فيما بينهم عما يمكن –أو يجب– أن يفعلوه كعرب لتحسين صورتهم في الولايات المتحدة. وخلال النقاش، استمع الشيخ عبدالله بإمعان. وهكذا، تمكن من إدراك ما عجز زملاؤه عن إدراكه ويتلخص في أن الأمريكيين لم يفهموا العرب، كما لم يستطع العرب فهم الأمريكيين. لذلك، وعلى الرغم من النوايا الحسنة، لم تحقق جهود الطرفين – الأمريكيين والعرب على حد سواء– الهدف المنشود. وفي نهاية المطاف، تحدث الشيخ عبدالله بروية ودقة متناهية عن إخفاق الدبلوماسية الخارجية على الجانبين، فقال مخاطباً الوزراء الأمريكيين الذين شاركوا في الاجتماع: «أنتم تعلمون أننا، في نهاية المطاف، لن نتمكن مطلقاً من مساعدتكم لتفهمونا، نحن العرب، إلاّ إذا فهمناكم أولاً. لن تنجح جهودكم في التواصل معنا إلا إذا كرستم وقتاً كافياً للتعرف إلينا أولاً»[1]. آمل أن يسعى هذا الكتاب إلى تقليص الهوة بين هذين العالمين.

---

(1) James Zogby, Personal Notes from Meeting with Arab Gulf Ministers, November 13, 2001.

الجزء الأول

القدرة على الاستماع إلى المشاكل

الفصل الأول

الحادي عشر من سبتمبر: اليوم الذي لم يغير كل شيء

عندما خلد الأمريكيون للنوم ليلة العاشر من سبتمبر عام 2001، كان العالم العربي بالنسبة إليهم شديد النأي. وعلى الرغم من تنامي أهمية هذه المنطقة فإن معظمنا في الغرب لا يكاد يعيرها انتباهاً إلا عندما تنفجر أزمة سياسية أو يطرأ ارتفاع حاد في أسعار النفط، ثم يختفي العالم العربي بالنسبة إلينا لحظة انتهاء مثل تلك الأزمات. نحن لا نكاد نعي ماهية هذا العالم الذي تختفي حقيقته خلف الأساطير وجَهْلنا به.

في الحادي عشر من سبتمبر، قام تسعة عشر عربياً باختطاف أربع طائرات ضمن أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ونتج عن ذلك مقتل الآلاف. ولأيام عدة، شعر العرب بالصدمة، في حين وقف معظم العالم إلى جانب الأمريكيين الذين كانوا في فترة حداد على قتلاهم. وهكذا سُلّطت الأضواء على الشرق الأوسط الذي حاز في ذلك الوقت اهتمام الجميع بعد أن تجاهله العالم بأسره طويلاً. لكن، بينما سعينا جاهدين إلى معرفة الطرق المثلى لمنع مثل هذه المآسي في المستقبل وجدنا أن إبعاد العالم العربي الحقيقي عن المغالاة التي أغرقتنا عبر عناوين الصحف والبرامج الحوارية المحمومة والشائعات التي لاحقتنا في أماكن العمل المختلفة والسياسات والإيديولوجيات المغرضة هو، في واقع الأمر، المهمة الصعبة التي علينا إنجازها. إن الاستماع إلى الآخرين أمر بسيط بيد أنه ليس سهلاً.

في الحادي عشر من سبتمبر من عام 2002؛ الذكرى السنوية الأولى لأحد أكثر الأيام بؤساً في التاريخ الأمريكي، كنت جالساً وحدي في مسرحٍ في مركز روكفيلير (Rockefeller Center) في نيويورك. كان من بين الجمهور الذين جلسوا في مواجهتي ما يزيد على المائة شخص من أفراد عائلات الضحايا في

هجوم الحادي عشر من سبتمبر. وبسبب ما قدّمته من أعمال أكاديمية في مجال الدراسات الإسلامية والدور الذي ألعبه داخل المجتمع الإسلامي الأمريكي، دعاني الصحفي والمقدم التلفزيوني الشهير توم بروكاو (Tom Brokaw)، الذي يعمل لدى محطة إن. بي. سي (NBC) كي أكون ضيفه في حلقة خاصة ومباشرة لتغطية ذكرى الضحايا.

أدركتُ، بالطبع، أن هذا الحوار المتبادل سيكون مؤلماً وصعباً، وكنت آنذاك، ولعام كامل، على اتصال بالعديد من الناجين من حادث الحادي عشر من سبتمبر. كان لهؤلاء كل الحق في طرح أسئلة صعبة، وشعرت أنني مسؤول شخصياً عن تزويدهم بالإجابات، إن أمكن ذلك، لمساعدتهم في تجاوز محنتهم. لقد أمضيت العقود السابقة من حياتي وأنا أحاول أن أشاطر الأمريكيين الصورة الحقيقية للعرب، ولقد كان اللقاء السابق في مركز روكفيلير جزءاً مهماً من مهمتي تلك.

في بداية الحوار، سألني بعض أفراد الجمهور عن كيفية تبرير مثل هذا العمل العنيف. وعندها، أجبتُ مباشرة فقلت: «إنه عمل غير مبرر البتّة».

ومنذ تلك اللحظة، سار الحوار في الاتجاه الصحيح حين ركزّ الجميع على ضرورة فهمهم العرب والمسلمين. وبالإضافة إلى ذلك، أردت أن أوضح للحضور أن العديد من العرب الأمريكيين قضوا في ذلك الهجوم، وأننا نحن العرب حدَدَنا على موتانا، وأشرت كذلك إلى أن العديد من العرب الأمريكيين كانوا أول من حضر إلى غراوند زيرو[1] (Ground Zero) والبنتاغون، وأن العديد منهم يخدم كذلك في الجيش الأمريكي أو يعمل في الوكالات المختلفة المسؤولة عن تطبيق القانون وحفظ أمن الولايات المتحدة.

على أي حال، استمر اثنان من الحضور بطرح السؤال ذاته ألا وهو: لماذا لا يُدين العرب هذا الهجوم بدلاً من محاولة تبريره؟ وفي كل مرة، أوضحت – بمساعدة بروكاو الذي شاركني الرأي– أنني قمت بإدانة كل الأعمال الإرهابية،

(1) غراوند زيرو: البقعة التي ارتفع فوقها مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك، قبل تدميره في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001. (المترجم).

بلا كلل أو ملل، وأنني لن أتسامح مع أي شخص يحاول تبرير أعمال القتل الشنيعة تلك[1]. لكن التكرار لم يُجد نفعاً ولم أتمكن من إيصال الرسالة المنشودة لهذين الشخصين تحديداً. ولكن، يبدو أن معظم الحاضرين تفهموا موقفي، غير أن بعضهم شعر بألم وخوف شديدين فتوقفوا عن الاستماع لي.

وعلى الرغم من أنني تمنيت، ذلك اليوم في مركز روكفيلير، لو أنني تمكنت من التأثير على عقل كل فرد من أفراد الجمهور ومشاعره، فإنني احترمت الآثار التي خلفتها تلك الصدمة الشديدة. بالنسبة إلى الأمريكيين، فإن خسارتهم الشخصية (لأحبائهم) تحولت إلى كارثة وطنية، لكنني في الوقت ذاته أدركت أن رفض هؤلاء الأشخاص، الذين عانوا ألماً عاطفياً فظيعاً، التواصل مع الآخرين، هو أمر يمكن تفهمه، بيد أن رفض المعلقين على الأنباء والحوادث الاستماع إلى وجهة نظر الآخرين، هو في حد ذاته أمر آخر.

ذهبت لاحقاً -في اليوم ذاته- إلى غراوند زيرو. كانت قناة أبو ظبي التلفازية؛ القناة الفضائية العربية التي بثت برنامجي الحواري السياسي الأسبوعي، قد ابتاعت حقوق عرض برنامج أطلقنا عليه «جذور الحادي عشر من سبتمبر» وقد قام الصحفي الشهير توماس فريدمان (Thomas Friedman)، الذي يعمل لدى صحيفة نيويورك تايمز، بإنتاجه.

بعد بث فقرات خاصة بالحادث الأليم، انضم فريدمان إليّ من موقع مركز التجارة العالمي السابق لنبدأ حوارنا. انضم إلينا جمهور من الطلاب العرب في دولة الإمارات العربية المتحدة عبر الأقمار الصناعية. وتمكن الجمهور، لأكثر من ساعة، من الاستجابة لموضوع الحلقة التي شاهدوها للتوّ، وشرح ردود أفعالهم في حين كان فريدمان يستجيب لتعليقاتهم.

تحول الحوار المتبادل، الذي كان عميقاً وتميز بمراعاة مشاعر الآخرين، إلى نقاش شرس أحياناً. سرعان ما تحدث فريدمان بغرور مدّعياً أنه على الرغم من أن الأمريكيين يفهمون العرب، فإن معرفة العرب بالولايات المتحدة سطحية للغاية، فهي معرفة مشتقة من مشاهدة برامج تلفازية وأفلام غربية. وحتى يدعم

(1) NBC News Special Report: America Remembers, NBC, September 11, 2002.

وجهة نظره هذه، أشار فريدمان إلى أنه انضم إلى العديد من الفصول الدراسية التي تتحدث عن تاريخ الشرق الأوسط، في أثناء وجوده في الجامعة، وبعد ذلك عندما كان يتابع دراسته في جامعة أوكسفورد ليحصل على شهادة الماجستير في دراسات الشرق الأوسط. يبدو أن غرور فريدمان الذي بات واضحاً في كلماته قد صعق إحدى الشابات الذكيات اللواتي شكّلن جزءاً من الحضور، فاستجابت مباشرة وقالت: «ولكن اللغة الإنجليزية هي لغة المحادثة التي نجريها الآن»، وتلك حقيقة لم يدركها فريدمان الصحفي المعروف والشهير بمقالاته التي تناقش شؤون الشرق الأوسط والتي يقرأها عدد واسع من القراء[1].

بعد وقوع فاجعة الحادي عشر من سبتمبر، قيل لنا إن هذا اليوم قد غيّر كل شيء. لعلّ ذلك كان أمراً منطقياً، فلقد تمكن الإرهابيون من قتل آلاف الأبرياء من الأمريكيين، وكان تقبل ذلك أمراً صعباً للغاية في الوضع الراهن. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كانت قد ركزت جهودها نحو الشرق الأوسط عبر عدد هائل من الخبراء أصحاب المواهب الخاصة ومن خلال موارد عديدة، فإن عنصراً حاسماً واحداً لم يتغير ألا وهو أن حقيقة العالم العربي كانت لاتزال تحجبها الخرافات. ومن ثم، ساهم خليط من مشاعر الخوف والغرور والجهل والتحيز في جعل عملية الاستماع إلى العرب وفهم عالمهم هدفاً محيراً. وللأسف، كان هذا درباً قد خضته من قبل!

في العشرين من نيسان من عام 1995، وجدت نفسي خلال ساعات الصباح المبكرة، أجلس في مؤخرة سيارة تحركت جيئةً وذهاباً في شوارع ولاية واشنطن، وكانت الشوارع شبه فارغة. كنت مرهقاً للغاية بسبب مشاركتي في سلسلة متواصلة من المقابلات، وعلى الرغم من ذلك، توجهت للمشاركة في جلسة واحدة إضافية.

قبل أن أبدأ تلك الجلسة بست عشرة ساعة، قام ضابط سابق في الجيش الأمريكي، وهو تيموثي ماكفي(Timothy McVeigh) بإيقاف شاحنة من طراز رايدير (Ryder)، مليئة بالمتفجرات، خارج مبنى ألفريد ب.

(1) Viewpoint Special: The Roots of 9/11, Abu Dhabi TV, September 11, 2002.

مورا(AlfredP. Murrah) [1] البهيج وسط مدينة أوكلاهوما. وبعد بضع دقائق من هروب ماكفي سيراً على الأقدام، دمّر انفجار مدوٍ مقدمة المبنى وتسبب في مقتل مائة وثمانية وستين شخصاً، فيما اعتبر آنذاك أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

وسرعان ما كشفت وسائل الإعلام أن الانفجار وقع في اليوم الثاني للذكرى السنوية للغارة الأخيرة التي شنها عملاء فيدراليون على مجمع برانش ديفيديان (Branch Davidian)[2] في ويكو (Waco)، في ولاية تكساس. لقد أصابت وسائل الإعلام. في الواقع، قام ماكافي بتوقيت التفجير ليتزامن مع حدثين، أولهما، الحدث الذي وقع في ويكو، أما الحدث الثاني فكان الذكرى العشرين بعد المائتين لمعارك حرب الاستقلال الأمريكية التي وقعت في كل من مقاطعتي ليكسنغتون (Lexington)[3] وكونكورد (concord). لكن، سرعان ما منحت وسائل الإعلام المجال لإشاعات مغرضة ربطت العرب والمسلمين بالهجوم.

تكهن دافيد ماكيردي (David McCurdy) عضو الكونغرس الأسبق عن ولاية أوكلاهوما، على سبيل المثال، أن المسلمين أو جماعة أخرى من الشرق الأوسط قامت بارتكاب هذه الجريمة. في واقع الأمر، كان ماكيردي يردّد تعليقات صرّح بها ستيفن إميرسون (Stephen Emerson)[4]، وهو

(1) مبنى ألفريد مورا الفدرالي: كان مجمعاً تابعاً للحكومة الفدرالية للولايات المتحدة. تعرض المبنى للهجوم في عام 1995، وانهارت بقايا المبنى بعد شهر، وتم بناء تذكار مدينة أوكلاهوما الوطني في نفس الموقع الذي كان يحتله المبنى. (المترجم)

(2) قام رجال المباحث الفيدرالية (FBI) بمحاصرة المجمع الذي اعتصم فيه ديفيد كورش وأتباعه- يطلق عليهم الديفيديين وينسبون إلى داود الذي سيخرج من نسله ملك اليهود المنتظر- لمدة 51 يوماً. ادعى ديفيد كورش وهو يهودي أنه هو المسيح ذاته وأن عليه تنفيذ خطة الرب لإنهاء العالم. (المترجم)

(3) تشكل هذه المعارك جزءاً من حرب الاستقلال الأمريكي (1775-1783) وهي ثورة قامت في المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة الواقعة في أمريكا الشمالية، وكانت تابعة للإمبراطورية البريطانية في القرن الثامن عشر. (المترجم)

(4) Steven Emerson, interview by Anthony Mason, CBS Evening News, CBS, April 19, 1995.

خبير في شؤون الإرهاب اعتاد مهاجمة المسلمين، على قناة سي. بي. إس (CBS) التلفازية. أشار ماكيردي إلى وجود مجتمع شرق أوسطي ضخم وفعّال في أوكلاهوما عُرف عنه، على حدّ قوله، دعم القضايا الراديكالية[1]، لقد كان ماكيردي مخطئاً وسطحياً للغاية، فلم يوجد أي دليل يربط العرب الأمريكيين في أوكلاهوما بأي منظمة أو نشاط خارج حدود الولاية. وفضلاً عن ذلك، وإلى جانب أوجه التشابه السطحية التي ربطت هذا الحدث بحادث تفجير مركز التجارة العالمي في عام 1993– فقد كان عملاً غير متقن لكنه مهلك للأسف– لم يتوافر أي دليل ببساطة، من شأنه ربط منظمة القاعدة أو أي جماعة مسلمة أو عربية بتلك الجريمة.

أدرك ماكيردي، في نهاية المطاف– وكان قد شغل منصب مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية إبان ولاية كلينتون– أنه ابتعد كثيراً عن صُلب الموضوع. على أي حال، فبعد أن أشار إلى تورط العرب أو المسلمين، تمالك ماكيردي نفسه وحذّر من استباق الأحداث. ولكن، فات الأوان على ذلك، فلقد رأى الأمريكيون في ماكيردي خبيراً يؤيد، بل يصادق على تكهنات غيره من «الخبراء»، وتداول الأمريكيون الحكاية القائلة بأن العرب قد يكونون متورطين في الانفجار.

أما بالنسبة إلي، فلقد حاولت جعل التغطية الإعلامية المحمومة التي تلت حادث التفجير، أقرب ما يكون إلى أرض الواقع. قمت طوال اليوم بالدفاع عن العرب الأمريكيين عبر المذياع والتلفاز. في الثامنة مساءً، بُثّ برنامجي الحواري «رؤية رئيسة» (Capital View)– وهو البرنامج الذي يسبق مباشرة برنامجي الحالي المعروف «وجهة نظر» (Viewpoint)– على الهواء مباشرة. تلقينا مكالمات هاتفية من عرب من كل أنحاء أمريكا وقد أثار الهجوم الشنيع ومقتل العديدين، حنقهم. أصاب القلق الكثير منهم بشأن النتائج الحتمية التي ستنبثق عن التلميحات المتعلقة بربط العرب الأمريكيين بتلك الجريمة البشعة.

تلقينا كذلك مكالمات من عدد من العرب المقيمين داخل أمريكا الذين

(1) David McCurdy, interview by Natalie Allen, CNN, April 19, 1995.

بدأوا يعيشون ردود أفعال عنيفة من داخل المجتمع الأمريكي. أما المكالمات التي تلقيناها من العرب المقيمين في أوكلاهوما فكانت، إلى حد بعيد، الأكثر حدة وإثارة للعاطفة. كانت ردود أفعال هؤلاء، في المقام الأول، تعبر عن مشاعرهم كمواطنين ينتمون إلى أوكلاهوما إذ شعروا بالألم العميق تجاه جيرانهم وأصدقائهم الذين أصيبوا أو قتلوا في ذلك الهجوم البشع. قالت إحداهن، وقد خابرتنا على الهواء مباشرة ، بنبرة مليئة بالفخر والاعتزاز: «لقد كانت أوكلاهوما، دوماً وأبداً، وطناً لنا»[1]. لكن، سرعان ما هاتفتنا إحدى العائلات القاطنة في أوكلاهوما وقد أصابها الذعر بسبب تجمع عصابة غاضبة أمام منزلها.

أخيراً، في الصباح الباكر في ذلك اليوم من شهر نيسان، كان لا بدّ أن أتوقف عند محطة أخرى لأمنح نفسي فرصة أخيرة للاحتكام للمنطق والهدوء. توجهت إلى أستوديو قناة سي. إن. إن (CNN) في العاصمة واشنطن، الذي يقبع داخل متاهة من الخرسانة في مبنى شاهق تكثر فيه المكاتب، ويرتفع بجوار محطة الاتحاد (Union Station)، التي تشكل محور شبكة قطارات الأنفاق في العاصمة. أما هذه البقعة فهي غير جذابة مطلقاً خلال النهار، وفي الليل تتحول إلى مكان موحش يُنذر بالشر. غير أني توجهت إليها من جديد، كما فعلت مراراً وتكراراً، لأقول أمرين: أولاً: على غرار جميع المواطنين الأمريكيين، أدان العرب والمسلمون القاطنون على أرض الولايات المتحدة التفجير الذي وقع في مدينة أوكلاهوما. ثانياً: على وسائل الإعلام المختلفة، وأعضاء الكونغرس ومديري وكالة الاستخبارات الأمريكية الذين سيشغلون هذا المنصب في القريب العاجل، أن يتحملوا مسؤولية تصريحاتهم العرضية. إن هذين الأمرين واضحان للغاية بالنسبة إلى أي شخص يكرس بعض وقته للاستماع لما يقوله الآخرون.

كان صباح يوم الثلاثاء، الموافق الحادي عشر من سبتمبر بالنسبة إلى ملايين

(1) Anonymous Caller, Interview by James Zogby A Capital View, Arab Network of America, April 19, 1995.

الأمريكيين مجرد صباح اعتيادي، كنت حينها عالقاً في زحمة المرور وسط المدينة في واشنطن العاصمة. عندما توقفت عند إشارة المرور، فإذا بامرأة تقود سيارتها بجانبي وتشير نحوي. أخفضت زجاج نافذة سيارتي، وعندها صرخت قائلة: «هل علمت بما جرى؟» فأجبتها: «لا! ماذا حدث؟» كنت أحاول في الوقت ذاته ضبط مذياع السيارة. صرخت المرأة من جديد فقالت: «لقد اصطدمت طائرة للتو بمركز التجارة العالمي! أبي يعمل هناك». وعندما أنار ضوء الإشارة المرورية الأخضر، انطلقت المرأة مسرعة. لم أرَ وجه تلك المرأة بعد ذلك، لكنني لن أنسى أبداً نظرة الرعب التي علت وجهها.

عندما وصلت إلى مكتبي، كان الجميع يشاهدون التلفاز في حين قامت الطائرة الثانية بتنفيذ ضربة جديدة. ذُهلت، وعجزت عن الحراك، وكذلك زملائي، عندما رأينا الطائرتين تقتحمان جدران مركز التجارة العالمي وأشخاصاً يقفزون من أعلى المبنيين. وأخيراً انهار البرجان ليتحولا إلى كومة من الحطام ويختفيا إلى الأبد. في تلك اللحظة، أصبح الكابوس فردياً وخاصاً جداً. كانت ابنتي تعمل بجوار مبنى البنتاغون؛ الهدف الثالث. سرعان ما خابرتني وكانت مذعورة وقلقة للغاية لأن البيت الأبيض كان الهدف الثالث المحتمل حيث يقع مكتبي على بُعد ثلاثة مبانٍ فقط.

حضر رجال الأمن لإخلاء المبنى قرب الظهيرة، لكننا رفضنا مغادرة موقعنا لأن حجم العمل الذي علينا القيام به هائل جداً. وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يجهلون، حتى اللحظة، هوية المختطفين الذين اقترفوا هذا العمل، أشارت التكهنات السائدة بأصابع الاتهام نحو العرب.

بدأ المسؤولون في المجتمعات العربية الأمريكية، في الوقت ذاته، بمخابرتنا طالبين منا النصح والدعم؛ أرادوا أن نرشدهم بخصوص كيفية الاستجابة للاستفسارات الحتمية لوسائل الإعلام.

استنتجنا من المخابرات الهاتفية والرسائل الإلكترونية المبكرة وجود إشارات تؤكد تشكل ردود فعل عنيفة. قامت الشرطة خلال تلك الفترة

بحراسة مكاتبنا بسبب التدفق السريع لطوفان من الرسائل البريدية المليئة بالحقد والكراهية والتهديدات بالقتل. كانت بعض تلك الرسائل شخصية للغاية مثل تلك التي خاطبني مرسلها قائلاً: «جيم، يا رأس المنشفة[1]! الموت لكل عربي. سنقتلع حنجرتك ونقتل أطفالك»[2]. أما الرسائل البريدية الأخرى فكانت عامة. في الثاني عشر من تشرين الأول لعام 2001، طلبت مني ماري بيري (Mary Berry)، رئيسة الوكالة الأمريكية للحقوق المدنية (USCCR) أن أقدم إفادة تتعلق بالمدى الذي وصل إليه العنف المرتبط بالكراهية، والذي نشأ في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. دعّمتُ شهادتي بلائحة مفصلة احتوت على مئات الوثائق الخاصة بالجرائم العرقية التي ارتُكِبت ضد العرب الأمريكيين والمسلمين وكل من كان يُعتقد أنه عربي أو مسلم. لاحظتُ حينها أن سبع جرائم من هذا النوع قد وقعت بالفعل، وأن عدداً كبيراً من أعمال العنف والتهديد بارتكاب مثل تلك الأعمال قد جرى[3].

كانت ردود الفعل العنيفة تلك مزعجة بُعمق، ومخيفة بالنسبة إلى العرب الأمريكيين. نحن العرب أيضاً شعرنا بمرارة الألم الناجم عن الأعمال المرعبة التي ابتُليت بها بلادنا، ونحن كذلك شعرنا بالحاجة إلى أن نحزن ونقيم العزاء. لكننا أُبعِدْنا ،رغماً عنّا، عن مشاعرنا تلك وأُجبرنا على تجاهلها حتى نتمكن من مواجهة أولئك الذين هاجمونا بمشاعر الحقد والكراهية، التي عبّروا عنها عندما قالوا لنا: «أنتم لستم جزءاً من هذا الوطن!» لقد أحدثت هذه العبارات جرحاً عميقاً!

سرعان ما عذّبتني فكرة أخرى. كنت غاضباً بالطبع حيال التهديدات

(1) يعدّ هذا الوصف (Towel Head) جزءاً من الشتائم العنصرية التي أطلقها الغرب على المسلمين وبخاصة طالبان الذين يعتمرون العمائم، ومنها كذلك Rag–head و diaper–head. (المترجم)

(2) Thanassis Cambanis, «Threat to Arab-American Admitted,» Boston Globe, June 7, 2002, BI; United States Department of Justice, «Zachary J. Rolnik Pleads Guilty to Federal Hate Crime Violations Against Dr. James J. Zogby,» news release, June 6, 2002.

(3) U.S. Commission on Civil Rights, Briefing on Boundaries of Justice: Immigration Policies Post-September 11, Washington, DC, October 12, 2001.

والتحيز ضد العرب والمسلمين. لكنني كنت غاضباً كذلك بسبب الإرهابيين الذين اخترقوا الانفتاح والحرية اللذين يميزان بلادي. لقد قتلوا آلاف المواطنين من أبناء بلدي، وبفعلتهم هذه ألحقوا الضرر الجسيم بملايين العرب والمسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الأمريكية.

في كل يوم بعد وقوع الهجوم على مركز التجارة العالمي، وبينما كنت أقرأ ما يستجد من تقارير تفصّل أنشطة الخاطفين، التي انتهت بحادث الحادي عشر من سبتمبر، شعرت بالصدمة إزاء هؤلاء الخاطفين الأشرار الذين تسلحوا بنوايا خبيثة فكانوا قادرين على استغلال فرص الحياة التي وفرها لهم المجتمع الأمريكي، واستغلال النوايا الطيبة البريئة للعديد من الأمريكيين. لقد تمكن هؤلاء الخاطفون من الحصول على بيوت تؤويهم ومدارس لتدريبهم، وتنقلوا كيفما شاؤوا دون مساءلة في حين كانوا، طوال هذه الوقت، يخططون لمهمتهم المدمرة.

تساءلت كثيراً كيف لم يتأثر هؤلاء الخاطفون الذين أضمروا الشر للآخرين، في حين كانوا يخططون لقتل الآلاف، من تجاهل الخير الذي شهدوه وأحسوه حولهم في المجتمع الأمريكي. تكمن الإجابة، حقيقةً، في المنطق المغلوط الفاسد الذي يتسلح به كل من عجز عن الاستماع إلى الآخرين. نجد أموراً أساسية تتعلق بمفهوم الإرهاب مثل التجريد المتعمد للأشياء من معانيها الصحيحة، وإنكار إنسانية الضحايا، والرفض المتبلد وعديم الحس لفهم الآخر؛ إن عقل الإرهابي مبني على إنكار فعلي للواقع.

دعت المنظمات العربية الأمريكية البارزة، التي أقلقها تنامي ردود الفعل العنيفة تجاه العرب والمسلمين، إدارة الرئيس بوش إلى شجب هذا التعصب الأعمى علناً. ناشدنا وسائل الإعلام المحلية أيضاً، وعبر شبكة محطتنا المحلية، كما ناشدنا عامة الشعب الأمريكي. وقد أثمرت جهودنا تلك حين قام مجلس الإعلان الأمريكي بتمويل إعلان أنتجته منظمتنا، يدعو إلى فهم أكبر لواقع العرب والمسلمين الذين يعيشون على أرض الولايات المتحدة الأمريكية. ظهر

الإعلان في عدد كبير من الصحف التي وُزعت على ما يزيد على العشرة آلاف مجتمع أمريكي، وفي نهاية المطاف، تحول إلى إعلان متلفز تبنته شبكة محطات ستارز إنكور (Stars–Encore)، وقد شاهده أربعة وستون مليون متفرج انتشروا في كل أنحاء أمريكا.

كانت الاستجابة سريعة ومرضية للغاية. ولذلك، قمتُ خلال الأسابيع التي تلت الهجوم على مركز التجارة العالمي بالمشاركة يومياً، وبشكل متكرر، على شاشة التلفاز، عبر المحطات المرئية الرئيسة في البلاد. وأعددت كذلك برامج إذاعية ومقابلات مع عشرات الصحف، ثم سرعان ما قام قسم الحقوق المدنية في وزارة العدل (DOJ) باستدعائنا للمشاركة في اجتماع عاجل، فطالبناهم بإصدار تصريح يُدين الجرائم العنصرية ضد الأمريكيين من العرب والمسلمين.

وطالبنا كذلك بوضع آلية لملاحقة كل من يرتكب مثل هذه الجرائم ضد مجتمعنا. بدأ مكتب المباحث الفيدرالي (FBI) بالتحقيق في اختراقات محتملة للحقوق المدنية، بنيّة اتخاذ إجراءات سريعة لمقاضاة المتورطين، كي يكون المكتب مثالاً يحتذى به في تنفيذ القانون.

بعد مرور يومين على الهجوم، تلقيت مكالمات شخصية ورسائل من قادة ينتمون إلى أطياف سياسية متباينة مثل السيناتور تيد كينيدي (Ted Kennedy) والسيناتور جون ماكين (John McCain) والسيناتور جو ليبيرمان (Joe Lieberman) وعضو الكونغرس الأسبق جاك كيمب (Jack Kemp). عرض جميعهم الدعم لنا، والاستعداد للدفاع عن حقوق العرب والمسلمين الأمريكيين. وخلال أسبوعين، تغيرت نبرة الرسائل البريدية التي كنا نتلقاها، فمعظمها تعبّر الآن عن دعم أصحابها لنا ومعارضتهم للتمييز العنصري، أو تستفسر عن معلومات تتعلق بالعرب الأمريكيين وتاريخ العرب والإسلام. بعد مرور شهر انخفضت الأعمال المعادية للعرب، وتقلصت مشاعر الكره بشكل ملحوظ للغاية. ولعلّ هذه كانت الأخبار السارة الوحيدة التي نتجت إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر. إنّ كرم الأمريكيين الغامر وقدرتهم على

تفهّم الواقع حتى في أشد المواقف صعوبة وتوتراً أمران يبعثان على البهجة.

تابع الأمريكيون العديد من الأحداث العصيبة والمرهقة عاطفياً وذهنياً، عن بُعد، إبان عصر الإعلام. بيد أن واقعة الحادي عشر من سبتمبر كانت أمراً مغايراً، فخلال هذا الهجوم المؤلم على مركز التجارة العالمي، لم يتألم الأمريكيون لرؤية الضحايا فقط، بل عانوا مثلهم تماماً. ولأن السلاح المستخدم هو، في الواقع، مجرد طائرة مدنية عادية، ولكون مشهد الموت وقع في مكان عمل، ولكون المباني التي تعرضت للهجوم – مركز التجارة العالمي ومبنى البنتاغون– تمثل أيقونات مهمة، ولأن عدد الإصابات كان هائلاً، فإن كل واحد منا شهد الحدث وراقب تطوره عبر شاشات التلفاز، قد تأثر حتى النخاع. قال كل واحد منا للآخر: كان من الممكن أن نكون من ضمن الضحايا. وكان الأمر كذلك نوعاً ما، فلقد قتل في ذلك الحادث أشخاص من جنسيات متعددة وأعراق وديانات متباينة. وبينما استمعنا إلى روايات من نجوا، استطاع كل واحد منا أن يشعر بالرعب والخسارة الفادحة والخوف الذي شعر به هؤلاء. لقد شعرت هذه الأمة بأكملها بحزن عميق لا عزاء له.

.بمرور الوقت، ووسط مشاعر الغضب والخوف والارتباك، برز اهتمام صادق بذلك الجزء من العالم الذي جاء منه المختطفون التسعة عشر. بينما تمكن الأمريكيون من ترميم الحطام الذي أصاب أعماقهم، توافرت فرصة جيدة يمكن لهذه المأساة من خلالها أن تؤدي بالفعل إلى فهم حقيقي. على أي حال، بدا واضحاً أن الإرهابيين ومموليهم لم يرغبوا في تحقيق ذلك، فقد أرادوا أن يعلم العالم أن باستطاعتهم جعل الغرب ينزف، لذلك رحبّوا بأي حوار يدور حول حرب دينية الطابع أو حول صراع الحضارات. لكن، وعلى الرغم من ذلك، كانت فرصة تحقيق فهم متبادل بين الحضارتين الغربية والعربية متوافرة بالمثل.

الفصل الثاني

قدرة المشرق على الاستماع إلى الآخر

ذهبت إلى الشرق الأوسط، أول مرة، في عام 1971، وحصلت على أول درس لي في الراهن العربي على أرض الواقع. بعد أن زرت بيروت ومنزل عائلتي الذي يقبع صامداً فوق الجبال، توجهت إلى مخيم عين الحلوة (Ein al Hilweh)، وهو مخيم اللاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان، ولما كنت قد قررت أن أبدأ بحثي الخاص بأطروحة الدكتوراه، توقعت اعتماداً على المفاهيم التي كبرت وأنا أؤمن بها، أن أجد مدينة ضخمة تتكون من عدد هائل من الخيام، يسكنها أشخاص مشردون سحقتهم الحياة القاسية. عندما وصلت إلى المخيم لم أجد بقعة كئيبة كما توقعت ولكنني وجدت مكاناً نابضاً بالحياة والنشاط. كان المكان يعج بالحركة في كل شبر؛ أشخاص يتحركون ومركبات مختلفة وحمير تجر عربات. أصابتني الدهشة عندما لم أجد خياماً بل عائلات تعيش داخل أبنية إسمنتية مكتظة للغاية تتكون من طابقين أو ثلاثة. كان الفقر واضحاً ولكن، على الرغم من ذلك، لم أجد أُناساً ينتحبون وقد تدثروا بأغطية مهلهلة تقيهم من البرد، بل استطاع سكان مخيم عين الحلوة أن يؤسسوا لأنفسهم حياة عاشوها على أكمل وجه.

لا يقع مخيم عين الحلوة بالقرب من أرض خصبة ولذلك عجّ المكان بالغبار، غير أن اللاجئين حاولوا خلق منظر طبيعي من خلال زراعة العنب في براميل الزيت وبعض النباتات الصغيرة التي استنبتوها في علب القهوة ووضعوها على عتبات النوافذ. أدهشني كذلك أن بعضهم سمح لي بدخول منزله الذي بدا تقريباً مثل منزل والدي في القرية الجبلية. جلسنا لنحتسي القهوة في فناء الدار، تحت عريشة كرمة العنب. كانت الكراسي بالية قليلاً والهواء مغبرّاً، ولكن هؤلاء الفلسطينيين تمكنوا من تدبّر أمرهم بما توافر لهم من موارد محدودة، فلقد

نقلوا أسلوب حياتهم الذي اعتادوا عليه، إلى هذا المخيم.

إن كلمة «الصمود» التي ردّدها كل قاطن في ذلك المخيم تصف حال هؤلاء على أكمل وجه. إنهم صامدون متمسكون بذكريات الوطن وحياتهم السابقة. في يوم من الأيام وخلال زيارتي للمخيم، التقيت عجوزاً كانت - وكما هو شائع عند جميع الفلسطينيين - تلف خيطاً حول رقبتها، وضعت فيه مفتاح بيتها القديم في فلسطين، الذي سلبه المستوطنون الإسرائيليون.

سألتني: «هل ترغب في رؤية منزلي؟» وعندما أجبت بالموافقة، أخرجت صورة قديمة مهترئة لمنزلها. إن تصرف هذه المرأة، يكشف بالتأكيد عن شعور بالضياع، لكنّ حنينها إلى الوطن واشتياقها لحياتها الماضية تجاوزا إلى حدّ بعيد، وعلى نحو رائع لافت للنظر، كل مشاعر المرارة والأسى.

بالإضافة إلى ما شهدته من قدرة روح الإنسان على التغلب على الظروف المروعة، وذلك أمر مدهش، تعلّمتُ أهمية الاستماع إلى الآخرين، ورحلت وقد حملت معي قصص الحياة الشخصية لعشرات الفلسطينيين الذين التقيتهم في عين الحلوة. عندما كنت على وشك الرحيل سألتني جدة صديقي، التي كانت أشبه بدليل لي في رحلتي هذه، قائلة: «الآن وبعد أن استمعت إلى حكاياتنا، ماذا أنت فاعل بها؟» علمتني نبرة التحدي التي كانت واضحة في سؤالها درساً مهماً غيّر نظرتي للحياة، ألا وهو أنك عندما تستمع للآخرين وتتعلم الكثير منهم، فإنك تتحمل مسؤولية التصرف الصحيح.

تعرّفت للمرة الأولى إلى تقرير لجنة كينغ- كراين[1] King - Crane Report خلال تحضيري لأطروحة الدكتوراه. يعدّ هذا التقرير أول استطلاع معاصر لرأي العرب، ومنذ ذلك الحين -ولسنوات عدّة- أصبح هذا التقرير دليلي الحقيقي.

---

(1) تقرير لجنة كينغ-كراين: تقرير وضعته لجنة تحقيق عينها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون، عام 1919، للوقوف على آراء أبناء سورية وفلسطين في مستقبل بلادهم. واختير هنري كينغ وتشارلز كراين كرئيسين للجنة. وانتهى تقرير اللجنة إلى أن الكثرة المطلقة من العرب تطالب بدولة سورية مستقلة وترفض فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. (المترجم)

التقت قوات الحلفاء المنتصرة في باريس في عام 1919، بعد العنف المروع الذي أحدثته الحرب العالمية الأولى والذي ترك آثاره المؤلمة على عقول البشرية، وذلك لتعيد رسم خريطة العالم. كان كل من رؤساء وزراء إيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى، بالإضافة إلى وودرو ويلسون (Woodrow Wilson) - رئيس الولايات المتحدة آنذاك- الذين عُرفوا جميعاً بالقوى العظمى الأربع (Big Four)، وكانوا العناصر الحاسمة في ذلك الاجتماع. وبقيادة هذه العناصر، تم تقسيم القوى الرئيسة المهزومة. فعلى سبيل المثال، قُسمت الإمبراطورية النمساوية- الهنغارية إلى دول أوروبية صغيرة. وفقدت ألمانيا أحد أقاليمها وعوقبت بمعاهدة سلام باهظة الثمن كانت بمثابة عقاب شديد لها. كما وزعت الأمم المنتصرة قطع أراض صغيرة، بعضها على بعض. ازدهرت فرنسا على حساب ألمانيا، وزحفت حدود إيطاليا شمالاً باتجاه الإمبراطورية النمساوية- الهنغارية السابقة.

إلى جانب تلك القوى العظمى التي استغلت امتيازات النصر الذي حققته، تميز الاجتماع، بشكل عام، بنزاعات حول أقاليم مختلفة، أثارتها المصالح الشخصية لقادة عشرات الأمم وجماعات دولية متباينة. فعلى سبيل المثال، حاولت النمسا (وأخفقت كذلك في) أن تمدّ حدود أقاليمها شمالاً حتى تصل إلى خط الاستواء، حتى إن أكثر دول الحلفاء عزلة ألا وهي نيوزيلندا، تمكنت من بسط حدودها عبر حصولها على جزيرة وسط المحيط الهادئ كانت تُعرف سابقاً بجزيرة ساموا الألمانية (German Samoa)[1]. ومن ثمّ، وخلال هذا السياق لجداول الأعمال التي تخدم المصالح الشخصية الأنانية، تقرر مصير الأراضي العربية التي كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية المهزومة.

تمكن الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى من التغلب على العثمانيين عبر مساعدة العرب المحليين الذين ثاروا على حكم الأتراك. كان الأمير فيصل

(1) ساموا الألمانية أو ساموا الغربية التي أصبحت مستعمرة ألمانية في عام 1914 ثم احتلتها نيوزلندا عندما بدأت الحرب العالمية. في عام 1920 أديرت الجزيرة من قِبل نيوزلندا تحت انتداب عصبة الأمم، وفي الأول من كانون الثاني، عام 1962، أصبحت ساموا الغربية دولة ذات سيادة مستقلة. (المترجم)

(Emir Fiasal)– ابن الشريف حسين؛ شريف مكة– من بين الرعايا السابقين للإمبراطورية العثمانية. وصل الأمير فيصل لحضور مؤتمر باريس – برفقة وفد اشتمل على توماس إدوارد لورنس (T.E. Laurence)[1] – ليحصل على ضمانات من الحكومة البريطانية لاحترام العهود التي قطعتها على نفسها أمام والده شريف مكة، وأهمها استقلال جميع الأراضي العربية التي تحررت من سلطة العثمانيين بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

شارك في مؤتمر باريس كذلك، حاييم وايزمان (Weizmann)؛ أحد قادة الحركة الصهيونية البريطانية، الذي سرعان ما عُيّن رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية وأصبح، في نهاية المطاف، أول رئيس لدولة إسرائيل. وفي باريس، ناقش وايزمان مشروع تأسيس وطن يهودي على أرض فلسطين العربية. تلا وايزمان، خلال شرحه لمشروعه، نص وعد بلفور بأكمله الذي يتضمن وعد وزير الخارجية البريطاني؛ اللورد آرثر جيمس بلفور، في عام 1917 للحركة الصهيونية بمساندة الحكومة البريطانية لهم في تأسيس وطن لليهود في فلسطين[2].

لقد أدت هذه المتاهة المحيّرة من المعاهدات والاتفاقيات إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. لذلك، ولمنع وقوع كارثة أخرى، اقترح وودرو ويلسون في عام 1919 تأسيس ما عُرف حينها بعُصبة الأمم (League of Nations)، وهي كتلة هدفت إلى إخراج الدبلوماسية من ظلمة المؤتمرات إلى وضح النهار، وإجبارها على الانصياع إلى سلطة القانون. آمن ويلسون بأن منع نمو المتاهات السياسية المعقدة وإعاقة إنشاء التحالفات المتناقضة، بالإضافة إلى تعزيز الديمقراطية والسيادة والحرية وحق تقرير المصير، يمكن أن تخلق بيئة تنعم بسلام دائم.

جعلت مثالية مبادئ عصبة الأمم من ويلسون صاحب أكثر المبادئ سموا داخل القوى العظمى الأربع. أما بالنسبة إلى طموح الأمريكيين في عام 1919

(1) توماس إدوارد لورنس (1988–1935): ضابط بريطاني اشتهر بدوره في مساعدة القوات العربية خلال الثورة العربية عام 1916 ضد الإمبراطورية العثمانية عن طريق انخراطه في حياة العرب الثوار، وعُرف وقتها بلورنس العرب. (المترجم)

(2) Times (London), «Palestine for the Jews,» November 2, 1917.

فكان محدوداً، بالدرجة الأولى، بأمريكا اللاتينية. لم يُبدِ الأمريكيون سوى اهتمام بسيط بقضايا العالم القديم (Old World) الشائكة. ولذلك، لم يحضر ويلسون إلى باريس وبرفقته جدول أعمال يسعى إلى نشر حدود الولايات المتحدة أو الأقاليم الواقعة تحت سيطرتها، بل تسلّح ويلسون بفكرة مفادها أن السلام الدائم يمكن تحقيقه، وأن إرساء أسسه المتينة هو أفضل ما يمكن أن ينبثق عن هذا المؤتمر من نتائج.

عندما طُرح السؤال المتعلق بكيفية تقسيم الأراضي التي كانت في السابق تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية قدّم ويلسون اقتراحاً ينسجم مع مبادئه المثالية المتعلقة بحق تقرير المصير وينص على استشارة الشعوب التي تعيش على هذه الأراضي. كانت هذه الفكرة غريبة للغاية بالنسبة إلى كل من فرنسا وبريطانيا اللتين كانت أهدافهما الإمبريالية واضحة للعيان، وبالتأكيد فإن هذه الفكرة كانت في غير موضعها بالنسبة إلى أهداف مؤتمر باريس، فقد كان شعار المؤتمر غير الرسمي أو غير المعلن: «الغنائم من نصيب المنتصر». لم يتأثر ويلسون باعتقاد بعضهم أن مقترحاته راديكالية الطابع ولم يثبط ذلك من عزيمته، بل على النقيض، أعلن ويلسون أن على العرب الذين نالوا حريتهم حديثاً أن يقرروا مصيرهم بأنفسم وأن أي تسوية تخص «أي إقليم [أو] سيادة ما [لا بدّ أن تقرر] على أساس قبول الشعوب المعنية مباشرة لها، وبحرية مطلقة»[1]. ومن هنا، فوض ويلسون لجنة لاستطلاع آراء العرب.

وصلت لجنة أمريكية، في حزيران من عام 1919، إلى مدينة يافا الساحلية المطلة على البحر المتوسط، برئاسة كل من الدكتور هنري كينغ (Henry King)؛ عميد كلية أوبرلين (Oberlin College)، ورجل الأعمال والدبلوماسي المعروف شارلز كراين (Charles Crane) للبدء في أول استطلاع لآراء المواطنين العرب. تجولت اللجنة عبر ما كان يعرف آنذاك ببلاد الشام التي اشتملت على لبنان، وسوريا، والأردن، وفلسطين. زار أعضاء اللجنة عشرات

(1) Woodrow Wilson, Address to the Diplomatic Corps» (speech, Mt. Vernon, Washington, DC. July 4, 1918).

المدن وقابلوا مُمثلي أربعمائة واثنتين وأربعين منظمة (مائة وثلاث وخمسين جمعية، واحد وأربعين مؤسسة اقتصادية واجتماعية، مائتين وثمان وأربعين جماعة دينية)، وتلقوا ما يقارب الألفي عريضة. حاولت اللجنة، عند كل محطة توقفت عندها التحقق من رغبة السكان المحليين فيما يتعلق بمستقبلهم السياسي؛ أي رغبتهم في الاستقلال أو أن يخضعوا لانتداب سلطة أجنبية. استطلعت اللجنة بالإضافة إلى ذلك رأي السكان بخصوص الخطط البريطانية والفرنسية الرامية إلى تقسيم إقليمهم. واشتمل الاستطلاع كذلك استفتاء السكان المحليين حيال النوايا البريطانية الساعية إلى دعم الأهداف الصهيونية لإنشاء وطن لليهود على أرض فلسطين. وصل تعداد الكثافة السكانية، آنذاك، داخل الإقليم المعني إلى ثلاثة ملايين ومائتين وسبعة وأربعين ألفاً وخمسمائة شخص (3،247،500)، شكل المسلمون مليونين وثلاثمائة وخمسة وستين ألفاً، في حين وصل تعداد المسيحيين إلى خمسمائة وسبعة وثمانين ألفاً وخمسمائة وستين شخصاً (567،560)، في حين شكل الدروز مائة وأربعين ألفاً، أما اليهود فلم يتجاوزوا المائة وعشرة آلاف شخص.

أشارت النتائج إلى وجهات نظر متشددة نحو قضايا معينة. فعلى سبيل المثال، أوضح تقرير اللجنة أن «سكان فلسطين، من غير اليهود –وهم يشكلون تسعة أعشار السكان أجمع– عارضوا بصرامة المشروع الصهيوني بأكمله... لم يُجمع السكان في فلسطين بحزم واضح على بنود أخرى وردت في الاستفتاء، مثل إجماعهم على هذا الرفض». وشارك العرب في الشرق الأوسط كله، الفلسطينيين هذا المسار: «لم ينل مطلب نسبة أكثر من هذه النسبة سوى مطلب الوحدة السورية والاستقلال» (انظر جدول 2–1)[1].

أصدر تقرير كينغ – كراين سلسلة من المقترحات بناءً على استجابة السكان

(1) The King-Crane Commission Report-Report of the American Section of Inter-allied Commission of Mandates in Turkey, August 28, 1919, http://www.ipcri.org/ files/ kingcrane.html. First printed as «King-Crane Report on the Near East,» Editor e Publisher 55, no. 27 (1922), 2d.

المحليين للاستفتاء. أما فيما يتعلق بكيفية إدارة الأراضي التي وقعت سابقاً تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية، فقد اقترح كل من كينغ وكراين الإبقاء على الوحدة السورية وتولية أمر قيادتها للأمير فيصل. أوصى التقرير وضع بلاد الشام تحت سلطة انتداب أمريكي موقت، يخضع لقوانين عالمية معينة. بُنيت هذه التوصية على حقيقة أن ستين بالمائة من العينة التي استطلعها كل من كينغ وكراين، فضلوا الدور الأمريكي خلال الفترة الانتقالية، على النقيض من أربع عشرة بالمائة ممن دعموا التدخل الفرنسي وثلاثة بالمائة فقط ممن أيدوا التدخل البريطاني. أما فيما يتعلق بالمشروع الصهيوني، الذي ادعى كينغ وكراين أنهما تعاطفا معه في بادئ الأمر، فأوصى التقرير العمل فيه بالتدريج، وبعبارة أخرى يجب تحديد الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين. بالإضافة الى ذلك، رأت اللجنة أنه من غير المستحسن إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين.

جدول 2-1: النسبة المئوية التي استُنتجت من العرائض المقدمة إلى لجنة كينغ - كراين والمؤيدة لمواقف متباينة تجاه «المشروع الصهيوني».

القضية المعنية	فلسطين	بلاد الشام *
المؤيدون للمشروع الصهيوني بإقامة دولة يهودية والسماح بهجرة لامحدودة إلى فلسطين	2,7	0,6
المؤيدون لبرنامج صهيوني معدّل	3,0	0,4
المعارضون للبرنامج الصهيوني	85,3	72,3
المؤيدون للوحدة السورية	—	80,4

* اعتمدت نتائج كينغ- كراين على عدد من العرائض وصلت إلى ألف وثمانمائة وثلاث وستين عريضة، تلقتها اللجنة من محافظين ومجالس البلديات وجمعيات ومجتمعات دينية مختلفة (مسلمين، ومسيحيين، ويهوداً)، واتحادات مهنية وتجارية وغرف تجارة ومنظمات شبابية.

شغلت توصيات التقرير الخاصة بقضايا معينة صفحات عدة، ولعل الأمر اللافت للنظر حقاً، الفكرة الرئيسة العامة التي تتلخص في أن رأي السكان المحليين - وأغلبهم من العرب- هو أمر مهم جداً. وافق كل من كينغ وكراين، كما أقرّ ويلسون من قبل، أن فرض سياسة معينة ضد إرادة هذه الشعوب سيُولّد مقاومة هائلة. على أي حال، لم تُثن هذه التوصيات أيّاً من بريطانيا أو فرنسا - أقدم شريكين في لعبة الاستعمار- عن عزمهما.

من ناحيته، رفض لورد بلفور (Lord Balfour) وبشدة منهج ويلسون، وأعلن قائلاً: «نحن لا ننوي مطلقاً استشارة السكان الحاليين في فلسطين، على الرغم من أن اللجنة الأمريكية فعلت... إن للصهيونية، سواء أكانت صائبة أم مخطئة، خيرة أم شريرة، جذوراً متأصلة في عُرف عتيق وفي الاحتياجات الحالية والآمال المستقبلية. إن أهداف الصهيونية تعد أكثر أهمية من رغبات سبعمائة ألف عربي يسكنون هذه الأرض العريقة، ومن مشاعرهم العنصرية»[1].

في نهاية المطاف، حقق لورد بلفور مراده، فبدلاً من أن تضمن كل من فرنسا وبريطانيا العظمى استقلال الدول العربية، قامتا بتمزيق المشرق العربي. فرضت فرنسا سلطتها على الدول التي أنشأتها من خلال تقسيم بلاد الشام، ونعني بذلك لبنان وسوريا. أما بريطانيا ففرضت نفوذها على إمارة شرق الأردن والعراق وفلسطين (اتُفِق أن تصبح الأخيرة «وطناً لليهود»).

توّج المؤتمر السوري العام، الأمير فيصل، في آذار من عام 1920، ملكاً على بلاد الشام (أو ما كان يُعرف بسورية الكبرى (Greater Syria)) ولكن سرعان ما عزله الفرنسيون في العام ذاته عندما كافأهم المؤتمر العالمي في سان ريمو San Remo[2] ومنحهم حق فرض نفوذهم على سوريا. وعندها، فرّ الأمير فيصل

(1)«Memorandum by Mr. Balfour Respecting Syria, Palestine and Mesopotamia, 1919,» in E. L. Woodward and Rohan Butler, eds., Documents on British Foreign Policy, 1919-1939, Third Series, vol. VI I, 1939 (London: Her Majesty's Stationery Office, 1954), 340-347.

(2) تم توقيع معاهدة سان ريمو في مدينة سان ريمو الإيطالية، حددت هذه المعاهدة مناطق النفوذ البريطانية والفرنسية في المشرق العربي. (المترجم)

إلى المملكة المتحدة. بعد مرور عام، قرر البريطانيون تنصيبه أميراً على العراق حيث لم يسمع عنه معظم السكان القاطنين هناك من قبل.

أما تقرير كينغ-كراين، فتم التحفظ عليه ليختفي عن أنظار العامة حتى عام 1922. وعندها، عاد للظهور مبدئياً، على صفحات **مجلة المحرر والناشر** (Editor and Publisher Magazine) في نيويورك، لتقوم **صحيفة نيويورك تايمز** (New York Times) بالترحيب بهذه الوثيقة ووصفها بأنها الوثيقة التي «يرغب كل صحفي في العالم أن يناقشها في افتتاحية صحيفته، وكل معلم ودارس للتاريخ... وكل شخص أنشأ مشاريع تجارية في الشرق الأدنى، وكل عضو في الكونغرس ومكاتب وزارات الخارجية في كل أنحاء العالم»[1]. لكن، ولسوء الحظ، وقع المحظور، فقد قامت كل من بريطانيا وفرنسا بتقسيم المنطقة المعنية، وأصدر الكونغرس الأمريكي قراراً يصادق على المشروع الصهيوني في فلسطين.

وهكذا، تم تجهيز المسرح حيث وقعت صراعات عديدة ابُتليت بها المنطقة منذ ذلك الحين. لسنين عديدة، حكمت بريطانيا وفرنسا بقعاً من العالم العربي دون إبداء أي اهتمام بمشاعر العرب أو آرائهم أو واقعهم. بيد أن الواقع عاد للظهور على السطح من جديد. وكما صرّح وزير خارجية بريطانيا، جاك سترو (Jack Straw)، لمجلة رجل الدولة الحديث (New Statesman) اللندنية في عام 2002: «إن الكثير من المشاكل التي نضطر إلى التعامل معها اليوم، والتي أضطر أنا إلى مواجهتها اليوم كذلك، هي نتاج ماضينا الاستعماري... وأعني بذلك وعد بلفور والضمانات المتناقضة التي مُنحت للفلسطينيين في اجتماعات خاصة، في حين مُنحت الضمانات ذاتها للإسرائيليين، يمكنني القول إن.هذا تاريخ مشوق بالنسبة إلينا لكنه ليس مُشرّفاً»[2].

(1)William T. Ellis, «Crane and King's Long-Hid Report on the Near East,» New York Times, December 3, 1922, 33.

(2) John Kampfner, «NS Interview-Jack Straw,» New Statesman, November 18, 2002, http://www.nevastatesman.com/200211180010/.

وهكذا، كان هذا هو الحدث الأسبق الخاص بتجاهل اهتمامات العرب، كلما جوبه موقف مشابه.

لقد تغيرت ملامح المكان كثيراً بعد مرور قرن من الزمان، وبعد أن تقاسمت القوى الغربية الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الأولى. تأسست الدولة اليهودية، التي لم تكن آنذاك سوى مجرد نظرية، لتصبح قواعدها راسخة منذ أكثر من ستين عاماً. وحولت تجارة النفط البقاع التي تغطيها الرمال ويعلوها الغبار إلى مدن حديثة نابضة بالحياة والنشاط، كما ضعفت الإمبريالية لتندثر معها بنية القوى الاستعمارية. اليوم، أصبحت الولايات المتحدة العنصر الدولي المهيمن في منطقة الشرق الأوسط، ولكن الدرس الذي تعلمناه عبر السنين يبقى ذاته، ومفاده أن وجهة نظر العرب لا بد أن تكون مهمة للغاية.

تمكن كل من هنري كينغ وشارلز كراين في ذلك الوقت من إعداد استطلاع الرأي الخاص بالشرق الأوسط عبر الاندماج عميقاً مع سكان المنطقة. لقد كشفت النتائج التي توصلا إليها الكثير، وكذلك الحال اليوم مع منهجية التصويت الحديث التي توفر فرصاً أكبر للحصول على تقييم علمي واستقراء مفصل لمشاعر العامة. ولمدة أربعة عقود، قمتُ، ومازلت، بعمل ما فعله كل من كينغ وكراين، وأعني بذلك التحدث مع العرب والاستماع إلى ما يقولونه. في الوقت الحاضر، أقوم باستطلاع آراء العرب وإجراء مقابلات معهم وأستخدم هذه المعلومات لأحرص على أن يرى الأمريكيون في الغرب، حقيقة العالم العربي، «لا كعالم بعيد عن الواقع»، ولعلي هنا قد أعدت صياغة العبارة ذاتها التي استخدمها الرئيس باراك أوباما في خطابه التاريخي الذي ألقاه في القاهرة[1].

تلقيت دعوة، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لزيارة العالم العربي ومقابلة رؤساء مؤسسة بحثية حديثة الإنشاء هي مؤسسة الفكر العربي (ATF). دُشِّنت هذه المؤسسة في حزيران من عام 2001، واحتضنت مفكرين عرباً بارزين ورجال أعمال قياديين. أما الهدف الرئيس للمؤسسة فهو الترويج

(1) يستخدم جيمس زغبي عبارة: «The world that is، not the one that isn't».

لأهمية فهم الذات وتشجيع الحوار العام حول قضايا حاسمة من أجل تعزيز فهم أفضل بين العرب والمجتمع الدولي. لقد استضافتني هذه المؤسسة لرغبة مؤسسيها في معرفة المزيد عن وجهات نظر الأمريكيين والعرب على حد سواء. أرادوا كذلك استكشاف طرق للتواصل على نحو فعّال مع الأمريكيين وتثقيفهم حيال العرب والإسلام.

كانت أولى محادثاتي مع رئيس المؤسسة، الأمير خالد الفيصل Khalid al-Faisal، نجل الملك فيصل، ملك السعودية الراحل. ويعدّ الأمير فيصل صاحب فكر تأمّلي عميق، وكذلك هم أخوته (الأمير سعود؛ وزير الخارجية السعودي الحالي، والأمير تُركي الذي كان سفير المملكة في الولايات المتحدة الأمريكية). عندما قابلتُ الأمير خالد، كان الأخير منزعجاً حيال الصدع المتنامي بين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربي. ولذلك، سعى الأمير خالد إلى إيجاد سبل تمكن المؤسسة من لعب دور في مواجهة هذا الصدع، وإن كان دوراً متواضعاً. قدّمتُ له اقتراحاً بسيطاً فقلت: «أنتم بحاجة إلى سرد حكايتكم للأمريكيين. يحتاج الأمريكيون إلى الاستماع إلى العرب حتى يتعرفوا إليكم ويتعرفوا على احتياجاتكم ورغباتكم».

وعلى الرغم من أن الأمير خالد وافق على أن مثل هذه الحملة ضرورية للغاية، توقف برهة ليتساءل: «ولكن، هل نعرف حقاً من نحن؟ هل بإمكاننا أن نجيب عن هذا السؤال بوضوح؟ وإذا حاولنا القيام بمثل هذه الحملة، أي إجابات سنعتمد لوصف واقعنا؟»[1].

في الواقع، كانت أسئلة الأمير خالد صعبة وحساسة؛ أي يصعب طرحها والإجابة عنها، لأنه ما من مجتمع واحد يمكن أن يزودنا بإجابة موحدة فيما يتعلق بقضايا أساسية مثل المعتقدات والقيم والهوية. إن عملية طرح هذه الأسئلة ستكون مهمة معقدة. ولكننا قررنا في مؤسسة زغبي الدولية أن نتعاون مع مؤسسة الفكر العربي لإجراء استطلاع عميق لرأي الشارع العربي، وبذلك يكون هذا أول استطلاع عربي منذ أن قام كل من كينغ وكراين بالمهمة

(1) Personal notes from a meeting with Arab Gulf Ministers, November 11, 2001.

ذاتها قبل ثمانية عقود. شعرنا بمدى أهمية هذا الاستطلاع لأننا نؤمن أن هناك جمهورين مختلفين تماماً – العرب والغرب– سيستفيدان من هذا الجُهد الرامي إلى معرفة «فيما يفكر العرب».

لقد تمكنت مؤسسة زغبي الدولية من تطوير الخبرات الضرورية لإنجاز هذا المشروع عبر ما قمنا به سابقاً من استطلاعات مختلفة لمعرفة آراء العرب القاطنين في دول مختلفة. ومن خلال عملنا مع مؤسسة الفكر العربي، قمنا باختيار ثماني دول عربية تشكل مدى متنوعاً من الخبرات العربية. اخترنا دولتين من إفريقيا (المغرب ومصر) ودولتين من شرق المتوسط (لبنان والأردن)، وثلاثاً من دول الخليج العربي (السعودية، والإمارات العربية المتحدة، والكويت)، بالإضافة إلى عرب إسرائيل. ثم تعاونّا معاً لإنشاء استبيان يتكون من اثنين وتسعين سؤالاً صممت لقياس مفهوم الهوية عند العرب، واهتماماتهم السياسية، وقيمهم ومشاعرهم تجاه وطنهم وغيره من الدول.

قمنا بالاستعانة بعدد من الباحثين الميدانيين، في كل دولة من الدول الثمان السابقة الذكر، وأوضحنا المنهجية التي عليهم اتباعها عند اختيار العينة، حتى نتوثق من أنها تعكس المدى الديمغرافي كاملاً، ونعني بذلك، (الجنس، والعمر، والمستوى التعليمي، إلخ)، في كل بقعة. وحدّدنا لهؤلاء الباحثين كيفية اختيار العينة وبخاصة عند إجراء مقابلات شخصية، وجهاً لوجه. تمكن فريقنا عندما انتهينا من مشروعنا هذا، من إجراء ثلاثة آلاف وثمانمائة مقابلة (3،800) ، ودون الاستجابات التي حصل عليها وقدم تقارير احتوت على استقراء مفصل ومقارنات بين آراء المواطنين في الدولة الواحدة، وأخرى لمقارنة الآراء حسب الخاصيات الديمغرافية سابقة الذكر.

ما النتائج التي توصلنا إليها عبر هذه الدراسة المتعمقة؟[1] تعلمنا بداية أن اهتمامات العرب تنصب على القضايا المتعلقة بأوطانهم. وعندما طرحنا سؤالاً مفاده: ما أهم الأمور في حياة العربي؟ كانت الإجابة: «نوعية العمل»

(1)James J. Zogby, What Arabs Think: Values, Beliefs and Concerns (Utica, NY Zogby International/The Arab Thought Foundation, 2002).

و«العائلة» و«الدين» و«الضمان الوظيفي». وبالمثل، عندما طلبنا من أفراد العينة أن يرتبّوا أولوياتهم السياسية، كان التركيز بوجه عام، ومن جديد، على حياتهم الشخصية والعائلية، لكن برز لنا انحراف مثير، فقد جاء اهتمامهم «بحقوق الشعب الفلسطيني» في المرتبة الثالثة؛ أي بعد اهتمامهم «بحماية حقوقهم المدنية والشخصية» واهتمامهم «بالرعاية الصحية»، ومباشرة قبل اهتمامهم «بالضمان الاقتصادي الذاتي».

وعندما طلبنا من أفراد العينة وصف مشاعرهم تجاه دولة معينة، حازت الولايات المتحدة منزلة متأخرة في جميع الدول، ولم يكن نصيب المملكة المتحدة أفضل بكثير، فقد حازت مرتبة متقدمة قليلاً. على أي حال، حازت كل من فرنسا وألمانيا، بشكل عام، تقديراً مؤيداً لهما في نصف الدول التي شكل أفرادها جزءاً من العينة المعنية. أما كندا فحازت أعلى مرتبة من بين جميع الدول الغربية التي يذكرها الاستبيان.

سافرتُ إلى القاهرة في تشرين الأول، عام 2002، للإعلان عن نتائج الاستطلاع الذي أجريناه، وذلك في مؤتمر صحفي دعت إليه مؤسسة الفكر العربي. انعقد المؤتمر في فندق هيلتون النيل الملكي، وحضره ما يزيد على المائة صحفي من شتى أنحاء العالم. وخلال اليومين التاليين، قمتُ بالإجابة عن أسئلة المراسلين الذين أرادوا معرفة المزيد من التفاصيل عن الاستطلاع، بالإضافة إلى سبع مكالمات هاتفية من صحف كندية اهتمت بتغطية خبر حصول بلادهم على أعلى مرتبة عند العرب في الاستطلاع المعني.

بعد أن انتهى المؤتمر الصحفي، رأيت مجموعات صغيرة من العرب الذين ارتبطوا بمؤسسة الفكر العربي وجهودها التي دامت مدة عام بأكمله لاستطلاع آراء الشارع العربي، تتجمع سوية لتتأمل النتائج. قام بعضهم بمراجعة إجابات مواطني بلادهم لأسئلة محددة، في حين استقصى بعضهم الآخر الموقع الذي احتلته مجموعتهم الديمغرافية بالنسبة إلى قضايا متنوعة. استمرت المناقشات التي نتجت عن دراسة هذه المجموعات للاستطلاع، طوال الليل. في الواقع،

عندما اقتفينا خطى هنري كينغ وشارلز كراين، أسهمنا في خلق وسيلة مكنت كلاً من العرب وأمثالنا في الغرب من التوصل إلى فهم أفضل للأسئلة العميقة التي طرحها الأمير خالد سابقاً. لم يكن هذا الاستطلاع الشامل، على الرغم من أنه استطلاع إبداعي ورائد في مجاله، سوى نقطة البداية لجهود أوسع هدفت إلى تعريف الآخرين بأصوات العالم العربي، ودفعهم إلى الاستماع إليها.

الفصل الثالث

حروب المعرفة

*** نسبة الأمريكيين الذين يعرفون إيران كدولة عربية: 65٪.**

*** الأمريكيون الذين يعرفون أن للعراق حدوداً مشتركة مع سوريا: 23٪.**

*** الأمريكيون الذين تمكنوا من تحديد عام 1948، السنة التي بدأت فيها حرب إسرائيل الاستقلالية (أو النكبة للفلسطينيين): 37٪.**

*** الأمريكيون الذين يعتقدون أن المسلمين ميّالون إلى التعصب الديني: 42٪.**

*** الأمريكيون الذين قالوا إنهم يرغبون في معرفة المزيد عن البلاد العربية وشعوبها: 59٪.**

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية «استطلاع آراء الشارع الأمريكي»، كانون الثاني، 2009 [1].

في الخامس عشر من تشرين الأول كنت أزور مبنى السيناتور هارت (Hart Senator Office Building)[2] في واشنطن العاصمة، عندما اكتشفت السلطات وجود الجمرة الخبيثة في مظروف أرسل إلى توم داشيل (Tom Daschle)؛ سيناتور جنوب داكوتا. وعلى الرغم من أن جرثومة الأنثراكس خطيرة للغاية، فمن الممكن، بشكل عام، علاجها. على أي حال، أبلغت السلطات عن وقوع حالة وفاة واحدة - محرر فوتوغرافي في المؤسسة الأمريكية الإعلامية التعاونية الواقعة جنوب ولاية فلوريدا، وهو صاحب مجلة السن (The Sun) وغيرها من الصحف الخفيفة[3]. تناقلت وسائل الإعلام هذا الخبر

(1) Zogby International, Poll of American Opinion, November 30-December 8, 2009. Sample size: 1,006 adults.

(2) يعدّ مبنى السيناتور هارت، المبنى الثالث لمجلس الشيوخ الأمريكي وسُمّي كذلك تيمناً بالسيناتور فيليب هارت. (المترجم)

(3) تهتم الصحف الخفيفة (Tabloids) بنشر المواضيع المثيرة والإشاعات بطريقة مركزة ومكثفة للغاية. (المترجم)

واهتم جميع السياسيين بتفاصيله. بعد مرور أسبوع، طُلب مني التوجه إلى مبنى ديركسين (Dirksen Building)[1] الواقع في الجهة المقابلة لمبنى البرلمان الأمريكي، لأخضع لفحص طبي للتحقق من عدم إصابتي بجرثومة الجمرة الخبيثة. توقعت الانتظار طويلاً في صف يتكون مما يزيد على ألف موظف متذمر ممن يعملون في مجلس الشيوخ والشرطة الفيدرالية المكلفة بحراسة مبنى البرلمان ومباني مجلس الشيوخ، وجماعات اللوبي المختلفة، ومراسلين صحفيين، وبعض المراسلين غير المحظوظين، وآخرين -أمثالي- ممن شاءت الصدفة أن يكونوا في المكتب والتوقيت الخاطئين، لكن مخاوفي لم تكن في محلها.

تحرك صف المنتظرين ببطء – وكنت واقفاً لمدة أربع ساعات– ولكن بهدوء ونظام، على الرغم مما يُعرف عن صبر سكان ولاية واشنطن الذي ينفد سريعاً. وقد بدا أكيداً أن بعضاً منهم كان يعمل في أثناء انتظاره، وتحدث آخرون عبر هواتفهم الخلوية، وتمتع الجميع بروح طيبة وكانوا ودودين وأبدوا تعاوناً ملحوظاً. غير أن الكرم الغامر والمشاعر الأخوية التي تبدت في خريف 2001 ذاك، غالباً ما تنوسيت، فمن السهل استرجاع الصور المرعبة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، حين هوجِمنا وربما تم إذلالنا، ولكن الرعب الذي واجهناه نحن الأمريكيين جمعنا سوية رابطاً إيانا بهدف واحد.

قبل بضعة شهور، اعتاد سكان مدينة واشنطن ركوب سياراتهم مسرعين، كلما سمعوا صفارة الإنذار، ليسبقوا سيارة الإسعاف أو الإطفائية عند تقاطع شارع ما. أما إذا اضطروا إلى الانتظار، فقد اعتادوا أن يتذمروا. لقد كان بعضهم، بالطبع، أشخاصاً مهمين ويشغلون وظائف حساسة ولم يكن بالإمكان إيقافهم أو تعطيلهم حتى في الحالات الطارئة. لكن، بعد تجربة الحادي عشر من سبتمبر المرعبة – بالإضافة إلى بطولة الشرطة والإطفائية والأشخاص الذين كانوا أول من استجاب لمواجهة نتائج الانفجار المروع – أصبح مواطنو

(1) يعدّ مبنى ديركسين، المبنى الثاني لأعضاء مجلس الشيوخ في العاصمة واشنطن وسُمّي كذلك تيمناً بزعيم الأقلية إيفيريت ديركسين (1972). (المترجم)

واشنطن أكثر يقظة ولطفاً وصبراً واهتماماً ومراعاة لمشاعر الآخرين. فعلى سبيل المثال، تجدهم يتوقفون بالفعل عند سماع صفارة إنذار ما، وينتظرون مرور سيارة الإسعاف أو الإطفائية. وقرب نهاية عام 2001، اعتدنا سماع الكثير الكثير من صفارات الإنذار.

تجاوز هذا الموقف حدود التعامل الرسمي ليخلق فرصة فريدة من نوعها، للاستماع للآخر. انخرطنا معاً جميعاً – في ذلك اليوم عندما وقفنا في صف واحد بانتظار إجراء فحوصات الإصابة بالجمرة الخبيثة– فنحن الغرباء عن بعضنا لم يجمعنا سوى ذلك الحادث الذي وقع في مبنى مجلس الشيوخ، وفي محادثة واحدة ناقشنا فيها أحوال أبنائنا وأعمالنا ومعيشتنا. عندما ذكرتُ أنني أعمل مع المعهد الأمريكي العربي أصغى الجميع باهتمام. لم يعرف الأشخاص الذين وقفوا بجواري في الصف، الكثير عن الشرق الأوسط، كما أنهم عرفوا أقل القليل عن الإسلام. وعلى الرغم من ذلك، انتابهم الفضول ووجهوا إلي العديد من الأسئلة العميقة.

أدركت حينها أننا لسنا في حاجة إلى إغلاق الأبواب في وجه الأمريكيين، بل نحن محتاجون بصورة ماسة إلى فتحها على مصراعيها. إن العرب والأمريكيين يعملون سوية في مجالات متنوعة، بالإضافة إلى التبادل التجاري بين الشرق الأوسط والولايات المتحدة الذي يصل في مجموع إيرادته إلى مائتي بليون دولار سنوياً. لكننا، على أي حال، مازلنا لا يعرف بعضنا بعضاً حق المعرفة. ونحن نلفي لدى الطرفين أقليات تشكل طوائف معينة– فثمة على سبيل المثال، المتعصبون دينياً والمتزمتون المؤمنون بإيديولوجيات محددة تعمل جاهدة على إبعاد بعضنا عن بعض– لكني أؤمن بأن الأغلبية العظمى من العرب والأمريكيين ستدرك الروابط المشتركة التي تجمعنا لو مُنحت الفرصة الملائمة.

لم أكن الوحيد الذي شعر إبان أحداث الحادي عشر من سبتمبر بحاجتنا إلى تعميق فهم الأمريكيين للعالم العربي. ونتيجة لردود الفعل العنيفة المعادية للعرب، التي زادت حدتها بعد الهجوم الإرهابي على مركز التجارة، بدأت

بعض المدارس والمعنيون بالتعليم في مقاطعات مختلفة في معظم أنحاء الولايات المتحدة، جهوداً حثيثة لتعزيز مناهجها القاصرة فيما يتعلق بشؤون الشرق الأوسط. وعندها تلقى مكتبي في واشنطن وابلاً من المكالمات الهاتفية من معلمين ومديري مدارس يستفسرون عن معلومات أدق وأحدث تخص العرب الأمريكيين والعالم العربي بشكل عام، والإسلام كذلك. وبتشجيع ودعم من قسم خدمة المجتمع التابع لوزارة العدل، وجمعية التعليم الوطني (National Education Association)، قمنا بتجهيز معلومات لخدمة المعلمين والمثقفين، تغطي مواضيع مختلفة بدءاً بدور العرب الأمريكيين في الحياة الأمريكية، وانتهاء بإسهامات العرب في حضارة العالم[1].

وُزعت هذه المواد المعلوماتية على آلاف المدارس والمهتمين بالتعليم، ممن بحثوا عنها مباشرة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر - وأعتقد أنها كانت محاولة لمجابهة سنين طويلة تجاهل الأمريكيون فيها العرب. فإنك، على سبيل المثال، لا تكاد تجد ما يُقال عن العرب في دروس التاريخ للمرحلة الثانوية باستثناء هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء (Battle of Tours)[2] وسقوط الأندلس(Spanish Reconguista)[3]. وعندما يُذكر العالم العربي أمام

(1) Among these materials were: Arab Americans; Making a Difference by Casey Kasem-a listing of famous Arab Americans who had made a contribution to American life; Who Are Arab Americans? from Grolier's Multimedia Encyclopedia; Who Are Arabs? from the Center for Contemporary Arab Studies; and Arab Contributions to Civilization. These were distributed to thousands of school districts and individual educators seeking information in the immediate aftermath of 9/11.

(2) معركة بلاط الشهداء أو معركة بواتييه (Battle of Poitiers): وقعت في العاشر من أكتوبر عام 732م بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقوات الإفرنج بقيادة تشارلز مارتل. هُزم المسلمون في هذه المعركة وقُتل قائدهم. وقد أوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا، وبقيت المسيحية الديانة السائدة فيها. البلاط في اللغة العربية يعني القصر أو الرخام، ويُعتقد أنها سميت ببلاط الشهداء لأنها وقعت بالقرب من قصر مهجور. (المترجم)

(3) سقوط الأندلس: حدث تاريخي انتهى بسقوط غرناطة عام 1492، ويُطلق الأوربيون على هذا الحدث، حروب الاسترداد، غير أن المسلمين يرفضون هذا المصطلح ويرون أنه وصف عنصري، فالشعوب التي احتلت الأندلس لم تكن موجودة هناك قبل الإسلام، أما القوات الأوروبية تلك فقد حاربت المسلمين بدافع الفقر والجوع والتسلط والطمع. (المترجم)

الأمريكيين، غالباً ما يتم تمثيله كعالم غارق في الماضي السحيق.

وعبر دراسات أكاديمية مختلفة، سُلّطت الأضواء على قضايا العنصرية والتحيز وافتقار الكتب المدرسية، لعقود طويلة، ما يلزم من معلومات للتعرف إلى العرب وعالمهم. فعلى سبيل المثال، نجد دراسة شاملة عن كتب مادة الدراسات الاجتماعية للمرحلة الإعدادية، أُعدّت في منتصف السبعينيات، وحدثت على نحو دوري من جانب جمعية دراسات الشرق الأوسط (MESA). وهي أقدم وأهم منظمة أكاديمية أمريكية، تُعنى بشؤون الشرق الأوسط. وجدت الدراسة سابقة الذكر أن الكتب المنهجية التي شكلت موضوع البحث، «غالباً ما تنقل صورة مبسطة على نحوٍ غير واقعي وساذج ومشوه، عن ثقافات الشرق الأوسط وتاريخه وسياساته»[1]. وجد الباحثون «أن مفاهيم خاطئة وصوراً نمطية»[2] و«تحيزاً ثقافياً عظيماً»[3] يسود صفحات هذه المناهج. لقد أدى تصوير العرب كأمة «رجعية متخلفة» و«بدو رُحّل» أو حتى «كمحاربين مسلمين» إلى تشويه تاريخ المنطقة والحطّ من قيمة شعبها وثقافته[4].

تغير الوضع قليلاً بعد مرور عشرين عاماً، فقد ظهرت مراجعة نقدية متعمقة للكتب الدراسية لمادتي التاريخ والجغرافيا في عام 1995، علّق فيها المؤلف على «التصوير المبالغ فيه للصحارى والجمال والبدو الرّحل» في فصول داخل هذه الكتب الدراسية التي تتحدث في بعضها عن الشرق الأوسط (ظهرت هذه الدراسة قبل خمس عشرة سنة عندما كانت هذه الكتب تُدرس لطلاب أصبحوا اليوم معلمين يُدرسون غيرهم من الطلاب في المدارس الأمريكية). أما ما يتعلق بالتصوير المشوه للإسلام، فانتهت الدراسة إلى القول إنه «حان الوقت أن يُحذر كل من يقوم بالتدريس في المعاهد المتوسطة والجامعات زملاءهم من

(1)William j. Griswold, The image of the Middle .East in Secondary School Textbooks (New York: Middle East Studies Association of North America, 1975).I.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.، II.

(4) المرجع السابق.، 5، 12.

المعلمين في المراحل المدرسية المتنوعة بشأن ذلك»[1].

عندما زرت مدرسة في مدينة ديربورن (Dearborn) في ولاية ميتشغن، عام 1998، أعادت هذه الرحلة قضية التجاهل التعليمي إلى الأذهان. كانت دعوة مجموعة من الطلبة اليمنيين الأمريكيين وآبائهم لي هي الحافز وراء هذه الزيارة، حيث دُعيت إلى ديربورن، التي تعدّ موطناً لتسعة وعشرين ألف أمريكي من العرب، وبذلك تشكل هذه المدينة أكبر تجمّع للعرب بالنسبة إلى المدن الأخرى في الولايات المتحدة. معظم هؤلاء العرب من أصول لبنانية ولاسيما الشيعة القادمون من جنوب لبنان. نجد كذلك عدداً ضخماً من اليمنيين، كما هاجر إليها، مؤخراً، بعض شيعة العراق الذين هربوا من نظام صدام حسين. وقد هاجر جلّ هؤلاء العرب حديثاً، وهم يشكلون الجيل الأول من العرب الأمريكيين في المدينة، وديانة معظمهم هي الإسلام.

في شهر رمضان من العام ذاته؛ شهر الصوم عند المسلمين، حين يمتنعون عن الطعام والشراب حتى مغيب الشمس، بلّغ طلبة إحدى المدارس الثانوية في المدينة عن مشاكل واجهوها مع إدارة المدرسة. لم تسمح إدارة المدرسة للطلبة المسلمين الصائمين البقاء في قاعات الدراسة خلال فترة الغداء، بل أجبرتهم على التوجه إلى الكافتيريا حيث قام بعض زملائهم، من غير المسلمين، باستفزازهم والاستهزاء بهم، وفي مواقف محددة، ألقوا الطعام عليهم. وقد نشبت شجارات عديدة بين الطلبة مما دفع الآباء والطلبة على حدّ سواء إلى طلب النصح والمشورة فيما يتعلق بالكيفية التي يمكن عبرها تخفيف هذا التوتر.

وخلال اجتماع دعي إليه أفراد أحد مراكز المجتمع اليمني في المدينة، وقفت فتاة يمنية أمريكية، فصيحة للغاية، لتحكي قصتها أمام الجميع. حاولت الفتاة التحدث إلى مدير المدرسة بعد أن شهدت الصراع المتزايد بين الطلبة في

(1)Elizabeth Barlow, ed., Evaluation of Secondary-Level Textbooks for Coverage of the Middle East and North Africa: A Project of the Middle East Studies Association and the Middle East Outreach Council (Tucson, AZ: Middle East Studies Association, 1994).

كافتيريا المدرسة. أخبرت تلك الفتاة مدير المدرسة أنها لا تلوم الطلبة الآخرين لأنها أدركت أنهم يجهلون الكثير عن الإسلام والثقافة العربية، فهي مفاهيم غريبة بالنسبة إليهم. وعندها طلبت الفتاة من المدير ترتيب حوار تشارك فيه مع غيرها من الطلبة المسلمين لمساعدة زملائهم - من غير المسلمين- كي يتوصلوا إلى فهم أفضل لثقافتهم الإسلامية. رفض المدير اقتراح الفتاة، وبرّر ذلك بأن واجبه يُملي عليه تعريف الطلبة المسلمين بالثقافة الأمريكية وليس مساعدتهم في تفسير ثقافة المسلمين لأقرانها.

وعلى الرغم من التحذيرات العاجلة التي وجهتها جمعية دراسات الشرق الأوسط، لم يحدث أي تغيير في النظام التعليمي حتى تسببت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بتوجيه ضربة مؤلمة له. ولذلك، قام مجلس شيكاغو (Chicago Council on Foreign Relations)[1] المختص بالشؤون الخارجية بدراسة المشاكل التي يواجهها العاملون في سلك التعليم الذين سعوا إلى تلبية احتياجات طلابهم في معرفة المزيد عن العالم العربي والإسلام. وخلص التقرير إلى القول إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر خلقت «تحدياً تربوياً» حين اكتشف المعلمون عدم توافر «المناهج الدراسية اللازمة لمساعدة طلابهم في فهم العالم ووطنهم (الولايات المتحدة) ومدنهم وحياتهم بشكل عام بعد أحداث التفجيرات... وفجأة، احتاج أولئك المعلمون إلى تدريس المزيد عن الإسلام والعالم العربي وأفغانستان وأجزاء أخرى من العالم لم يعرف معظم المعلمين عنها سوى القليل أو جهلوها تماماً»[2]. وعلى الرغم من قدرة بعض المعلمين واسعي الحيلة على إيجاد مواد تعليمية إضافية لتدرّس داخل الصفوف الدراسية، فإنهم «وجدوا أحياناً أن جهودهم ضاعت هباءً منثوراً بسبب معلمين آخرين، أثّر تحاملهم

(1) تأسس هذا المجلس في عام 1922، وهو منظمة مستقلة غير حزبية تعنى بالشؤون العالمية وتهدف إلى توجيه الخطاب الخاص بالقضايا العالمية من خلال المساهمة في تشكيل السياسة وتثقيف العامة حيال هذه القضايا وإنشاء حوار خاص بمفهوم القيادة وغيرها من المفاهيم السياسية والثقافية. (المترجم)

(2) The Chicago Council on Foreign Relations, A Past-September 11th Curriculum for the Chicago Public Schools, April, 2002.

وانحيازهم وتفكيرهم النمطي، الذي يغذيه جهلهم، في تدريسهم»[1].

باختصار، يمكن القول إن تعويض عقود طويلة من جهل المؤسسات التعليمية، هو عمل شاق، لكن حاجة واضحة لتقليص الفجوة بين الأمريكيين والعالم العربي ظهرت فجأة، ولم تبد مجرد فرصة مواتية ليحقق الأمريكيون فهماً أفضل للعالم العربي. ظهر المزيد من المقالات في الصحف الأمريكية عن الإسلام، وطُرح المزيد من الأسئلة العميقة التي تستفسر عن الشرق الأوسط، بصورة تفوق ما كان من قبل. وفضلاً عن ذلك، طُلِبَ من المجتمعات العربية الأمريكية، على نحو متكرر، أن تسهم في تعليم الآخرين وتشاركهم معرفتهم المتخصصة بثقافة العرب والإسلام، في حين تقلصت الجرائم العنصرية المعادية للعرب، وأصبح الوضع أشبه بما كان عليه قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

وصفت صحيفة أمريكا اليوم (USA Today)، تحت عنوان «هذه الوظيفة عمل بطولي، بالنسبة إلى اللغويين»، الجهود التي بذلها العرب الأمريكيون لمساعدة روبرت مولير (Robert Muller)، مدير مكتب الاستخبارات الفيدرالي، في دعوته كل من يعرف العربية أن يملأ نموذجاً لشغل وظيفة مترجم، وذلك في السابع عشر من سبتمبر، عام 2001. لم تكن هذه المهارات أكاديمية فحسب. فكما أوضح مقال صحيفة أمريكا اليوم وغيره من المقالات، شعرت العديد من وكالات الاستخبارات الأمريكية بخيبة الأمل لعدم توافر مترجمين قادرين على ترجمة الوثائق وأشرطة الفيديو التي تتم مصادرتها وتلك التي يتم تسجيلها سراً عبر أجهزة التنصت، أو الحصول عليها عبر وسائل المراقبة الإلكترونية التي تتمكن أحياناً من اختراق شبكة الإرهابيين الإلكترونية ومعرفة مكائدهم[2].

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تهاوت العلاقة الحميمة بين الولايات

(1) المرجع السابق

(2) Toni Locy, «For Linguists, Job Is Patriotic Duty,» USA Today, November II, 2003, lttp://www.usatoday.com/news/washington/2003-II-II-Iinguists_x.htm.

المتحدة والعالم العربي (وقد دامت ثلاثين عاماً)، على الرغم من أطنان الأموال التي استثمرتها الولايات المتحدة هناك، والمساعي الدبلوماسية رفيعة المستوى، وإن كانت متفاوتة، وآلاف الجنود الأمريكيين المنتشرين في المنطقة، وباتت جزءاً من الماضي. من الواضح أن الشرق الأوسط احتل الأولوية بالنسبة إلى سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ولكن، مازال هناك الكثير مما يتوجب على الولايات المتحدة استكشافه وسبر غوره. لذلك، بذلت الكليات والجامعات جهوداً جادة لتوسيع نطاق الفصول الدراسية المطروحة، لتشمل فصولاً لتعليم اللغة العربية ودراسة تاريخ العرب والديانة الإسلامية. خصص الكونغرس عشرين مليون دولار لزيادة الميزانية المخصصة لدعم البرامج الأمريكية للدراسات الشرق أوسطية. لاحظتُ كذلك أن مديريات التعليم المدرسي اهتمت بالبحث عن معلومات إضافية عن العالم العربي، كاستجابة للحاجة المتزايدة للتعرف على هذا الإقليم. على أي حال، وعلى الرغم من الحاجة الملحة والواضحة، التي برزت في الألفية الثانية، لمزيد من الأشخاص الذين يتحدثون العربية بطلاقة والملمّين بالثقافة العربية، والمقيمين على أرض الولايات المتحدة، فإن المشاعر العدائية تجاه العرب تأججت من جديد.

قامت المنظمة المعروفة بالمجلس الأمريكي للجنة الأمناء والخريجين (ACTA) بنشر تقرير عنوانه: «دفاعاً عن الحضارة: كيف خذلت الجامعات الولايات المتحدة، وماذا يمكن أن نفعل حيال ذلك؟»؛ اتهمت فيه مؤسسات التعليم العالي «بالمواربة المعنوية والتحريف» لإخفاقها في دعم «الحرب ضد الإرهاب»[1]. واتهمت المنظمة كذلك الجامعات «بتعزيز الفكر القائل إن اللوم يقع على الولايات المتحدة بالنسبة إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وإنها حادت عن فهم الإسلام»، وذلك بسبب تهافت هذه الجامعات على طرح

(1) Jerry L. Martin and Anne D. Neal, «Defending Civilization: How Our Universities Are Failing America and What Can Be Done About It,» rev. ed., (Washington, DC: American Council of Trustees and Alumni, 2002), https://portfolio.du.edu/portfolio/getportfoliofile?uid=85865.

المزيد من المقررات الدراسية تحت عنوان «الإسلام والدراسات الآسيوية»[1].

تلا ذلك ظهور مجموعة من النشطاء والمحافظين في عام 2003 الذين تجمعوا خصيصاً لمعارضة إنفاق الكونغرس المال لدعم الدراسات الشرق أوسطية. بدأت حملة المعارضة هذه بجهود ستانلي كيرتز (Stanely Kurtz)، وهو زميل في معهد هوفر (Hover Institute)، وأحد محرري الموقع الإلكتروني **المراجعة الوطنية عبر الشبكة العنكبوتية** (National Review Online). انتقد كيرتز البرامج الداعمة للدراسات الشرق أوسطية التي يموّلها الكونغرس، ذلك أنها تظهر تحيزاً واضحاً للعرب، وتشجع «نقداً متطرفاً من وجهة نظر أحادية، للسياسة الأمريكية الخارجية»[2].

تلقت جهود كيرتز تأييداً من جانب اثنين من المفكرين انتقدا طويلاً الدراسات الخاصة بالعرب والمسلمين، وهما مارتن كريمار (Martin Kramer) ودانيال بايبز (Danial Pipes). نشر كريمار، وهو باحث في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (Washington Institute for Near East Policy)، أفكاره الخاصة بهذه القضية في كتابه المعنون (**روج عاجية فوق الرمال: فشل الدراسات الشرق أوسطية في أمريكا**) الذي يتهم فيه الأكاديميين بكونهم متحيزين للعرب واليساريين المتطرفين. أما بايبز، وهو مؤلف لعديد من الكتب والأعمدة التي يهاجم من خلالها المسلمين في الولايات المتحدة، فلقد اشتهر بإطلاق ما يُعرف بمُراقبة الحرم الجامعي («Campus Watch»)، ويرمز هذا المصطلح الى قائمة سوداء نُشرت على الشبكة العنكبوتية وتحوي أسماء الأساتذة الذين يصفهم بايبز «بالمتعاطفين والمتحيزين للعرب» أو «المدافعين عن الإسلام العدائي»[3]. يدعو بايبز الطلاب إلى مضايقة الأساتذة،

---

(1) المرجع السابق، 7.

(2) Stanley Kurtz, «Studying Title VI: Criticisms of Middle East Studies Get a Congressional Hearing,» National Review Online, June 16, 2003, http://article.nationalreviewcom/269123/ studying-title-vi/stanley-kurtz.

(3) Kristine McNeil, «The War on Academic Freedom,» The Nation, November 11, 2002, Campus Watch, http://wwvv.campus-watch.org/.

ويتجاوز الأمر إلى تشجيعهم على التبليغ عنهم.

قام كل من كريمار وبايبز وكيرتز بالترويج لقانون التعليم العالي الخاص بالدراسات الدولية، وهو مشروع قانون طُرح أمام الكونغرس لتشجيع تدريس برامج «تعكس مدى شاملاً لوجهات نظر متنوعة»[1]، في الكليات على اختلافها. سعت هذه المجموعة، في واقع الأمر، إلى تأسيس مجلس لمراقبة البرامج الأكاديمية والتبليغ رسمياً إذا لم تتوافق مع «تعددية وجهات النظر» التي يسعى القانون إلى فرضها. ينص مشروع القانون كذلك على حرمان هذه البرامج من الدعم إذا لم تذعن لنص القانون. حذّر مؤيدو مراكز الدراسات الشرق أوسطية من أن السماح بتأسيس مثل هذا المجلس سيؤدي إلى إخضاع التعليم الحكومي للرقابة، ومن ثمّ ستنحاز البعثات الجامعية الممنوحة للطلبة نحو توجه سياسي معين. وكما أوضح زاكري لوكمان (Zachary Lockman)؛ أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك، لمجلة المنتدى الأدبي (Salon)[2]: «فإن المراكز (التعليمية) مهددة بالتعرض للعقاب إذا ما ابتعدت عن الخط الرسمي الذي سترسمه لها واشنطن، ويعدّ ذلك تطفلاً فيدرالياً، لم يسبق له مثيل، على البرامج والدراسات الجامعية»[3].

وعلى الرغم من أن مجلس الشيوخ لم يجز مشروع القانون سابق الذكر، الذي اقترحه كل من كريمار وبايبز وكيرتز، فإن بعض لغته المقترحة قد أُدخلت على القانون الذي أصدره الكونغرس والذي يجيز تمويل التعليم العالي[4]، مما برّر اللغة المتعجرفة التي تحدث بها كرايمر عندما قال: «حسناً، زملائي الأكاديميين، عليكم أن تعتادوا الأمر. فأنتم مراقبون الآن، ستنشر جميع مقالاتكم الغامضة التي تظهر في الصحف الموزعة داخل الحرم الجامعي، على صفحات الإنترنت

(1) International Studies in Higher Education Act of 2003, HR 3077, 108th Cong., Ist sess.

(2) مجلة المنتدى الأدبي: مجلة إخبارية متوفرة على الشبكة العنكبوتية فقط. (المترجم)

(3) Michelle Goldberg, «Osama University,» Salon, November 6, 2003, http://dir.salon.com/story/news/feature/2003/II/06/middle_east/.

(4) Higher Education Opportunity act of 2008, Public Law 110-315, 100th Cong.

لمراقبتها. وبالإضافة إلى ذلك، ستتفحص بدقة خطط المناهج الدراسية التي تقومون بإعلانها للطلبة. وسنزور مواقعكم الإلكترونية في وقت متأخر من الليل»[1].

لا تنحصر جهود دانيال بايبز على مضايقة الأساتذة الجامعيين عبر الإنترنت، وإنما وصل به الأمر إلى جَعْل بعض المعلمين في المدارس الحكومية والمناطق التعليمية المختلفة، هدفاً له، وبخاصة هؤلاء أو تلك التي احتضنت المهمة البارزة الساعية إلى توسيع نطاق معرفة الأمريكيين بالعالم العربي. وفضلاً عن ذلك، كانت الإطاحة بمدرسة أكاديمية خليل جبران الدولية (KGIA) في نيويورك، التي كان من المقرر افتتاحها عام 2007 كأول مدرسة ثنائية اللغة – أي تُدرس باللغة الإنجليزية والعربية معاً– في الولايات المتحدة[2]. وكغيرها من المدارس ثنائية اللغة، المنتشرة عبر البلاد، سعت أكاديمية خليل جبران الدولية إلى تعليم الناطقين وغير الناطقين باللغة العربية، وتوقعت الأكاديمية أن يتمكن جميع الطلبة من تطوير مهارات لغوية عملية وفعّالة، باللغتين العربية والإنجليزية عند التخرج. بدأت المدرسة بالصف السادس، وكانت هذه المرحلة رائدة وواعدة إذ طمحت الأكاديمية إلى التوسع بخطىً ثابتة لتُنشئ صفوفاً إعدادية وثانوية أيضاً.

وعلى الرغم من كون أولئك الذين شاركوا في تأسيس الأكاديمية طموحين، فلم يكونوا – ومن بينهم القيّمون على مؤسسة رؤى جديدة للمدارس الحكومية (New Visions for Public Schools) غير الربحية التي اتخذت من نيويورك مقراً لها– ساذجين. اتخذ المؤسسون إجراءات احترازية عديدة، لإدراكهم خطورة التوتر السياسي القديم الذي يمكن للمدارس الحكومية التي تكرس جهودها لتعليم اللغة والثقافة العربية، أن تثيره. أحد الإجراءات

(1) Martin Kramer, «Qui custodiet ipsos custodes? Campus Watch,» Sandbox, September 18, 2002, http://sandbox.blog-city.comlsandstorm_qui_ custodiet_ipsos_custodes_campus_watch.htm.

(2) Daniel Pipes, «A Madzassa Grows in Brooklyn,» New York Sun, April 24, 2007, http://www.nysun.com/foreign/madrassa-grows-in-brooklyn/53060/.

تلك يتعلق باسم المدرسة الذي تم اختياره لأسباب سياسية. لقد كان خليل جبران شاعراً مسيحياً، وُلد في لبنان، لكنه ترعرع في بوسطن قبل أن ينتقل، فيما بعد، للعيش في نيويورك. وخلاصة القول، فإن خليل جبران، بلا جدال، شخصية عربية أمريكية، وبالمثل، كانت مديرة المدرسة، ديبي المُنتصر (Debbie Almontaser)، وهي عربية مسلمة أمريكية الجنسية، وخبيرة متمرسة في نظام التعليم المدرسي في مدينة نيويورك، ولها باع طويل في تعزيز الحوار بين الطلاب الذين ينتمون إلى ديانات مختلفة.

بعد سنين من التخطيط، كان يوم الافتتاح -وهو الرابع من سبتمبر من عام 2007- يوماً واعداً. برزت حاجة ملحة وواضحة للبدء بتنشئة جيل جديد من الطلبة العرب الذين وُلدوا في الولايات المتحدة ويتحدثون العربية، بالإضافة إلى تعزيز بيئة تعليمية يتوافر فيها مثل هذا النوع من الطلبة. على أي حال، غادرت المنتصر ومن خلَفَها في الإدارة الأكاديمية خلال العام الأول بعد أن أصبح كلاهما ضحية وابل من الهجوم المدمر. في السنة التالية، فتحت الأكاديمية أبوابها في موقع جديد ليقوم مدير جديد، يتحلى برؤية راديكالية مغايرة، بإدارتها. قيّد المدير الجديد تعليم اللغة العربية، وسرعان ما تقهقر حلم توسيع المدرسة لتشتمل على المرحلة الثانوية. تغيّر طاقم التدريس على نحو مستمر، فلقد استقال العديد من المدرسين بسبب الضغوط التي مورست عليهم. أما الكتب الدراسية فأصبحت رثة، ذلك لأن المعلمين أجبروا على قصّ صور الجوامع والمساجد الموجودة داخلها[1].

في الواقع، بدأت محاولة تفكيك أكاديمية خليل جبران قبل انضمام الطلبة إليها بشهور. لقد كان اسم المدرسة وحده - الذي بدا غير مثير للجدل- كافياً للتشهير بالمدرسة عبر المواقع الإلكترونية[2]. ثم قامت صحيفة نيويورك

---

(1) Seth Wessler, «Silenced in the Classroom,» ColorLines, http://www.color lines.com/article.php?ID=456.

(2) For example, Stop the Madrassa, http://stopthemadrasaa.wordpress.com and Militant Islam Monitor, http://militantislammonitor.org.

صن (New York Sun)، بنشر مقال[1] لدانيال بايبز (Daniel Pipes)، عبّر فيه عن رأيه الخاص، وذلك قبل أشهر من افتتاح المدرسة أبوابها، وتحت عنوان «مدرسة تنمو في بروكلن» (A Madrassa Grows in Brooklyn)، وكان لهذا المقال أثر مدمر. بدأ بايبز مقاله بأسلوب خطابي رائع، فمدح الأكاديمية وتحدث عن ضرورة وجود مثل هذه المدارس، وأهمية تعلم مهارات اللغة العربية والقيمة النظرية لها. وعندما انتهى هذا الهزل، بدأ بايبز هجومه: «عملياً، على أي حال، أنا أعترض بشدة على وجود أكاديمية خليل جبران الدولية، ويمكنني التنبؤ بأن تأسيسها سيولّد مشاكل خطيرة». وتابع بايبز: «أقول هذا لأن تدريس اللغة العربية مُثقل، لا محالة، بحزمة من نظريات التحيز العنصري للعرب والإسلام»[2].

وعِوَض أن يقوم بايبز بطرح أمثلة عن كيفية تدريس نسخة مقبولة وغير مسيّسة من اللغة العربية، تابع حديثة ليُورد أمثلة ادعى برهنتها أن دروس قواعد اللغة العربية تستشهد بأقوال مأثورة وعبارات ترتبط بمواقف سياسية معينة. ادعى بايبز، بالإضافة إلى ذلك، أن مجرد تعلّم العربية يحمل بين طياته فرضية التحول، الذي لا مفرّ منه، إلى الديانة الإسلامية. وبدلاً من مناقشة كيف تلبي الأكاديمية حاجتنا الماسة لأشخاص يتحدثون العربية، وهذا على ما يبدو هو الموضوع الأهم، دعا بايبز ببساطة إلى إغلاق أول مدرسة عربية ثنائية اللغة في الولايات المتحدة، حتى قبل أن يتم تدشينها، وتعهد بايبز بأن «المعركة دائرة، وأن الخطوة التالية ستكون إلغاء الأكاديمية ذاتها»[3].

وعلى الرغم من أن ثلاث سنين قد مضت على تأسيس أكاديمية خليل

(1) يشير المؤلف إلى أن المقال لم يكن افتتاحية العدد ولكنه نُشر في الصفحة المقابلة لصفحة الافتتاحية. ويطلق على هذا النوع من المقالات الذي يعبر فيه المؤلف عن رأيه الخاص لا عن رأي الصحيفة (op–ed)؛ أي Opposite the editorial page.

(2) Pipes, «Madrassa Grows in Brooklyn.»

(3) Daniel Pipes, «New Approach Needed for Arab School,» New York Sun, August 15, 2007, http://www.nysun.com/new-york/new-approach-needed-for-arab-school/60542/.

جبران الدولية، فلم يتجاوز عدد الطلبة الذين انضموا إليها الستين طالباً في مرحلة الصف السادس. يبدو الأمر وكأن المدرسة تُنفّر الطلبة وطاقم التدريس، الذين تعلموا جميعاً درساً واحداً يصوغه لنا طالب في الثانية عشرة من عمره، حين يقول: «لا أقرأ ما يُنشر عن المدرسة، لكن الجميع يعارضون تعلّم العربية كلغة ثانية»[1]. يمكننا القول باختصار، إن كلاً من بايبز والحملة واسعة النطاق المناهضة لتعليم اللغة العربية، التي أدت إلى تعزيز جهل الأمريكيين بالعالم العربي حتى يومنا هذا، قد نجحا في تحقيق أهدافهما.

وقد اتبع آخرون منهجاً آخر لإعاقة الجهود الرامية إلى توسيع نطاق المهارات التي يوفرها التعليم المدرسي، وذلك عبر تحذير الآباء من المواد الدراسية وورشات العمل التي صُمّمت لتثقيف الطلبة عن الإسلام والعالم العربي، على نحوٍ أفضل. فعلى سبيل المثال، نشرت الوكالة التليغرافية اليهودية للخدمات السلكية (JTA) تقريراً في عام 2005 يُحذر من أن «برامج تعليمية تموّلها وتدعمها المملكة العربية السعودية، تجد سبيلها إلى صفوف المرحلتين الإعدادية والثانوية». كما ادعى التقرير أيضاً أن مثل هذه البرامج تؤثر سلباً على المعلمين والتربويين عبر «الحلقات الدراسية المخصصة لتدريب المعلمين وتأهيلهم» و«توزيع مواد دراسية تكميلية» و«كتب دراسية يدفع ثمنها دافعو الضرائب الذين تربطهم صلة قربى ببعض السعوديين»[2].

أشار تقرير الوكالة التيليغرافية اليهودية بأصابع الاتهام إلى بعض البرامج المطروحة في جامعات مثل جامعة هارفارد وجورج تاون وكولومبيا – وتعدّ تلك برامج رفيعة المستوى– بالإضافة إلى مجموعة من العاملين في سلك التعليم والدبلوماسيين الذين كرّسوا عقوداً من حياتهم في تصحيح مسار البرامج التعليمية في الولايات المتحدة، التي أغفلت الكثير عن العالم العربي.

---

(1) Wessler, «Silenced in the Classroom.»

(2) JTA Staff, «What Your Kids Are Learning about Israel, America and Islam,» Jewish Journal, October 27, 2005, http://www.jewishjournal.com/world/articie/what_your_kids_are_learning_about_israel_america_and_islam_20051028/.

على أي حال، أشار التقرير المطوّل ذاته إلى «تأثير سعودي» مزعوم، يتمثل في برنامج يطلق عليه كُرّاسة دراسات العالم العربي (AWSN: Arab World Studies Notebook)، يسعى إلى تزويد المعلمين في المراحل الثانوية وما بعدها بمواد إضافية ودورات تدريبية من شأنها إثراء طرق تدريسهم للإسلام وتاريخ العرب. حاولت الوكالة التيليغرافية اليهودية (JTA) الإنقاص من قدر هذه الجهود، وصوّرت المواد التعليمية التي تطرحها الكُرّاسة كمواد غريبة ومثيرة للشك من خلال ربط كُراسة دراسات العالم العربي ببعض المساعدات السعودية، فقد ذكر التقرير تقديم شركة أرامكو السعودية (Saudi Aramco) – شركة نفط سعودية بإدارة أمريكية– تبرعات مالية لبرنامج الكُرّاسة، بالإضافة إلى تبرعات أخرى قدمها مجلس سياسة الشرق الأوسط (MEPC)[1]، وهو منظمة تعليمية اتخذت من واشنطن مقراً لها. وعلى الرغم من أن مجلس سياسة الشرق الأوسط كان تحت إدارة شارلز فريمان (Charles Freeman)؛ سفير الولايات المتحدة الأسبق للسعودية، عندما نشرت الوكالة التيليغرافية اليهودية تقريرها، فإن دعم برنامج كُراسة دراسات العالم العربي بدأ بالفعل تحت رعاية سلفه جورج ماكغافيرن (George McGovern)؛ السيناتور الأمريكي الأسبق. أقرّ التقرير كذلك إنكار مجلس سياسة الشرق الأوسط ومؤلف برنامج كُراسة دراسات العالم العربي وجود أي تأثير سعودي، بيد أن التقرير استمر في تأكيد صلة السعودية بكليهما ومن ثمّ بالمجلس وبرنامج الكرّاسة اللذين أصبحا مذنبين لمجرد ارتباطهما بالسعودية.

ورغم هذه الضغوط السلبية، شهدت الفصول التي تُدرّس الإسلام واللغة العربية والثقافة والتاريخ العربي تزايداً في عدد الطلبة المسجلين فيها، غير أن مشاكل خطيرة ونقصاً في عدد الفصول المطلوبة تظل قائمة. فمن بين ألفين وأربعمائة كلية (تصل سنوات الدراسة فيها إلى أربع سنوات) في الولايات

(1) تأسس مجلس سياسة الشرق الأوسط في عام 1981، وهو منظمة تعليمية غير ربحية تسهم في نشر فهم صحيح للقضايا السياسية والاقتصادية والثقافية التي من شأنها التأثير على اهتمامات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. (المترجم)

المتحدة، تقوم ثلاثمائة وسبعون كلية فقط بطرح صفوف لتدريس اللغة العربية. وعلى الرغم من أن عدد الطلبة الذين يدرسون العربية قد تضاعف - يصل عدد الطلبة الذين يدرسون العربية اليوم إلى ثلاثة وعشرين ألف طالب- فإن ألفين وأربعمائة طالب فقط قد انضموا إلى فصول متقدمة قد تؤدي إلى كفاءة عالية في تعلّم اللغة. وإذا ما قُمنا بمقارنة بسيطة، فإن عدد الطلبة الذين يدرسون الألمانية هم أربعة أضعاف أولئك الذين يدرسون العربية، والذين يدرسون الإيطالية أو اليابانية يشكلون ثلاثة أضعاف دارسي العربية. في الواقع، نجد أن عدد الطلبة الذين يدرسون العربية يعادل تقريباً عدد الطلبة الذين يدرسون اليونانية[1]، وأن إحدى وستين جامعة فقط تمنح درجة جامعية في تخصص الدراسات الشرق أوسطية أو الشريعة الإسلامية. إن الاهتمام بتدريس اللغة العربية في الولايات المتحدة -بدءاً برياض الأطفال حتى المرحلة الثانوية- يعدّ سيئاً للغاية. فعلى سبيل المثال، وقد أشار تقرير نشره مركز اللغويات التطبيقية (Centre for Applied Linguistics) عام 2009، أنه في عام 2008، شكل عدد المدارس الابتدائية في الولايات المتحدة التي تمنح الطلبة فرصاً لتعلم العربية واحداً بالمائة فقط (1,0٪) في حين كان العدد أقل من واحد بالمائة بالنسبة إلى المدارس الثانوية[2].

وبالمثل ورغم تزايد ارتباط الولايات المتحدة بالعالم العربي، يظل النقص واضحاً في عدد الأشخاص الذين يتحدثون العربية في الولايات المتحدة. وجد تقرير أعدّه مكتب الحسابات الحكومي (Government Accountability Office) أن ما يزيد على ثلث موظفي الحكومة الفيدرالية، الذين شغلوا وظائف

(1) Nelly Furman, David Goldberg, and Natalia Lusin, Enrollments in Languages other Than English in United States institutions of Higher Education, Fall 2006 (New York: The Modern Language Association of America, 2007), http:// www mla. org/2006_flenrollmentsurvey.

(2) Nancy C. Rhodes and Ingrid Pufahl, Foreign Language Teaching in U.S. Schools: Results of a National Survey (Washington, DC: Center for Applied Linguistics, 2009).

تتعلق بالسياسة الخارجية واللغة العربية عام 2006، كانوا غير قادرين على تحدث العربية بالكفاءة المطلوبة المتناسبة مع مواقعهم الوظيفية(1).

أما ما يوازي افتقار تطور تعليم اللغة العربية هذا، فهو عدم قدرة مكتب الاستخبارات الفيدرالية وغيره من الوكالات الاستخبارية، باستمرار، على تجنيد عملاء يتحدثون العربية. يصف مقال نشرته صحيفة واشنطن بوست (Washington Post) في عام 2006 الأمر كما يلي: «بعد مرور خمس سنين على تنفيذ إرهابيين عرب هجوماً داخل الولايات المتحدة، نجد ثلاثةً وثلاثين عميلاً فقط ممن يعملون لدى مكتب الاستخبارات الفيدرالية، ممن يتمتعون بكفاءة محدودة في تحدث اللغة العربية، ولا يعمل أي منهم داخل الأقسام التابعة للمكتب، التي تنسق تحقيقات خاصة بالإرهاب الدولي، وذلك حسب إحصائيات جديدة قدّمها مكتب الاستخبارات الفيدرالي»(2).

إن هذا النقص الواضح لايزال موجوداً على الرغم من جهود المنظمات العربية الأمريكية، التي بُذلت على أحسن وجه، والتي قامت بنشر إعلانات توظيف وتوزيعها، تخص مكتب الاستخبارات الفيدرالية بناءً على طلبه، على نطاق واسع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وفي الواقع، لقد نجحت هذه الجهود في جذب طالبي الوظائف، على نحو غير متوقع، فبعد مرور بضعة أسابيع على ظهور إعلانات التوظيف، طلب مكتب الاستخبارات الفيدرالي من المنظمات العربية ذاتها أن تقلص هذه الإعلانات، لأن الاستجابات كانت كثيرة جداً وغير متوقعة. اختلفت طبيعة المشكلة الآن ذلك أن مكتب الاستخبارات الفيدرالية حصل على الكثير من طلبات التوظيف التي قدمها أشخاص يجيدون العربية، ولكن العديد منهم وُلد خارج الولايات المتحدة أو كانوا مواطنين أمريكيين تربطهم جذور خارجية بدول عبر البحار، وهم

(1)United States Government Accountability Office, U.S. Public Diplomacy: Key Issues for Congressional Oversight, GAO-09-679SP (Washington, DC: May 2009).

(2) Dan Eggen, «FBI Agents Still Lacking Arabic Skills: 33 of 12,000 Have Some Proficiency,» Washington Post, October 11, 2006, http://www. washingtonpost. com/wp-dyn/content/article/ 2006/10/10/AR2006101001388.html.

بذلك يشكلون مجموعات واجهت ظُلماً، والعديد من العقبات التي تمنع حصولهم على تصاريح لشغل مثل هذه الوظيفة. إذا لم تحدث تغييرات جذرية في ممارسات مكتب الاستخبارات الفيدرالي الخاصة بغربلة طلبات التوظيف، وإذا لم يتم توسيع نطاق فرص تعليم العربية للمواطنين الأمريكيين ممن وُلدوا على أرض الولايات المتحدة، سنظل عالقين في هذا الوضع المألوف؛ أي سنبقى غير قادرين على التواصل بشكل مباشر مع أغلبية من السكان يصل تعدادها إلى ثلاثمائة وخمسين مليون مواطن يقطنون أكثر الأقاليم أهمية من ناحية استراتيجية، في العالم أجمع[1].

يبدو وكأن الحملة التي سعت إلى صدّ الجهود الأمريكية الرّامية إلى تثقيف الأمريكيين، على نحو أفضل، بماهية العالم العربي، لم تكن كافية. لذا، نجد عنصراً آخر في المعضلة المتعلقة بعجز أمتنا عن الاستماع للآخرين، يتمثل في الشخصيات العربية النمطية التي تظهر في وسائل الترفيه الشائعة لدينا. وعلى الرغم من أن الدراما التلفازية وبرامج الترفيه والأفلام قد لا تشكل جزءاً عظيماً ومهماً من برامج التعليم الرسمية، فإن الأثر الذي تتركه على إدراك العامة وفهمهم كل القضايا التي تتعلق بالعِرق والجنس وحتى الأحداث الجارية، يعدُّ مقبولاً في الولايات المتحدة وغيرها من الدول. وفضلاً عن ذلك، يمكن لهذا التأثير الذي تخلّفه إبداعات الثقافة الشعبية أن يخضع للمبالغة بسبب المعرفة الضحلة بالعالم العربي التي توفرها المدارس لطلبتها. إن تتبّع التطور التاريخي لهذه الأنماط يوضح أنها ليست سياسية الطابع، بل هي نتاج أدوات الثقافة الشعبية التي تعد أهم مصادر المعلومات المشكلة لمواقف المواطنين الأمريكيين تجاه العالم العربي، بحسب استطلاع للرأي قامت به مؤسسة زغبي الدولية داخل الولايات المتحدة[2].

(1) Richard Willing, «Arabic Speakers Answer FBI Call for Translators,» USA Today, April 24, 2002, http://www.usatoday.com/news/natian/ 2002/04 / 25/us-arabs-fbi. htm.

(2) Zogby International, Poll of American Opinion, 2009. Sample size: 1,006 adults.

صُوِّر العرب في تاريخ السينما المبكرة كأمة رومانسية. لعب الممثل الشهير رودولف فالنتينو (Rudolph Valentino)؛ أحد أبرز نجوم السينما الصامتة، أدواراً رئيسة كعاشق لاتيني وشيخ عربي. ومن ثمّ تطورت هذه الصورة النمطية لفالنتينو العرب جامعةً صورة البدائي العنيف والرومانسي العاطفي. إلا أن هذه الصورة العنصرية المتحيزة كما في شخصية فالنتينو العرب كانت أقل وضوحاً من الصور النمطية التي تطورت بعد ذلك. ولعلها لا تعدّ مصادفة أن الولايات المتحدة لم تكن لتربطها علاقات بالشرق الأوسط في تلك الحقبة التاريخية.

توطدت علاقات الولايات المتحدة بالمنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية، وبات الكثير على المحك فيما يتعلق بتعريف الأمريكيين بالأمة العربية. لكن، في حقيقة الأمر، لم يشارك عدد كبير من العرب والعرب الأمريكيين في جهود الثقافة الشعبية لتشخيص العرب. وعوضاً عن ذلك، كان أول فيلم سياسي بارز يتحدث عن العرب، وقد ظهر عام 1960، مبنيّاً على رواية **الخروج** (Exodus)[1] للرّوائي ليون يوريس (Leon Uris)، وتتحدث الرواية عن تأسيس دولة إسرائيل من وجهة نظر المستوطنين اليهود. وعندما شاهد ملايين الأمريكيين الفيلم، تحولت أسطورة المهاجرين الأمريكيين الأوائل ورعاة البقر، الذين تميزوا بالشجاعة والإقدام وواجهوا البدائيين من الهنود الحمر العدائيين، إلى أسطورة جديدة اتخذت من الصراع في الشرق الأوسط موضوعاً رئيساً لها. أما الإسرائيليون، فلقد صورتهم السينما «كأشخاص يشبهوننا»؛ أي لامعين أذكياء وأصحاب رؤى حيوية غنية بالأمل والأحلام المتعلقة بحياة أفضل، وهم يواجهون دوماً العرب القُساة، منعدمي المشاعر والأحاسيس، الذين أرادوا قتل الإسرائيليين والقضاء على أحلامهم.

إن الصراع الذي تعكسه هذه الصور النمطية مازال مستمراً على نحو خطير. لقد حازت صورة «رعاة البقر» الإسرائيلين النصيب الأكبر من الأدوار

(1) صدرت رواية الخروج في عام 1959، وحققت أرقاماً قياسية في المبيعات، وقد أبرزت الرواية الصهيوني بدور البطل، وأوردت صورة متخلفة وقذرة للعرب. (المترجم)

السينمائية خلال العقود الماضية. ولكن مازال العرب في الثقافة الشعبية الأمريكية يُصوَّرون، على نطاق واسع، كقتلة مأجورين أو إرهابيين أو شيوخ جَشعين أو الصور الثلاثة مجتمعة، ولا تُستثنى من ذلك سوى حالات قليلة نادرة يحظى فيها العرب بتمثيل إيجابي.

أنهيتُ –عام 1984– دراستي لطرق تشخيص العرب في البرامج التلفازية. قمتُ بمراجعة شاملة للبرامج الترفيهية التي عُرضت خلال أربع سنوات على ثلاث شبكات تخص محطات تلفازية. وكان اللافت للنظر أن شخصيات «العرب» التلفازية الوحيدة التي وجدتها في تلك السنوات الأربع– في عقدين من الزمن، تقريباً، قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر وعقد قبل حرب الخليج الأولى– تمثل أنماطاً سلبية لإرهابيين أو شيوخ بترول. وأشرتُ في دراستي كذلك إلى أن جماعات من شعوب أخرى قد صُوّرت بطريقة نمطية مماثلة. وبالمقابل لاحظتُ أن المحطات ذاتها احتوت برامجها الترفيهية على تمثيل لشخصيات صادقة وعميقة من الإيطاليين واليهود والإيرلنديين والأمريكيين الأفارقة. إن هذا التصوير الأكثر توازناً أسهم في تعويض الصور النمطية السلبية. وعلى أي حال، فبالنسبة إلى الشخصيات العربية، كان الوصف الوحيد المتوافر وصفاً كاريكاتيرياً سلبياً ترك تأثيراً عميقاً في المشاهدين.

تسلحت ببحثي هذا وراسلت المحطات التلفازية المعنية وطلبت مقابلتهم، فلم تستجب محطة أ. بي. سي (ABC). أما المديرون التنفيذيون في محطة سي. بي. إس (CBS) فوافقوا على مقابلتي، لكنهم رفضوا قلقي حيال تشخيص العرب في برامجهم، وأخبروني أن «كُلاً يُغني على ليلاه» ويتذمر بشأن أمر ما. فعلى سبيل المثال، أشار أحد الموظفين التنفيذيين في شبكة سي. بي. إس إلى أن متحدثاً باسم منظمة تمثل مزارعي البطاطس زاره قبل أسبوع، وكان غاضباً لأن شخصية ظهرت في أحد البرامج الاستعراضية التي بثتها المحطة أوحت إليه أن البطاطس تسبب السمنة. ومما زاد الوضع سوءاً، أن موسم البطاطس لم يكن وفيراً، آنذاك، كما توقع المزارعون.

لم تأخذ المحطات المعنية الأمر على محمل الجد باستثناء محطة إن. بي. سي (NBC) التي دعت إلى اجتماع التقى فيه المنتجون والمؤلفون لبحث سبل معالجة الموقف. تأثر المخرج والمنتج الراحل بروس بولترو (Bruce Paltrow)؛ الرجل المبدع الذي أنتج السلسلة الدرامية **الظلّ الأبيض** (The White Shadow) والدراما الطبية مستشفى «القديس في مكان آخر» (St. Elsewhere)، اللتين حازتا جوائز تلفزيونية في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، بالتقرير الذي ناقشته أمام مسؤولي المحطة. عرض بالترو أن يقوم أحد مؤلفي مسلسل مستشفى (سينت إلسوير) «القديس في مكان آخر»، بالعمل معي لتقديم شخصية طبيب عربي لينضم إلى طاقم التمثيل. كان ذلك عرضاً ملائماً، وبخاصة بعد هجرة عدد لا بأس به من الأطباء العرب إلى الولايات المتحدة للعمل في مستشفياتها بسبب عدم توافر فرص العمل المناسبة في الوطن العربي.

بعد مرور أيام قليلة، خابرني أحد المؤلفين وناقشنا بعض الأفكار والخطوط العامة لقصة النص الجديد، وكان حواراً إيجابياً للغاية، ووعد بإرسال نص جديد هو أشبه «بتشخيص» لرؤية جديدة، خلال بضعة أسابيع. عندما استلمت النص وجدت أن المشهد الأول يصور سيارة ليموزين وقفت أمام المستشفى، ليخرج منها طبيب سعودي لبس رداءً أبيض اللون وغطاءً للرأس (الكوفية). يدخل الطبيب المستشفى ثم يتوجه مباشرة إلى ركن الهدايا حيث يتصفح بعض المجلات إلى أن يعثر على مجلة **البلاي بوي** (Play boy). يتصفح الطبيب المجلة، إلى أن يصل إلى صفحة المنتصف، فينظر إلى الصورة الكاملة الموجودة فيها باستحسان شديد ثم ينطق بأولى كلماته فيقول: «يعجبني هذا. لا يوجد مثل هذا الأمر في موطني».

أما بقية القصة فكانت مسلية في الواقع، وظهر الطبيب السعودي كشخص طيب القلب. لكنني لم أستطع السماح بوجود المشهد الافتتاحي السخيف. ناقشتُ الأمر مع المؤلف، لكن موقفه كان متعنتاً. أدركتُ حينها أن مشكلة التحيز الثقافي التي نعاني منها عظيمة إلى درجة أن مؤلف النص التلفزيوني

اضطر إلى الاعتماد على شخصية كاريكاتيرية سعودية حتى عندما كان الأول يحاول محاربة الصور النمطية للعرب– ببساطة، لم تتوافر لديه صور بديلة للعرب ليستشهد بها. في نهاية المطاف، لم يعرض المؤلف النص الجديد على بالترو، وكنا نقترب من نهاية موسم عرض المسلسل الدرامي، فكان منشغلاً للغاية ولم يستطع أن يعيد كتابة النص بأكمله. على أي حال، لم تظهر شخصية الطبيب السعودي الشبق ذي الرداء الأبيض الذي يركب الليموزين، على شاشة التلفاز مطلقاً. انتهت المحطة من عرض الدراما التلفزيونية مستشفى القديس في مكان آخر، واتضح أن محاولتي لتوسيع نطاق الشخصيات العربية، التي تظهر على شاشات التلفزة الأمريكية، كانت مثيرة للاهتمام وشيقة غير أنها لم تُجْدِ نفعاً.

لقد بذل المعنيون في هوليوود جهداً بسيطاً لتوسيع نطاق تشخيص العرب في السينما الأمريكية، وذلك تيمّناً بالعديد من الأمريكيين الذين حاولوا فهم العالم العربي بعد وقوع مأساة الحادي عشر من سبتمبر. لكن هذا التطور في السينما الأمريكية كان بطيئاً جداً. أظهرت دراسة للأفلام الأمريكية أعدت عام 2008 ونُشرت قبل أحداث تفجيرات مركز التجارة العالمي، عدداً ضئيلاً للغاية –لا يتجاوز الاثنتى عشرة محاولة إيجابية– لتمثيل شخصيات عربية من أصل تسعمائة شخصية عربية أظهرت العرب بصورة نمطية سلبية. وجدت الدراسة كذلك أنه منذ أن نفّذ الإرهابيون الهجوم، أنتجت هوليوود مائتي شخصية عربية، كان عدد الشخصيات الإيجابية منها أقل من ثلاثين شخصية[1]. من وجهة نظر إحصائية، يعدّ هذا التطور من 99٪ من التصوير السلبي للعرب في السينما الأمريكية إلى 85٪، تطوراً مهماً وفعالاً. لكن الأرقام تشير كذلك إلى أن هناك الكثير مما يحتاج تغييراً جذرياً. فمازالت الشخصيات العربية في أفلامنا المفضلة بعيدة عن الواقع، ومتوغلة في الأساطير والجهل. لسوء الحظ، تركت هذه الصور النمطية– بالإضافة إلى افتقار، واسع النطاق، إلى معرفة

(1) Jack Shaheen, Guilty: Hollywood's Verdict on Arabs After 9/11 (New York: Olive Branch Press, 2008).

صحيحة بماهية العرب الحقيقية- الباب مفتوحاً على مصراعيه لجدل خاطئ وعقيم يدور حول أفضل الطرق لجعل العالم العربي الحقيقي جزءاً من عالمنا هذا.

الفصل الرابع

اللورد بلفور في الماضي والحاضر

كان آرثر جيمس بلفور (Arthur James Balfour) شخصية مهيبة. تلقى تعليمه في كلية إيتون (Eton College) وكلية ترينيتي (Trinity College) وجامعة كامبردج، ليصبح رئيس وزراء بريطانيا في الفترة الواقعة ما بين عام 1902—1905. كان بلفور أحد العناصر القيادية في حزب المحافظين البريطاني لنصف قرن، وأحد المفكرين الأرستقراطيين المهيمنين في عصره.

منذ عهد بلفور، تغيرت بعض العوامل المشكّلة لعلاقة الغرب بالشرق الأوسط. بدأت الحكاية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية وبعد بضعة عقود من وعد بلفور الشهير في عام 1917 عندما اندلعت المقاومة الرامية إلى تحقيق الاستقلال وتقرير المصير في كل أنحاء العالم. خلال فترة من الزمن لم تتجاوز عقداً واحداً، تقلصت الأقاليم الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية البريطانية التي بلغت ذروتها بعد الحرب العالمية الأولى. وعندما انتهى الاستعمار رسمياً، ظهر إجماع عام يعكس وجهة نظر الرئيس ويلسون الذي اعتقد أنه لم يعد مقبولاً (أو حتى ممكناً من وجهة نظر سياسية) أن تعلن الدول أنها، ببساطة، لا تأبه برغبات السكان المحليين الذين يقطنون الأراضي التي تسيطر عليها هذه الدول ولا بحقوقهم.

تعدّ الولايات المتحدة اليوم اللاعب الدولي المهيمن في منطقة الشرق الأوسط، غير أن عصر المثالية الويلسونية قد ولّى منذ زمن طويل. ويبدو أن القيادة السياسية اتبعت خطوات بلفور لا خطوات ويلسون، في حالات عديدة وبخاصة أنها تعمل دون إبداء أي اعتبار لرغبات العرب ووجهات نظرهم. إن القضية التي سنعالجها في هذا الفصل تتعلق بكيفية تعامل الحزبين السياسيين الرئيسين في أمريكا والكونغرس الأمريكي مع وضع مدينة القدس.

لطالما كان من المفهوم أن القدس تشكل إحدى أكثر القضايا حساسية في الصراع العربي- الإسرائيلي. ولأن للقدس أهمية خاصة بالنسبة إلى اليهود والمسيحيين والمسلمين، نصّ قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام 1948 على تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية، لكنه ترك القدس لتتمتع بوجود مستقل. فبدلاً من تقسيم المدينة بين شعبين متنازعين، سعت الأمم المتحدة إلى جعل المدينة «منطقة دولية» تديرها الأمم المتحدة بنفسها[1].

رأت إسرائيل ضرورة تقسيم القدس لتصبح القدس الغربية تحت سيطرتها، في حين يحصل العرب على القدس الشرقية، ولاسيما بعد أن حققت إسرائيل نصراً عسكرياً وأعلنت استقلالها في عام 1948. لم يكن قرار إسرائيل بإعلان القدس عاصمةً لدولتها مقبولاً لدى الأمم المتحدة أو الغالبية العظمى من الدول الأعضاء التي أربكها هذا القرار. لذلك، أبقت الولايات المتحدة وبريطانيا وقوى رئيسة أخرى، سفاراتها في تل أبيب.

احتلت إسرائيل الأراضي الفلسطينية كاملة بما في ذلك القدس الشرقية بعد اندلاع حرب 1967 أو ما يُعرف بحرب الأيام الستة، وأوضحت إسرائيل، بعد ذلك مباشرة، أنها لا تضم القدس الشرقية إلى دولتها فقط، وإنما مساحات شاسعة من الأراضي الممتدة حول المدينة كذلك، لتعلن بذلك قيام «القدس العظمى» («Greater Jerusalem»). أضافت إسرائيل صبغة رسمية على قرارها أحادي الجانب عبر إصدار «القانون الرئيس الخاص بالقدس» عام 1980، الذي أعلن مدينة القدس عاصمة «موحدة» لدولة إسرائيل[2]. أدان مجلس الأمن قرار إسرائيل وعدّه «باطلاً»[3]. ومن الجدير بالذكر أن الدول جميعاً لا تعترف في الوقت الحاضر بقرار ضم إسرائيل -عنوةً- أراضي فلسطينية، وترفض كذلك نقل سفاراتها إلى القدس.

---

(1) United Nations General Assembly, Resolution 181, Part III, The City of Jerusalem, November 29, 1947.

(2) Israeli Knesset, Basic Law: Jerusalem, Capital of Israel, July 30, 1980.

(3) United Nations Security Council, Resolution 478, August 20, 1980.

ظلت القدس منذ عام 1967 النقطة الحاسمة التي تشعل فتيل التوتر والعنف في الصراع العربي-الإسرائيلي الدائر. لم يتخذ الفلسطينيون موقفاً صارماً يعارض قرار إسرائيل ضم أراضٍ فلسطينية إلى حدود دولتها ويرفض المقاييس الإسرائيلية الخاصة بالقدس وما حولها فحسب، وإنما اتخذت الجامعة العربية (التي تمثل اثنتين وعشرين دولة عربية) ومنظمة المؤتمر الإسلامي (OIC) (التي تمثل سبعاً وخمسين دولة إسلامية) الموقف ذاته. صادق مجلس وزراء الخارجية في منظمة المؤتمر الإسلامي عام 2008 على قرار «يؤكد مركزية قضية القدس الشريف بالنسبة إلى الأمة الإسلامية جمعاء»[1]. وبعد مرور عام، وتحديداً في تشرين الثاني من عام 2009، أعلن مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في المغرب أن «مسألة الحرم الشريف في القدس تعدّ خطاً أحمر ولا يجوز التعامل معها بتراخٍ أو أن تكون جزءاً من أي جدل عقيم»[2]. يقول شبلي تلحمي (Shibley Telhami)؛ أستاذ العلوم السياسية في مركز أنور السادات للسلام والتنمية في جامعة ميرلاند: «لا توجد قضية خاصة بإسرائيل، تثير مشاعر العالمين العربي والإسلامي مثل هذه القضية. إن قضية القدس تُستثار في كل جمهرة سياسية، دينية وشعبية، مثيرةً حماسة الشعوب»[3].

أدركت المملكة المتحدة والاتحاد الأوروبي مدى حساسية قضية القدس تلك، فأعلنا رفضهما لقرار إسرائيل ضم أراضي القدس إليها، وأيدا معاً قرار الأمم المتحدة بإعلان القدس «منطقة دولية»، وأكدا أن مستقبل المدينة يجب أن يُقرر عبر المفاوضات بين العرب والإسرائيليين[4]. تبنت حكومة الولايات

(1) Council of Foreign Ministers, Organization of the Islamic Conference, Resolutions on the Cause of Palestine, The City of Al-Quds Al-Sharif, and the Arab-Israeli Conflict, Kampala, Uganda, June 18-20, 2008.

(2) Executive Committee, Organization of the Islamic Conference, Final Communique on the Israeli Aggressions Against the Blessed Al Aqsa Mosque, Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia, November 1, 2009.

(3) Shibley Telhami, «If at First You Don't Succeed, Postpone,» Los Angeles Times, July 14, 2000, http://articles.latimes.com/2000/jul/14/local /me-52987.

(4) Foundation for Middle East Peace, «Europe Affirms Support for a Corpus Separatum

المتحدة هذا الموقف الرسمي أيضاً، بيد أن هذا الإجماع الدولي على أهمية القدس بالنسبة إلى العرب والمسلمين وحساسية الموقف، لم يمنع الكونغرس أو الحزبين الديمقراطي والجمهوري من تحويل قضية القدس، على نحو دوري، إلى ما يشبه لعبة كرة قدم سياسية الطابع.

استخدم كلا الحزبين، خلال العقود الأربعة الماضية، سلاح اللغة في برامجهما السياسية الرسمية، فاستحثا حكومتهما على الاعتراف بالقدس «عاصمة إسرائيل الموحدة»، أو دعيا البيت الأبيض إلى نقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس[1]. فعلى سبيل المثال، نصّ بيان البرنامج السياسي للحزب الجمهوري عام 2008 على ما يلي: «إننا ندعم إعلان القدس عاصمة إسرائيل الموحدة»، ثم دعا البيان إلى «نقل السفارة الأمريكية إلى هذه العاصمة غير المجزأة»[2]. أما الديمقراطيون فكانوا أكثر غموضاً حين حمل بيانهم بين طياته معنيين متباينين، وينص البيان على ما يلي: «إن القدس عاصمة إسرائيل وستبقى كذلك، لقد وافق الحزبان على أن قضية القدس تشكل موضوع المفاوضات التي ستقرر المصير النهائي لهذه المدينة. يجب أن تبقى القدس موحدة، غير مجزأة ومتاحة لجميع الشعوب على اختلاف دياناتها»[3].

تدخل الكونغرس أيضاً فاقترح، بصورة منتظمة، إصدار تشريع للضغط على رئيس الولايات المتحدة ودفعه إلى تجاهل وجهة نظر العرب والاعتراف بمطالب إسرائيل الحصرية بمدينة القدس. لذلك، بُذلت جهود مختلفة، بَدَت

---

for Greater Jerusalem,» Settlement Report 9 (May 1999), http://www.fmep.org/reports/special-reports/israels-uncertain-victory-in-jerusalem,/europe-affirms-support-for-a-corpus-separatum-for-greater-jerusalem.

(1) See a survey of Democratic and Republican Party platforms going back to 1972 in: James Zogby, «Washington Watch: The 1996 Democratic and Republican Platforms» (Arab American Institute, August 26, 1996), http:// www aaiusa. org/washington-watch/1297/wo82696.

(2) Republican National Convention Committee, 2008 Republican Platform, 12.

(3) Democratic National Convention Committee, The 2008 Democratic National Platform: Renewing America's Promise, 39.

حزبية الطابع، في ثمانينيات القرن لتحقيق هذا الهدف. تحول الأمر إلى ما يشبه «اللعبة» التي وصفها مسؤول سابق في اللّوبي الإسرائيلي المعروف بلجنة الشؤون الخارجية الأمريكية الإسرائيلية أو آيباك (AIPAC) فقال: «يحاول الحزب خارج أسوار البيت الأبيض إحراج المسؤولين داخل البيت الأبيض لدفعهم إلى إصدار قانون لنقل سفارة الولايات المتحدة... ففي عام 1980 حاول الجمهوريون إحراج الرئيس جيمي كارتر... وبعد أربع سنين، عندما أصبح رونالد ريغان رئيساً للدولة، رفع الديمقراطيون بزعامة باتريك موينيهان (Patrick Moynihan)؛ سيناتور نيويورك، وتوم لانتوس (Tom Lantos)؛ سيناتور كاليفورنيا، علم القدس»[1]. أخفقت كلتا المحاولتين، في نهاية المطاف، ويُعزى ذلك إلى التحذيرات التي أطلقها البيت الأبيض والمخابرات الأمريكية حول المخاطر المتعلقة بمثل هذه الخطوة، التي ستعرّض مصالح الولايات المتحدة وأمنها لخطر فعلي.

بعد ذلك، في عام 1995، وفي خضم مرحلة حساسة ودقيقة من مراحل مفاوضات السلام الإسرائيلي- الفلسطيني، قدم السيناتور روبرت دول (Robert Dole) مشروع قانون سفارة القدس (Jerusalem Embassy Act). استخدم مشروع القانون المقترح مصطلح «العاصمة الموحدة لإسرائيل» لوصف القدس، وهدّد بمنع جزء كبير من التمويل المقدم لوزارة الخارجية حتى تقوم الولايات المتحدة بتدشين سفارتها في القدس[2]. وعندما تمت الموافقة على مشروع القانون بأغلبية ساحقة، شعر الرئيس بيل كلينتون بأنه ملزم بالتوقيع على مشروع القانون وإجازته. غير أن القانون الصادر اشتمل على شرط منح الرئيس الحق في إرجاء تطبيق القانون لأسباب تتعلق «بالأمن القومي»، فأوقف كلينتون القانون دون إبطاء (وكذلك فعل الرئيس جورج بوش وباراك أوباما)،

(1) Douglas Bloomfield, «Jerusalem Football is in the Air Again,» The Jewish State, November 13, 2009, http://thejewishstate.net/nov1309opedbloomfield.html.

(2) Jerusalem Embassy Act of 1995, Public Law 104-45, 104th Cong., Ist sess. (November 8, 1995).

لذلك لم تنقل السفارة الأمريكية إلى القدس.

لم يثبط ذلك الكونغرس أو يعقه عن الاستمرار في الضغط على حكومة الولايات المتحدة بشأن هذه القضية. فعلى سبيل المثال، قدّم السيناتور الجمهوري سام براونباك (Sam Brownback) من ولاية كانساس مشروع قانون نقل سفارة القدس (Jerusalem Relocation Act) ويعدّ ذلك محاولة جديدة للضغط على البيت الأبيض لإجازة القانون، ولقد هدّد السيناتور براونباك بتقليص ميزانية وزارة الخارجية المخصصة لإدارة شؤون الدولة في البلاد الواقعة ما وراء البحار، إذا ما أخفق البيت الأبيض في البدء بإنشاء مبنى السفارة الأمريكية في القدس[1].

لا يتوقف تجاهل الكونغرس مشاعر العرب وهمومهم عند قضية القدس تلك، فعشرات مشاريع القوانين المتحيزة للإسرائيليين تُقدم، كل عام، والعديد من الرسائل الموجهة لرئيس الولايات المتحدة توزع على أعضاء الكونغرس سعياً للمصادقة عليها. تهدف هذه الوثائق كلها إلى الضغط على البيت الأبيض ليتبنى موقفاً أحادي الجانب فيما يتعلق بالعديد من القضايا الحساسة الخاصة بالشرق الأوسط.

عندما بدأ الرئيس أوباما جهوده لاستئناف مفاوضات السلام الإسرائيلية- الفلسطينية، حاول أن يخلق نوعاً من التوازن. دعا أوباما الأطراف المعنية جميعها، وطلب منها أن تخلق جواً من الثقة المتبادلة واللازمة لبدء الحوار. حاول أوباما الضغط على إسرائيل لتجميد بناء المستوطنات في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1967. وبالمثل، استحث أوباما الفلسطينيين لوقف العنف والتحريض الشفهي ضد دولة إسرائيل، وضغط أوباما على حكومات دول عربية أخرى لتعلن نيتها الواضحة للتطبيع مع إسرائيل وتسوية علاقاتها معها كجزء من شروط معاهدة سلام نهائية.

وبينما اجتمع مندوبو الرئيس مع المسؤولين الإسرائيليين والعرب كمحاولة

(1) Jerusalem Embassy Relocation Act of 2009, S 2737, 111th Cong., Ist sess. (November 5, 2009).

لضمان التزام الطرفين باتخاذ الخطوات سابقة الذكر، دبّ شجار بين أعضاء الكونغرس. وقعت الغالبية العظمى من سيناتورات الولايات المتحدة وممثلو أحزاب مختلفة على رسائل مختلفة توجه مزيداً من الضغوط على الجانب العربي وحده، وكانت هذه الرسائل محاولة للحط من قدر جهود الرئيس لطرح مطالب متوازنة على الطرفين المعنيين على حد سواء. فعلى سبيل المثال، كانت الجملة الافتتاحية في الرسالة التي وجهها مجلس الشيوخ للرئيس، كما يلي: «نحن نكتب هذه البيانات لدعم جهودكم الرامية إلى تشجيع الدول العربية لتطبيع علاقاتها مع دولة إسرائيل»[1]. أما بقية البيان الموجه للرئيس فهو مدح لدولة إسرائيل وتجاهل لمسألة المستوطنات، ثم جاءت الخاتمة محملة بدعوة الرئيس إلى «الاستمرار في الضغط على القادة العرب، آخذة بعين الاعتبار بعض اللفتات الدرامية المؤثرة، نحو دولة إسرائيل»[2]. وعلى الرغم من أن هذا النوع من الخطاب لا يشكل وحده سياسة الدولة، لكنه بالتأكيد يبعث برسالة إلى البيت الأبيض من شأنها تقييد تأثير الرئيس، ورسالة أخرى واضحة للغاية إلى شعوب العالم العربي مفادها أن وجهات نظرهم لا أهمية لها البتة.

رفض الكونغرس مؤخراً نتائج تحقيق أجرته الأمم المتحدة (من كانون الأول عام 2008 حتى كانون الثاني عام 2009) بخصوص حرب غزة (Gaza War)، التي نشبت بين القوات الإسرائيلية وقوات حماس. أثار الصراع الدموي الذي أدى إلى مقتل ما يقارب الألف وأربعمائة فلسطيني، وتدمير أجزاء شاسعة من مدينة غزة، غضباً عارماً داخل حدود العالم العربي وخارجها.

أُوكلت مهمة اتخاذ قرار بشأن ما حدث خلال حرب غزة، إلى ريتشارد غولدستون (Richard Goldstone)؛ القاضي المولود في جنوب إفريقيا والخبير القانوني الحائز على احترام العالم وثنائه لجهوده الحثيثة التي حققت في جرائم الحرب في يوغسلافيا السابقة ورواندا، ولدوره القيادي في إدارة

(1) Letter from 71 senators to President Barack Obama, sponsored by Senator Evan Bayh (D-IN) and Senator James Risch (R ID), August 7, 2009.

(2) المرجع السابق

لجنة تقصي الحقائق في جنوب إفريقيا. أعلن غولدسميث بعد مرور خمسة أشهر من التحقيقات وتحديداً في الخامس عشر من أيلول من عام 2009، أن كلا من إسرائيل وحماس مذنبتان بارتكاب محتمل لجرائم حرب مختلفة[1]. وعلى الرغم من شهرة غولدستون وتقريره الشامل والمستفيض وقلق العرب المستمر حيال الدمار الذي تسببت به الحرب، أصدر ممثلون عن الحزبين الأمريكيين -مباشرة- وابلاً من التصريحات القاسية التي هاجموا من خلالها غولدستون وتقريره[2].

أطلق النائب الديمقراطي غاري أكيرمان (Gary Ackerman)؛ ممثل ولاية نيويورك، خلال ساعات قليلة من إعلان تقرير غولدستون البالغ خمسمائة وخمساً وسبعين صفحة، عبارة وصفت التقرير بكونه: «خطبة سياسية لاذعة، تتسم بالغرور والتحيز لجانب واحد بعينه»، واتهم غولدستون بأنه يعيش على «أرض الخيال، وأنه يعتقد أنه أكثر أخلاقاً من الآخرين»[3]. أما النائب الديمقراطي إليوت إنجيل (Eliot Engel)؛ ممثل ولاية نيويورك أيضاً، والنائبة الديمقراطية شيلي بيركلي (Shelley Berkley)، ممثلة ولاية نيفادا، فوصفا التقرير بأنه «متحيز ضد إسرائيل منذ البداية»[4]. لم يكن النائب الجمهوري دان بيرتون (Dan Burton)؛ ممثل ولاية إنديانا، أقل قسوة، فلقد رفض التقرير رفضاً

---

(1) U.N. Human Rights Council, Twelfth Session, Official Records, Agenda item 7, Human Rights in Palestine and other occupied Arab Territories: Report of the United Nations Fact Finding Mission on the Gaza Conflict, A/HRC/12/48, September 15, 2009.

(2) Laura Friedmen, «Americans for Peace Now Legislative Round-Up for the Week Ending September 18, 2009,» Americans for Peace Now, September 18, 2009, http://peacenow.org/entries/apn-legislative_ round- up for- the_week_ending_ september_18_2009.

(3) Office of US, Representative Gary Ackerman, «Ackerman Blasts Goldstone as `Pompous, Tendentious, One-sided Political Diatribe,»' news < release, September 16, 2009.

(4) Office of U.S. Representative Eliot L. Engel, «Reps. Engel, Berkley Slam U.N. `Goldstone' Report on Gaza Conflict,» news release, September 17, 2009.

«قاطعاً» لأنه صادر عن مجلس حقوق الإنسان (Human Rights Council) الذي ادعى أن «طغاة متآمرين» يسيطرون عليه[1]. أما النائب الجمهوري تود تايهارت (Todd Tiahrt)؛ ممثل ولاية كينساس، فلقد ساهمت كلماته في تسريع وتيرة هذا السباق الخطابي عندما ادعى أن مجلس حقوق الإنسان «يقع تحت سيطرة أمم مناهضة للديمقراطية والسامية»[2]. أما النائبة الجمهورية إلينا روز- ليتينين (Ileana Ros–Lehtinen)؛ ممثلة ولاية فلوريدا، فقد وصل بها الحدّ إلى تعنيف هيئة الأمم المتحدة بأكملها ووصفها بأنه «مستشفى للأمراض العقلية يديره النزلاء أنفسهم»[3].

في الثالث من تشرين الثاني عام 2009، أصدر مجلس النواب الأمريكي- بأغلبية ثلاثمائة وأربعة وأربعين صوتاً مؤيداً للقرار، ومعارضة ستة وثلاثون نائباً وامتناع اثنين وعشرين عن التصويت- قراراً يرفض النتائج المعلنة في تقرير غولدستون، ودعا القرار إدارة أوباما إلى رفض التقرير تماماً[4].

لا يعدّ هذا الميل إلى تجاهل اهتمامات العرب وهمومهم، حكراً على الكونغرس أو الأحزاب السياسية في الولايات المتحدة، فلقد أخفقت إدارات البلاد؛ الجمهورية والديمقراطية على حد سواء، في إبداء الاهتمام الكافي بشؤون العالم العربي.

لاحظ الخبراء الذين كانوا جزءاً من الجهود الخاصة بالشرق الأوسط، إبان

(1) Representative Burton of Indiana, speaking on the Goldstone Report, on September 16, 2009, in the House of Representatives, 111th Cong., Ist sess., Congressional Record 155, Extensions: E2295-96.

(2) Representative Tiahrt of Kansas, speaking on the Goldstone Report, on , September 23, 2009, in the House of Representatives, 111th Cong., Ist sess., Congressional Record 155, Extensions: E2350.

(3) Representative Ros-Lehtinen of Florida, speaking on the United Nations, an September 22, 2009, in the House of Representatives, 111th Cong., 1st sess., Congressional Record 155: 9741-42.

(4) Laura Friedman, «Americans for Peace Now Legislative Round-Up for the Week Ending November G, 2009,» Americans for Peace Now November G, 2009, http://peaccnow.org/entries/legislative_round-up_november_6_2009.

إدارة كلينتون، أن هناك حالات واضحة تم فيها تجاهل القضايا الحساسة الخاصة بالعالم العربي، على الرغم من الجهود الصادقة التي بذلها البيت الأبيض لتحقيق السلام. ولقد وجدتُ عبر تعاملي المتكرر مع فريق الرئيس كلينتون أنه على الرغم من التزامه العميق بقضية السلام، فإن أفراده نظروا إلى المنطقة العربية والصراع العربي- الإسرائيلي من وجهة إسرائيلية بحتة، ولم يتمكن الفريق من تحقيق التوازن المطلوب بين هذا المنظور ومحاولة فهم وجهة نظر العرب.

لنورد هنا مثالاً مهماً. تستشهد دراسة نشرها المعهد الأمريكي للسلام (US. Institute of Peace) وتتحدث عن تاريخ صُنع السلام، وعنوانها «مفاوضات السلام العربي - الإسرائيلي»، بكلمات مسؤول سابق في إدارة كلينتون، يتحدث عن القدس تحديداً فيقول: «لم يحتو فريقنا على أي خبير بشؤون الإسلام أو آراء المسلمين... [لذلك] عندما كان الأمر يتعلق بالقدس، فإنك تجد أموراً تعكس افتقارنا إلى المعرفة المطلوبة، وأخرى تكشف عن مدى حيرتنا»[1]. يخبرنا آرون دايفيد ميلر (Aaron David Miller)-الذي عمل مستشاراً لشؤون الشرق الأوسط لستة وزراء خارجية، وكان مندوباً عن مبعوث الولايات المتحدة للشرق الأوسط خلال إدارة كلينتون- عن فريق العمل الذي عمل معه، فيقول: «لقد تصرّفت هذه الفرقة الصغيرة، في إدارة كلينتون، التي كنت جزءاً منها، مثل محامٍ يدافع عن طرف واحد، ألا وهو إسرائيل»[2].

لسوء الحظ، تجاوزت المشكلة كيفية تعامل إدارة كلينتون مع الصراع العربي-الإسرائيلي. وسأورد هذه الحادثة التي عشتها شخصياً وتتعلق بمعارضة الإدارة الأمريكية للدعوة إلى إعادة انتخاب بطرس بطرس غالي كأمين عام للأمم المتحدة. نال بطرس غالي احترام الجميع كوزير خارجية مصر الأسبق، وكان

(1) Daniel C. Kurtzer and Scott B. Lasensky, Negotiating Arab-Israeli Peace: American Leadership in the Middle East (Washington, DC: United States Institutes of Peace, 2008), 53.

(2) David Aaron Miller, The Muck Too Promised Land (New York: Bantam Dell, 2008), 75.

دوره في الأمم المتحدة مصدر فخر لا للعرب فحسب، وإنما للأمم الإفريقية أيضاً.

طلب بطرس غالي مساعدتي عندما تقدم بطلب لإعادة انتخابه. وعندما استضفته في برنامجي وجهة نظر رئيسة (Capital View) عبّر عن استيائه لعدم توضيح الولايات المتحدة الأسباب وراء رفضها ترشيح نفسه للمرة الثانية لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة[1]. لم يحصل بطرس غالي على دعم الدول العربية والإسلامية فقط، وإنما نال دعم عدد من السيناتورات في الولايات المتحدة ودعم المجلس الوطني للكنائس (National Council of Churches) ومؤتمر الأساقفة الكاثوليك (U.S. Catholic Bishops Conference) في أمريكا. اتهم السيناتور الديمقراطي بول سايمون (Paul Simon)؛ ممثل ولاية إلينوي، الإدارة الأمريكية «بالسماح للسياسة الداخلية بالتحكم في خيار يصبّ، واقعياً، في مصلحتنا الوطنية ومصلحة الأمم المتحدة والمجتمع الدولي»[2]. اتفق الصحفي المعروف أ. م. روزينتال (A.M. Rosenthal) من نيويورك تايمز مع السيناتور سايمون، وحثّ الأول الرئيس الأمريكي أن يعيد النظر في شأن بطرس غالي حتى تظهر الولايات المتحدة بمظهر إيجابي وليس كدولة «تخلّت عن المنطق واحترام حقوق الدول الصديقة وآرائها، من أجل مصالحها الشخصية»[3]. تابعت الولايات المتحدة معارضتها إعادة انتخاب بطرس غالي الذي نال دعم الأغلبية العظمى من الأمم، واستخدمت حق الفيتو لتحقيق ذلك، مما دفع السيناتور سايمون إلى القول إن الطريقة التي تصرفت بها الإدارة الأمريكية لا تليق بقوة عظمى مطلقاً.

نجد كذلك العديد من الأمثلة التي توضح رفض الولايات المتحدة إبداء الاهتمام بمشاعر العرب، ولعلّ أبرز هذه الأمثلة هو فرض الإدارة الأمريكية

(1) Boutros Boutros-Ghali, interview by James Zogby, A Capital View, Arab Network of America, November 20, 1996.

(2) James Zogby, «Washington Watch: Boutros Boutros-Ghali, the US. and the U.N,» Arab American Institute, November 25, 1996.

(3) A.M. Rosenthal, «The No-Win Gamble,» New York Times, November 12, 1996.

عقوبات مهلكة وطويلة الأمد على العراق في تسعينيات القرن الماضي. وعلى الرغم من سعي برنامج العقوبات المفروضة إلى معاقبة حزب البعث في بغداد بعد غزو واحتلال العراق جارتها الكويت عام 1990، فإن العقوبات أدّت إلى معاناة الشعب العراقي وإفقاره. خسرت القيادة العراقية دعم العرب لها بسبب ما فعلته بالكويت، بيد أن الضريبة الباهظة التي دفعها العراقيون بسبب هذه العقوبات كانت أمراً مرفوضاً في كل أنحاء الوطن العربي[1].

لم تفهم إدارة كلينتون آنذاك، قلق العرب المتزايد، ويبدو ذلك واضحاً في الحوار التلفزيوني المشين الذي أجرته مذيعة قناة سي. بي. إس (CBS) ليزلي ستول (Lisely Stahl) مع وزيرة الخارجية الأمريكية حينها، مادلين أولبرايت (Madeleine Albright)، في الثاني عشر من أيار عام 1996 [2].

ليزلي ستول [متحدثة بخصوص العقوبات المفروضة على العراق]: «علمنا أن نصف مليون طفل قد قضوا، ويفوق ذلك عدد الأطفال الذين قُتلوا في هيروشيما. هل يستحق الأمر هذا الثمن الباهظ؟»

مادلين أولبرايت: «أعتقد أنه اختيار صعب للغاية، أما فيما يتعلق بالثمن الباهظ، فنحن نعتقد أن الأمر يستحقه»[3].

وعلى الرغم من أن مادلين أولبرايت عبرت عن أسفها، بعد مرور عدة سنوات لاختيارها تلك الكلمات[4]، فإن لغتها أكدت الرؤية الواضحة التي تشير إلى عدم مبالاة الغرب بخسارة أرواح عربية.

وفي صيف عام 2000، عندما سعت إدارة كلينتون إلى تأمين اتفاقية سلام بين العرب وإسرائيل في كامب ديفيد –وألقى الرئيس كلينتون اللوم علناً على

(1) Barbara Crossette, «White House Steps Up Effort To Deny U.N. Chief a 2d Term,» New York Times, November 7, 1996, http://www.nytimes.com/1996/11/07/world/white-house-steps-up-effort-to-deny-un-chief-a-2d-term.html.

(2) UNICEF, «Iraq Surveys Show Humanitarian Emergency,» news release, August 12, 1999, http://www.unicef.org/newsiine/99pr29.htm.

(3) Madeleine Albright, interview by Lesley Stahl, 60 Minutes, CBS, May 12, 1996.

(4) Madeleine Albright, Madam Secretary: A Memoir (New York: Hyperion, 2003), 274.

الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات لفشل المفاوضات، منحازاً إلى وزير خارجية إسرائيل إيهود باراك (ومن ثمّ خان كلينتون الوعد الذي قطعه لكل من عرفات وباراك ومفاده عدم إلقاء اللوم على أي من الأطراف المعنية)- عاين الرأي العربي مرة أخرى الولايات المتحدة وهي تلعب دور «محامي إسرائيل»[1]، كما وصفها دايفيد ميلر سابقاً.

لم نحصل حتى عام 2001، إلا على عدد زهيد من الاستطلاعات الموثوقة، ذات الصلة بالمواضيع السابقة، لرأي الشارع العربي كي نثري نقاشنا هذا. على أي حال، وجدنا في مؤسسة زغبي الدولية أنه خلال حكم الرئيس بوش، وعندما أصبح استطلاع الرأي شائعاً وغطّى مواضيع تتعلق بالسياسة العامة، عمدت واشنطن إلى رفض وجهات نظر العرب التي لم تَرُق للإدارة الأمريكية، أو تحريفها لتتلاءم مع أهدافها. وهنا يرد إلى ذهني مثالان من تجربتي الشخصية.

تلقيتُ دعوة في منتصف تشرين الثاني من عام 2002، بعد أن قامت مؤسستنا بنشر نتائج أول استطلاع للرأي أجريناه في ثماني دول عربية، للتحدث أمام جمهور يتكون من ستين خبيراً إقليمياً ومحللاً في الاستخبارات يعملون لدى وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية والبيت الأبيض. أبرزتُ خلال حديثي أمام الحضور، نتيجتين ظهرتا في الاستطلاع سابق الذكر أصابتاني بالدهشة لأنهما تناقضان المنطق العام. أما النتيجة الأولى فهي تناقض الافتراض المسلّم به على نطاق واسع والقائل بأن عدد الشباب العربي الذي يشاهد البرامج الإخبارية على القنوات الفضائية، التي تكون عادة مناهضة للولايات المتحدة، أكثر من العرب المتقدمين في العمر الذين لم يحظوا في شبابهم بفرصة مشاهدة مثل تلك القنوات - هنا تبرز فكرة كثافة سكانية تشاهد قناة الجزيرة طوال اليوم مما قد يؤدي إلى إثارة مشاعر راديكالية وربما متطرفة ضد الولايات المتحدة. يبدو أن النقيض تماماً هو الواقع الصحيح. فعلى سبيل المثال، كانت مشاعر الجمهور العربي تجاه الشعب الأمريكي أكثر إيجابية حين ارتفعت

(1) Miller, Muck Too Promised Land.

ثماني وعشرين نقطة عما هو متوقع، في مصر، وثماني نقاط في المملكة العربية السعودية، من بين العرب الذين يشاهدون القنوات الفضائية مقارنة بأولئك الذين لم يفعلوا[1]. ظهر في الاستطلاع أن المنفذ الذي توفره الإعلانات التجارية والبرامج الترفيهية إلى الثقافة الأمريكية أدى إلى توليد مشاعر إيجابية تجاه الشعب الأمريكي، مما ساعد على موازنة المشاعر السلبية تجاه السياسة الأمريكية التي نتجت عن مشاهدة الأخبار.

ثانياً، لاحظتُ أن من الضروري والمهم إبراز نتيجة الاستطلاع الخاصة بحقوق المرأة في المملكة العربية السعودية، فيبدو أنه بسبب تأييد الإدارة الأمريكية لحقوق المرأة في المملكة، كانت آراء الشباب السعودي أكثر تحرراً من الناحية الاجتماعية فيما يتعلق بها. ولقد أظهر الاستطلاع أن الرجال السعوديين كانوا أكثر تأييداً (وذلك بفارق خمس نقاط)، من النساء أنفسهن، لتوسيع نطاق حقوق المرأة السعودية.

كان من بين الحضور السابق، ليز تشيني (Liz Cheney) ابنة نائب الرئيس ديك تشيني، التي كانت قد عُينت حينها في وزارة الخارجية حيث كانت مسؤولة عن الإشراف على برنامج مبادرة الشراكة الشرق أوسطية (MEPI)، وكان الدفاع عن حقوق المرأة أحد أهداف هذه المبادرة. سرعان ما رفضت ليز تشيني الأرقام التي قدّمتُها أمام الحضور وقالت لي أنها لا توافق مطلقاً على نتائج الاستطلاع. وأخبرتني أنها قابلت أربع نساء سعوديات في مكتبها قبل أسبوع واحد وبأنها تشعر أنهن سيوافقنها الرأي[2].

فسّرتُ وجهة نظري وقلتُ إنه على الرغم من أنني أحترم وجهة نظر النساء الأربع اللواتي زرن الولايات المتحدة ضمن جولة تمولها وزارة الخارجية الأمريكية، فإنني أحترم الرأي الجماعي لما يزيد على الثمانمائة شخص تم

(1) Zogby International, Impressions of America poll, March 4-April 3, 2002. Survey included ten nations, including five Arab countries: Saudi Arabia (700 respondents), Lebanon (500), UAE (500), Egypt (700), and Kuwait (500).

(2) James Zogby, personal notes, November 19, 2002.

اختيارهم عشوائياً ليشكلوا عينة استطلاع الرأي الخاص بالشارع السعودي.

وبالإضافة إلى ذلك، أوضحت لتشيني أنني لا أعارض بصفة شخصية اتساع نطاق حقوق المرأة أو أنني أدعي أنه ما من امرأة عربية (أو رجل عربي) مؤيدة (أو مؤيد) للحركة النسوية غربية الطابع. كنت، في الواقع، أحاول إعطاء صورة حقيقية تعكس ماهية المشاعر العربية، ومن ثمّ، التكهن بنوع المشاكل التي يمكن أن نواجهها عند محاولتنا تشكيل سياسة لمبادرة تتعلق بهذه القضية تحديداً. عندما رفضت تشيني أن تحيد عن رأيها لم أندهش مطلقاً. لقد أظهرت تشيني وغيرها من المتشددين في إدارة بوش، وعلى نحو متكرر، ميلاً نحو رفض المعلومات المبنية على التجربة والمشاهدات العملية الخاصة بالشرق الأوسط، مقابل تأييد حكاية مرحة ملائمة، أو ميل نحو تحريف المعلومات عندما لا يُعبّر مثال مفيد عن نفسه كما يجب[1].

يعدّ غزو العراق وما تبعه من احتلال لأراضيه في عام 2003 حالة مثالية لدراسة بُعد القيادة الأمريكية عن واقع العالم العربي، والثمن الباهظ والقاسي الذي تدفعه هذه القيادة مقابل تجاهلها هذا الواقع. خلال الفترة التي أدت في نهاية المطاف إلى غزو العراق، قيل للأمريكيين، على نحو متكرر، أن العراقيين أحبوا الولايات المتحدة، وأنهم يشعرون بالامتنان لأننا منحناهم الديمقراطية التي لم يألفوها من قبل، وأن الشعب العراقي يستقبل الجيش الأمريكي بالزهور والحلوى، لأنهم حرّروا أراضيهم من طغيان النظام السابق. وعلى الرغم من أن ذلك كان صحيحاً بالتأكيد بالنسبة إلى بعض العراقيين، فإن استطلاع الرأي الذي قامت به مؤسسة زغبي في أيلول من عام 2003– بعد مرور ستة أشهر على الغزو الأمريكي للعراق– يشير الى أن نسبة عالية (ولعلها مزعجة) من العراقيين أرادوا أن تغادر الولايات المتحدة بلادهم ولم يبدوا أي رأي مؤيد

(1) Democratic Policy Committee, «In Their Own Words: Bush Administration Officials Predict Iraqis Will Greet US. Soldiers as Liberators,» July 22, 2004, http://democrats.senate.gov/dpc/dpc-newcfm?doc_ name=fs-108-2-211.

لوجود القوات الأمريكية في العراق[1].

فعلى سبيل المثال، تذمر خمسة وخمسون بالمائة (55٪) من العراقيين الذين تم استطلاع رأيهم، حيال المعاملة القاسية التي تلقوها من القوات الأمريكية، في حين لم يعبر سوى عشرين بالمائة (20٪) عن رأيهم الإيجابي بخصوص كيفية معاملة القوات الأمريكية للمدنيين العراقيين. بالنظر إلى هذه الدراسة، كدراسة متكاملة، كان لا بد أن تتسبب نتائج الاستطلاع بإثارة قلق صُنّاع السياسة في الولايات المتحدة - وحتى في تلك المرحلة المبكرة من الصراع العربي-الأمريكي. على أي حال، لم تكن تلك الحقائق سوى مطبّ بسيط اعترض طريق القادة السياسيين الأمريكيين الذين ساروا على خُطى لورد بلفور.

بعد مرور بضعة أيام على نشرنا نتائج الاستطلاع سابق الذكر، كنت جالساً في المنزل أشاهد ديك تشيني (Dick Cheney)؛ نائب الرئيس، على قناة إن. بي. سي (NBC) وهو يشارك في برنامج **قابل الصحافة** (Meet the Press)[2]. كان تشيني أحد المشاركين في حملة إدارة بوش الخاصة بالعلاقات العامة، والهادفة إلى إعادة تأسيس دعم الولايات المتحدة لجهود الحرب في العراق. عندها، حاول تشيني إقناع الحضور بأن الولايات المتحدة تحقق نصراً في العراق، وعندما استشهد بنتائج الاستطلاع الخاص بنا. قال تشيني: «نُشر استطلاع لعينة عشوائية الأسبوع الماضي وهو الأول من نوعه واعترف أنه قد طُبّق بعناية شديدة، فمن الصعب العمل في بقعة مثل العراق. قامت مؤسسة زغبي الدولية بإجراء هذا الاستطلاع بالتعاون مع مجلة **أمريكان إنترابرايز** (American Enterprise)، ولقد كشف الاستطلاع عن أنباء إيجابية للغاية»[3].

(1) Karl Zinsmeister, «What Iraqis Really Think,» AEI Online, September 1, 2003, http://www.aei.org/issue/19192. Report on the poll commissioned by the American Enterprise Institute for Public Policy and conducted by Zogby International. Zogby International, Iraq Opinion Poll, August 3-19, 2003. Sample size: 600 adults.

(2) Dick Cheney, interviewed by Tim Russert, Meet the Press, NBC, September 14, 2003, http://www.msnbc.msn.com/id/3080244.

(3) المرجع السابق.

تحمس تشيني لروايته المفبركة فتابع حديثه قائلاً: لقد كان أحد الأسئلة التي طرحها الاستطلاع: «هل لديك نموذج لشكل الحكومة التي ترغب في الحصول عليها»– ومُنح أفراد العينة خمسة خيارات للإجابة– «فأيها ستكون؟ وقد فازت حكومة الولايات المتحدة بسهولة»[1].

أضاف تشيني: «وعند سؤالهم عن المدة التي يرغبون في أن يقضيها الأمريكيون في بلادهم، أجاب ستون بالمائة منهم أنهم يرغبون في بقاء الولايات المتحدة عاماً آخر. لذا، يجب أن نعترف بأن هناك مشاكل معينة وبخاصة في منطقة بعينها، حيث مسقط رأس صدام وحيث استفاد القاطنون هناك من مزايا النظام... ولكن أن نقول إن شعب هذه المنطقة –تحديداً– يمثلون الدولة بأكملها أو أن الشعب العراقي كله يعارض ما فعلناه في العراق أو أنهم يسعون بصورة عدائية إلى تقويض ما أنجزناه، فأعتقد أن ذلك ليس صحيحاً»[2].

انزعجت وغضبتُ كثيراً مما سمعتُه فكتبتُ مقالاً نُشر في صحيفة الغارديان (Guardian) تحت عنوان «فلْتحرّف الحقائق تيمُناً بتشيني»[3]. ناقشتُ الأرقام الحقيقية الخاصة بنتائج استطلاع الرأي المعني، وأوضحت أن إساءة استخدام الإدارة الأمريكية الأرقام الحقيقية يشبه إلى حد بعيد استغلالها معلومات استخبارية لفبركة وضع زائف مبررة الحرب على العراق.

ادعى تشيني على سبيل المثال، أن العراقيين فضلوا النظام الأمريكي عند سؤالهم عن نوع الحكومة التي يرغبون في الحصول عليها. أما نتائج الاستطلاع فكانت مغايرة تماماً[4]. أقرّ ثلاثة وعشرون بالمائة (23٪) فقط أنهم يرغبون في تشكيل حكومتهم الجديدة على غرار الحكومة الأمريكية، في حين رغب سبعة عشر ونصف بالمائة (17,5٪) في أن تشبه حكومتهم حكومة المملكة العربية السعودية ورغب اثنا عشر بالمائة (12٪) في محاكاة الحكومة السورية وسبعة

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) James Zogby, «Bend It Like Gheney,» Guardian, October 29, 2003, http:// www. guardian.co.uk/world/200/oct/29/usa.iraq.

(4) Zinsmeister, «What Iraqis Really Think.»

بالمائة (7٪) رغبوا في حكومة تشبه الحكومة المصرية. أما الأغلبية العظمى التي بلغت سبعة وثلاثين بالمائة (37٪) فكان اختيارهم «ليس أياً مما سبق»، ولا يعني هذا بالتأكيد فوز الولايات المتحدة بسهولة.

لعلّ الحقيقة التي أوردها نائب الرئيس في روايته المفبركة هي تلك التي عبّرت فيها الأغلبية عن معارضتها القاطعة لحكومة ديمقراطية عند سؤالها عن حكومتها المستقبلية.

وعندما سُئل هؤلاء إن كانت «الديمقراطية ستنجح في العراق؟»، أجاب واحد وخمسون بالمائة (51٪): «لا، إنها طريقة غربية لإدارة الأمور ولن تنجح هنا».

أما ما يتعلق بادعاء تشيني أن العراقيين كانوا سعداء تماماً بوجود القوات الأمريكية عاماً آخر على الأقل، فالأرقام الحقيقية التي كشف عنها الاستطلاع كانت، في واقع الأمر، أقل إشراقاً. كانت الخيارات المتاحة أمام العينة كما يلي: «هل ترغبون في مغادرة القوات الأمريكية والبريطانية الأراضي العراقية في غضون (أ) ستة أشهر، (ب) عام واحد، (ج) عامين». أجابت الأغلبية (34٪) أنهم يرغبون في مغادرة قواتنا لأراضيهم في غضون عام، في حين رأى واحد وثلاثون ونصف بالمائة (31,5٪) أن علينا المغادرة في غضون ستة أشهر، وخمس وعشرون بالمائة (25٪) أجابوا: في غضون سنتين أو أكثر. وعلى الرغم من أنه كان بإمكان تشيني، من ناحية تقنية أن يزعم أن «ما يزيد على ستين بالمائة (60٪) [في الواقع، الرقم الدقيق هو تسعة وخمسون بالمائة 59٪]... يرغبون في بقاء القوات الأمريكية عاماً آخر على الأقل»، وهذا صحيح، فإن من الصائب أيضاً– ولعله أصدق– أن نقول إن خمسة وستين ونصفاً بالمائة (65,5٪) من العراقيين أرادوا أن تغادر القوات الأمريكية والبريطانية في غضون عام أو أقل.

لو أن تشيني نظر عن كثب إلى الأرقام التي أعلن عنها الاستطلاع، ليقارن مشاعر الطوائف العراقية المختلفة، لكان أدرك أن أكراد العراق، الذين ينعمون

بالحكم الذاتي تحت الوصاية الأمريكية، هم تحديداً من رغبوا في بقاء القوات الغربية. وعلى النقيض من الأكراد، فإن السُّنة من العرب- الذين شكلوا، في نهاية المطاف، ثورة دامية ضد الوجود الأمريكي- اتفقوا جميعاً، تقريباً، على مغادرة القوات الأمريكية على جناح السرعة.

وأخيراً، يمكننا القول إنه على الرغم من اعتراف تشيني بوجود بعض المشاكل «وبخاصة في تلك المنطقة حيث مسقط رأس صدام»، فإنه أقحم الادعاء القائل بأننا حصلنا، بشكل عام، على دعم الشعب العراقي لوجودنا على أراضيه. كان هذا الادعاء مغلوطاً جداً، فمشاعر العراقيين تجاه احتلال الولايات المتحدة أراضيهم بدت سلبية على نحو واضح، وذلك بعد مرور ستة أشهر فقط من الغزو الأمريكي للعراق. وحين سُئل العراقيون إن كانوا يعتقدون أن «الولايات المتحدة ستساعد العراق أو ستلحق الضرر به»، خلال الخمس سنوات القادمة، أجاب خمسون بالمائة من العراقيين أن الولايات المتحدة ستتسبب بالأذى للعراقيين، في حين اعتقد خمسة وثلاثون ونصف (35,5٪) بالمائة أن الولايات المتحدة ستُفيد العراق. وعندما طُرح السؤال ذاته بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية- أجاب ستون ونصف بالمائة (60,5٪) من العراقيين أن السعودية ستكون معيناً لهم. ثم طُرح السؤال من جديد بالنسبة إلى دور الأمم المتحدة، فتبين أن خمسين ونصفاً بالمائة (50,5٪) شعروا بأن الأمم المتحدة ستساعد العراق، في حين اعتقد ثمانية عشر ونصف بالمائة (18,5٪) النقيض تماماً (انظر الجدول 4-1).

بلغة أخرى، يمكننا القول إن التقديرات الزهيدة التي حصلت عليها الولايات المتحدة في هذا الاستطلاع لا تُوحي، ببساطة، بمشاعر عدائية تجاه وجودٍ أجنبي (غير عربي). إذا ما نظرنا إلى هذه الأرقام من سياق أوسع نطاقاً، نجد أن معدل الإجابات الخاصة بكون الولايات المتحدة ستساعد أو تؤذي العراقيين أفضل بقليل من معدل الإجابات الخاصة بإيران. يضع ذلك الولايات المتحدة في الخانة ذاتها مع ألد أعداء العراق، فقد استمرت الحرب العراقية -

الإيرانية طوال عقد كامل في ثمانينيات القرن الماضي، وراح ضحيتها آلاف الضحايا.

جدول 4-1 نتائج استطلاع آراء العراقيين حيال تأثير وجود قوات أجنبية خلال السنوات الخمس القادمة

	وجود مُعين٪	وجود مؤذٍ٪
إيــران	21,5	53,5
المملكة العربية السعودية	60,5	7,5
الولايات المتحدة	35,5	50,0
الأمم المتحدة	50,5	18,5

إن استطلاع الرأي الذي قام تشيني، نائب الرئيس، بتحريفه لخدمة أهدافه، هو أكثر من مجرد حفنة من الأرقام. إن العراقيين يخبروننا عبر استجاباتهم للأسئلة المطروحة في الاستطلاع أنهم مدفوعون بالأمل في مستقبل أفضل، لكنهم في حاجة إلى عون دول أخرى غير الولايات المتحدة الأمريكية. من الواضح أن وجهة النظر تلك لم تكن شائعة في واشنطن، لكن، وعلى الرغم من ذلك، كان يجب على السياسيين أن يستمعوا إلى الآخرين. لقد حوى هذا المقدار الهائل من البيانات والمعلومات التي كشف عنها استطلاع الرأي المعنيّ دروساً مهمة فيما يخص كيفية مساعدة العراق على التقدم خطىً للأمام - وبالمثل كيف يمكن منع ذلك من الحدوث. إن قراءة صادقة لهذه المعلومات تشير إلى مشاعر معادية للوجود الأمريكي في العراق، مما أدى بالاحتلال، في نهاية المطاف، إلى الاستمرار فترة أطول، وجَعَله مُرْهقاً اقتصادياً وأكثر دموية مما تصوره الأمريكيون في بداية الحرب.

إن الحقيقة الواضحة والمؤلمة في آن معاً أنه سواء كنتَ اللورد بلفور وسيطرتَ على مسار النقاش الخاص بوجهة النظر العربية بفعل سلطتك الإمبريالية، أو

كنت تشيني نائب الرئيس الأمريكي وتقدم تحليلات مؤلمة لمعلومات مشتقة من استطلاع للرأي، أو حتى كنت ابنته التي تجاهلت البيانات التي لم ترغب في سماعها، فإن فرض سياسات معينة على شعوب معارضة لها سيؤدي بالتأكيد إلى خسارة فادحة. يجدر بالذكر هنا أننا قمنا باستطلاع الرأي المعني عام 2003؛ أي قبل زمن طويل من تخلي مؤيدي الحرب على العراق عن جهودهم بلا رجعة. ولو أن الإدارة الأمريكية أبدت اهتماماً بنتائج الاستطلاع، لكانت الدروس التي تعلمناها من هذه الأرقام قد زودتنا بفرصة لتعديل مذهبنا السياسي في العراق. وعلى النقيض من ذلك، استمرت إدارة بوش بإخبار نفسها والشعب الأمريكي بأن الوضع في العراق تحت السيطرة. نجح الأمر إلى أن تكشّفت الحقائق المؤلمة في صورة بلايين الدولارات التي أُنفقت وآلاف الأرواح من الجنود الأمريكيين التي أزهقت على الأراضي العراقية ومئات الآلاف من القتلى والجرحى العراقيين. الحقيقة تفوز دوماً في نهاية المطاف.

لقد أثر عدم اكتراث الولايات المتحدة بوجهة نظر العرب على مكانتها في الشرق الأوسط بأكمله. فقد انحدرت نسبة العرب المؤيدين للولايات المتحدة على نحو خطير، إذ تراوحت بين أعلى نسبة وهي لم تتجاوز ثمانية وعشرين بالمائة (28٪) في المغرب، وأقل نسبة وهي تسعة بالمائة (9٪) في الأردن[1].

لا يمكننا أن نرفض نائب الرئيس أو ابنته أو غيرهما من الشخصيات المهمة، ومن ثم نعدّهم جميعاً طاقات مهدورة عديمة النفع. إن هؤلاء مستمرون في الحديث علناً، وعلى نحو منتظم، ويتلقون اهتماماً ملحوظاً من وسائل الإعلان، ويُعزى ذلك إلى جهودهم الرامية إلى التأثير في الحوار العام. يستمر هؤلاء في الدفاع عن استخدام إدارتهم وسائل تعذيب مختلفة والإبقاء على سجن غوانتانامو في كوبا[2]، وهاتان قضيتان أوضح استطلاعنا الذي أجريناه عبر

(1) Zogby International, Five-Nation Survey of the Middle East, November 11-21, 2006. Sample size: 3.500 adults.

(2) Dick Cheney, Washington, DC speech to the American Enterprise Institute, May 21, 2009; Elizabeth Cheney, interview by Norah O'Donnell, MSNBC, April 24, 2009.

العالم العربي، أنهما تحتلان أهمية كبيرة[1]. عندما استفسر استطلاع أجريناه في نيسان من عام 2009، عبر العالم العربي، عن أكثر الأعمال التي انبثقت عن إدارة أوباما لتحسين علاقات الولايات المتحدة مع العالم العربي إيجابية، فكانت «إغلاق سجن غوانتانامو ومنع تعذيب السجناء» وعد ذلك ثاني أفضل عمل بعد «إعلان [الإدارة الأمريكية] الانسحاب من العراق».

على أي حال، أظهر النقاد في الولايات المتحدة مشاعر عدائية تجاه الجهود المتزايدة التي تبذلها إدارة أوباما لتطوير فهم جديد للعالم العربي والإسلامي. حظيتُ، مرة أخرى، بمواجهة ضارية مع ليز تشيني (Liz Cheney) عند مشاركتي في برنامج **غرفة عمليات وولف بليتزر** (Situation Room with Wolf Blitzer)، الذي تبثه شبكة سي. إن. إن (CNN)، وذلك بعد خطاب الرئيس أوباما الشهير في القاهرة في حزيران، عام 2009 [2]. استجابت تشيني لزعم الرئيس أوباما أن للإسرائيليين والفلسطينيين حكاياتهم الخاصة بكل طرف، وعلينا أن نبذل الجهد المطلوب لفهمهما، باتهام الرئيس خطأ أنه «يساوي معنوياً» بين معاناة اليهود خلال المحرقة ومعاناة الفلسطينيين. وتابعت تشيني اتهاماتها للرئيس أوباما الذي ناشد إدارته بإنهاء العذاب الممارس ضد السجناء وإغلاق سجن غوانتانامو، لأن مثل هذه الممارسات لا تنسجم مع القيم السامية للولايات المتحدة، فزعمت أنه بذلك يبيع وطنه بثمن بخس محاولاً كسب ودّ العالم الإسلامي. ختمت ليز تشيني حديثها بالقول إن: «المشكلة الكبرى» التي نواجهها في الشرق الأوسط «لا تتلخص في إدراك الولايات المتحدة وفهمها... [وإنما] في محاولة الإيرانيين الحصول على أسلحة نووية»، وأنه لا يتوجب على الولايات المتحدة أن تتخذ «قرارات سياسية، هنا [في

(1) Zogby International, Arab Opinions on President Obama's First 100 Days: A Six Nation Survey, April 21-May 11, 2009. Survey included respondents in Morocco, Egypt, Saudi Arabia, UAE, Lebanon, and Jordan, with a total sample size of 4,087 adults.

(2) Situation Room with Wolf Blitzer, CNN, June 4, 2009, http://transcripts.cnn.com/TRANSCRIPTS /0906/04/sitroom.02.html.

الولايات المتحدة]، مبنية على استطلاعات للرأي أُجريت في العالم العربي»[1]، خلاصة القول، وحسب تشيني، فما من حاجة للاستماع إلى أصوات العرب أو حتى إبداء الاهتمام بما يقولونه.

عندما تولى باراك أوباما الرئاسة، بعث الأمل عبر العالم العربي الذي شعر بأن وجهة نظره الآن ستُؤخذ على محمل الجد لأنها مهمة. وسرعان ما حلّقت هذه التوقعات الإيجابية في الأفق، فعندما أجرت شبكة تلفزة عربية مقابلة مع الرئيس أوباما بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام. قال أوباما إنه وجّه مبعوثه الجديد للشرق الأوسط، السيناتور السابق جورج ميتشل (George Mitchell) «ليبدأ [جولته] بالاستماع [للعرب]، فغالباً ما تبدأ الولايات المتحدة بإلقاء الأوامر -كما جرت العادة في الماضي ولاسيما في بعض القضايا- وعادة ما نجهل كل العناصر المرتبطة [بالحوار مع العرب]» [2].

تفاءل العرب كثيراً عندما طلب أوباما من إسرائيل تجميد إنشاء المستوطنات.

لكن إدارة أوباما لم تكن مُحصنة ضد «الصمم الموسيقي» الذي أصاب واشنطن في الماضي. فعلى سبيل المثال، عندما نُشِر تقرير غولدستون، كانت ردة الفعل المباشرة للإدارة الأمريكية - التي صدرت حتى قبل قراءة التقرير (كما اعترف المسؤولون بعد ذلك)- وَصْفه بأنه تقرير «غير متوازن، وأحادي الجانب وغير مقبول أساساً»[3]. وقبل تسليم التقرير إلى مجلس حقوق الإنسان للتصويت عليه، ضغطت الإدارة الأمريكية على السلطة الفلسطينية لسحب التقرير. وعندها شعر العرب بخيبة الأمل[4]،

(1) المرجع السابق

(2) President Barack Obama, interview by Hisham Melhem, Al Arabiya, January 27, 2009.

(3) E.B. Solomont, «US `Concerned' With Goldstone Report,» The Jerusalem Post, September 18, 2009; M. J. Rosenberg, «It's Time to Pressure Netanyahu,» Media Matters Action Network, January 22, 2010, http://media mattersaction.org/blog/201001220002.

(4) M. J. Rosenberg, «Why Did We Pressure Palestinians To Deep Six Goldstone

التي تضاعفت مع قرار رئيس الوزراء الإسرائيلي، بينيامين نتنياهو، عدم تجميد المستوطنات بل إيقاف إنشائها لفترة موقتة (ويُستثنى من ذلك ثلاثة آلاف وحدة كانت قيد الإنشاء أصلاً أو حديثة الإنشاء مثل تلك التي خُطّط لإنشائها داخل القدس وحولها). وفي الوقت ذاته، امتدحت وزيرة الخارجية الأمريكية، هيلاري كلينتون، ما وصفته «التنازل» الإسرائيلي الذي عدّته سابقة لا مثيل لها، وبذلك تسببت كلينتون في اندلاع موجه عارمة من الاحتجاجات في العالم العربي[1].

نورد كذلك مثالاً آخر على استخفاف إدارة أوباما بهموم العرب مثلما حدث بعد إخفاق محاولة إرهابية لإسقاط إحدى طائرات شركة نورث ويست للطيران في عيد الميلاد، عام 2009، وذلك عند اقتراب الطائرة من مطار ديترويت. فعلى الرغم من اعتراف المخابرات الأمريكية فيما بعد بأنها أخفقت في فهم العلاقة بين الأفكار المطروحة أو ربطها معاً، كانت ردة الفعل الأولية للإدارة الأمريكية ترتيب الأدلة في موضعها الصحيح، ومن شأن ذلك رسم صورة خاصة بجميع الركاب الذين ينتمون إلى أربع عشرة دولة معظمها عربية وإسلامية، ولقد شعر العرب بقلق شديد، في العالم العربي كله، حيال عزل المسافرين العرب وتعريضهم لتنظير إشعاعي خاص.

في واقع الأمر، وجدنا في أحدث استطلاع أجريناه امتعاضاً مستمراً من المعاملة التي يتلقاها المهاجرون العرب والمسلمون والزائرون لأراضي الولايات المتحدة. وترتفع نسبة المشاعر السلبية تجاه هذه السياسات التي

Report?» Talking Points Memo, October 6, 2009; Rami G. Khouri; «Enough of Blaming the Goldstone Report?» The Daily Star, December 16, 2009.

(1) Barak Ravid, «In Jerusalem, Clinton Hails `Unprecedented' Israeli Settlement Concessions,» Haaretz, November 2, 2009; «Obama's Abandoned Principles,» Middle East Mirror, November 2, 2009 (a collection of editorials from seven major Arab newspapers expressing condemnation or concern over U.S. backtracking on a settlement freeze).

تمارسها حكومة الولايات المتحدة إلى ثمانين بالمائة تقريباً (80٪) وهي تقترب من التقديرات السلبية التي منحها العرب في الشرق الأوسط لدور السياسة الخارجية للولايات المتحدة في المنطقة[1]. أدى عزل المسافرين المسلمين وتعريضهم للتنظير الإشعاعي إلى ظهور موجة من المقالات الناقدة حتى في أكثر الصحف العربية اليومية اعتدالاً. فعلى سبيل المثال، استنكرت إحدى أبرز الصحف التي تنادي بوحدة العرب، التحرش الذي تعرض له المسلمون القادمون من الأربع عشرة دولة، وأوحت أن مثل هذا التصرف من شأنه تنفير العرب والمسلمين وإذلالهم ولن يساعد الولايات المتحدة في محاولتها نيل الدعم الذي تحتاجه من العرب والمسلمين في حربها ضدّ الإرهاب[2]. قالت صحيفة عربية أخرى إن تصرف الرئيس أوباما بهذه الطريقة يناقض تعهده «بفتح صفحة جديدة مع العالم الإسلامي»، وإنه يحذو بذلك حذو سلفه الرئيس بوش[3]. يبدو جلياً أن الطريق أمامنا طويل جداً.

إن وجهات نظر الآخرين مهمة للغاية، ويجب ألا تُثير هذه الحقيقة دهشتنا ولاسيما أن القادة السياسيين في الغرب يتفاخرون باستمرارهم في مراعاة مشاعر الآخرين واحترام وجهات نظر العامة، وهم يدركون تماماً مغبّة تجاهلها. وسواء عارض العامة الضرائب المرتفعة أو الانهيار الاقتصادي أو الفساد أو المزايا التي يحصل عليها الحزب الحاكم في البرلمان أو دعم الحكومة حرباً غير مقبولة شعبياً، فإن القادة السياسيين يدركون أن الحفاظ على دعم عامة الشعب لهم، أمر ضروري للغاية إن

(1) Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll, November 1-18. 2009, Sample size: 3,989 adults.

(2) Abdul Rahman Al-Rashed, «The Harassment of Passengers from 10 Muslim Nations,» Asharq alawsat, January 7, 2010, http://www.asharq-e. comlnews. asp?section=2&id=19430.

(3) Elias Harfoush, «What Obama After Detroit?» Al-Hayat (UK), January 10, 2010, http://www.daralhayat.com/portalarticlendah/95886.

كانوا يرغبون في الفوز بثقته.

كما تعدّ وجهات النظر المتباينة، في العالم العربي كذلك، مهمة، سواء اعتقد العرب أن الولايات المتحدة مسؤولة عن طرد دبلوماسي عربي محترم، أو أنها تنحاز إلى الإسرائيليين ضد الفلسطينيين، أو تفرض عقوبات تؤدي إلى إذلال بعض الأشخاص المغرورين، أو تعزل المسافرين العرب والمسلمين في رحلة جوية، ولما سبق عواقب يمكن أن تكون وخيمة.

الجزء الثاني

ما وراء الأساطير الخارقة

من العرب وماذا يريدون؟

الفصل الخامس

الأسطورة الخارقة الأولى:
كلهم متشابهون!

بعد مرور عقود من الزمان قضيتها في تفسير حقيقة العالم العربي للأمريكيين، فإنني غالباً ما ألفيت جهودي تلك تجري ضدّ تيار الأساطير ذاتها وأنصاف الحقائق التي تغذي بعنادٍ، سنة تلو الأخرى، القدرة على تشكيل أفكارنا الخاصة بهذه المنطقة، وذاك نذير بخطر جسيم. أحاول عادة أن أتحدى مثل هذه الفبركة والتحريف باللجوء إلى التاريخ وتجربتي الخاصة أو النتائج التي تكشف عنها استطلاعات مؤسسة زغبي العالمية. لكن مركز كينيدي (Kennedy Center) - وهو مؤسسة أمريكية رائدة ومميزة تُعنى بالثقافة والفن- شرع في آذار من عام 2009، بفضح زيف هذه الأساطير بطريقة فنية ماهرة.

رعى مركز كينيدي، بتوجيه من مديره مايكل كايزر (Michael Kaiser)، مهرجاناً للفنون من كل أنحاء الوطن العربي، أُطلق عليه اسم «أرابيسك» (Arabesque). تزينت قاعات المركز، لثلاثة أسابيع، بعرض لفساتين زفاف عربية، في حين عُرضت في الشرفات أعمدة تُحاكي فن العمارة العربية، وتحوّل القبو إلى سوق عربي حقيقي يبيع منتوجات حرف يدوية من المغرب والعراق والعديد من الدول العربية.

وجدتُ مهرجان «أرابيسك» تجربة رائعة، لا بسبب الفنون المعروضة وكونه مسلياً فحسب، وإنما لدحض الادعاء القائل إن العالم العربي يفتقر إلى التنوع. كان بإمكاني الإشارة إلى ما يزيد على ثمانمائة فنان وموسيقي جاؤوا من جميع الدول العربية الاثنتين والعشرين، ممن عكسوا عبر أدائهم وحرفهم تفرّد أوطانهم وتميزها. أما بالنسبة إلى أولئك الذين يصرون على أن المنطقة العربية حبيسة الماضي، فأقترح أن يحضروا أداء ملحن لبناني قام بدمج الموسيقى

العربية.بموسيقى الجاز، أو فنان هيب هوب جاء من الصومال. أما من اعتقد أن العرب شعب مليء بالغضب والكراهية فسرعان ما سيغير موقفه عندما سيجد نفسه مُحاطاً بإبداعات مبهجة لفرقة كورال سورية، ومجموعة من البربر المغاربة الذين يعزفون على البوق، وعدد لا يُحصى من الموسيقيين العرب والشعراء والرسامين والقصّاصين والخطّاطين والحرفيين.

إن الواقع الذي علينا إدراكه أنه ما من حوار بناء ومُجدٍ، أو مشاريع ناجحة على نحو متواصل ستبدأ من الشرق والغرب، دون تجاوزنا للصور النمطية السلبية والأساطير التي ارتبطت بالعرب. جعلتُ من ذلك هدفاً لي فقمت بجمع معلومات عن خمس أساطير خارقة هي الأكثر انتشاراً وتدميراً لصورة العرب. سأُوضح كيف تمكنت هذه الأساطير المزيفة من اختراق المحاولة الأمريكية والغربية لمناقشة ماهية العالم العربي، ثم سأُفسّر عبر استطلاع للرأي وعن طريق التجربة كيف يمكننا إعادة صياغة هذه الأفكار لنخلق قاعدة جديدة للتفاهم والتعاون بين العالمين العربي والغربي.

غالباً ما تحكم المؤتمرات والخطابات واستطلاعات الرأي، خط رحلاتي في العالم العربي. لكن رحلاتي تتيح لي الفرصة لاستكشاف العديد من المدن العربية الرائعة المتنوعة وفهم الشعوب التي تقطنها، ولعلّ ذلك أحد أهم مزايا عملي هذا. وفضلاً عن ذلك، تزودني هذه المدن بمعلومات كافية لرسم صورة مبدئية للتنوع الهائل الذي تزخر به المنطقة العربية.

فالقاهرة، على سبيل المثال، تعدّ أكثر المدن حيوية، من بين جميع المدن التي قمتُ بزيارتها في كل بقاع العالم. إن ما يميزها من حركة محمومة وجلبة مستمرة تجعل من مدينة مانهاتن هادئة ووديعة، إذا ما قورنت بالقاهرة. إذا أُلقي بي فجأة معصوب العينين وسط مدينة القاهرة، فإن ضجيج المدينة سيكشف عن هويتها، بلا شك، قبل أن يرتد إليّ بصري. تلك مدينة يقود فيها أصحابها مركباتهم باستخدام الأبواق عوضاً عن استخدام دوّاسة الوقود. وحتى عندما لا تنفع الإشارة الضوئية وسط ازدحام المرور، تجدهم

يستمرون في إطلاق أبواق مركباتهم.

العجيب في الأمر، أن القاهرة تعدّ إحدى أكثر المدن التي وطئتها مرحاً، فعلى الرغم من ظروف الحياة القاسية، تجد الناس في الشوارع يتسمون باستمرار ويسردون دعابات مختلفة. في الواقع، إن هذا المزاج استثنائي للغاية، فأنت تجد في الشارع المصري القاهري، كما هي الحال في أي مكان، تذمراً حيال السياسة وإزاء شخصيات مختلفة في السلطة (وتعد تلك الشخصيات موضوع الدعابة اللاذعة، التي اشتهر بها المصريون دوماً). وربما وجَدْتَ بعض المظاهرات العابرة التي تعكس اضطراباً سياسياً أو اجتماعياً، لكن الإحساس العام الذي يشعر به المرء هو الديناميكية الإيجابية التي تميز المكان. لذلك، تشعر بطاقة مذهلة تملؤك عندما تكون في القاهرة.

تتميز هذه المدينة العتيقة، بالطبع، بخاصية أخرى لا يمكن أن نخطئها، وقد كشفها لي جيسي جاكسون (Jesse Jackson)[1]. ففي عام 1989، ذهبنا إلى القاهرة سوية وكنا جالسين في شرفة تطل على النيل. بدا جاكسون شارد الذهن فسألته: «كيف حالك؟» أجابني قائلاً: «كنت أفكر أنني زرت موسكو وباريس، إنهما مدينتان رائعتان. أما [القاهرة] فهي ليست مجرد مدينة – إنها حضارة، وتاريخ. إنني أنظر إلى النهر وأفكر بكل ما حدث على ضفافه وأنه لايزال يجري في مساره»[2].

لقد كان جاكسون محقاً: للقاهرة تقاليد عريقة وغنية تمتد آثارها إلى الشارع، إن تاريخها ليس مجرد شيء قديم يعلوه الغبار، حبيس المتاحف المنتشرة حول العالم، بل إنك تشعر بنبضه في المدينة. عندما تتجول في شوارع القاهرة تجد نفسك محاطاً بفن عمارة فرنسي الطابع، فائق الروعة، يختلط بقليل من فن العمارة الإيطالي، الذي يعود تاريخه إلى عصر النهضة والعصر الباروكي، ولمسة من عصر المماليك والفراعنة أُدخلت لإحداث توازن إيجابي. ولعلك تنظر

(1) جيسي جاكسون: (1941–) ناشط حقوق مدنية وقس، كان مرشحاً رئاسياً ديمقراطياً في عامي 1984 و1988. (المترجم)

(2) James Zogby, personal notes from trip to Cairo, July 6, 1989.

فيما بعد من نافذة غرفة الفندق لترى الأهرامات العظيمة. وعلى الرغم من أن المدينة تغطيها بالكامل طبقة من السّخام والتعب، فإن عظمة الماضي لا تتلاشى بقدر ما تتحول، فالنصب التذكارية التي تحكي ماضي المدينة لاتزال قابعة هناك، لكن مجد الماضي يعيش اليوم في شعبها المليء بالحيوية والطاقة.

ترتدي مدن عربية أخرى رداءً تاريخياً عتيقاً، بين الحين والآخر. فعلى سبيل المثال، دخلتُ أحد الأكشاك الموجودة في سوق دمشق القديم، المعروف بسوق الحميدية. بدا أحد جدران هذا الكشك دائري الشكل، وعندما نظرتُ خلال غطاء الكشك الذي يشبه الخيمة إلى حد بعيد، أدركت أن هذا الجدار ليس سوى عمود، فالتفتّ نحو المالك وسألته: «ما هذا؟» فأجاب: «هذا حائط، وهذا دكاني».

لقد كان محقاً. إنه حائط وهو دكانه، لكنه جزء أيضاً من معبد جوبيتر. تلك هي دمشق؛ إنها أقدم مدينة مأهولة على الدوام، في العالم كله، ولذلك لا يأبه الناس كثيراً حيال وجودهم بجوار عمود يعود تاريخه إلى ألف عام. يمر سكان المدينة كل يوم بجوار الجامع الذي يحوي بين جدرانه رأس يوحنا المعمدان (John the Paptist) [1] المدفون هناك، وبجوار السور الذي تدلّى منه القديس بولص الطرطوسي (Apostle Paul) [2] في سلة، عند هروبه إلى القدس. إذا تعمقنا في الحفر، فعلى الأغلب أننا سنجد أن دكان هذا التاجر يقع فوق آثار حضارة الحثيين (Hittite)[3] التي لا يمكن لأي شخص أن يراها، لأن آثار المدن اليونانية والرومانية التي جاءت بعدها

---

(1) بحسب الإنجيل، يوحنا المعمدان هو من عمّد يسوع. وقد قام الملك هيرودس بقطع رأسه لمعارضة الأخير زواج الأول من زوجة أخيه. دُفن رأس يوحنا المعمدان في مسجد بني أمية في دمشق. (المترجم).

(2) القديس بولص الطرطوسي: وهو أحد قادة الجيل المسيحي الأول، ويعتبره بعضهم ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد المسيح ذاته. نشر الديانة في آسيا الصغرى وأوروبا. وفي دمشق تآمر عليه اليهود فأرادوا قتله، فقام رفاقه بتسهيل هروبه من المدينة بأن دلّوه في سلة من فوق السور حيث تقع كنيسة مار بولص في باب كيسان اليوم، وهو أحد أبواب مدينة دمشق. (المترجم)

(3) الحثيون: شعب قديم سكن تركيا وشمال سوريا منذ 3000 ق.م. أُطلق على مدينتهم اسم حاتوشا، التي أحاطوها بسور عظيم جداً بحيث لا يستطيع أي جيش اختراقه أو تدميره. (المترجم)

غطتها بالكامل؛ كل هذه الآثار مدفونة هناك.

وعلى النقيض من هاتين المدينتين، فإذا قصدت مدينة الرياض أو مدينة أبوظبي، فإنك ستجد أماكن تشبه إلى حد كبير مدينة هيوستن أو مدينة فينيكس في الولايات المتحدة. وأعني بذلك، أنه على الرغم من كون المدينتين من مفاخر الحداثة المثيرة للإعجاب، ولاسيما أبراجهما الشاهقة التي ترتفع مثل ناطحات سحاب في سماء تلكما المدينتين، فهما أقرب ما تكونان إلى المراكز التجارية المنظمة.

إن الطريقة التي يرتبط بها الأشخاص بما يحيط بهم تخلق جواً خاصاً متنوعاً، وإن كان متناغماً. لا تسيؤوا فهمي، فمدينتا القاهرة وبيروت، على سبيل المثال، تعجّان بالطرق السريعة الحديثة المزدحمة، في حين تُفقِدك الأزمة المرورية في شوارعهما القديمة الضيقة التي لا تصلح للقرن الحادي والعشرين، الإحساس بما يدور حولك. بيد أن مثل هذه المدن تشتهر بالحياة النابضة في الشوارع؛ وأعني بذلك الجماهير المحتشدة والمشاة الذين يتجاهلون أنظمة السير وقواعد المرور والأعداد الكبيرة من الشباب والشابات الذين يجوبون المكان والمقاهي المتلاصقة المنتشرة في الهواء الطلق. الأمر ليس كذلك في الرياض أو أبو ظبي أو دبي. فعندما أُنشئت هذه المدن، صُمِّمت بطريقة تلائم المركبات، لذلك تجد الطرق السريعة متعددة الممرات، التي ترتفع فوقها الجسور وتجد كذلك الطرق متعددة الخدمات، وكلها تعاني أزمات مرورية خانقة.

أما عندما زرتُ مراكش، فتملّكني شعور مختلف تماماً. من ناحية أدركت السبب وراء قدوم العديد من الفنانين الأوروبيين إلى هذه المدينة للعمل فيها، فالسماء تبدو لا حدود لها والتلال الرملية وردية اللون والمناظر الطبيعية خضراء اللون، تعج كلها بالحياة على نحو لا يُصدّق، ومن خلفها تظهر جبال أطلس وقد اكتست قممها بالثلوج. كل مشهد هو في حد ذاته لوحة فنية، ولعلها تجربة تضاهي، قليلاً، زيارة مدينة «سانتا فيه» (Santa Fe) في ولاية نيوميكيسكو.

لمدينة مراكش عظمة خاصة بها، فمعالمها الثقافية التي تربطها بإفريقيا

تضفي عليها شعوراً مختلفاً يميزها عن أجزاء العالم العربي المختلفة. تعدّ القاهرة ودمشق مدينتين عريقتين تختلط فيهما حضارات متباينة مثل الحضارة الفرنسية والبريطانية، والحضارات القديمة مثل حضارة الرومان واليونان والآشوريين والمصريين القدماء. أما مراكش فتنفرد بمزيج بربريّ، وفرنسي، وعربيّ.

حين أعود إلى الولايات المتحدة بعد رحلة إلى دولة عربية أو أكثر، أشعر بصدمة مريرة عندما أدرك أن هذا التنوع والحيوية اللذين يميزان هذه المدن العربية وشعوبها لا ينعكسان فيما يُكتب في الغرب عن العالم العربي. في الواقع، إن النقيض هو ما يحدث تماماً، فغالباً ما يتم تأكيد أفكار تفترض أن العرب أصحاب ثقافة رتيبة، قمعية وأحادية اللون، وتكتسح هذه الأفكار عقول الأمريكيين وغيرهم من الغربيين.

يعدّ توماس فريدمان (Thomas Fridman)؛ أحد أشهر المؤلفين الذين يزودون القُرّاء بمثل هذه الأفكار الخاصة بالعرب، عبر عموده الثابت في صحيفة نيويورك تايمز. كان فريدمان، صاحب مقالات عديدة تتعلق بشؤون الشرق الأوسط، ومؤيداً قوياً للحرب ضد العراق، التي رآها فرصة ذهبية لدفع عجلة الإصلاح في الشرق الأوسط[1]. ولكن، يا للهول! لم تتطور حملة التغيير في العراق كما أمل مؤيدوها أن تكون. استطاع فريدمان عام 2006، أن يتوصل إلى الأسباب الكامنة وراء تدهور الحرب في العراق، وفي مقاله الافتتاحي الرائع الذي نشره في صحيفة نيويورك تايمز تحت عنوان «القواعد التي يجب اتباعها في الشرق الأوسط» تحدث عن هذه الأسباب، ونصح الرئيس بوش حيال «الخطوة التالية» التي يجب اتخاذها، من خلال خمس عشرة قاعدة تتعلق بالفكر السياسي العربي[2].

تُصنف قواعد فريدمان الخمس عشرة إلى أربع فئات رئيسة. أما القواعد

(1) Thomas L. Friedman, «Fire, Ready, Aim,» New York Times, March 9, 2003, http://www.nytimes.com/2003/03/09/opinion/09FRIE.html.

(2) Thomas L. Friedman, «Mildest Rules to Live By,» New York Times, December 20. 2006, http://select.nytimes.com/2006/12/20/opinion/20/friedman.html.

الأربع الأولى فتتعلق بأمور مسلّم بها، على حدّ اعتقاد فريدمان، وتُصور جميعها العرب كمفكرين مخادعين ولا يُمكن الوثوق بهم خلال المفاوضات المختلفة. تشتمل الفئة الأولى على عبارات مثل: «ما يقوله العرب على انفراد في الشرق الأوسط، عادة ما يكون خارجاً عن نطاق الموضوع»، وبالإضافة إلى ذلك، «إذا لم تستطع تفسير أمر ما من خلال نظرية المؤامرة، للعرب في الشرق الأوسط، فلا تحاول تفسيره مطلقاً لأنهم لن يصدقوك»[1].

أما بعض القواعد الأخرى فتصوّر السياسة العربية كسياسة تتجه، بصورة يائسة، نحو العنف والتطرف. في القاعدة الخامسة يقول فريدمان: «لا تتجه نحو وقف إطلاق النيران إن كان الأمر يتعلق بلبنان أو غزة أو العراق، لأنه سيتم خرق وقف إطلاق النيران في صباح اليوم التالي وقبل صدور الأوراق الرسمية الخاصة به». القاعدة السادسة: «يتابع المتطرفون، في الشرق الأوسط، نشاطهم في كل بقعة، في حين ينصرف المعتدلون». يستمر هذا التفكير الساخر الذي يوحي أن التغيير مستحيل في الشرق الأوسط، وأن نتائج الجهود السياسية في هذه المنطقة محسومة مسبقاً بصورة آلية، حتى القاعدة السابعة والعاشرة والثانية عشرة التي تنص على أن «الإسرائيليين سيفوزون دوماً وسيحرص الفلسطينيون على عدم استمتاع الإسرائيليين بهذا النصر. تلك حقيقة، وما سواها ليس إلا مجرد تعليق تافه»[2].

توحي الفئة الثالثة من قواعد فريدمان أن «حروبهم» و«عُنفهم» – أي العرب– تختلف عن «صراعاتنا» الغربية، التي يعتقد فريدمان أنها أكثر انفتاحاً، لأنها عادة ما تدور حول اختلافات إيديولوجية. يؤكد فريدمان، على النقيض من ذلك، أن نزاعات العرب تشكل في أساسها صراعات، لا مبدأ لها، من أجل السلطة. ويقول في هذا المقام، وتحديداً في القاعدة الثامنة: «نادراً ما تدور الحروب المدنية في العالم العربي حول مذاهب معينة مثل الصراع بين الليبرالية والشيوعية. إنها تدور حول أي قبيلة ستفوز بالحكم. نعم، إن ما يجري في

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

العراق هو حرب مدنية كتلك التي عشناها من قبل، لكنك لا تجد في الحرب العراقية شخصية مثل أبراهام لينكولن. إنها حرب بين الجنوب والجنوب ذاته». في القاعدة التاسعة والثالثة عشرة[1]، يناقش فريدمان ما يعتقد أنه طبيعة قبلية تحكم السياسة العربية، حين يفوز الشرير دوماً لانعدام الأخيار.

يُنهي فريدمان تحليله القاتم للمشهد السياسي العربي بقوله إن السياسة في هذه المنطقة تحكمها تصرفات غاضبة ولاعقلانية: «فأكثر المشاعر التي يتم الاستخفاف بها في السياسة العربية، هي مشاعر الذّل والمهانة»[2].

إن الرسالة التي يبعث بها فريدمان مزعجة لسببين. أولاً: يُنقص فريدمان من قدر ملايين العرب في الشرق الأوسط، فيُصورهم كأنماط سلبية غير مصقولة. لكن، إذا وضعنا جانباً قلقنا حيال عدم اكتراث فريدمان بما يتميز به العرب من إنسانية وتنوع، نجد أن مجموعة القواعد الساخرة واللاواقعية لن تساعد الأمريكيين- أو غيرهم- في التعامل مع الوضع في العراق بطريقة أفضل. تحاول أمريكا وحلفاؤها العسكريون، حسب فريدمان، أن تعيد تأسيس دولة بالاشتراك مع حفنة من «أفراد القبائل» والمتطرفين العراقيين، وهم ليسوا أهلاً للثقة.

إن هذه النظرة البائسة الكئيبة للشرق الأوسط تقضي على جميع الخيارات المتاحة مثل محاولة الاستماع لوجهة نظر العراقيين أو مشاركتهم في حوار بناء -أو حتى أي دولة عربية- منذ البداية. وبدل أن يقوم فريدمان بتسليط الضوء على واقع الشرق الأوسط، نجده يُعرّف جميع العرب- من الجندي المحارب في العراق إلى المزارع في لبنان ومهندس الكمبيوتر في أبوظبي- على نحو مزعج للغاية، كأشخاص يتشابهون جميعاً في عيوبهم. وعلى الرغم من تكرر الكوارث السياسية والنزاعات المسلحة المحزنة، داخل العالم العربي، فإن فريدمان لا يُقدّم أي دليل على أن المنطقة العربية استثنائية من هذه الناحية، والاحتمال الأكبر أنه يعجز عن ذلك لأن الدليل غير متوافر في المقام الأول.

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

صحيح أن العالم العربي شَهِد عبر مئات السنين السابقة، عشرات الصراعات الرئيسة التي أدّت إلى انتشار العنف داخل الدولة الواحدة وبين دولة مختلفة. وعلى أي حال، شهدت الفترة ذاتها في أوروبا، العديد من الحروب الأهلية مثل الحروب التي اندلعت في روسيا وفنلندا وإسبانيا واليونان وبين الرافضين والمؤيدين لاستقلال إقليم الباسك وقد دار هذا الصراع تحديداً لعقود عديدة، فضلاً عن العنف الذي اندلع في إقليم البلقان وإيرلندا بسبب صراعات دامت قرناً بأكمله. ونذكر كذلك حروب الاستقلال والحروب العرقيّة التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي بدأت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. أدى انفجار صراعات سياسية في أوروبا إلى اندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهما أكثر حربين دمويتين في تاريخ البشرية. وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكثافة السكانية في أوروبا أعلى منها في الشرق الأوسط، فإن العالم العربي لا يبدو أكثر ميلاً إلى الصراع المسلح من أوروبا.

لماذا يصرّ فريدمان إذن على تفسير الخلافات السياسية العربية كخطأ فريد من نوعه يقترفه حفنة من أبناء القبائل اللاّعقلانيين والمُنساقين وراء عاطفتهم؟ لعلّ ذلك يُعزى إلى أن محاولة الغرب تجريد الصراع الدائر في الشرق الأوسط من أبعاده السياسية والتاريخية، وعدّه ناتجاً عن تصرّفات حتمية لشعوب تكثر عيوبها ونواقصها، سيبرؤه مما اقترفه في المنطقة وبخاصة احتلاله للعراق.

أصبحت الحرب العراقية في عام 2006، حرباً دموية ومكلفة للغاية. في الواقع، عندما نُشر مقال فريدمان بدأ حوار جاد حول الأخطاء التي ارتُكبت في العراق، في كل من أمريكا، وبريطانيا، وغيرهما من الدول. لذلك، عُيّنت مؤسسة «فريق دراسة العراق» Iraq Study Group، في الولايات المتحدة للمساعدة في تقييم الموقف في العراق. لكنّ فريدمان تجاهل متعمداً الجدل الدائر حول هذه القضية، وعوضاً عن ذلك بات يقدم النصيحة للرئيس بوش، مما جعل عذره أقبح من ذنبه. يقول فريدمان في القاعدة الرابعة عشرة: «يجب ألا تتورط قوة عظمى أبداً في سياسة القبائل الصغيرة»[1].

(1) المرجع السابق

بلغة أخرى، يلمح فريدمان أن الخطأ الحقيقي الوحيد الذي ارتكبته الولايات المتحدة وحلفاؤها، يكمن في مساعدتهم هذه الشعوب البائسة!

وعلى الرغم من حقيقة أن هذه التعميمات لا تسهم في إبراز واقع الإقليم العربي حيث نشرت الولايات المتحدة وحلفاؤها آلاف الجنود وأنفقت بلايين الدولارات، فإن هذه الأفكار المغرضة مازالت مسيطرة، وتظهر في كتب رفيعة المستوى وفي التعليقات الصادرة عن سياسيين بارزين.

فسّرت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس في العشرين من كانون الأول عام 2006، ضمن مقابلة طويلة أجرتها معها صحيفة واشنطن بوست، الفوضى والاضطراب الدائرين في العالم العربي آنذاك لا كأحد نتائج التدخل الغربي بقيادة الولايات المتحدة في شؤون الشرق الأوسط، بل كأمر إيجابي مرغوب فيه وحتمي في آن معاً. سعت رايس كذلك إلى تبرير الحرب في العراق فأعلنت قائلة: «لم يكن بوسع الشرق الأوسط البقاء على حاله»، وأضافت «دعونا نتوقف عن النحيب ورثاء الشرق الأوسط القديم. لم يكن عالماً عظيماً ولم يكن بوسعه النجاة، على أي حال»[1].

إن الأهداف السياسية التي سعت رايس إلى تحقيقها عبر مزاعمها السابقة، واضحة للغاية. إننا نجدها تهاجم بضراوة كمحاولة لإخفاء الكثير من الأخطاء الفاضحة التي اقترفتها إدارتها- بما في ذلك آلاف العراقيين الذين قتلوا خلال محاولتنا تحرير دولة انهمكت فيما بعد في حرب أهلية. كانت رايس تعرف، تمام المعرفة، أنه بعد قضاء سنوات في دعم جهود الحرب، سيشعر الشعب الأمريكي بالملل والاستياء. ولكن عوضاً عن نظرة جادة الى الأسباب وراء تلك الأخطاء، نجدها تقلل من شأن تورطنا الفوضوي في العالم العربي، فتصفه كمرور عابر – لا أكثر- بما أطلقت عليه «الشرق الأوسط القديم» الذي «لم يكن، [على أي حال]، عظيماً».

وعلى غرار فريدمان، الذي رأى غزو العراق خطوة ضرورية للبدء في

(1) Glenn Kessler, «Rice Stresses the Positive Amid Mideast Setbacks,» Washington Post, December 20, 2006.

تحريك إقليم خامد وإصلاحه، اعتمدت رايس على أسطورة الشرق الأوسط الرجعي لدحض إخفاق المبادرات الأمريكية في إحداث تغيير إيجابي. وعبر التقليل من شأن العالم العربي الذي يقطنه ثلاثمائة وخمسون مليون شخص والمفعم بالحياة والطاقة، وتقديمه في صورة نمطية تتصف بالرجعية والخمول، تمكنت رايس من إراحتنا من حاجتنا الماسة إلى النحيب والضرب على صدورنا والاعتراف بـ«أنه كان خطأنا»!

لم يكن فريدمان أو رايس، بالطبع، أول أو آخر الغربيين الذين يتكئون على فكرة أن العالم العربي، رجعي رافض للتغيير، على نحو يائس، ويفتقر إلى التنوع أيضاً. ولعلّ أكثر المؤلفات انتشاراً التي تعرض أفكاراً مغلوطة عن المنطقة العربية، هو كتاب **العقل العربي**[1]، لرافائيل باتاي (Raphael Patai)[2] المعنيّ بالأنثروبولوجيا الثقافية. نُشر الكتاب عام 1973، وكان الهدف منه في المقام الأول تفسير ماهية العالم العربي للغربيين. أُعيدت طباعة الكتاب بشكل منتظم (ظهرت أحدث طبعة عام 2007)، ومازال عديدون يقرؤونه وبخاصة العسكريون الأمريكيون الذين يتم إرسالهم إلى المنطقة العربية. يعتمد كتاب باتاي على النظرية القائلة إن بالإمكان فهم مجموعة من الأشخاص عبر «النموذج الأصلي للشخصية»؛ أي أن ثمة «عقلاً عربياً» واحداً. وعلى الرغم من أن نظرية «النموذج الأصلي للشخصية» كانت في الماضي مذهباً نظرياً شائعاً (ألّف باتاي، وهو يهودي، كتاباً آخر يحمل عنوان **العقل اليهودي**) فإنه فقد مصداقيته داخل الحلقات الأكاديمية، وعلى نطاق واسع، من جانب العامة. يعجّ كتاب باتاي بتعميمات مغلوطة مثل قوله: «إن الانشغال بقضايا الجنس يطوّق العقل العربي ويبدو ذلك جلياً عبر ظاهرتين مختلفتين»[3]، ويضيف باتاي قائلاً: «لماذا يرغب العرب عن قبول أعمال وضيعة إلا إذا دفعتهم الحاجة الماسة

(1) Raphael Patai, The Arab Mind, rev. ed. (New York: Hatherleigh Press, 2007).

(2) رافائيل باتاي: فيلسوف هنغاري متخصص في تاريخ حضارات الشرق الأوسط ولغاته. باتاي يهودي الديانة وصهيوني العقيدة، ويعدّ كتابه مصدراً كلاسيكياً يعتمد عليه المفكرون في فهم الشرق الأوسط.

(3) المرجع السابق

إلى كسب عيشهم من عرق جبينهم؟»[1]. على غرار قواعد فريدمان الخمس عشرة، يسحق كتاب باتاي التنوع الذي يميز الشعوب العربية، بعبارات تمنعنا من فهم هذه الشعوب والاستماع إليها.

سأورد هنا دليلاً على أهمية كتاب **العقل العربي**، فعندما أعيدت طباعة الكتاب من جديد في عام 2002، اشتمل على مقدمة من تأليف نورفيل دي أتكن (Norvell De Atkine)؛ رئيس مركز دراسات الشرق الأوسط في قاعدة فورت براغ (Fort Bragg) العسكرية الواقعة في ولاية كارولينا الشمالية. يقول دي أتكن إن كتاب العقل العربي يشكّل قاعدة «لمئات الجنود المنتشرين في الشرق الأوسط»[2].

امتدح الكاتب الصحفي المحافظ جيمس بينكيرتون (James Pinkerton)، الذي يعدّ عنصراً فاعلاً ومؤثراً في السياسة الأمريكية – كتاب **العقل العربي** في مقال نُشر عام 2003 في صحيفة **أخبار اليوم** (**ونيوزداي**) (News day)، وذلك لقدرة الكتاب على تفسير الشرق الأوسط للأجانب. يقول بينكيرتون في هذا السياق: «لقد ساعدني هذا الكتاب الذي يبلغ من العمر ربع قرن على فهم ما رأيتُه عندما توجهت إلى العراق الشهر الفائت»[3]. يتابع بينكيرتون، الذي كان مستشاراً للمرشح الرئاسي الجمهوري مايك هاكابي (Mike Huckabee) في عام 2008، ليفسر الصراع الثقافي الذي بدأ يتكشف في بغداد بين ثقافة الغرب «الحديث» والثقافة العربية «الرجعية»:

> تكمن المشكلة في أن الثقافة العربية– التي يعدّ جزء كبير منها بعيداً عن الحداثة لاعتمادها على الأقوال، في حين يعدّ الجزء الأعظم رجعياً لاعتمادها على نظريات المؤامرة كبديل للواقع– تجد نفسها

(1) المرجع السابق

(2) Norvell De Atkine، «Foreword،» in The Arab Mind، rev ed.، by Raphael Patai، (New York Hatherleigh Press، 2002).

(3) James Pinkerton, «A Culture Gap Complicates US. Task in Iraq,» Newsday, July 9, 2003, http://www.newamerica.net/publications/articles/2003/a_culture_gap_complicates_u_s_task_in_iraq.

تسير جنباً إلى جنب مع التأمركية (أو المذاهب الأمريكية)[1]
وذلك بسبب اعتقادها التقني، الذي يخلو من العاطفة، بالنتائج
النهائية لأي أمر كان. ولذلك، فهي معركة أخرى بين القدماء
والمحدثين، والشعراء والعلماء، والرومانسيين والعقلانيين[2].

لعلّ أبرز اعتراف رفيع المستوى بالأهمية المستمرة لكتاب **العقل العربي** نجده واضحاً في مقال سيمور هيرش (Seymour Hersh)، الذي يحمل عنوان «المنطقة الرمادية»، والذي نُشر في صحيفة **نيويوركر** في الرابع والعشرين من أيار، عام 2004. وحسب أحد المصادر التي استشهد بها هيرش في مقاله، يقدم كتاب **العقل العربي** غطاءً علمياً لادعاءين متحفظين حديثين[3]، شاملين في ايحاءاتهما، ألا وهما: «أولاً: يفهم العرب القوة فقط، ثانياً: أكبر نقاط ضعف العرب تكمن في مشاعر الخزي والعار والذل»[4]. ووفق مقال هيرش، أدى هذا الفهم القائم على التبسيط اللاوقعي لحقيقة الشعوب العربية، في نهاية المطاف، إلى استخدام أمريكا برامج عسكرية جوهرها التعذيب والإهانة الجنسية حيث مورسا على السجناء العراقيين في أبو غريب[5].

وعلى الرغم من أننا لا نشير الى أن باتاي، الذي فارق الحياة في عام 1996، مسؤول بصفة شخصية عن المناظر المروعة والمرعبة التي شهدناها في أبو غريب، فإن من الضروري جداً فهم العلاقة المباشرة بين اعتماد الولايات المتحدة على نظريات «الرصاصة السحرية»[6] فيما يتعلق «بالعقل العربي».

(1) التأمركية أو الاستمراكية (Americanism): مصطلح أمريكي يشير إلى المبادئ التي ترتكز عليها الثقافة الوطنية الأمريكية. (المترجم)

(2) المرجع السابق

(3) يستخدم المؤلف عبارة (neoconservative) والتي تُشير إلى فلسفة سياسية ظهرت في الولايات المتحدة، تدعم استخدام الولايات المتحدة للقوة الاقتصادية والعسكرية الحديثة لجلب الحرية والديمقراطية إلى دول أخرى. (المترجم)

(4) Seymour M. Hersh, «The Gray Zone: How a Secret Pentagon Program Came to Abu Ghraib,» The New Yorker, May 24, 2004, http://www.new yorker.com/archiwe/2004/04/05/24/040524fa_fact.

(5) المرجع السابق.

(6) قال هارولد لازويل (متأثراً بفرويد) في نظرية الرصاصة السحرية: إن الأشخاص ليسوا إلا مجتمعاً

والأخطاء الدبلوماسية والعسكرية الفادحة الناتجة عنها. ولكن لايزال هذا التفكير المشوه المتعلق بالعالـم العربي مستمراً، ولا ينحصر فـي الخُطب اللاّذعة التي تميز الحوار الذي يدور حـول المنطقة فـي البرامج الحواريـة التي تبثها محطات الإذاعة اليمينية. في كانون الثاني من عام 2010، استضافت مؤسسة هدسون (Hudson Institute)، وهي مؤسسة فكرية متحفظة وفاعلة، الاحتفال بصدور كتاب **الحصان القوي** (The Strong Horse) للكاتب لي سميث (Lee Smith)؛ مراسل صحيفة **ويكلي ستاندارد** (Weekly Standard) في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن كتاب سميث يحتوي على بعض العناصر المشتقة من الأنثروبولوجيا الثقافية التي يناقشها باتاي في كتابه **العقل العربي**، فإن أسلوبه غالباً ما يقترب من تصريحات فريدمان اللاذعة والمتسرعة، مثل قول الأول: «إن العنف السياسي في الشرق الأوسط ليس حالة شاذة، بل هو أمر طبيعي وهو، في الواقع، يعبر عن حالة الوضع هناك»[1]. يقول سميث إن العرب محكومون في عالمهم بقوى ثابتة غير قابلة للتغيير، ثم يجادل قائلاً إن المشاكل السياسية التي تعانيها المنطقة العربية ليس لها علاقة كبيرة بالصراع مع إسرائيل والولايات المتحدة أو أي تدخل أوروبي آخر، بل إن هذه المشاكل تُعزى إلى خلل أصاب «العقل العربي».

ورغم عيوب هذه الأسطورة المتطرفة– لم يتمكن فريدمان، على سبيل المثال، من التنبؤ بنتائج الحرب العراقية– فقد ظلت هذه الأسطورة مهيمنة. ولطالما أدت هذه الأسطورة إلى أن تسلك جهود الولايات المتحدة والأمم الغربية، الموجهة نحو الشرق الأوسط، المسار الخاطئ. في الواقع، فإن السبيل نحو علاقات ناجحة مع الشرق الأوسط يمتد إلى ما وراء أنصاف الحقائق

جماهيرياً يتكون من مجموعة أفراد منعزلين، وإن وسائل الإعلام تعدّ مصدراً قوياً للتأثير فيهم، فهم يقبلونها ويفهمونها بشكل متماثل. تشبّه هذه النظرية قوة الرسالة الإعلامية بالطلقة النارية التي إذا ما صوبّت بشكل دقيق فإنها لا تخطئ الهدف. لم تنجح هذه النظرية لاعتمادها على التبسيط اللاواقعي لعقلية الشعوب. (المترجم)

(1) Smith, Lee, The Strong Horse: Power, Politics, and the Clash of Arab Civilizations (New York: Doubleday, 2010), 6.

الساخرة والتحريف الصريح لماهية الأمور. إن الطريق نحو فهم صحيح للشرق الأوسط يتطلب تقديراً للثراء والتنوع الفكري والثقافي للعالم العربي، بالإضافة إلى إدراك الطموحات الحقيقية لشعوب هذه المنطقة.

هل العالم العربي تائه في الظلمات ويحكمه العنف؟ هل يتصف شعبه وثقافته بالخمول والرتابة وافتقارهما للتنوع. بالتأكيد، يناقض مهرجان «أرابيسك» هذه الاتهامات. لكننا، في مؤسسة زغبي الدولية لدينا طرق مغايرة للتعرف إلى المنطقة العربية. نحن نقوم باستطلاع آراء الشارع العربي، فنمنح العرب الفرصة للحديث عن أنفسهم، ثم نستمع إلى ما يقولونه لنا عن اهتماماتهم السياسية، وقلقهم حيال الوضع السياسي في المنطقة، وفخرهم بتراثهم، وطموحاتهم.

لنلقِ نظرة خاطفة على استطلاع للرأي أجريناه في تشرين الثاني من عام 2009 على ست دول عربية هي المغرب، ومصر، ولبنان، والأردن، والسعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة. قد يساعدنا هذا الاستطلاع في التوصل إلى فهم إيجابي وبنّاء للعالم العربي وتنوع ثقافته. سنقوم بدراسة ردود فعل الشعب العربي على السؤال التالي: «ماذا ترغب أن يعرف العالم عن وطنك»[1].

تقع المغرب في أقصى الحافة الغربية للوطن العربي، وفيها خليط فريد من نوعه، يشتمل على ثقافات متنوعة هي الثقافة العربية والإفريقية والفرنسية. ولطالما كانت المغرب، على امتداد فترة طويلة من الزمن، وجهة يرتادها السُّيّاح الأوروبيون. تأخذ المغرب دورها القيادي في العالم الإسلامي على محمل الجد، بقيادة ملكها؛ محمد السادس، الذي يرأس لجنة القدس؛ إحدى لجان منظمة المؤتمر الإسلامي.

تعاني المغرب، على غرار مصر، من تزايد سريع في الكثافة السكانية وكفاح متواصل من أجل تحقيق النمو الاقتصادي المطلوب. وعلى الرغم من هذه العقبات يعيش في المغرب مجتمع مدني نابض بالحياة والنشاط، تنتشر فيه أحزاب

(1) Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll, November 1-18, 2009. Sample size: 3,989 adults.

سياسية تتنافس عبر الانتخابات.

عندما طلبنا من المغاربة أن يخبرونا بما يودون أن يعرف بقية العالم عن دولتهم، ركّز نصفهم على تقاليد المغرب وثقافته المنفتحة المتسامحة. قال أحدهم: «نحن دولة ذات كرامة وكبرياء وإحدى أكثر الدول تسامحاً». قال آخر: «نحن بلد عريق وشعب طيب ولنا تاريخ عظيم وسياحة رائعة». أما ربع العينة فعكست استجاباتها موقفاً دفاعياً، وذلك لإدراكها كيف يصور الغرب المسلمين عبر صور نمطية زائفة ولاسيما بعد ربط بعض المغاربة بأعمال إرهابية وقعت في الولايات المتحدة وأوروبا. أراد هؤلاء أن يعلم العالم أن ليس كل المغاربة إرهابيين، ولذلك قال أحد المستجيبين للاستطلاع: «إن من يعرفنا ويعرف تقاليدنا جيداً سيكتشف أننا لسنا إرهابيين». قال مشارك آخر: «إن لبلدنا ميراثاً وحضارة نبيلة عظيمة، ويتميز باستقراره على النقيض تماماً مما يعتقده أولئك الذين يظنون أننا أمة إرهابية». تحدثت المجموعة الأخيرة من المغاربة عن أهمية الإسلام وعاداته وتقاليده ودوره في تشكيل ثقافتهم: «نحن فخورون بكوننا دولة عربية ومسلمة ذات تاريخ عظيم» و«نحن فخورون بعاداتنا وتقاليدنا العربية والإسلامية». ورغم النزاع المستمر حول الصحراء الغربية الواقعة جنوب المغرب، لم يذكر أي من المغاربة الذين شاركوا في استطلاعنا هذا، هذه النقطة[1].

تقع مصر عند النقطة المحورية الواقعة بين قارتي آسيا وإفريقيا، وتحديداً على الساحل الجنوب غربي من البحر المتوسط. تعدّ مصر أكبر دولة عربية من ناحية عدد السكان، وقد لعبت دوراً قيادياً في السياسة العربية، وتفتخر مصر بتاريخها العتيق والدور الذي لعبته خلال النصف الأخير من القرن الماضي كمقر لجامعة الدول العربية وقبلة للقومية العربية. وعلى الرغم من حقيقة أن مصر كانت أول دولة عربية توقع معاهدة سلام مع إسرائيل، فمازال المصريون يشعرون بالأسى العميق حيال الصراع العربي-الإسرائيلي الدائر حتى يومنا هذا وإزاء مأساة

(1) Zogby International, Morocco Opinion Poll, November 1-18, 2009. Sample size: 820 adults.

الشعب الفلسطيني. يُظهر المصريون رباطة جأش مذهلة تُدهش الغرباء، أمام الضغوط الداخلية الناتجة عن بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة والاقتصاد المكافح، والكثافة السكانية المتزايدة على نحو سريع، والنظام السياسي الذي يتصف ببيروقراطية عالية وعدم الاستجابة لمطالب الشعب.

وعندما طرحنا السؤال السابق ذاته على المصريين، ركزوا جميعاً وبنسب متساوية على أربع خصائص: «أولاً، الشعب المصري شعب متسامح (فعلى سبيل المثال، استجاب بعضهم قائلاً: «إن ديننا يدعو إلى المساواة والتسامح»، «نحن لسنا شعباً متعصباً»). ثانياً: مصر بلد آمن ومستقر («لا مكان للإرهاب في بلدنا هذا»). ثالثاً: تلعب مصر دوراً رئيساً في العالم العربي («نحن خط الدفاع الرئيس للشعب الفلسطيني»)، رابعاً: وبالطبع ركز المصريون على تاريخ مصر والصناعة السياحية («نحن أصحاب أقدم حضارة في العالم، على الجميع أن يأتوا لزيارتنا»، و«نحن في أرض الفراعنة») [1].

تتمتع لبنان بجمال ملموس ورائع وتاريخ غني ومجتمع متنوع. لكن لبنان يعاني مصاعب داخلية نتجت عن نظام حكم طائفي فرضه الفرنسيون قبل عقود مضت. توغل التوتر، منذ البداية، داخل نظام الدولة الذي يعاني خللاً واضحاً وذلك بسبب الصراع الدائر بين المجتمع المسيحي، الذي يسيطر على نظام الحكم باعتباره الزبون الذي أولته فرنسا ثقتها، والمجتمع الشيعي الذي حصل على أصغر جزء من الكعكة.

أصبحت لبنان، بعد عام 1948، ملجأً لمائة ألف فلسطيني هربوا من ديارهم التي باتت تُعرف بدولة إسرائيل. تسبب الوجود الفلسطيني بزعزعة استقرار لبنان، بين الحين والآخر. ولسوء الحظ، استغل جيران لبنان هذا التوتر، وأدى الخلاف الداخلي المتفاقم إلى حرب أهلية اندلعت عام 1975، واستمرت حتى عام 1990. تحولت لبنان خلال السبعينيات والثمانينات إلى ساحة قتال تعارك فيها الفلسطينيون والإسرائيليون مما أدى إلى احتلال إسرائيل جنوبي لبنان.

(1) Zogby International, Egypt Opinion Poll, November 1-9, 2009. Sample size: 810 adults.

أدى ذلك بدوره إلى بروز حزب الله الذي تبنى دور حركة المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي، وتحمّل لبنان الوجود السوري الذي دام ثلاثة عقود متواصلة. قد تختلف وجهات نظر الطوائف اللبنانية، بين الحين والآخر، إزاء القضايا الداخلية الحرجة والسياسات الخارجية، لكن، وعلى الرغم من ذلك، يتفق الشعب اللبناني على شعور قوي بالهوية، وحب عميق للوطن.

وعندما قمنا باستطلاع لرأي الشارع اللبناني، ظهر قلق اللبنانيين واضحاً، وبدا نتيجة للظروف الخاصة بتطور الدولة وتاريخها ومكانتها الإقليمية. تشير استجابة اللبنانيين للسؤال اللامحدود الإجابة: «ماذا ترغب في أن يعرف العالم عن وطنك؟» إلى ما يقلق بعضهم وإلى ما يشكل مصدر فخر بالنسبة لبعضهم الآخر، ركز ثلث اللبنانيين على جمال وطنهم وتاريخه العظيم، وتحدثوا عن «التراث العتيق» للبنان، ووصفوه بأنه «وجهة سياحية من الطراز الأول»، أو وصف بعضهم جمال «قمم الجبال المغطاة بالثلوج والشواطئ التي يمكن الاستمتاع بهما في آن واحد». وعلى النقيض من هؤلاء، تعكس استجابة الثلث الآخر قلق اللبنانيين حيال الانقسامات الداخلية والألم الشديد الذي مازالوا يشعرون به من جراء الاحتلال الإسرائيلي الطويل للجنوب، والآثار المدمرة التي خلّفها هذا الاحتلال. أراد هؤلاء أن يعرف العالم التزامهم نحو المقاومة، وقالوا: «نحن بلد حر لا يقبل الاحتلال أو الذل»؛ «نحن مقاومة تقف في وجه الاحتلال الظالم»، وأضافوا قائلين: «رؤوسنا مرفوعة دوماً ولن تتوقف المقاومة حتى نحصل على حقوقنا كاملة»[1].

يعدّ الأردن موطناً للآثار الرائعة لحضارة الرومان والأنباط. وعلى الرغم من أنها تقع في جِوار صعب، كانت الأردن دوماً، ولسنوات طويلة، بمثابة جزيرة صغيرة تنعم بالاستقرار والتطور لكونها أول دولة في الشرق الأوسط تُروج لبيئة نظيفة وسياسة حماية المستهلك. ومع ذلك، ينشغل الأردنيون، بحكم الضرورة، بانعدام الاستقرار الناتج عن الصراعات الدائرة شرقه وغربه. يبلغ عدد

(1) Zogby International, Lebanon Opinion Poll, November 1-14, 2009. Sample size: 508 adults.

السكان ستة ملايين أردني، ثلثهم لاجئون فلسطينيون تربطهم صلات قربى متينة بأقارب لهم يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي. وهناك سبعمائة ألف لاجئ عراقي قدموا إلى الأردن مؤخراً، وأدى وجودهم إلى خلق ضغوطات اقتصادية جديدة، ولا عجب أن الأردنيين، من كل طيف، يرقبون عن كثب التطورات التي تحدث وراء حدودهم، فيزداد قلقهم حيال مستقبل استقرار وطنهم.

عندما يصف الأردنيون وطنهم ينقسمون إلى نصفين متساويين تقريباً، فيركز النصف الأول على الجاذبية السياحية لوطنهم والمواقع الأثرية التاريخية الرائعة، ويشيرون إلى أن الأردن «تاريخ عظيم وحضارة عربية نبيلة»، بالإضافة إلى «المناظر الخلابة في مدينة البتراء والبحر الميت والعقبة». أما النصف الآخر فيبحث عن التحديات الفريدة من نوعها، المتمثلة في الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني المستمر، وتأثيره على الأردن. قال بعضهم: «إن القضية الفلسطينية وحق العودة يمثلان أهم قضايا الأردن وأبرزها»، و«لن ننعم بالسلام طالما أن القضية الفلسطينية ماتزال عالقة»[1].

إلى الجنوب من الأردن، تقع المملكة العربية السعودية، حيث توجد المدينتان المقدستان عند المسلمين؛ أي مكة التي يحج إليها ملايين المسلمين كل عام، والمدينة المنورة حيث أسس النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - أول مجتمع إسلامي لكل من آمن برسالته. ولذلك، فإن السعوديين يفخرون بالدور الحيوي بالغ الأهمية، الذي تلعبه دولتهم بالنسبة إلى الإسلام. تعد السعودية أيضاً قوة اقتصادية عظيمة، لذلك بدأت في فرض نفوذها السياسي عن طريق دورها الإقليمي متزايد الأهمية في التعامل مع القضايا التي تعدّ محورية بالنسبة إلى العرب والعالم الإسلامي الفسيح. لكن السعودية شهدت أيضاً تغييراً داخلياً مثيراً خلال العقود الماضية، فلقد أصبحت أكثر مدنية، وبالتأكيد أكثر حداثة. لقد أدى هذا التحول إلى خلق ضغوطات اجتماعية

(1) Zogby International, Jordan Opinion Poll, November 2-17, 2009. Sample size: 515 adults.

وثقافية، وبالإضافة إلى ذلك، باتت الكثافة السكانية المتزايدة مصدر قلق بالنسبة إلى العديد من السعوديين.

عندما طرحنا السؤال ذاته: «ماذا ترغب في أن يعرف العالم عن وطنك؟»، تحدث السعوديون عن أمة آمنة ومسالمة وملتزمة بتعاليم الدين الإسلامي وتقاليده وعاداته. ولا عجب أن ما يزيد على ثلث عدد الذين استجابوا لاستطلاع الرأي، ركزوا على كون بلادهم «قد أكرمها الله عز وجل بوجود المسجدين المقدسين في كل من مكة والمدينة. وبالإضافة إلى ذلك، تحدث الكثير من السعوديين عن الإسلام، فقام بعضهم بذكر خصائصه المختلفة، بلهجة دفاع تشبه تلك التي استخدمها المغاربة، فوصفوا المملكة «كدولة إسلام وسلام وتسامح وإيمان برب واحد» و«أنها ليست دولة متطرفة، بل هي دولة آمنة مطمئنة» وأنها «دولة مسلمة تمقت الإرهاب وتروّج للسلام»[1].

تعدّ دولة الإمارات العربية المتحدة إحدى الدول التي ترنو إلى الأمام متطلعة نحو مستقبل بهيج. تتمتع هذه الدولة بطموح وخطط خلّاقة مبدعة تهدف إلى استغلال نجاحها الاقتصادي لتصبح محوراً تجارياً وثقافياً وسياحياً. ولقد تسببت الأزمة الاقتصادية الأخيرة في دُبي (Dubai)؛ إحدى إمارات الدولة، بضربة قاسية للدولة، مزعزعة ثقة بعضهم في قدرة الدولة على إدارة الاقتصاد والأعمال، وخلقت قلقاً عميقاً داخل الإمارة ذاتها. على أي حال، مازال اقتصاد الدولة العام ينمو ويجذب استثمارات جديدة من شركاء أعمال إقليميين وأجانب. فعلى سبيل المثال، استثمرت إمارة أبوظبي (Abu–Dhabi)؛ عاصمة الدولة الغنية بالنفط، مشاريع بعيدة المدى لتؤسس ذاتها كمركز ثقافي يسعى إلى اجتذاب الجامعات الغربية (التي دشّنت بالفعل فروعاً لها في الإمارة) ومتحفي غاغينهايم واللوفر (Guggenheim and Louvre) (اللذين افتتحا فرعاً لهما هناك) حتى إنها استضافت سباق الفورميولا ون (Formula 1). مؤخراً، وقع الاختيار على دولة الإمارات العربية المتحدة لاستضافة الوكالة

(1) Zogby International, Saudi Arabia Opinion Poll, November 3-18, 2009, Sample size: 815 adults.

الدولية للطاقة المتجدّدة (International Renewable Energy Agency)، وهو أمر تفخر به الدولة وتشير إليه كدليل على تمييز العالم لها كدولة متقدمة ومتحضرة. تحتوي دولة الإمارات العربية المتحدة على كثافة سكانية هي الأكثر تنوعاً في العالم العربي. ولا يشكل المواطنون الإماراتيون سوى نسبة بسيطة مقارنة بعدد المغتربين القادمين من أكثر من مائة دولة، مشكلين خمسة وثمانين بالمائة (85٪) من مجموع السكان. أدى اعتماد الدولة على قوة عاملة ضخمة من المغتربين وقلقها حيال الظروف المعيشية، بالإضافة إلى قربها من إيران والعراق، إلى تزايد القلق حيال الاستقرار الإقليمي للإمارات العربية المتحدة ومستقبلها.

أبدى أربعون بالمائة من المواطنين الإماراتيين رغبتهم في التشديد على أمن وطنهم واستقراره للعالم الخارجي، ولعل ذلك يعود إلى الأدوار المهمة التي تلعبها كل من السياحة والقوة العاملة من المغتربين، في بلادهم. وصف بعض من استجابوا لاستطلاع الرأي هذا، بلدهم «كدولة مسالمة تبتعد دوماً عن الصراعات والحروب» و«دولة آمنة مطمئنة تهدف إلى تحقيق النمو»، وأشاروا كذلك إلى «نظام الأمن الداخلي المتميز والرائع». وبينما تحدث أربعون بالمائة (40٪) بفخر شديد عن نجاحهم الاقتصادي، والصناعة السياحية التي اجتذبت السيّاح من كل أنحاء العالم، وصف أحد أفراد العينة الإمارات العربية «كدولة تتميز بخليط فريد من نوعه، من العادات والتقاليد العربية والإسلامية، وخليط من الثقافة السياحية وتطور الأعمال والمشاريع الاقتصادية، ومن أعمال البناء والتجارة معاً». وقد أشار آخرون إلى «المتنزهات والمنتجعات الترفيهية حيث يسهل الاستجمام والاستمتاع في آن معاً»[1].

يعدّ ما سبق مجرد مقتطفات سريعة من نتائج استطلاع مؤسسة زغبي الدولية لآراء ست دول عربية. قمنا أحياناً باختيار دول عربية أخرى، لكننا اخترنا هذه الدول الست تحديداً لإجراء استطلاعاتنا السنوية، لأنها تغطي ثلاثة أقاليم

(1) Zogby International, United Arab Emirates Opinion Poll, November 2-17, 2009. Sample size: 521 adults.

رئيسة في العالم العربي: المغرب ومصر من القارة الإفريقية، لبنان والأردن من شرق الوطن العربي، والسعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة من الخليج العربي. إن العالم العربي الذي تعرّفنا إليه عبر هذا الاستطلاع يصعب وصفه ببقعة يسكنها أفراد بليدون عاجزون عن التطور، أو أن ثقافتهم رتيبة تفتقر إلى التنوع. بل إن العالم العربي يشكل إقليماً متشابهاً إلى حد كبير، لكنه غني بالتفاصيل التي تشير نحو حقيقة بسيطة: إن العالم العربي الحقيقي أعقد من الصورة الكاريكاتيرية المنمقة التي يقدمها لنا المعلقون والسياسيون وحتى بعض الأكاديميين بصورة متكررة. فالقاهرة، على سبيل المثال، تختلف عن الرياض التي تختلف بدورها عن بيروت، والأخيرة تختلف عن مراكش. يفخر سكان هذه المدن جميعاً بالخصائص المميزة لبلادهم، وتجدهم شديدي الولاء للقيم التي يؤمنون بها. ومن الضروري أن ندرك هذا التنوع بين الدول العربية إذا رغبنا في تطوير حوارنا وارتباطنا بالعالم العربي، ولن نتمكن من فهم العالم العربي على حقيقته إلا إذا بدأنا بالاستماع إلى شعوبه، وتوقفنا عن ملاحقة الأساطير والشائعات المُغرضة.

الفصل السادس

الأسطورة الخارقة الثانية:
لا يُوجد ما يُعرف بالعالم العربي

على النقيض من الأسطورة الشائعة القائلة بأن «العقل العربي» أحادي اللون؛ أي يفتقر إلى التنوع، نجد أسطورة أخرى مفادها أن العالم العربي والهوية العربية ما هما إلاّ خيال مُجزأ ومتناثر. تزعم هذه الأسطورة أن المنطقة العربية متباينة للغاية، ومعقدة جداً إلى حد يصعب معه وصفها «كعالم» متماسك، وأنها تفتقر إلى روابط من شأنها أن تمنحهاهوية مشتركة.

ظهر هذا الاتجاه الفكري بشأن العالم العربي في سلسلة مقالات نشرها محررو مجلة الاقتصادي (Economist)، في تموز عام 2009، تحت عنوان «عالم يستيقظ من سبات طويل: تقرير خاص عن العالم العربي». رفض أحد المقالات في هذا التقرير الخاص الهوية العربية، ووصفها بأنها «مراوغة» إذ يمكن «تبنيها أو التخلي عنها حسب الذوق والظروف»، ثم شكك التقرير في فائدة مصطلح «العالم العربي». ويبدو أن مؤلفي هذه المقالات وجدوا أنفسهم مرغمين على الاعتراف (لكن على مضض) بأن هذا المصطلح قد يكون طريقة «منظمة» لوصف الاثنتين والعشرين دولة ناطقة باللغة العربية، التي تقع شمالي إفريقيا وجنوبي غرب آسيا[1]، ويعزى ذلك إلى أن المجلة اختارت «تقريراً خاصاً عن العالم العربي» كعنوان لعددها ذلك. بيد أن المؤلفين أشاروا إلى أن فكرة «العالم العربي» ليست مفيدة، لأنها تصف «عالماً فسيحاً لم يتبلور بعد، وليس عالماً واحداً متناغماً»[2].

(1) «The World of the Arabs,» in «Waking From Its Sleep: A Special Report on the Arab World,» The Economist, July 25, 2009: 2.

(2) «Waking From Its Sleep» in «Waking From Its Sleep: A Special Report on the Arab World,» The Economist, My 25, 2009: 4.

لقد أوضح استطلاع الرأي الخاص بمؤسستنا أن هناك تنوعاً عظيماً يميز العالم العربي أجمع. إن المواطنين في معظم الدول يشعرون حقيقة بالفخر تجاه تاريخهم الفريد من نوعه وخصائص أوطانهم المميزة. سنرى لاحقاً، أن مواطني هذه الدول لديهم قضايا مختلفة تحدد جداول أعمالهم السياسية المحلية. فاللبنانيون، على سبيل المثال، مهتمون بانقساماتهم السياسية الداخلية وشعورهم بأنهم مهددون دوماً بفعل الصراع المتجدد بين إسرائيل وحزب الله. أما الفلسطينيون فينصب اهتمامهم بالدرجة الأولى على القضية الفلسطينية، وانعدام الاستقرار الناتج عن الصراع المستمر الدائر داخل العراق، على الحدود الشرقية للأردن. تمثل المشاكل الاقتصادية أبرز هموم دبي التي يواجه سوقها صعوبات عدّة، وإحدى المعضلات التي تعاني منها دولة فقيرة مثل مصر.

وعلى الرغم من أن هذه الخصائص المميزة لكل دولة على حدة تعدّ مشروعة، فإنها لا تلغي حقيقة واضحة في المنطقة العربية ألا وهي أنه رغم التباين المحلي، يبرز في استطلاعنا بوضوح تام مفهوم الهوية المشتركة، ومجموعة اهتمامات شائعة.

إنها مفارقة حقاً أن تستشهد **مجلة الاقتصادي** في مقالها بأحد استطلاعات مؤسسة زغبي الدولية لتدحض أهمية الهوية العربية[1]. أجرينا استطلاعاً للرأي بناء على طلب جامعة ماريلاند، في نيسان من عام 2009، فتوجهنا بالأسئلة التالية لمشاركين في ست دول عربية (المغرب، ومصر، ولبنان، والأردن، والسعودية، والإمارات العربية المتحدة): «أيّ مما يلي يشكل ملامح هويتك؟» توزعت الاستجابات بالتساوي تقريباً على ما يلي: «موطن رأسك» (35٪)، «كونك عربياً» (32٪)، و«ديانتك» (32٪). وقد بدا واضحاً أن هذه النسب عنت لمحرري المجلة أن «كونك عربياً» لم تكن المكون الرئيس للهوية في هذه المنطقة. على أي حال، فإن الإجابة الأعمق تكمن في حقيقة أن العرب، على غرار شعوب كثيرة، يعيشون في عالم معقد تختلف فيه الآراء حول مفهوم الذات.

(1) «World of the Ara bs,» 2.

من المؤكد أن الشعوب الأمريكية والأوروبية يمكنها فهم هذه الحقيقة. وعلى الرغم من أن عوامل مختلفة قد تجمع الملايين مناً معاً مثل العُملة واللغة ورئيس الدولة ذاته، فإننا خاضعون لعوامل شخصية متنوعة تجذبنا في اتجاهات مختلفة وظروف متباينة تشكل جميعها ما يُطلق عليه علماء الاجتماع «المصدر الرئيس للهوية». في المملكة المتحدة، على سبيل المثال، قد يكون العِرق، والدين، والإقليم وحتى العُمر، مصدراً لأنماط الولاء المختلفة. في الولايات المتحدة الأمريكية، تجد شاباً إفريقياً أمريكياً من ولاية كارولينا الجنوبية وآخر أبيض اللون، في منتصف العمر، من ولاية بوسطن، ورجلاً متقاعداً من ولاية أريزونا، لا يشتركون في الظاهر إلا في شيء بسيط للغاية، وهذه حقيقة يستغلها السياسيون على نحو متكرر. يُعبّر بعض المحللين السياسيين عن قلقهم إزاء «مشكلة الهوية» تلك، التي يمكن أن تؤدي إلى اختلال نسيج المجتمع[1] إذا لم يتم التعامل معها بطريقة صحيحة. وعلى الرغم من ذلك، يُعرّف الإفريقي القادم من كارولينا الجنوبية والرجل القادم من بوسطن والكهل القادم من أريزونا، أنفسهم إذا ما سئلوا عن هويتهم - بوصفهم أمريكيين.

كذلك الحال مع العرب - إن العوامل التي تجذبنا في اتجاهات مختلفة وتتنافس فيما بينها لتُكسبنا هوية مختلفة، هي ببساطة جزء من العالم الحديث. غير أن الحقيقة التي كشف عنها استطلاع الرأي الذي أجريناه -والتي تشير إلى أن ثلث من استجابوا إلى هذا الاستطلاع من الدول الست التي تملك كلّ منها تقاليد مختلفة تميزها، قالوا إن هويتهم الرئيسة هي أنهم «عرب»- معبّرة جداً، وبخاصة إذا درسنا مفهوم الهوية في كل دولة على حدة. طرحنا السؤال التالي في الاستطلاع الذي أجريناه في تشرين الثاني من عام 2009: «إذا افترضت أنك تتجدث إلى شخص قادم من الولايات المتحدة. قم بترتيب ما يلي حسب

(1) Samuel P Huntington, Who Are We? The Challenges to America's National Identity (New York: Simon & Shuster, 2004); Stanley Allen Renshon, The 50% American: Immigration and National Security in an Age of Terror (Washington, DC: Georgetown University Press, 2005).

أولويته بالنسبة إلى قدرته على تحديد هويتك».

اتضح أن «مسقط الرأس» يشكل أهم تعريف للذات، أما كون المستجيب «عربياً» فاحتل المرتبة الثانية في جميع البلاد باستثناء المغرب (إذ احتل المرتبة الثالثة)، والإمارات العربية المتحدة (إذ احتل المرتبة الأولى، ولعل السبب يعود إلى أن نصف أفراد العينة هم مغتربون يعملون في الإمارات)[1]. وعندما قمنا بتجميع الإجابات كلها كما فعلت مجلة الاقتصادي، نجد أن النسب تتوزع بالتساوي بين «مسقط رأسك»، و«كونك عربياً» و«ديانتك»، (انظر الجدول 6–1).

الجدول (6–1): العوامل التي تحدد مفهوم الذات مرتبة حسب أهميتها

افترض أنك تتحدث مع شخص قادم من الولايات المتحدة، نرجو التكرم بترتيب كل مما يلي حسب أهميته بالنسبة إلى قدرته على تعريف هويتك لهذا الأمريكي.						
	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
الأسرة	6	6	5	6	5	4
المدينة	5	4	3	4	3	4
الوطن	2	1	1	1	1	3
الدين	1	3	4	3	1	2
عربي	3	2	2	2	2	1
الحالة الاجتماعية	4	5	6	5	4	5

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع للرأي خاص بست دول عربية، 1–8، تشرين الثاني، 2009. حجم العينة: 3,989 شخص بالغ.

(1) Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll, November 1-18, 2009. Sample size: 3,989 adults.

ملاحظة: طُلب من أفراد العينة أن يرتبوا العناصر السابقة حسب أهميتها. يشير الرقم (1) إلى أعلى درجة تفضيل في حين يشير الرقم (6) إلى أدنى درجة.

في استطلاع شامل أجريناه في نيسان، عام 2010، سألنا مباشرة السؤال التالي: «ما أهمية هويتك العربية بالنسبة إليك؟» بيّنت الدراسات أن الهوية العربية مهمة بالنسبة إلى ثلاثة أرباع اللبنانيين، وما يزيد على تسعة أعشار المصريين والأردنيين والسعوديين والفلسطينيين والكويتيين (انظر الجدول 6–2)[1]. في استطلاع تشرين الثاني من عام 2009، طرحنا السؤال التالي: «ما أهمية الوحدة العربية بالنسبة إليك شخصياً؟» أشارت استجابات أفراد العينة الى أن الوحدة العربية مهمة بالنسبة إلى ثلثي المغاربة والمصريين، وثلاثة أرباع اللبنانيين والأردنيين وتسعة أعشار السعوديين والإماراتيين تقريباً (انظر الجدول 6–3).

ولكن، مم يتكون مفهوم «الهوية العربية» هذا؟ عندما طلبت مؤسسة زغبي من المستجيبين للاستطلاع أن يختاروا أهم مصدر «للقاعدة المشتركة بينك وبين العرب الآخرين»، غالباً ما أشاروا إلى «الاهتمامات والهموم السياسية المشتركة» و«اللغة الواحدة» كأهم عاملين (انظر الجدول 6–4).

الجدول (6–2): أهمية الهوية العربية (بالنسبة المئوية)

ما أهمية هويتك العربية بالنسبة إليك؟						
	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الكويت	فلسطين
مهمة	99	72	90	88	92	99,8
ليست مهمة	1	28	10	12	8	—

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع عام 2010 الخاص بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا، 3–26 نيسان، حجم العينة 4,881.

(1) Zogby International, Arab Update Poll, April 3-30, 2010. Sample size: 4,658 adults.

الجدول (6–3): أهمية الوحدة العربية (بالنسبة المئوية)

ما أهمية الوحدة العربية بالنسبة لك شخصياً؟						
	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
مهمة	66	68	74	76	90	87
ليست مهمة	21	13	18	16	5	4

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع الدول العربية الستة، 1–8 تشرين الثاني 2009. حجم العينة: 3,989 بالغ.

الجدول (6–4): ترتيب مصادر القاعدة المشتركة بين العرب

ما أهم مصدر للقاعدة المشتركة بينك وبين العرب الآخرين؟						
	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
اللغة	2	2	4	5	2	2
الاهتمامات السياسية	1	1	1	1	3	1
التاريخ	5	5	3	2	4	3
الاقتصاد	5	4	2	4	5	5
الدين	3	3	6	2	1	4
المصير	4	6	5	6	6	6
لا يوجد قاعدة مشتركة	—	—	—	—	—	—

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع الدول العربية الستة، 1–18 تشرين الثاني 2009، حجم العينة 3,989 بالغ.

ملاحظة: يشير الرقم (1) إلى أعلى قاعدة مشتركة من حيث الأهمية، في حين يشير الرقم (6) إلى أدناها أهمية.

لاحظوا أن الدين بالنسبة إلى السعوديين يعدّ أهم مصدر للوحدة العربية (لأسباب تتعلق بالدور المميز الذي يلعبونه إسلامياً).

أما بالنسبة إلى اللبنانيين، فيأتي الدين في المرتبة الأخيرة (ويُعزى ذلك إلى الانقسام الطائفي العميق الذي يعانون منه). لم يجب أي من أفراد العينة في أي بلد عربي أنه ما من قاعدة مشتركة تجمعهم.

عندما نفكر بمفهوم الهوية المشتركة، تبرز في أذهاننا مباشرة قضية اللغة المشتركة. بدايةً، علينا أن ندرك أن تحدُّث اللغة ذاتها لا يعني مجرد استخدام الكلمات وقواعد النحو ذاته. إن اللغة المشتركة تعني تاريخاً مشتركاً وقيماً وثقافة واحدة يُعبّر عنها بهذه اللغة. وعلى الرغم من أن القومية العربية الحديثة والمنظمات السياسية مثل الجامعة العربية لها جذور تمتد إلى حركات المقاومة التي ظهرت في مطلع القرن العشرين والتي وقفت في وجه الاستعمار، فإن اللغة العربية كانت وراء تماسك المنطقة بأكملها وترابطها، لكونها لغة القرآن الكريم - ومن ثمّ لغة الإسلام- ولأنها وسيلة انتقلت عبرها الثقافة العربية من بقعة إلى أخرى. إدوارد سعيد؛ الكاتب العربي الأمريكي والناقد الثقافي المعروف، كان مولعاً بالإشارة إلى حقيقة أنه مسيحي الديانة ومسلم الثقافة. أدرك سعيد أن الإسلام واللغة العربية لعبا معاً دوراً رئيساً في صقل هويته.

في القرن السابع قبل الميلاد، وبينما شهد الإسلام توسعاً مثيراً من حدود شبه الجزيرة العربية إلى القارة الإفريقية وجنوبي غرب آسيا، اعتنق السكان المحليون في هذه المناطق الإسلام أولاً ثم تبنوا اللغة العربية. أصبحت اللغة العربية فيما بعد لغة الحكومة واللغة المستخدمة في التجارة، فأسهمت العربية بذلك في توحيد هذه الشعوب المتباينة. وهكذا، ترسخت فكرة «العالم العربي» بفضل اللغة العربية.

يعدّ «الوطن العربي» اليوم إقليماً شاسعاً يمتد عبر قارتين؛ من المغرب غرباً حتى العراق شرقاً، ومن سوريا شمالاً إلى اليمن جنوباً. لكن كلمة «عربي» لا ترمز إلى سلالة أو عرق بعينه، بل إن الكلمة تشمل، كما يقول سعيد،

المسيحيين واليهود والمسلمين على حد سواء. في الواقع، كان أهم مؤرخي القومية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، من العرب المسيحيين، أمثال جورج أنطونيوس (George Antonius)[1] وكلوفيس مقصود (Clouis Maqsoud)[2]. وحتى الوقت الحاضر، فإن أحد أهم مستشاري الملك في المغرب هو أندريه أزولاي (Andre Azoulay)، اليهودي العربي، وكذلك الحال مع هدى عزرا نونو (H. E. Huda Nonoo)، سفيرة البحرين في واشنطن.

يتكون هذا العالم العربي الفسيح المعقد المتنوع من اثنتين وعشرين دولة تحتوي على العديد من السلالات والمجتمعات الرائعة ذات الديانات مختلفة، وتقطنها أقليات عرقية متباينة، لكلٍّ عاداته وتقاليده الفريدة من نوعها. ولعل أهم ما في الأمر، أنّ العرب الّذين يصل تعدادهم إلى ثلاثمائة وخمسين مليوناً، يتحدثون جميعاً لغة واحدة، ويتشاركون الثقافة والقيم والنظرة ذاتها نحو التاريخ، التي تعكسها اللغة العربية جميعاً.

تعدّ اللغة العربية الرابط الذي أسهم في تماسك الوطن. في الواقع، من الأفضل أن نطلق على هذا الإقليم الذي يضم شمال إفريقيا والبلاد الواقعة شرق البحر المتوسط وبلاد الخليج العربي مصطلح «العالم الناطق بالعربية»، لأن دور اللغة العربية أساسيّ بالنسبة إلى الهوية العربية. لذلك فإن الأتراك، على سبيل المثال، الذين يتحدثون التركية ليسوا عرباً وكذلك الحال مع الإيرانيين الذين يتحدثون الفارسية (يوضح استطلاع الرأي الذي قمنا به أن عدداً كبيراً من الأمريكيين يعتقدون خطأ أن إيران دولة عربية)[3]. تتعدد اللهجات ذات النكهة المحلية في

(1) جورج أنطونيوس (1891–1941) أول مؤرخ للقومية العربية. عزا أنطونيوس القومية العربية إلى حكم محمد علي باشا في مصر وأنها كذلك وليدة نشاط المبشرين القادمين من بريطانيا وأمريكا. (المترجم).

(2) كلوفيس مقصود: محام وصحفي ودبلوماسي لبناني، كتب العديد من المقالات حول الشرق الأوسط. كان ممثلاً لجامعة الدول العربية في الهند بين عامي 1961 و1966. وكان كبير محرري جريدة الأهرام، وبعدها أصبح رئيس تحرير جريدة النهار الأسبوعية منذ عام 1967 حتى 1977. (المترجم)

(3) Zogby International, Poll of American Opinion, November 30-December 8, 2009. Sample size: 1,006 adults.

الدول العربية، كما هي الحال في الدول الناطقة باللغة الإنجليزية، فتجد سكان بروكلن يتشدقون بلهجة معينة، كما يفعل التكساسيون والكوكنيون[1].

احتفظت بعض الأقليات في العالم العربي ببعض خصائص لغتها القديمة، فقامت بدمج مفردات فريدة من نوعها داخل لغتها العامية. وعلى الرغم من ذلك، تبقى اللغة العربية الفصحى المستخدمة في الإذاعة والتلفزة ومعظم أنماط الكتابة، اللغة الهجينة المستخدمة. ومن ثمّ، فإن دور شبكات التلفزة الفضائية مثل قناة الجزيرة والعربية وإم. بي. سي (MBC) وآ. آر. تي(ART) وإل. بي. سي (LBC) العالمية وتلفزيون أبوظبي، وغيرها كثير، في ربط العرب عبر تناقل المعلومات وعبر البرامج الترفيهية، واضح جداً.

أما الجانب الآخر والمهم للغاية بالنسبة إلى الهوية العربية الموحدة، فيتلخص في السؤال التالي: هل يتشارك العرب في الاهتمامات والهموم السياسية ذاتها؟ وهل تسهم في تشكيل الهوية العربية؟ كانت أقوى الاستجابات التي حصلنا علينا تقول: «نعم» و«على نحو قوي»، لكن وكي نحصل على صورة تفصيلية فعلينا أن نرجع إلى استطلاع مؤسسة زغبي الذي أجريناه عام 2007، عبر الوطن العربي. في ذلك الاستطلاع، طرحنا سلسلة من الأسئلة عن مدى أهمية قضايا سياسية محددة[2].

عندما طرحنا السؤال التالي: «ما مدى أهمية القضية الفلسطينية بالنسبة إليك؟»، حصلنا على إجابات مشتركة على مستوى العالم العربي أجمع (انظر الجدول 6–5).

(1) اللهجة الكوكنية (Cockney): لهجة أبناء الأحياء الفقيرة في لندن. (المترجم)

(2) Zogby International, Arab Views of Leadership, identity, institutions and issues of Concern, January 1-December 25, 2007. Sample size: 6,506 adults.

الجدول (6–5): أهمية القضية الفلسطينية.

ما مدى أهمية القضية الفلسطينية بالنسبة لك شخصياً؟					
	المغرب	مصر	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
مهمة	87	97	100	97	95
ليست مهمة	13	3	—	3	3

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، آراء العرب الخاصة بمفهوم القيادة والهوية، والمؤسسات المختلفة والقضايا المهمة. 25/كانون الأول – 1/ كانون الثاني، 2007.

حجم العينة: 6,506 بالغ.

أما استجابات أفراد العينة للسؤال التالي: «لماذا تهمك القضية الفلسطينية؟» فكانت أكثر تعبيراً وتركت أثراً قوياً. وعلى الرغم من أن «الأسباب الدينية» وشعور المستجيبين أن «الفلسطينيين ضحايا» ولّدا استجابات قوية، فإن الشعور بأن «الفلسطينيين عرب مثلنا» كان السبب الأقوى والأهم وراء أهمية هذه القضية في جميع الدول العربية باستثناء الأردن (إذ إن معظم أفراد العينة هم فلسطينيون أصلاً). (انظر الجدول 6–6).

كما هي الحال مع معضلة فلسطين، تؤثر الحرب التي تقودها أمريكا في العراق، على العرب بشكل عميق، وتعدّ أحد الأسباب وراء توحيد العرب معاً. بعد أربع سنوات من مشاركة الولايات المتحدة في الحرب، طرحنا السؤال التالي في استطلاعنا لآراء المنطقة العربية عام 2007: «ما مدى أهمية القضية العراقية بالنسبة إليك؟» كانت الأرقام التي حصلنا عليها، في جميع الدول التي شملها استطلاع الرأي، متطابقة فعلياً مع التقديرات الخاصة بالقضية الفلسطينية (انظر الجدول 6–7).

الجدول (6–6): الأسباب الكامنة وراء أهمية القضية الفلسطينية (بالنسبة المئوية)

لماذا تهمك القضية الفلسطينية؟					
	المغرب	مصر	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
الفلسطينيون عرب مثلنا	57	50	32	40	81
أسباب دينية	30	29	32	29	7
الفلسطينيون ضحايا	12	20	33	30	8
أسباب أخرى	–	1	–	–	1

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، آراء العرب الخاصة بمفهوم القيادة والهوية، والمؤسسات المختلفة والقضايا المهمة. 25/كانون الأول – 1/ كانون الثاني، 2007.

حجم العينة: 6,506 بالغ.

الجدول (6–7): أهمية القضية العراقية (بالنسبة المئوية)

«ما مدى أهمية القضية العراقية بالنسبة إليك؟»					
	المغرب	مصر	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
مهمة	88	96	100	97	89
ليست مهمة	13	4	–	3	10

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، آراء العرب الخاصة بمفهوم القيادة والهوية، والمؤسسات المختلفة والقضايا المهمة. 25/كانون الأول – 1/ كانون الثاني، 2007.

حجم العينة: 6,506 بالغ.

وكما فعلنا عندما طرحنا أسئلة تتعلق بالقضية الفلسطينية، ألحقنا السؤال السابق، بالسؤال التالي: «لماذا تهمك القضية العراقية؟» ثم قمنا بمقارنة

الاستجابات بتلك التي حصلنا عليها عندما طرحنا موضوع فلسطين. كان الاعتقاد بأن العراقيين «عرب مثلنا» أهم مبرر بالنسبة إلى الفلسطينيين والسعوديين والمغاربة. أما العرب الذين يقطنون في الإمارات العربية المتحدة فكانت «الأسباب الدينية» أهم مبرر. (انظر الجدول 6–8)

الجدول (6–8): الأسباب الكامنة وراء أهمية القضية العراقية (بالنسبة المئوية)

لماذا تهمك القضية العراقية؟					
	المغرب	مصر	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
العراقيون عرب مثلنا	61	52	33	45	28
أسباب دينية	22	28	30	26	61
العراقيون ضحايا	16	20	33	29	8
أسباب أخرى	1	—	4	1	3

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، آراء العرب الخاصة بمفهوم القيادة والهوية، والمؤسسات المختلفة والقضايا المهمة. 25/كانون الأول – 1/ كانون الثاني، 2007.

حجم العينة: 6,506 بالغ.

إذن، تعدّ القضيتان الفلسطينية والعراقية، بالنسبة إلى معظم العرب، أكثر من مجرد صراع دائر داخل المنطقة العربية، بل إنهما مأساتان يعاني منهما «أشخاص مثلنا»؛ أي أنهم شَعبان يتشاطران اللغة والدين والهوية ذاتها مع بقية الشعوب العربية. إن تجاهل لُحمة العالم العربي أو إنكار وجود هذا العالم، كما فعلت مجلة الاقتصادي في «تقريرها الخاص»، لا يعدّ حماقة فكرية فحسب، وإنما دعوة مفتوحة لتطبيق سياسة سيئة واتخاذ مبادرات فاشلة.

علينا أن نبدي اهتماماً كافياً تجاه القضايا الحساسة بالنسبة إلى العرب وتاريخهم المشترك وآلامهم التي يعانون منها سوية، والروابط التي تجمعهم، وإلاّ فإننا سنثير العداء باستمرار ونخلق مقاومة ضدنا في هذا الجزء الحساس من العالم.

الفصل السابع

الأسطورة الخارقة الثالثة:
العربي الغاضب

كلما سمعتُ الناس من حولي يتحدثون عن العرب كشعب حانق، تسيطر عليه مشاعر الازدراء للغرب وبخاصة أمريكا، يتبادر إلى ذهني ذلك اللقاء الذي جمعني بصديق تونسي وأبناء إخوته (وكانوا طلاباً جامعيين) في غرفة معيشة منزله، حيث دار بيننا حديث عن السياسة والأخلاق والولايات المتحدة. وعلى غرار الشباب المثاليين الذين تجدهم في كل مكان، كانت أفكارهم عميقة، وكانوا واثقين بأنفسهم. علمت فيما بعد أنهم كانوا أعضاء في مجموعة طلابية تنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين، لكنهم بدوا مشوشين للغاية أيضاً. فبينما كنا نتحدث لاحظتُ أنهم كانوا ينظرون إلى جهاز التلفاز الموجود في الغرفة المجاورة، حيث كانوا يحاولون مشاهدة برنامج استعراض إيطالي لمسابقات مبتذلة.

كانت تلك مجرد حادثة واحدة، لكنها تشير بوضوح إلى مخاطر الجزم بأن معظم العرب لا يفكرون في أمر سوى مهاجمة أمريكا والغرب بشكل عام، ومهاجمته سياسياً أو بطرق أخرى. وحتى في حالة هؤلاء الطلبة المسيسين، لم يُعق رفضهم الجاد للسياسات التي يطبقها الغرب، مشاهدتهم لبرنامج تلفزيوني إيطالي سخيف. في الواقع، إن مثل هذه العلاقة المعقدة المتعددة الأبعاد التي تربط العرب بالغرب، شائعة في كل أنحاء الوطن العربي. في الأردن والسعودية، على سبيل المثال، تجد الأشخاص الذين ينتقدون السياسة الأمريكية بشدة ذاتهم، وقد ارتدوا السراويل الضيقة (الجينز) والقمصان التي تحمل العلامة التجارية ليبورن جيمس (LeBorn James)، ويشربون القهوة في ستاربكس (Starbucks)، ويتناولون الوجبات السريعة في كينتاكي فرايد

تشيكن (Kentucky Fried Chicken).

إن هوس العرب المفترض بالسياسة أمر مبالغ فيه. يهتم العرب بالتأكيد بالقضايا التي تؤثر في منطقتهم وشعوبهم، لكنها ليست الشيء الوحيد الذي يفكر العرب فيه. كنت في الكويت إبان الفترة الرئاسية لكلينتون، أُجري بحثاً من أجل مقال يناقش سياسة «الاحتواء المزدوج»[1] للعراق وإيران. وجدت الكويت نفسها متورطة في القضية الإيرانية - العراقية، فإيران تهددها والعراق تغزوها وتحتل أراضيها. تحررت الكويت، في نهاية المطاف، بمساعدة حملة عسكرية تتكون من قوى متعددة بقيادة الولايات المتحدة. دعا صديق لي، وهو مفكر كويتي، مجموعة من الأساتذة الأكاديميين والمفكرين لمقابلتي في منزله. عرض هؤلاء أفكارهم الخاصة بالسياسة الأمريكية المتبعة في المنطقة بحماسة عظيمة وتفصيل شديد حتى إننا اضطررنا إلى تأجيل نقاشنا الذي لم يكتمل حتى يتمكنوا من متابعة إحدى المباريات التأهيلية لكأس العالم في كرة القدم. وهكذا، تأجل حواري مع هؤلاء الرجال- وهم من أفضل وأذكى الرجال، وعُرِف عنهم انغماسهم بالسياسة والدين- حتى اليوم التالي.

كانت تلك حادثة صغيرة أخرى؛ أي أنها دليل على أن العرب، كغيرهم من الشعوب، هم خليط من قيم واهتمامات ودوافع متناقضة. من المؤكد أن بعض العرب أحياناً يفكرون ويتحاورون بقوة حول مواضيع سياسية، وغالباً ما تكون الولايات المتحدة، باعتبارها العنصر الأقوى المؤثر في المنطقة، موضوع هذه الحوارات، إذ يتم تحليل النهج السياسي لأمريكا ومناقشته. وعلى الرغم من ذلك، فبعد مرور أشهر على أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، استمرت عناوين الصفحات الأولى في الصحف والمجلات الأمريكية بتشخيص العرب كشعب يسيطر عليه الغضب الصّرف.

(1) سياسة «الاحتواء المزدوج»: سياسة استخدمتها الولايات المتحدة في العقد الأخير من القرن الماضي ضد إيران والعراق، لتكون حلاً وسطاً تتمكن عبره من هزيمة عدوها بأقل أضرار ممكنة، فسعت إلى وضع العراق في قفص من أجل احتوائه وإضعافه ووضع إيران ضمن سياسة الاحتواء ذاتها. (المترجم)

أراد الأمريكيون بالطبع أن يعرفوا الأسباب وراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وقد أدرك الجميع في كل أنحاء العالم هذه الأسباب، ذلك أن الهجوم كان عنيفاً للغاية، وأشبه بمذبحة شنيعة. لقد دفع الحقد، بلاشك، هؤلاء الجناة، إلى اقتراف تلك الجريمة. أثار الرئيس جورج بوش هذه القضية بوضوح في خطابه الذي ألقاه أمام الكونغرس في العشرين من أيلول، عام 2001، فقال: «يتساءل الأمريكيون: لماذا يكرهوننا؟» ويجيب بوش بلغة فاترة مثبطة:

> إنهم يكرهون ما يرون هنا في هذه القاعة، هذه الحكومة الديمقراطية التي انتخبها الشعب. أما قادتهم فيُعيّنون أنفسهم. إنهم يكرهون الحرية التي ننعم بها: حرية العبادة، وحرية التعبير عن الرأي، وحرية الانتخاب والتجمع وحرية الاختلاف مع آراء الآخرين. إنهم يرغبون في الإطاحة بحكومات العديد من الدول الإسلامية مثل مصر والسعودية والأردن، ويريدون طرد إسرائيل من الشرق الأوسط. إنهم يريدون طرد المسيحيين واليهود من أقاليم شاسعة في آسيا وإفريقيا[1].

لكن، لم يمض وقت طويل قبل أن يتحول «هؤلاء» الذين تحدث عنهم الرئيس بوش - الجناة التسعة عشر ومستشاروهم من القاعدة- إلى مجموعة أكثر شمولية. اقترحت ثلّة أن تصرّف المعتدين لم يكن شاذاً عن القاعدة بل هو، في حقيقة الأمر، سمة تجمع العرب جميعاً. واستنتج آخرون أن الهجوم لا يدل على مدى اختلاف الغرب والإسلام، بل إنهما يتجهان نحو تصادم لا يمكن تجنبه.

وكثيراً ما غذّت وسائل الإعلام الأمريكية عقولنا بأساطير وأنصاف حقائق عن عقلية عربية مُنتقِمة. يتحدث بعض المعلقين أمثال مايكل ليدين (Michael Ledeen)؛ أحد المحافظين الجدد[2]، عن «الكُره ذاته الذي نقرأ عنه كل يوم

(1) President George W. Bush, «Address to a Joint Session of Congress» (U.S. Capitol Washington. DC. September 20, 2001).

(2) تدعو فلسفة المحافظين الجدد (neoconservative)، وهي فلسفة سياسية ظهرت في الولايات المتحدة، إلى استغلال الاقتصاد الحديث والقوة العسكرية لأمريكا لدعم الليبرالية والديمقراطية وحقوق الإنسان في دول أخرى. (المترجم)

في الصحف التي تتحدث عما تنشره صحف السعودية: اقتل اليهود، اقتل المسيحيين، لتَفُز بالشهادة والجنة، والحور العين الاثنتين والسبعين، وغيرها من الأمور المألوفة عند هؤلاء»[1]. أما مقال بيرنار لويس (Bernard Lewis) المنشور في **مجلة الأطلسي** (The Atlantic)، فيُعيد إلى الأذهان صورة غضب إسلامي الطابع، يُعزى إلى انعدام العدالة عبر التاريخ، ويجمع بصورة متقنة للغاية جميع المناصرين لهذا الدين الذي يؤمِن به فرد من بين كل خمسة أفراد على سطح الأرض[2]. ربما نشعر بانزعاج أكبر عندما نقرأ مزاعم لي سميث (Lee Smith)، التي تكشف عن تعميم متعصب، حين يقول: «لا يكرهنا العرب بسبب ما نفعله أو لشخصنا، لكنهم يكرهوننا لأننا لسنا عرباً مثلهم»[3].

تأثر كثيرون في الغرب بهذا التصوير المغلوط للعرب، فاعتادوا على فكرة أن العرب أشبه بشخصيات كاريكاتيرية غاضبة، إذ يعتقد الغربيون أن الملايين من هذه الشخصيات يخلدون إلى النوم وكلهم كره تجاه إسرائيل، ثم يستيقظون وكلهم كره لنمط الحياة الأمريكية، ثم يقضون يومهم أمام التلفاز يشاهدون برامج تثير عواطفهم. يعتقد العديد من الغربيين أن المسلمين يستمعون فقط إلى خُطب الجوامع التي تُوقد غضبهم تجاه الغرب ثم تجاه حكوماتهم.

في مطلع عام 2002؛ أي بعد مرور خمسة أشهر على الرعب الذي عاشه الأمريكيون خلال أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كنت ضيفاً في برنامج **لقاء مع الصحافة** الإخباري[4]. أجرت منظمة غالوب (Gallup) استطلاعاً لرأي المسلمين في تسع دول مسلمة (خمس منها عربية)، وكشف هذا الاستطلاع عن حقد وكراهية واسِعَي الانتشار، تجاه الولايات المتحدة[5]. كانت المشاعر

(1) Michael Ledeen, interview by Newt Gingrich, Fox. News Special, Not If, But When: America and the Axis of Evil, Fox News, July 13, 20 2002.

(2) Bernard Lewis, «The Roots of Muslim Rage,» The Atlantic, September 1990.

(3) Lee Smith, The Strong Horse: Power, Politics, and the Clash of Arab civilizations (New York: Doubleday, 2010), 6.

(4) Meet the Press, NBC, March 3, 2002.

(5) The 2002 Gallup Poll of the Muslim World, December 2001-January 2002, conducted in Saudi Arabia, Iran, Pakistan, Indonesia, Turkey, Lebanon, Kuwait,

المؤيدة للولايات المتحدة في معظم الدول العربية التي شملها الاستطلاع قليلة جداً. ولدت هذه النتائج شعوراً بالصدمة عند عامة الأمريكيين الذين يتخوفون من العرب والمسلمين، وأصبح الاستطلاع الشغل الشاغل لوسائل الإعلام الأمريكية. ظهرتُ في ذلك البرنامج إلى جانب المثقف المحافظ المعروف شارلز كروثامير (Charles Krauthammer) لنقوم بتحليل النتائج.

كانت النتائج التي توصل إليها كروثامير والمبنية على الاستطلاع السابق، تدور في حلقة مفرغة. لماذا تبدو الولايات المتحدة غير محبوبة في ذلك الاستطلاع؟ لأن العرب يكرهوننا، ولماذا يكرهوننا؟ لأن أئمة المدارس الدينية علموهم ذلك، كما شجعتهم حكوماتهم العربية ووسائل الإعلام الحكومية التي يصفها كروثامار بأنها «مناهضة للأمريكيين بصورة خبيثة»، و«مناهضة للغرب والسامية»[1].

أدى هذا التحليل المشوش إلى تشكيل الحكمة التقليدية الملائمة للوضع، وفي هذا المقام، استغل كروثامير استطلاع غالوب الذي ناسب أهدافه تماماً، لكنني أدركت حينها أن الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو. لذلك، انطلقتُ أنا وأخي جون لنكتشف الحقيقة الأعمق، فقمنا باستغلال المصادر التي وفرتها مؤسسة زغبي العالمية، ثم أجرينا استطلاعاً مفصلاً لآراء الشارع العربي في عدة دول عربية.

اتضح لنا أن «أمريكا»، باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة في العالم، تعني الكثير عند العديد من الأشخاص وفي سياقات مختلفة. تؤثر السياسية الأمريكية بشكل مباشر، كما رأينا في السنوات الأخيرة، على حياة الملايين في منطقة الشرق الأوسط. وتشكل أمريكا أيضاً قوة اقتصادية ضخمة تستهلك الموارد الطبيعية لهذه المنطقة وتروّج منتجاتها وتبيعها عبر العالم كله في عصر أثرت فيه العولمة على التبادل التجاري والمعلوماتي.

سعت الدراسة إلى أجريناها إلى قياس مشاعر العرب حيال الطرق العديدة

Jordan, and Morocco. Sample size: 10,000 adults.

(1) Meet The Press, NBC, March 3, 2002.

التي حاولت من خلالها أمريكا فرض وجودها في العالم العربي، ومن ثمّ أثرت في حياة شعوب هذا العالم– سعينا إلى تجاوز السؤال البسيط عن المشاعر المؤيدة أو المناهضة «لأمريكا» إلى محاولة معرفة إنْ كان باستطاعة البالغين من العرب التمييز بين مشاعرهم تجاه الشعب الأمريكي وثقافته من ناحية، والسياسة الأمريكية المطبقة في الشرق الأوسط من ناحية أخرى.

بعد أن أجرينا مقابلات شخصية (وجهاً لوجه)، في آذار من عام 2002، مع عرب في خمس دول عربية – مصر، والمملكة العربية السعودية، ولبنان، والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة– وجدنا ان هذا الاستطلاع لرأي الشارع العربي يكشف عن تقدير كبير لعدة جوانب من مساهمات الثقافة الأمريكية واسعة الانتشار[1]. فعلى سبيل المثال، عندما سألنا أفراد العينة عن رأيهم في التطور التكنولوجي والعلمي الذي حققته الولايات المتحدة، أجاب الكثير منهم بلغة مؤيدة جداً، في حين كان رأي الأغلبية إيجابياً على نحو رائع ومثير للدهشة. وبالمثل، كانت الأغلبية في جميع الدول العربية ميالة نحو تأييد الديمقراطية والحرية الأمريكية. بالإضافة إلى ذلك، تقبلت الأغلبية في جميع الدول العربية الأفلام والبرامج والتعليم والمنتجات الأمريكية.

وعلى النقيض من المزاعم السلبية التي تحدث عنها مثقفون أمثال كروثامير، وجدنا أن العرب، في الواقع، يحبون جوانب مختلفة من أمريكا، ولا يُعزى تشويه صورة الولايات المتحدة إلى القيم أو الشعب الأمريكي. لقد انحدر تقدير أمريكا بين الأمم الأخرى عند العرب بسبب التقييم المنخفض جداً الذي منحه العرب لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وفلسطين تحديداً. (انظر الجدول 7–1)

(1) Zogby International, The Ten-Nation Impressions of America Poll, March 4-April 3, 2002. Conducted face-to-face interviews in five Arab nations (Saudi Arabia, Lebanon, UAE, Egypt, and Kuwait), three Muslim non Arab nations {Pakistan, Iran, and Indonesia), France, and Venezuela. Sample sizes: Saudi Arabia (700), Lebanon (500), UAE (500), Egypt (700), Kuwait (500), Pakistan (1.045), Iran (700), Indonesia (700), France (<700), Venezuela (700).

الجدول (7-1): مشاعر العرب تجاه القيم والمنتجات والسياسة الأمريكية (بالنسبة المئوية)

الجانب الخاص بأمريكا	السعودية		لبنان		الإمارات		مصر		الكويت	
	مؤيد	مناهض	مؤيد	مناهض	مؤيد	مناهض	مؤيد	مناهض	مؤيد	مناهض
رأي المستجيبين للاستطلاع في الولايات المتحدة بوجه عام[×2]	12	87	26	70	11	87	15	76	41	48
العلوم والتكنولوجيا	71	26	82	16	81	14	78	11	86	12
الحرية والديمقراطية	52	44	58	40	50	44	53	38	58	39
الشعب الأمريكي	43	51	63	33	43	42	35	47	50	38
الأفلام والبرامج التلفزيونية	54	42	64	35	64	32	53	40	54	44
سياسة أمريكا تجاه العرب	8	88	9	86	15	76	4	86	5	88
سياسة أمريكا تجاه فلسطين	5	90	6	89	10	83	3	89	2	94
سياسة أمريكا تجاه العنف	30	57	30	65	37	48	18	67	30	62

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع لانطباعات الأمم العشرة تجاه أمريكا، 4/ آذار- 3/ نيسان، 2002. أُجري الاستطلاع وجهاً لوجه في عشر دول. يوضح الجدول المعلومات الخاصة بالدول العربية التي يشملها هذا الجزء من استطلاع الرأي. حجم العينات: السعودية (700 بالغ)، ولبنان (500 بالغ)، والإمارات (500 بالغ)، ومصر (700 بالغ)، والكويت (500 بالغ).

* ملحوظة: تشمل كلمة «مؤيد» استجابتين هما: «مؤيد جداً»، و«مؤيد نوعاً ما». تشمل كلمة «مناهض» كذلك استجابتين هما: «مناهض جداً» و«مناهض نوعاً ما». لقد تم تقريب الأرقام الى أقرب عدد صحيح، ولذلك لا تؤدي النسب المئوية إلى 100٪ تماماً، وقمنا كذلك باستثناء استجابتين

هما: «غير مألوف لدي» و«غير متأكد».

كانت استجابة تسعة أشخاص تقريباً، من بين عشرة، سلبية تجاه معالجة الولايات المتحدة للصراع الفلسطيني- وتلك قضية تعدّ «مهمة للغاية» أو «الأهم على الإطلاق»، كما أوضح استطلاع سابق، من بين القضايا التي يواجهها العالم العربي اليوم. بلغة أخرى، إذا كنا بحاجة إلى عنوان عريض نزعم فيه أن العرب يكرهون شيئاً ما، فعلينا أن نكون أكثر دقة فنقول: «إن العرب يكرهون سياسة الولايات المتحدة تجاه دينهم»، على الرغم من أنه لن يكون عنواناً مثيراً للغاية ولن يزيد مبيعات الصحف الأمريكية.

عرضنا نتائج استطلاعنا - «الانطباعات عن أمريكا» - في مؤتمر عقدناه في الحادي عشر من نيسان، 2002. بعد أن فسرتُ للحضور أن العرب لا يكرهون «أمريكا»، وأن السياسة الأمريكية قد خلقت مشاعر سلبية عند العرب والمسلمين، طلب مني أحد المراسلين أن ألخص نتائج الاستطلاع للحضور.

لخّصتُ نتائج الاستطلاع في أربع كلمات: «إنها تلك السياسة الغبية»[1]. وهي لاتزال كذلك. لذلك علينا أن نستبدل السؤال المعتاد، «لماذا يكرهوننا؟» بالسؤال المنطقي الذي يجب طرحه في هذا المقام: «كيف يمكننا أن نخلق قاعدة عريضة لدعم صورة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ولنحرض على عزل وهزيمة أولئك الذين يرغبون في إيذائنا، بصورة دائمة؟» بهذه الطريقة يمكننا القضاء على السخط الذي يقتات عليه الإرهابيون.

كما هي الحال مع أسطورة افتقار ثقافة العرب للتنوع أو أسطورة عدم وجود عالم عربي، كان قبول فكرة أن «كل العرب غاضبون» و«كل العرب يكرهوننا» مريحاً، على نحو عجيب، بالنسبة إلى من يجهلون ماهية الوطن العربي، ومن ثم ساعد ذلك القادة السياسيين على التخلص من شعورهم بالقلق حيال إخفائهم للتقديرات الحقيقية المؤيدة لأمريكا في المنطقة العربية. لو أن أمريكا لم تخلق بالفعل هذه الفجوة التي تفصلنا عن العالم العربي، كيف

(1) James Zogby، «It's the Policy، Stupid!» Washington Watch، April 15، 2002، http://www. aaiusa.org/washington-watch/1614/wo41502.

يمكننا تحميل المسؤولية لصناع القرار السياسيين على وجهات النظر السلبية تلك؟ وإذا كانت كراهية العرب للغرب دائمة ولا يمكن تغييرها أو التأثير فيها - إذا كنا عاجزين عن الفوز بقلوبهم وعقولهم - فلماذا نزعج أنفسنا بالمحاولة؟ وبينما ازداد ارتباط الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، رفض كثير من مسؤولي الحكومة، ببساطة، أن يقروا بالتأثير السلبي للسياسة الأمريكية في المنطقة العربية.

إن مراقبة المنهج المتناقض لإدارة بوش، الخاص بالدبلوماسية العامة ومحاولة الولايات المتحدة التوغل في المنطقة العربية، محبط للغاية. وعلى الرغم من أن الرئيس بوش تحدث شخصياً عن حاجة الولايات المتحدة إلى دعم العرب والعرب الأمريكيين والمسلمين لها، لمحاربة التطرف، وذكر الأمريكيين أن الإسلام ليس هو العدو المنشود، فإنه أصدر - في الوقت ذاته- قراراً بتجميع آلاف من المهاجرين العرب والمسلمين وترحيلهم. أخفق الرئيس بوش كذلك في شجب تصريحات معادية للمسلمين صدرت عن مسؤولين بارزين في إدارته من أمثال المدعي العام جون آشكروفت (John Ashcroft)[1]. وأدى ذلك إلى تعميق الهوة المقلقة التي تفصلنا عن العالم العربي. نتج عن ذلك فشل إدارة بوش، في نهاية المطاف، في تجنيد الدعم اللازم لها في المنطقة العربية. ثم قمنا بغزو العراق في عام 2003، مما نفّر العرب من الأمريكيين.

بعد مرور عامين على أول استطلاع لآراء الشارع العربي أجرته مؤسسة زغبي؛ أي في عام 2004، وجدنا أن النسبة العامة المؤيدة للولايات المتحدة قد تراجعت - وبشكل ملحوظ جداً في بعض الحالات. ولعلّ حقيقة مشاعر العرب تجاه القيم والشعب الأمريكي ومنتجاته التي تحولت إلى مشاعر سلبية في العديد من الدول العربية، بدت مقلقة أكثر من غيرها (انظر الجدول 7-2).

(1) Jonathan Turley, «Camps for Citizens: Ashcroft's Hellish Vision,» Los Angeles Times, August 14, 2002.

جدول (7-2) مشاعر العرب تجاه أمريكا وشعبها ومنتجاتها وثقافتها: 2009/2004/2002 (بالنسبة المئوية)

الجانب الخاص بأمريكا		المغرب (c)			مصر			لبنان		
		2002	2004	2009	2002	2004	2009	2002	2004	2009
رأي المستجيبين للاستطلاع في الولايات المتحدة بشكل عام (a)	مؤيد	38	11	55	15	4	30	26	20	23
	مناهض	61	88	41	76	95	64	70	69	75
الحرية والديمقراطية	مؤيد	لم يطرح السؤال في هذا العام	53	55	53	56	53	58	41	38
	مناهض		41	36	38	41	39	40	56	62
الشعب الأمريكي	مؤيد	لم يطرح السؤال في هذا العام	59	49	35	60	41	63	39	58
	مناهض		29	35	47	39	47	33	58	35
الأفلام والبرامج التلفزيونية	مؤيد	لم يطرح السؤال في هذا العام	60	46	53	38	57	64	30	60
	مناهض		37	42	40	59	36	35	66	40
المنتجات الأمريكية	مؤيد	لم يطرح السؤال في هذا العام	73	57	50	57	58	72	39	73
	مناهض		24	31	45	46	33	25	57	27
التعليم	مؤيد	لم يطرح السؤال في هذا العام	61	61	68	32	54	81	38	74
	مناهض		16	24	17	23	36	16	54	19
سياسة أمريكا تجاه الفلسطينيين	مؤيد	لم يطرح السؤال في هذا العام	3	34	3	1	19	6	4	7
	مناهض		93	69	89	94	76	89	90	93
سياسة أمريكا تجاه العراق (b)	مؤيد	لم يطرح السؤال	1	11	لم يطرح السؤال	1	17	لم يطرح السؤال	4	6
	مناهض		98	82	لم يطرح السؤال	92	78	لم يطرح السؤال	91	91

الجانب الخاص بأمريكا		الأردن(c)			السعودية			الإمارات		
		2002	2004	2009	2002	2004	2009	2002	2004	2009
رأي المستجيبين للاستطلاع في الولايات المتحدة بشكل عام(a)	مؤيد	34	15	25	12	4	41	11	14	21
	مناهض	61	78	74	87	94	59	87	72	69
الحرية والديمقراطية	مؤيد	لم يطرح السؤال	57	49	52	39	81	50	39	18
	مناهض		40	47	44	60	18	44	53	82
الشعب الأمريكي	مؤيد	لم يطرح السؤال	52	70	43	28	88	43	46	46
	مناهض		39	27	51	64	15	42	35	34
الأفلام والبرامج التلفزيونية	مؤيد	لم يطرح السؤال	56	69	54	35	67	64	54	46
	مناهض		41	31	42	60	33	32	43	52
المنتجات الأمريكية	مؤيد	لم يطرح السؤال	61	85	53	37	81	68	63	65
	مناهض		35	13	44	59	18	27	34	22
التعليم	مؤيد	لم يطرح السؤال	59	81	58	12	90	79	63	60
	مناهض		29	10	35	74	9	13	23	24
سياسة أمريكا تجاه الفلسطينيين	مؤيد	لم يطرح السؤال	7	4	5	3	13	10	5	14
	مناهض		89	95	90	95	86	83	90	85
سياسة أمريكا تجاه العراق (b)	مؤيد	لم يطرح السؤال	2	12	لم يطرح السؤال	1	12	لم يطرح السؤال	4	17
	مناهض		78	86		97	88	لم يطرح السؤال	91	83

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع لانطباعات العرب تجاه أمريكا، نيسان، 2002. حجم عينات الدول المدرجة في الجدول: 2,400 بالغ.

-مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع لانطباعات العرب تجاه أمريكا، حزيران، 2004. حجم العينة: 3,286 بالغاً.

-مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع لآراء ست دول عربية، 1–18/كانون الثاني/2009. حجم العينة: 3,989 بالغاً.

(a)المعلومات المتعلقة بالرأي العام لسنة 2002 مقتبسة من: جيمس ج. زغبي، ماذا يفكر العرب: القيم والمعتقدات والاهتمامات (يوتيكا، نيويورك: مؤسسة زغبي الدولية / مؤسسة الفكر العربي، 2002). حجم عينات جميع الدول المدرجة في الجدول: 3,000 بالغ.

(b)لم نستطلع رأي الشارع العربي حيال السياسة الأمريكية في العراق في عام 2002.

(c)لم نستطلع رأي الشارع المغربي والأردني في عام 2002، حيال «الحرية والديمقراطية» و«الشعب الأمريكي» والأفلام والبرامج التلفزيونية» و«المنتجات الأمريكية» و«التعليم» و«سياسة أمريكا تجاه فلسطين».

ملحوظة:تشمل كلمة «مؤيد» استجابتين هما: «مؤيد جداً» و«مؤيد نوعاً ما». تشمل كلمة «مناهض» كذلك استجابتين هما: «مناهض جداً و«مناهض نوعاً ما». لقد تم تقريب الأرقام الى أقرب عدد صحيح ولذلك لا تؤدي النسب المئوية إلى ما مجموعه 100٪ تماماً، وقمنا كذلك باستثناء استجابتين هما «غير مألوف لدي» و«غير متأكد».

إن هذا التراجع العام في استحسان العرب للولايات المتحدة مازال مرتبطاً بآراء مناهضة بشدة للسياسة الأمريكية ولاسيما الآن، فقد زاد غزو أمريكا للعراق الأمر سوءاً، ليصبح الوضع كمن يصب الزيت على النار. في عام 2004، كانت مشاعر العرب تجاه التدخل الأمريكي في الصراع الإسرائيلي–الفلسطيني سلبية للغاية، لكن مشاعر رفض قوية لسياسة أمريكا في العراق طغت في عام 2004، على الآراء السلبية السابقة. فعلى سبيل المثال، كانت نسبة المؤيدين لسياسة أمريكا في العراق في كل من المغرب والسعودية ومصر أقل من واحد في المائة (1٪). أما في الأردن فلم تتجاوز هذه النسبة اثنين في المائة (2٪)، وفي لبنان والإمارات وصلت إلى أربعة في المائة (4٪)[1].

(1) Zogby International, Impressions of America, June 2004. Sample size: 3,286 adults.

بيّنت استجابة العينة للأسئلة غير المحدودة (أي التي لا تكون الإجابة عنها بنعم أو لا) أن الدور الذي لعبته السياسة الأمريكية في تنامي تحرر العرب من الأوهام الزائفة الخاصة بأمريكا، بات أكثر وضوحاً. عندما طرحنا الأسئلة التالية: «ما أول فكرة ترد إلى ذهنك عندما تفكر في الولايات المتحدة؟» و«ما أفضل وأسوأ ما يمكن أن تقوله عن أميركا؟» و«ماذا يجب على أمريكا أن تفعل لتغير صورتها في العالم العربي؟» ركز معظم المستجيبين على قضايا تتعلق بالسياسة الأمريكية. كانت أكثر الإجابات شيوعاً: «توقفوا عن دعم إسرائيل»، «غيروا سياستكم تجاه الشرق الأوسط»، «توقفوا عن قتل العرب»[1].

عندما قمنا باستطلاع آراء الشعب العربي مرة أخرى عام 2006 كانت الحرب العراقية قد دخلت عامها الثالث، ولم يختلف ارتباط الولايات المتحدة بالمنطقة العربية عما كانت عليه عندما أجرينا الاستطلاع السابق، وفضلاً عن ذلك كانت مشاعر العرب تجاه أمريكا لاتزال في تراجع مستمر. فعلى سبيل المثال، وجدنا من خلال الاستطلاع الذي أجريناه أن مجموع المؤيدين للولايات المتحدة في كل من المغرب والأردن قد تقلص بشدة من ثلاثين بالمائة (30٪) تقريباً إلى أرقام أحادية المنزلة، في عام 2006 [2].

كانت الأرقام التي حصلنا عليها سيئة بوجه عام، ولكن كان على القادة الأمريكيين أن يصبوا اهتمامهم على محاولة وقف تزايد هذه المشاعر السلبية تجاه الولايات المتحدة. في مصر والسعودية على سبيل المثال، حظيت الولايات المتحدة بتقديرات منخفضة للغاية بالنسبة إلى عدد المؤيدين لها بشكل عام، ففي مصر لم تتجاوز أربعة عشر بالمائة (14٪)، أما في السعودية فكانت اثني عشر بالمائة. لم تتغير هاتان النسبتان، غير أننا وجدنا تحولاً ملحوظاً من استجابة «مناهض» إلى «مناهض بشدة».

جانب آخر يتعلق بهذه المشاعر السلبية هو انخفاض تقدير العرب لعناصر

(1) المرجع السابق

(2) Zogby International, Five-Nation Survey of the Middle East, November 11-21. 2006. Sample size: 3,500 adults.

أخرى لا ترتبط بالسياسة الأمريكية. وجدنا في الاستطلاع الذي أجريناه عام 2002، أن وجهات النظر السلبية بوجه عام كانت وسيلة للتعبير عن الشعور بالإحباط تجاه السياسة الأمريكية. وعلى الرغم من ذلك، فمازال العرب يحبون «الحرية والديمقراطية الأمريكية»، و«الشعب الأمريكي» و«المنتجات الأمريكية» و«الثقافة الأمريكية». لم يبق الأمر على حاله في عام 2006. أدى التطبيق المستمر، وعلى نحوٍ ثابت، لسياسات غير مرغوب فيها في الشرق الأوسط إلى التأثير سلباً على بعض المفاهيم التي كانت في الماضي مؤيدة للشعب الأمريكي ومنتجاته وقيمه.

اليوم، يعدّ التعليم في الولايات المتحدة العنصر الوحيد الذي حصل على تقديرات مؤيدة، وذلك في جميع الدول العربية. أما مشاعر العرب تجاه «الحرية والديمقراطية الأمريكية»، فقد انحدرت بشدة في جميع الدول العربية، ولم تحظ «المنتجات الأمريكية» بتأييد إلا في لبنان.

إن القصة التي تحكيها لنا هذه الأرقام انعكست في مقابلة عشوائية حظيت بها عندما عُدت من الرياض عام 2003، وكانت الطائرة متوجهة إلى لندن. وجدت نفسي أتحاور مع رجل أعمال فلسطيني، في العقد الخامس من عمره، واسمه محمود. فبينما كنت أتابع رحلتي إلى واشنطن، كان محمود متوجهاً إلى مدينة بوسطن التي وصفها بأنها أشبه ما يمكن بالوطن. وُلد محمود في مخيم للاجئين في لبنان. وكان يعمل في السعودية، لكنه كان يشتاق دوماً إلى بوسطن حيث قضى فترة المراهقة والتحق بالمدرسة، وحيث يعيش ولداه مع العائلة.

لم يزر محمود الولايات المتحدة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لذلك كان متوتراً حيال هذه الرحلة. سمع محمود روايات مختلفة تتحدث عن التحرش والمعاملة القاسية التي يتلقاها العرب في المطار، مما دفعه في المقام الأول إلى البقاء بعيداً عن بوسطن. عبّر محمود عن مشاعره قائلاً: «أنا أحب بلدكم. من السهل أن تحب شيئاً ما، لكنني لا أفهم سياستكم!»

تحول النقاش، في نهاية المطاف، إلى حديث عن التجارة وعندها ذكر محمود

ملاحظة آسرة، فقال: «فلتقارن كلّاً من اليابان، وألمانيا، والصين والولايات المتحدة. إنها تعدّ جميعاً دولاً مُصدّرة رئيسة لمنتجات مختلفة. ولكن هناك فرقاً أساسياً بينها. فاليابان وألمانيا والصين تُصدّر منتجاتها فقط، في حين تُصدّر الولايات المتحدة ثقافتها أيضاً. وعلى الرغم من أنكم تتمتعون بامتيازات عديدة تُسهّل بيع منتجاتكم، فإنكم تبيعون قليلاً من نمط الحياة الأمريكية، وهذا تحديداً ما يجعل منتجاتكم مرغوبة جداً وفريدة من نوعها»[1].

حسب النتائج التي حصلنا عليها من استطلاعاتنا، لم يكن محمود الشخص الوحيد الذي يتمتع بهذه المشاعر. إن السياسة التي اتبعتها إدارة بوش في الشرق الأوسط أثّرت في صورة الشعب الأمريكي عند العرب، وفي قدرتنا على إدارة الأعمال وعلاقتنا مع حلفائنا من العرب.

وصف أحد أصدقائي اللبنانيين، في مناسبة مغايرة، الحالة النفسية العامة للعرب، فقال: «لا يرفض العرب الأمريكيين، بيد أن لديهم شعوراً بأن أمريكا ترفضهم، إنهم لا يكرهون أمريكا لكنهم يشعرون بأن أمريكا تكرههم. إن لدى العرب توق ورغبة شديدة في قبول أمريكا واحترامها لهم، إذ إن هناك شعوراً واضحاً بأن الأمريكيين لا يحترمونهم مطلقاً. يمكنك القول إننا نشعر كحبيبة تخلى عنها حبيبها»[2]

وجدتُ كذلك حقيقة رائعة ومثيرة للدهشة تشير إلى مدى ارتباط الأسطورة القائلة إن جميع العرب تسيطر عليهم مشاعر الغضب بمحطة الجزيرة الفضائية القطرية. وصف بيل أوريلي (Bill O'Reilly)، المقدم التلفزيوني في محطة فوكس نيوز (Fox News Channel) الجزيرة «بأنها محطة تروج العنف وتتعاطف مع الإرهابيين».

يجدر بالذكر هنا، أن عادات مشاهدة التلفاز عند العرب تخبرنا الكثير عن احتياجات العرب واهتماماتهم ومشاعرهم تجاه العالم العربي حيث يعيشون. غير أن الفكرة الرائجة أن ملايين العرب يشاهدون الجزيرة طوال الوقت، هي

(1) James Zogby, personal notes, June 12, 2003.

(2) James Zogby, personal notes, 2003.

في الواقع إحدى نتائج حملة العلاقات العامة الناجحة التي بدأتها المحطة.

قامت مؤسسة زغبي الدولية منذ عام 2000 بمعاينة سلوك المشاهدين العرب على مدار الساعة، وبخاصة البرامج التي يفضلونها. وجدنا أن العرب، على غرار الأمريكيين، يشاهدون التلفاز بالدرجة الأولى للتسلية والاستجمام.

أحد تلك العروض التلفزيونية التي حازت شعبية واسعة في الوطن العربي، مسلسل الفريج (Freej) الذي عرضته قناة دبي الفضائية. فقد حاز هذا البرنامج خلال شهر رمضان في عام 2007 و2008 أعلى تقدير بين المشاهدين في منطقة الخليج العربي. يجدر بالذكر هنا أن مسلسل الفريج لا يعد برنامجاً سياسياً ولا يثير مشاعر الغضب مطلقاً[1]. بل هو مسلسل كرتوني كوميدي وواقعي يتحدث عن أربع جدّات تقليديات يعشن في دبي، وعن مجابهاتهن الهزلية للحياة العصرية.

يستخدم العرب كذلك، ومثل كل المشاهدين عبر العالم، جهاز التحكم عن بعد حتى يتمكنوا من مشاهدة قناة فضائية تلو الأخرى. عندما طرحنا السؤال التالي: «عندما تجلس في المساء لمشاهدة التلفاز، فأي البرامج تفضل؟»، في أحدث استطلاع للرأي أجريناه على المشاهدين العرب، كانت الأفلام، في أكثر الدول العربية كثافة مثل مصر والمملكة العربية السعودية، الاختيار المفضل. أما في المغرب، فيفضل المشاهدون المسلسلات التلفزيونية القصيرة التي تعالج مشاكل الحياة المنزلية والمعروفة بـSoap Opera والمسلسلات الدرامية. أما البرامج الإخبارية، بوجه عام، فاحتلت المرتبة الثالثة. ولكن «مشاهدة الأخبار» لا تعني بالضرورة مشاهدة محطة الجزيرة أو شبكات المحطات الإخبارية الفضائية العربية. ففي لبنان ومصر والمغرب والسعودية، عنت العبارة السابقة مشاهدة البرامج الإخبارية المحلية[2]. يميل العديد من

(1) David Tusing, «Toon In as Emirati Grannies Look to World Domination,» Emirates Business, January 11, 2010.

(2) Zogby International, Poll for Arab Broadcast Forum, Abu Dhabi, UAE, March 11-26, 2008. Sample size: 4,046 adults. In our six-nation survey for the ABF, for example, when we asked which kind of television news Arabs watched to learn

العرب إلى مشاهدة شبكات التلفزة المحلية، على غرار العديد من الأمريكيين الذين يفضلون محطاتهم الإخبارية المحلية، بأعداد تفوق كثيراً محطات الكابل الإخبارية رفيعة المستوى (انظر الجدول 7–3).

يشاهد العرب، بالطبع، في أوقات الأزمات السياسية، الشبكات الإخبارية الفضائية. لكننا وجدنا هنا أيضاً، فروقات في عادات المشاهدة عند العرب. تعدّ الجزيرة المحطة الإخبارية «الأكثر مشاهدة» لأنها، مثل محطة فوكس نيوز أو سي. إن. إن الإخبارية، تقدم تقارير منتظمة، لحظة بلحظة. ولأن المشاهد العربي يمكن أن يكون نافذ البصيرة جداً، لا تعدّ محطة الجزيرة دوماً المصدر الإخباري «الأكثر مصداقية».

وعلى النقيض من الاعتقاد الجازم الشائع القائل بأن العرب يتعلمون كره الولايات المتحدة من خلال مشاهدة القنوات التلفازية المثيرة للغرائز، وجدنا في جميع الدول العربية التي قمنا باستطلاع آرائها، أن مشاعر فئة الشباب (18–29 عاماً) تجاه المنتجات والشعب والقيم الأمريكية أكثر إيجابية من مشاعر الفئات العمرية الأخرى. يبدو، في الواقع، أن الشباب عنصر رئيسي، فالمشاعر السلبية تجاه أمريكا تنمو مع تقدم العمر. يقال الأمر ذاته عن العرب الذين لديهم مدخل إلى القنوات التلفازية الفضائية والإنترنت. هؤلاء يتمتعون بأكثر المشاعر إيجابية تجاه الحرية والديمقراطية الأمريكية، والأفلام والبرامج التلفازية الأمريكية والمنتجات الأمريكية الصنع، بالإضافة إلى نظام التعليم الأمريكي[1].

about the U.S. elections, local news channels outpolled the larger satellite networks in Lebanon, Saudi Arabia, and UAE. And in our November 2009 Six-Nation Poll, when asked which TV network Arabs watched for international news, viewership was evenly divided between local channels and the larger satellite networks.

(1) Zogby International, Impressions of America, 2004.

الجدول (7–3): أنواع البرامج التلفازية التي يفضل العرب مشاهدتها.

عندما تجلس في المساء لمشاهدة التلفاز، فأي البرامج تفضل؟						
	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
الأفلام	3	1	2	2	1	3
المسلسلات التلفزيونية القصيرة والمسلسلات الدرامية	1	2	3	3	3	6
الأخبار	7	3	1	1	2	1
تلفزيون الواقع	6	5	5	5	6	5
الموسيقى والبرامج الترفيهية	2	6	4	4	7	2
برامج المسابقات الاستعراضية	4	8	8	7	8	4
الرياضة	8	4	6	6	4	8
البرامج الدينية	4	7	7	8	5	7

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع للبرامج التي تبثها محطات التلفزة العربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 11–26 آذار، 2008. حجم العينة: 4,046 بالغاً.

ملحوظة: طُلب من المستجيبين للاستطلاع ترتيب جميع أنواع البرامج التلفازية حسب الأفضل بحيث يشير الرقم واحد (1) إلى أكثرها تفضيلاً، في حين يشير الرقم (8) إلى أقلها تفضيلاً (من بين الخيارات المتاحة).

باختصار، يمكننا القول إنه كلما زاد الانفتاح تبددت المشاعر السلبية تجاه الغرب. ويقودنا ذلك إلى خلاصة واضحة: فبدلاً من الاستمرار في تغذية الأسطورة القائلة إن العرب يكرهوننا، علينا أن ننمي مشاعر الحب عند أولئك الذين يميلون، أكثر من غيرهم، إلى رؤية الغرب بمنظور إيجابي.

ونعني بذلك الشباب والمثقفين الذين يسافرون كثيراً. هؤلاء هم جيل القادة القادم في الوطن العربي، وهُم المستقبل. هذا أيضاً تحدّ جديد، وكلما أسرعنا في

قبول هذا التحدي آلت الأمور إلى الأفضل.

في ربيع عام 2008، ذهبت في رحلة إلى الشرق الأوسط للمشاركة في عدد من البرامج الحوارية. بينما قابلتُ وتحدثتُ مع مئات الصحفيين والطلاب والأساتذة الأكاديميين، شعرتُ بالدهشة عندما رأيت أن النخبة في الوطن العربي يراقبون الانتخابات الأمريكية عن كثب. في معظم الأحوال، وجدت أن هؤلاء الأشخاص الذين لديهم القدرة على التأثير في الرأي العام العربي، يُبدون اهتماماً كبيراً لانتخاباتنا الرئاسية، أكثر من العديد من الأمريكيين أنفسهم. تلقيت أسئلة محددة للغاية وفنية عن أهمية الشرق الأوسط بالنسبة إلى المرشحين الثلاثة (هيلاري كلينتون، باراك أوباما، جون ماكين). لكنني تلقيت كذلك أسئلة عن دور النواب الديمقراطيين، وإذا ما كان هنالك نواب من ميتشغن وفلوريدا سينضمون إلى الحزب الديمقراطي الوطني، وهل الأمريكيون على استعداد لانتخاب مرشح أمريكي إفريقي ينحدر من أب مسلم كرئيس للولايات المتحدة؟

إن الجمهور الذي كنت أخاطبه، كان ينظر إلى الانتخابات الأمريكية كأمر حاسم يؤثر في حياتهم. لقد دفع الشرق الأوسط ثمناً باهظاً إبان الفترة الرئاسية لبوش، وسيطر على العديد من العرب شعور بائس بأنهم فقدوا السيطرة على مستقبلهم. أُجبر العرب على مشاهدة الغرب وهو يمزق العراق ويتجاهل القضية الفلسطينية واللبنانية على نحو مدمر، مما شجع المتطرفين وجمهورية إيران على الظهور في الساحة. والآن، تهدد إدارة بوش في عامها الأخير بأن تطلق العنان لحيل مختلفة من شأنها أن تولد صراعات جديدة.

ينظر العرب الذين تحدثتُ إليهم – بطريقة مختلفة– إلى الانتخابات الرئاسية المقبلة وكأنها تخصهم وهي بالنسبة إليهم خليط من الأمل والخوف. قال لي أحد الزملاء: «لقد درست في الولايات المتحدة، وهناك أيضاً وقعت في الغرام وتعلمت الكثير عن وطنكم». ثم تابع قائلاً: «لكنكم منحتم لقباً سيئاً للسلام، إن الديمقراطية أمر سيّئ– ماذا ستدمرون بعد؟»

في مناسبة مختلفة، سألت مفكراً مصرياً بارزاً كان يأمل أن يفوز بالانتخابات الرئاسية لعام 2008 إنْ كان يؤمن بأن التغيير محتمل. لم يرغب هذا المفكر بالتعبير عن رأيه لأنه، على حد قوله: «لقد شعرت بخيبة الأمل مرات عديدة بسبب الأحداث الجارية في أمريكا. لا أرغب في التفاؤل في هذه المرحلة».

لكن، على الرغم من هذه الفترة التاريخية العصيبة والقاسية التي هُدرت فيها دماء العرب والمسلمين يومياً وأصبح التواصل بين العرب والأمريكيين صعباً للغاية، أراد كثير من أمثال هؤلاء المثقفين أن يعتقدوا أن أمريكا ليست الدولة ذاتها التي شهدوها تتصرف بهذه الطريقة في المنطقة العربية. وعوضاً عن كره أمريكا، أراد هؤلاء أن يثقوا بنا، وكلهم أمل أن تعود أمريكا كما كانت في السابق.

اكتسحت إدارة أوباما الرئاسة في مطلع عام 2009 وقد أُلقي على كاهلها الكثير والكثير من التوقعات. وعلى الرغم من أن إدارة أوباما لم تحدث تغييرات جوهرية في سياستها في الشرق الأوسط، فإن انتخاب أوباما في حدّ ذاته واسمه والعرق الذي ينتمي إليه والجهود التي بذلها لتحسين الدبلوماسية الخارجية – وتشمل هذه الجهود مقابلة مع وسائل الإعلام العربية وخطابه التاريخي في القاهرة، وإعلانه عن نيته إغلاق معتقل غوانتانامو والقضاء على أساليب التعذيب التي استُخدمت ضد المعتقلين وإعلانه انسحاب القوات الأمريكية من العراق– كانت جميعها كفيلة برفع أسهم الولايات المتحدة عند العرب. بعد مرور أسبوع فقط على تولي أوباما الرئاسة كان واحد وخمسون بالمائة ممن استجابوا لاستطلاع الرأي الخاص بمؤسستنا، متفائلين حيال سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط[1].

أوضحت استطلاعات الرأي اللاحقة أنه على الرغم من المماطلة التي لحقت بعملية السلام في الشرق الأوسط وإخفاق إدارة أوباما في إغلاق معتقل غوانتانامو في الموعد المحدد، وشعور بعض العرب بأن إدارة أوباما فشلت في

(1) Zogby International، Arab Opinions on President Obama's First 100 Days: A Six Nation Survey، April 21–May 11، 2009. Sample size: 4،087 adults.

ترجمة خطاب القاهرة إلى تغيير حقيقي، لم يتلاش التفاؤل الأوّلي وإن كان قد أصبح خافتاً نوعاً ما. بالإضافة إلى ذلك، ساهم هذا التفاؤل في زيادة مشاعر العرب الإيجابية تجاه القيم والشعب والمنتجات الأمريكية. أشارت آراء العرب تجاه كل شيء أمريكي تقريباً، كما رأينا في جدول (7–2) الذي يلخص نتائج استطلاع عام 2004، إلى أدنى تقدير، وبقيت كذلك في استطلاعات الرأي اللاحقة التي أجريناها عام 2006 و2008. ثم اختلف الأمر تماماً في استطلاع عام 2009، إذ كان صدى الأمور مؤثراً للغاية.

أما فيما يتعلق بالقضايا ذات الأهمية الخاصة بالنسبة إلى العرب – هل ستؤدي الفترة الرئاسية لأوباما إلى تحسين علاقات أمريكا بالعرب وإلى التوصل إلى حل حاسم للصراع الإسرائيلي الفلسطيني – فمازالت آراء العرب متقلبة. إن العرب حذرون للغاية، وهذا أمر يمكن تفهمه، ذلك أنهم شعروا في الماضي بخيبة أمل متكررة. لكن، وكما يوضح جدول (7–4)، تمسك العرب بفسحة من الأمل وبخاصة في مطلع عام 2009 (على الرغم من أن هذا الأمل بدأ يتلاشى بعد ذلك، كما سنرى لاحقاً في الفصل الثالث عشر).

الجدول (7–4): هل سيحدث أوباما تغييرات في الدبلوماسية الخارجية الأمريكية؟

(تشير النتائج إلى النسبة المئوية لعدد من أجابوا «بنعم»).

هل سيُحدث أوباما تغييرات في ...؟						
	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
العلاقات الأمريكية – العربية	36	53	43	53	78	57
الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني	35	42	24	39	62	13

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، آراء العرب تجاه المائة يوم الأولى في الفترة الرئاسية لأوباما، 2009.

تخبرنا هذه الأرقام أنه على الرغم من أن العديد من العرب مازالوا منزعجين بسبب بعض جوانب الدبلوماسية الأمريكية المطبّقة في المنطقة العربية، فإن الفكرة القائلة إن العرب شعب غاضب إلى الأبد ما هي إلا محض خيال. توجد هذه الأسطورة المهترئة في المحيط الفكري المعقد الذي يميز البرامج الحوارية وفي المشاورات السياسية السرية. إن التفاؤل الذي تصفه استطلاعات الرأي السابقة لا يمكن أن يوجد حيث ينتشر الغضب في كل مكان؟ لا يمكن للتفاؤل أن ينمو حيث توجد الكراهية. عندما نضع هذا التحريف المشوش الكاذب جانباً، يمكننا أن ندرك بوضوح التحديات الحقيقية التي تواجهها الولايات المتحدة بشكل خاص والعرب بشكل عام، في العالم العربي.

الفصل الثامن

الأسطورة الخارقة الرابعة:
هل يرى العرب العالم من خلال عدسة الإسلام فقط؟

في عام 1994، وعندما كانت محادثات أوسلو للسلام في أوجها، قام فيدال ساسون (Vidal Sasoon)؛ مصفف الشعر الإسرائيلي والناشط المعروف عالمياً، بدعوتي إلى المشاركة في ندوة تناقش العدائية الموجهة ضد السامية، رعتها الجامعة العبرية. ذهبتُ وأنا آمل أن أبدأ حواراً يناقش ما اعتقدتُ أنه موضوع بالغ الأهمية ومثير للقلق على نحو متزايد، فقدّمت ورقة تحت عنوان «اللاسامية واللاسامية الأخرى» طرحتُ فيها فكرة مفادها أن التحيز ضد اليهود والتحيز ضد العرب يعدّان تاريخياً ظاهرتين مرتبطتين.

نميل اليوم إلى الاعتقاد أن اللاسامية هي نمط من أنماط العنصرية المعادية لليهود. لكن العرب أنفسهم ساميون واللغة العربية لغة سامية ولعقود عدّة، صنّف العقل الأوروبي اليهود والعرب معاً كمصدر تهديد بارز ومقلق. يرى الأوروبيون أن اليهود يشكلون «[مصدر] تهديد داخلي» لأنهم يعيشون بينهم. من ناحية أخرى يُتّهم العرب والمسلمون بأنهم يشكلون «خطراً خارجياً». ورغم هذا التمييز الداخلي/الخارجي، يُعرّف اليهود والعرب بوضوح كمصدرين «للمشاكل»، وأن ثروتهم وسلطتهم وهوياتهم المشتركة (السامية) تشكل جميعها مصدر «دمار» محتمل للغرب. إن العرب واليهود «يختلفان عنا»، هكذا يعتقد الغربيون الذين أنقصوا من قدرهم وسخروا منهم عبر رسومات كاريكاتورية مهينة.

قُدّمَت أوجه التشابه تلك، أحياناً، بطرق مروّعة، لكنها مثيرة للدهشة في آن واحد. فعلى سبيل المثال، تتطابق العديد من أفلام الكارتون السياسية المعادية لليهود، التي أنتجتها ألمانيا قبل النازية وروسيا القيصرية مع أفلام كرتون

أمريكية حديثة تسعى إلى تشويه صورة العرب. فأفلام الكرتون القديمة تلك تتحدث غالباً عن مصرفيين وثوريين يهود، في حين تتحدث «الحديثة» منها؛ أي الأمريكية، عن شيوخ النفط الأثرياء والإرهابيين المسلمين. بيد أن الخصائص الجسدية لهذه الشخصيات متشابهة كلها إلى حد لافت للنظر. فنجد على سبيل المثال، الأجسام البدينة للغاية، والأنوف المبالغ في حجمها، والعبارات المتعطشة للدماء. وهكذا، تتحول الأموال اليهودية في أفلام الكرتون هذه إلى «دولارات يجنيها العرب من النفط»، ويتغير شكل «المخربين/الثوريين» اليهود إلى «إرهابيين مسلمين». ونرى كلتا الجماعتين وقد استخدمتا «ثروتيهما غير المشروعتين» لشراء وتهديد «نمط حياتنا»[1].

إن أفلام الكرتون هذه ما هي إلا أحد الجوانب الواضحة للّاسامية المتعددة الأبعاد. يُصوّر العرب واليهود في أعمدة الصحف وكتب المثقفين والإشاعات الدفينة الماكرة كغرباء وأشخاص عدائيين، ويُتّهمون برفضهم القيم الغربية وأنهم يميلون إلى حياكة المؤامرات. بالنسبة إلى اليهود، أدى هذا التجريد المنتظم لإنسانيتهم إلى إرساء قواعد العنف الوحشي الذي عانوه في أوروبا، حيث تفاقمت قرون من المخططات المعادية لليهود لتؤدي إلى المحرقة المرعبة. واليوم، يُشخّص العرب والمسلمون عبر صور نمطية سلبية للغاية تشوه سمعتهم وتحط من قدرهم، ولا عجب أن يصبح هذا الأمر محط اهتمام الشرق الأوسط!

حذّر ويليام بكلي (William Buckley)؛ المفكر الأمريكي المحافظ والمعروف، قبل عقدين من الزمن، قائلاً: «علينا أن نلاحظ جيداً التناقض بين ثقافتنا وثقافة الأصوليين المسلمين (أتباع محمد)» قبل أن «نضع قوانين الهجرة الخاصة بنا»[2]. وعلى الرغم من أن كتابات بكلي ظهرت في تسعينيات القرن

(1) Peter Gottschalk and Gabriel Greenberg, Islamaphobia: Making Muslims the Enemy (Lanham, MD: Rowman & Littlefield Publishers, 2008); James Zogby, The Other Anti-Semitism: The Arab As Scapegoat (Washington, DC: American-Arab Anti Discrimination Committee, 1980).

(2) William F. Buckley Jr., «Things We're Not Ready For,» Reading Eagle Company,

الماضي، فإننا نجد صدى واضحاً لتاريخ أوروبا الوسطى[1] في الفترة الواقعة بين عشرينيات القرن ذاته وثلاثينياته.

وبالمثل، يكتب آر. جيمس وولزي جي آر (R. James Woolsey Jr.)؛ المدير الأسبق بوكالة المخابرات المركزية (CIA) في مراجعته النقدية لكتاب **الجهاد المتسلّل** (Stealth Jihad) لروبيرت سبينسر (Robert Spencer) الذي صدر عام 2008، قائلاً: «يعرض روبرت سبينسر قضية قوية حين يقترح أن الإسلاميين الراديكاليين الذين يعتنقون العنف والإرهاب لا يشكلون وحدهم التهديد الرئيس لنمط حياتنا، بل إن أولئك الذين يرفضون العيش جنباً إلى جنب مع أصحاب الديانات الأخرى، على أساس مبدأ المساواة في مجتمع مدني»[2]، يشكلون المصدر الآخر. لا يوضح لنا وولزي طريقة تمييز هذه الفئة الأخيرة، لكنه يترك، بالتأكيد، الباب مفتوحاً على مصراعيه لكل صور الشك والريبة التي تلاحق المسلمين الذين يمارسون معتقداتهم الدينية وغيرهم من الجماعات الإسلامية.

إن المنحة التي مولت هجوم الحادي عشر من سبتمبر كانت، بلا شك، معيبة ومتعصبة. إن كلمة «منحة» («scholarship») لا تكاد تبدو الكلمة الصحيحة في هذا المقام. لكن، وكما ألقى المسيحيون، في العصور الوسطى، اللوم على جميع اليهود بسبب موت المسيح، فإن الباحثين والدارسين، في الوقت الحاضر، لديهم الوقت الكافي لتقديم تفسير أحادي المنظور للإسلام، الذي يصنف المسلمين جميعاً كقوة تهدد الحضارة الغربية. يزعم بول جونسون (Paul Johnson)، المؤلف البريطاني والمحرر السابق لمجلة **رجل الدولة**

July II 1993, B10.

(1) أوروبا الوسطى (Mitteleuropa): مصطلح ألماني له أبعاد جغرافية وسياسية وثقافية. وبينما يعني المصطلح بقعة جغرافية، فهو يشير أيضاً إلى مفهوم سياسي يوحي بسيطرة ألمانيا على الدول الواقعة وسط أوروبا، خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

(2) James R Woolsey, jacket note for Stealth Jihad: How Radical Islam Is Subverting America without Guns or Bombs by Robert Spencer (Washington, DC: Regnery Press, 2008).

الجديد (New Statesman) في مقال نشره في مجلة المراجعة النقدية المحلية (National Review) أن «الإسلام دين إمبريالي أكثر مما كانت عليه المسيحية في يوم من الأيام، وعلى النقيض تماماً من اليهودية»[1]. وعلى غرار العديد من المزاعم، يستند زعم جونسون المتعلق بالعدائية القتالية المتوارثة في الإسلام على اقتباسات من القرآن الكريم، حرّفها جونسون تحريفاً شديداً وجرّدها من سياقها الصحيح. وكما هي الحال مع التوراة، يمكن اختيار آيات من القرآن الكريم لدعم مزاعم مناقضة لا حصر لها. وبطريقة مماثلة، إذا طبقنا بانتظام المعايير الأخلاقية التي تُستخدم لإصدار أحكام قاسية على السجل التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية، على الإمبراطوريات الأوروبية المسيحية - الروسية والإسبانية والبريطانية والفرنسية- فإنها ستكشف عن عيوب وأخطاء مماثلة.

إن الأسطورة القائلة بأن جميع العرب تسيطر عليهم معتقدات دينية متعصبة تجد استحساناً عند مجموعة كبيرة من مؤيدي إسرائيل، الذين يجدونها مفيدة للغاية لأنها تصور الغالبية العظمى من العرب كمتشددين لا يمكن الوثوق بهم. يرى العديد من المحافظين الجدد والمسيحيين الأصوليين والسياسيين ممن يؤيدون سياسة الحرب كعنصر رئيس في الدبلوماسية الخارجية، أن التهديد الذي يُعدّ المسلمون مصدره الأساسي، يشكل بديلاً ملائماً للاتحاد السوفيتي. ومع تلاشي الحرب الباردة القديمة التي كانت مصدر تحدٍ حقيقي، انطلق هؤلاء السياسيون على غير هدى، فاحتاجوا إلى مصدر تهديد جديد ليشنوا هجومهم ويبرّروا جدلهم- من جديد- الرامي إلى أخذ الحيطة والحذر والحصول على ميزانية دفاع أكبر مما سبق بكثير[2]. إن الإسلام و«العرب» هدف جاهز ومتوافر لتحقيق هذه الغايات. فالمسلمون أجانب ولا يُفهمون بشكل صحيح عادة، ويرتبطون مسبقاً بصور نمطية سلبية، وهم العدو اللدود لإسرائيل؛ حليفتنا

(1) Paul Johnson, «Relentlessly and Thoroughly: The Only Way' to Respond,» National Review, October 15, 2001.

(2) President George W Bush, «Remarks on the War on Terror» (speech to Military Officers Association of America, Washington, DC, September 5, 2006).

الرئيسة في الحرب الباردة. لقد ألقت الحملة التي يشنها الغرب ضد الإسلام بظلالها السلبية على الدين وأتباعه قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، بوقت طويل. لكن عندما هاجمنا «هؤلاء» («المسلمون») انطلقت الحملة من جديد.

أدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى أكثر من مجرد تبرير محاولات أمريكا القضاء على القاعدة كمصدر تهديد بارز. لقد كانت عبارات مثل «عربي»، و«مسلم» و«إسلامي»، منذ البداية، أساساً كافياً لإثارة شكوك المسؤولين واتخاذ إجراءات سريعة غالباً. في الواقع، أدت جهود وزارة العدل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى استجواب آلاف المهاجرين العرب والمسلمين ظُلماً، واحتجازهم وحتى ترحيلهم. كانت النتائج مدمرة حين دُمرت عائلات عديدة وتفككت أسر مختلفة وانتُهكت الثقة بين الشعبين.

من بين عشرات الحالات مثل تلك، عشتُ تجربة شخصية مع حالتين: عائلة كسبه (The Kesbeh) من هيوستن، تكساس، وعائلة حموي (The Hamoui) من سياتل، واشنطن. في كلتا الحالتين، سعى ربّا العائلتين إلى الحصول على اللجوء السياسي في الولايات المتحدة منذ عام 1991. كان لكليهما عائلتان كبيرتان من حيث العدد، بما في ذلك عدد من الأطفال الذين ولدوا في الولايات المتحدة، فأصبحوا بذلك مواطنين أمريكيين. أصبح كلا الرجلان ناجحين وعضوين مسهمين إيجابياً في مجتمعهما الذي يكن لهما كل احترام. بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، رُفض طلب اللجوء السياسي الخاص بهما ودون أي مبرر، تم القبض عليهما ليتم ترحيلهما. احتُجِز الرجلان لأشهر، وعلى الرغم من حصولهما على دعم قوي لقضيتهما من جانب الكونغرس، تم ترحيلهما برفقة عائلتيهما بأكملهما، ولم يكن لديهما سوى خيار واحد: إما أن تُمزق العائلة فينفصل أفرادها للأبد عن والدهم، أو أن يتم ترحيلهم جميعاً برفقة الزوج الأب.

أدت هذه الملاحقات الجماعية للمهاجرين العرب والمسلمين والاستخدام

المكثف للجواسيس وأشكال المراقبة المختلفة، والممارسات العنصرية التي تُمارس بحجة تطبيق القانون، إلى عواقب وخيمة. يتحدث مقال نُشر في **نيويورك تايمز**، عام 2009، عن انهيار مقلق للثقة المتبادلة بين مكتب الاستخبارات الفيدرالي (FBI) وبعض جماعات المسلمين الأمريكيين الذين تعاونوا عادة معهم والذين باتوا يشعرون اليوم بأنهم محاصرون بوسائل مراقبة مختلفة وتدقيق متواصل. يصف دافيد شانزر (David Schanzer)؛ وهو خبير في الإرهاب وأمن الوطن وأكاديمي في جامعة ديوك، العلاقة المضطربة بين الطرفين، كقضية أمن قومي: «من الضروري جداً أن تصفو الأجواء بين مكتب المباحث الفيدرالي والمجتمع الأمريكي- المسلم، وأن يتوصل كلاهما إلى حل يُمكّنهما من العمل سوية»[1].

في تلك الأثناء، انشغل مؤيدو الحرب الباردة السابقة في إعادة تشكيل التهديدات القديمة وصياغتها لتشكل تهديداً جديداً. كتب المؤرخ المعروف بيرنار لويس (Bernard Lewis)، على سبيل المثال، مقالاً لمجلة **الأطلسي** تحت عنوان «فرص جديدة» يقول فيه:

> إن الجزء الأفضل من حياتي سيطر عليه نوعان من الكفاح- أولهما: كفاح ضد النازية، والثاني: كفاح ضد البلشفية. بعد صراع طويل وضارٍ، حققنا النصر في كليهما. كانت النازية والبلشفية لعنةً على شعوبهما وبلاءً يهدد العالم أجمع، وكانت الهزيمة بالنسبة إلى هذه الشعوب تحرراً حقيقياً. أما اليوم، فنحن نواجه فساداً استبدادياً، مصدره الإسلام- وهذا تحدّ يشبه نوعاً ما التحديات التي واجهناها سابقاً، ويختلف عنها في الوقت ذاته[2].

حاول الرئيس بوش عام 2005، عبر سلسلة خطابات تناقش الموضوع

(1) Paul Vitello and Kirk Semple, «Muslims Say F.B.I. Tactics Sow Anger and Fear,» New York Times, December 17, 2009, http://www.nytimes.com/ 2009/12/18/ us/18muslims.html.

(2) Bernard Lewis, «Second Acts,» Atlantic, November 2007, http://www.theatlantic.com/ doc/2007II/lewis-islam.

ذاته أن يسترجع تأييد العامة، الذي بدأ يتضاءل، لحرب الولايات المتحدة ضد العراق عبر الحديث عن تهديد عالمي مصدره التطرف الإسلامي. ومرة أخرى، كانت حروب الماضي النموذج المثالي. ضخّم الرئيس بوش الدور الخطير للنظام الإيراني والقاعدة والتمرد الحادث في العراق، فأبرزها جميعاً كمصدر تهديد مُوحّد، مستخدماً صوراً ولغة اقتبسها من خطابات الرئيس الأسبق رونالد ريغان، التي ألقاها الأخير في ستينيات القرن الماضي، فتحدث عن طموح الشيوعيين للسيطرة على العالم. في مؤتمر صحفي عقده في آب عام 2006 في مزرعته في كروفورد (Crowford)، في تكساس، تجاوز بوش حدود المعقول عندما عاد بحديثه إلى الحرب العالمية الثانية ونتائجها، فأشار إلى إيديولوجية «الفاشية الإسلامية» التي وصفها بأنها «واقع يصعب فهمه»[1].

لعلّ أسوأ تأثير خلّفته الجهود الفكرية الرامية إلى تعريف المسلمين والعرب كقوة رئيسة تهدد الغرب يكمن في أن هذه الجهود قد سهلت الأمر، ومهدت الطريق أمام الدعاة من رجال الدين القادرين على إثارة مشاعر العامة أمثال بات روبرتسون (Pat Robertson)؛ وهو قائد بارز في منظمة التحالف المسيحي اليمينية في أمريكا.

في نهاية عام 2009، تخطى روبرتسون حدود المنطق عندما أنكر وجود جذور دينية للإسلام. يقول روبرتسون: «لا يعد الإسلام ديناً، بل نظاماً سياسياً. إنه نظام سياسي عنيف يقوم على تقويض حكومات العالم والسيطرة على العالم... أعتقد أنه يتوجب علينا أن نتعامل معه ومع أتباعه وفق هذا الأساس، وكما نفعل مع الشيوعيين والفاشيين»[2]. عندما طلب العديد من المسيحيين الأمريكيين والمسلمين واليهود من روبرتسون أن يقدم اعتذاره، كان ردّ فعل الدّاعية التلفزيوني فظيعاً بقدر ما كانت تصريحاته مثيرة للاشمئزاز. لم يستجيب روبرتسون لمطالب العديدين فقط، وإنما أكد من جديد تعصبه الأعمى ضد

(1) President George W Bush, «President Bush and Secretary of State Rice Discuss the Middle East Crisis» (press conference, Crawford, TX, August 7_2006).

(2) Pat Robertson, The 700 Club, CBN, November 9, 2009.

الإسلام.

لو أن المرشحين الجمهوريين المتنافسين على منصب عضو الكونغرس لم يلتمسوا دعم روبرتسون لكان من السهل تجاهله، وعدّه شخصاً غريب الأطوار، وجزءاً من الماضي. لكن، عندما تم انتخاب بوب ماكدونيل (Bob McDonnell)- أحد خريجي كلية الحقوق في جامعة ريجينت (Regent University)، التي أسسها روبرتسون وأحد أعضاء مجلس إدارة الكلية- حاكماً لولاية فيرجينيا في تشرين الثاني من 2009، تلقى ماكدونيل دعماً سياسياً ومالياً من روبرتسون وعائلته يُقدر بأربعين ألف دولار لدعم حملته الأولى[1].

وعلى الرغم من أن المنافسة عنيفة، وأن ولاية فيرجينيا كانت في يوم من الأيام «مهد الرؤساء»، فإنها تستحق أن يُطلق عليها لقب «مهد المتعصبين ضد المسلمين». في رسالة وجهها فيرجل غود (Virgil Goode)؛ عضو الكونغرس آنذاك، إلى الناخبين في ولاية فيرجينيا، وقد بدا أنه يُوجه عبر هذه الرسالة الحديث إلى بات روبرتسون، إذ كان الأول يستشيط غضباً حيال قرار كيث إليسون (Keith Ellison)؛ عضو الكونغرس الذي تم انتخابه حديثاً، أن يقرأ القسم وقد وضع يده على القرآن الكريم لكونه مسلماً. يقول غود:

> إنني لا أؤيد استخدام القرآن بأي حال من الأحوال. إن لم يستيقظ الأمريكيون ويقرروا تبني موقف فيرجل غود تجاه هجرة المسلمين، سيزداد عدد المسلمين المنتخبين الذين سيطالبون باستخدام القرآن... أخشى أننا سنستقبل الكثير من المسلمين في الولايات المتحدة في القرن القادم إن لم نطبق قوانين صارمة خاصة بهجرة هؤلاء، ونحن بحاجة إليها للحفاظ على قيم بلادنا ومعتقداتنا، وحتى نمنع استنزاف مواردنا[2].

(1) The Virginia Public Access Project, http://www.vpap.org; James Zogby, «Another Robertson Outrage: Time for Accountability,» Huffington Post, January 19, 2010, http://www.huffingtonpost.com/james-zogby/another-robertson-outrage_b_427994.html.

(2) Virgil Goode, in a letter to constituents, December 7, 2006.

من الغريب أن يوجّه أحد أعضاء الكونغرس القادمين من فيرجينيا كل هذا النقد اللاذع إلى زميل منتخب حديثاً وقادم من المقاطعة الخامسة في مينيسوتا، ولعلّ الأكثر غرابة هو السبب وراء كل هذا الكم من الغضب. بداية، لا يعدّ كيث إليسون مهاجراً حديثاً، بل هو أمريكي من أصل إفريقي ويمكن تتبُّع جذوره الأمريكية إلى القرن الثامن عشر. وبلغة أخرى، يمكن القول إن قوانين هجرة أكثر صرامة لن تؤثر البتة على مواطنة إليسون وترشحه لانتخابات الكونغرس. وبالإضافة إلى ذلك، لا يُعدّ إليسون حالة شاذة، فالجزء الأعظم من المسلمين الأمريكيين هم من أصول إفريقية، لا من المهاجرين العرب.

إن هذا التشويه البغيض لدين عالمي مثل الإسلام أو لأتباعه استمر دون انقطاع خلال الانتخابات الرئاسية الأخيرة في الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، قامت مجموعة مستقلة تدعم حملة ماكين الرئاسية، في عام 2008، بتوزيع أعداد هائلة من مادة «وثائقية» معادية للمسلمين حملت عنوان **«الهوس: حرب الإسلام الراديكالية ضد الغرب»**. أُرسل الفيلم الوثائقي مجاناً عبر البريد إلى ثمانية وعشرين مليون منزل في ولايات أمريكية مختلفة عدّها هؤلاء ساحة الحرب، وعُرض الفيلم على شاشات العرض الموجودة في الحرم الجامعي لثلاثين جامعة موزعة في كل أنحاء أمريكا، وفضلاً عن ذلك، تم توزيعه كمادة إعلانية مدفوعة الثمن على سبعين صحيفة. قامت صحيفة نيويورك تايمز، على سبيل المثال، بتوزيع ما يقارب مائة وخمسة وأربعين ألف نسخة قرص فيديو رقمي (DVD) مع الصحيفة التي تُوزع في أمريكا كلها[1]. وعلى الرغم من أن الفيلم عُرض كمادة رئيسة على محطتي سي. إن. إن وفوكس نيوز ووصفه غلين بيك (Glenn Beck) «كأهم فيلم عُرِض في حياتنا كلها»[2]، فإنه في حقيقة الأمر، عمل تحريضي موجه ضد الإسلام. لذلك نجد شخصاً مثل روبن سول (Robin

(1) Erik Ose, «Pro-McCain Group Dumping 28 Million Terror Scare DVDs in Swing States,» Huffington Post, September 12, 2008, http://www.huffingtonpost.com/erik-ose/pro-mccain-group-dumping_b_125969.html.

(2) «Approbations,» Obsession: Radical Islam's War Against the West, http://www.obsessionthemovie.carn/about_approbations.html.

Saul)؛ أحد رؤساء تحرير صحيفة نيوز آند ريكورد (أخبار ووثائق) الصادرة في غرينزبورو (Greensboro) في ولاية كارولينا الشمالية، يرفض نشر الإعلان الخاص بالمادة الوثائقية، ويصفها بأنها «تروج الخوف والانقسام» داخل المجتمع الأمريكي[1].

ورغم إخفاق هذه المناورة، استمرت الروح المحرضة لها كلما لجأ المثقفون إلى استخدام التعصب الديني المزعوم للشرق الأوسط لتفسير الأسباب الكامنة وراء كون العرب «مختلفين للغاية» عنا، وصعوبة فهم عالمهم، وميل سياساتهم نحو التطرف. لماذا قد يحاول هؤلاء البحث عن الإجابات الصحيحة فعلاً، في حين توجد إجابة سهلة في متناول أيديهم؟

إن السؤال الذي نحن في حاجة إلى طرحه هو: ما الدور الذي يلعبه الدين في حياة العرب الحقيقيين وليس أولئك الذين سحرهم الغرب بمفاتنه؟ يتوجب علينا أن نقول في بداية الأمر، أن ليس كل العرب مسلمين– أو متدينين بوجه خاص. في الواقع، تعادل نسبة المسلمين الذين يرتادون الجوامع كل أسبوع في العالم العربي إلى حد قريب نسبة أولئك الذين يرتادون الكنائس في الولايات المتحدة، ويجدر بالذكر كذلك أن المسيحية تعدّ ثاني أكثر ديانة انتشاراً، وأن هناك مجتمعات مسيحية كبيرة في كل من لبنان (وعائلتي هي جزء من هذا المجتمع) ومصر. لقد أوضح استطلاع الرأي الخاص بمؤسستنا، أن الدين «بوجه عام، مهم في العالم العربي، ويمنح القيم العربية شكلها الصحيح، لكن ليس بالصورة الشاذة التي يتحدث عنها مبتكرو الأساطير الخاصة بالعرب وعالمهم».

لقد رأينا في الفصول السابقة أن العرب يُفضلون مشاهدة الأفلام والمسلسلات التلفزيونية القصيرة والمسلسلات الدرامية وتلفزيون الواقع والأحداث الرياضية على البرامج الدينية (الجدول 7–3). وعندما سُئل

(1) John Robinson, «Why We Didn't Distribute <Obsession,» News & Record, September 21, 2008, http://blog.news-record.com/staff/jrblog/2008/ 09/why_we_didnt_di.shtml.

المستجيبون لاستطلاعنا عن الأسباب الكامنة وراء كون القضيتين الفلسطينية والعراقية مهمتين بالنسبة إلى العرب، كانت الإجابة التي احتلت المرتبة الأعلى في جميع الدول العربية (باستثناء الأردن) أن الفلسطينيين والعراقيين «عرب مثلنا»، في حين احتلت الإجابة التي تشير إلى الأسباب الدينية مرتبة دُنيا (انظر الجدول 6–6 و6–8). وتكرر الأمر عندما استفسرنا عن المصدر الرئيس لوحدة العرب (الجدول 6–4)، وحتى عندما سألنا أفراد العينة عن كيفية التعريف بأنفسهم أمام شخص أمريكي، فضّل المستجيبون في معظم الدول العربية الإشارة إلى بلدهم أو كونهم عرباً على الإشارة إلى دينهم (الجدول 6–1).

لا يعدّ الإسلام بالنسبة إلى العرب العدسة الوحيدة التي يرون من خلالها العالم، باستثناء القلة الراديكالية منهم– ويمكننا أن نقول الشيء ذاته عن الولايات المتحدة على وجه الخصوص والغرب على وجه العموم– ولا يُعدّ الإسلام كذلك الموجّه الوحيد لأفعالهم. يجد العرب، على غرار معظم الشعوب، قيمهم عبر الدين. وإذا قمنا بإسكات الأصوات الصاخبة التي تتحدث عن هذا الموضوع ونقّبنا في الأعماق قليلاً، فسنجد أن القيم العربية والأمريكية متشابهة إلى حد كبير.

عندما طرحنا السؤال التالي «ما أهم القيم بالنسبة إليك؟» مرة أخرى، في عام 2002، كان أبرز اختلاف ظهر بين إجابات المستجيبين العرب والأمريكيين يشير إلى أهمية الدين. احتل الدين المرتبة قبل الأخيرة في قائمة الأمريكيين (المرتبة السابعة من بين ثمانية عناصر تتعلق بالحياة الخاصة للمستجيبين)، أما بالنسبة إلى العرب، فاحتل المرتبة الثالثة بعد نوعية العمل والأسرة (انظر الجدول 8–1). تبدو أولويات الأمريكيين والعرب، في الظاهر، حول الأمور المتعلقة بالدين مختلفة.

الجدول (8-1): أهمية الاهتمامات الشخصية بالنسبة للعرب والأمريكيين.

ما مدى أهمية الاهتمامات التالية بالنسبة إليك؟		
القيم الشخصية	المرتبة الخاصة بالعرب	المرتبة الخاصة بالأمريكيين
نوعية العمل	1	2
الأسرة	2	1
الدين	3	7
الضمان الوظيفي	4	5
الزواج	5	4
الأصدقاء	6	3
السياسة الخارجية	7	6
وقت الفراغ	8	8

المصدر: جيمس جي زغبي، فيم يفكر العرب: القيم والمعتقدات والاهتمامات (يوتيكا، نيويورك: مؤسسة زغبي الدولية/ مؤسسة الفكر العربي، 2002).

ملحوظة: طُلب من المستجيبين أن يرتبوا اهتماماتهم حسب أهميتها بالنسبة إليهم.

يعتمد ترتيب المنازل التي تظهر في الجدول على النسب المئوية لعدد المستجيبين الذين رتبوا القيم السابقة حسب الأهم.

على أي حال، عندما قمنا بمقارنة العرب بالأمريكيين الذين يرتادون الكنائس بصورة منتظمة، تشابه الشعبان في ترتيب أولوياتهما تماماً. يهتم «المتدينون» من العرب والأمريكيين بمعتقداتهم الدينية ويستمعون إلى الدعاة والخطباء، لكنهم يهتمون بالمثل بالاقتصاد والوظائف والتعليم والصالح العام لعائلاتهم.

وعندما طلبنا من الأمريكيين والعرب أن يُرتبوا القيم التي يُعلّمونها لأطفالهم، حسب أولويتها بالنسبة إليهم، أخبرتنا أوجه التشابه والاختلاف بالكثير. كانت

أعلى القيم أهمية، التي احتلت المرتبات الثلاث الأولى عند الشعبين متشابهة، وهي «احترام الذات»، و«الصحة والعافية» و«الشعور بالمسؤولية». في الواقع، تشابه الأمريكيون والعرب في أهمية خمس قيم من مجموع القيم الست الأكثر أهمية. أما الدين، فكان، مرة أخرى، أكثر أهمية بالنسبة إلى العرب مما هو بالنسبة إلى الأمريكيين، لكنه احتل المرتبة السابعة - بالنسبة إلى العرب- من بين اثنتي عشرة قيمة مختلفة على الرغم من أنني أُصبت بالدهشة لمعرفة أنهم وضعوا «الإبداع» و«التسامح مع الآخرين» في مرتبة دُنيا، فلم يسعني سوى أن ألاحظ أن الأمريكيين كذلك جعلوهما في أسفل القائمة. (انظر الجدول 8–2).

الجدول (8–2): ترتيب القيم التي يرغب الآباء (العرب والأمريكيون) في تعليمها لأطفالهم حسب أهميتها.

ما مدى أهمية تعليم هذه القيم، كل على حدة، لأطفالك؟		
القيم الشخصية	المرتبة الخاصة بالعرب	المرتبة الخاصة بالأمريكيين
احترام الذات	1	2
الصحة والعافية	2	3
الشعور بالمسؤولية	3	1
احترام الكبار	4	5
تحقيق حياة أفضل	5	8
الاعتماد على الذات	6	4
الدين/العقيدة	7	12
عادات العمل الجادة	8	6
الطاعة	9	11
الإبداع	10	9
التسامح مع الآخرين	11	10
احترام السلطة	12	7

المصدر: جيمس جي زغبي، فيم يفكر العرب: القيم والمعتقدات والاهتمامات (يوتيكا، نيويورك: مؤسسة زغبي الدولية/ مؤسسة الفكر العربي، 2002).
ملحوظة: طُلب من المستجيبين أن يرتبوا اهتماماتهم حسب أهميتها بالنسبة إليهم.
يعتمد ترتيب المنازل التي تظهر في الجدول على النسب المئوية لعدد المستجيبين الذين رتبوا القيم السابقة حسب الأهم.

هل هذه هي صورة العرب الذين أعمى الدين بصيرتهم ويؤمنون بالتطرف وينغمسون في مؤامرات سرية (أو لعلها ليست على هذا القدر من السرية) ليحكموا العالم؟ من الواضح أن الأمر ليس كذلك. إن هذه الأسطورة ليست دقيقة مطلقاً كما هي الحال مع الأسطورة التي روّجها الألمان النازيون عن اليهود، أو تلك التي اختلقها الغربيون الذين روّجوا فكرة الخوف من الروس إبان الحرب الباردة. لقد تجاوزنا بخطى عريضة هاتين الأسطورتين الخطيرتين اللتين تمنعاننا من رؤية الحقيقة. لقد حان الوقت لتجاوز الأساطير التي تدور حول العرب، وأن نبدأ بالاستماع إلى ما سيقوله العرب عن قيمهم. بوجود باراك أوباما يبدو أن للولايات المتحدة أخيراً رئيساً على استعداد لتحقيق ذلك.

منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها الرئاسة، حاول الرئيس أوباما بذل جهود ليفسح المجال لفهم متبادل بين الولايات المتحدة والعالمين العربي والإسلامي. في اليوم الأول لتوليه الرئاسة استدعى أوباما عدداً من قادة الشرق الأوسط البارزين ليسمح للدبلوماسية الأمريكية الارتباط من جديد بالعالم العربي، ويسعى إلى البحث عن حل للصراع العربي- الإسرائيلي. وفي اليوم الثاني أعلن أوباما عن تعيينه رجلَ الدولة المرموق الذي حاز احترام الجميع، السيناتور السابق جورج ميتشل (George Mitchell) كمبعوث خاص إلى الشرق الأوسط للإشراف على عملية السلام. كان تعيين ميتشل علامة واضحة على تصميم أوباما ورغبته في المُضي قدماً في مشروعه. في اليوم الثالث، أجرى

الرئيس أوباما مقابلته التلفزيونية الأولى مع محطة العربية الإخبارية الفضائية.

أكد أوباما في لقائه مع العربية، وعلى نحو متكرر، عزمه على الاستماع للعالم العربي، وعلى الحاجة إلى اتصال ثنائي الجانب بين العالم العربي والغربي. «إن مهمتي» يقول أوباما «أن أوصل إلى الشعب الأمريكي حقيقة أن العالم الإسلامي يزخر بشعوب رائعة تريد ببساطة أن تحيا حياتها وترى أطفالها ينعمون بحياة أفضل. أما واجبي تجاه العالم الإسلامي فيتلخص في مساعدتهم على إدراك أن الأمريكيين ليسوا أعداءً لهم»[1].

لم يمض وقت طويل قبل أن يُقدِم الكونغرس على تذكير الرئيس بمدى صعوبة مهمته. فبعد مضي وقت قصير على إجراء الرئيس تلك المقابلة مع محطة العربية الإخبارية، دعا السيناتور جون كيري (John Kerry)؛ الرئيس الجديد للجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، إلى عقد جلسة استماع تحت عنوان «التواصل مع المجتمعات المسلمة حول العالم- وتلك محاولة واضحة لجعل رسالة أوباما مقبولة داخل المبنى الإداري للرئاسة في كابيتول هيل (Capitol Hill)، في العاصمة واشنطن. وفي تحرك واضح لإعاقة أي محاولة لفتح صفحة العلاقات العربية - الأمريكية من جديد، قام السيناتور جون كايل (John Kyle) - السيناتور الجمهوري من ولاية أريزونا - بخطوة مضادة عندما استضاف غيرت ويلدرز (Geert Wilders) سيّئ السمعة والمعروف بترويجه أفكاراً متعصبة ضد المسلمين، في حفل استقبال أقامه في مجلس الشيوخ في الوقت ذاته الذي عقد فيه كيري جلسة الاستماع تلك. يجدر بالذكر أن ويلدرز - عضو البرلمان الهولندي- يواجه اتهامات قضائية في موطنه لتحريضه على كراهية المسلمين، ومن جمله الشهيرة: «الإسلام ليس ديناً، بل هو إيديولوجية ثقافية معاقة ومتخلفة»[2]. وصف ويلدرز كذلك

(1) President Barack Obama, interview by Hisham Melhem, Al Arabiya, January 27, 2009.

(2) Ian Traynor, «Profile: Geert Wilders,» The Guardian, October 16, 2009, http://www.guardian.co.uk/world/2009/feb/12/profile-great-wilders.

القرآن بأنه كتاب «فاشي» وحاول منع انتشاره في هولندا، لأنه «يُحرض على الكراهية والقتل»[1]. كان من الواضح أن استضافة ويلدرز في مجلس الشيوخ لم تكن بهدف الاحتفاء بحرية العقيدة أو حرية التعبير عن الرأي.

لا يمكن لدورة رئاسية واحدة ولرئيس جديد بعينه أن يُغيّرا بمفردهما الآثار التي خلّفتها مثل هذه التصرفات، التي تراكمت عبر العقود، وأدت إلى التشهير بالمسلمين والإساءة إليهم وتجاهلهم. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها الرئيس أوباما، فإنه لم يتمكن من إخماد هذه النوايا التي تسعى إلى زيادة الهوة التي تفصل العالم العربي عن العالم الأمريكي. وبعد أن ألقى الرئيس أوباما خطابه الشهير في جامعة القاهرة في الرابع من حزيران، عام 2009، شاركتُ في مناظرة تحاورت فيها مع ليز تشيني (Liz Cheney) والسيناتور السابق جورج ألين (George Allen) اللذين انتقدا بقسوة خطاب أوباما في القاهرة. كما وضحنا سابقاً، ناقش كل من ألين وتشيني النقاط الرئيسة التي حضرها لهم أعضاء فاعلون في الحزب الجمهوري، واتهم كلاهما الرئيس أوباما بما أطلقا عليه «المساواة المعنوية» (عنيا بذلك أنه ساوى بين اهتمامه بالفلسطينيين والدعم الأمريكي التقليدي للإسرائيليين) و«تقديمه الاعتذار» عن سياسات أمريكا المُتبعة في العراق وفي التعامل مع إيران[2].

سألني صحفي مرة عما إذا كنتُ أعتقد أن خطاب الرئيس في القاهرة سينجح في فتح باب جديد يؤدي إلى استئناف العلاقات مع العالمين العربي والإسلامي، فأجبت قائلاً: «أعتقد أن هذا الخطاب سيغير مشاعر الشعوب المسلمة وسيؤثر في عقولها. لكنني أتساءل إن كان الرئيس قادراً على التأثير في مشاعر الأمريكيين المحافظين وعقولهم»[3]. أعتقد أنه سيكون من الأسهل

(1) Nicolien Den Boer, «Qur'an should be banned'-Wilders strikes again,» Radio Netherlands, August 8, 2007, http://static.mw.nl/migratie/www.radionetherlands.nl/currentaffairs/ned070808mc-redirected.

(2) Situation Room with Wolf Blitzer, CNN, June 4, 2009, http://transcripts. cnn.cozn/TRANSCRIPTS/0906/04/sitroom.02.html.

(3) James Zogby, interview by Erica Hill, The Early Show, CBS, June 6, 2009.

وأكثر ملائمة، على المدى القصير، أن نغلق الباب أمام العلاقات بين العالمين الأمريكي والإسلامي خوفاً من استنفاد جميع الجهود الرامية إلى تحقيق فهم متبادل بين الشعبين. لكننا بذلك نُعرض أمننا بعيد المدى وسلامنا وازدهارنا للمخاطر، ولن يتغير ذلك حتى نفتح الباب على مصراعيه لنرى الإسلام على حقيقته.

لنصف الأمر بلسان أوباما عندما تحدث إلى جمهوره في القاهرة: «كلما سمحنا للاختلافات بتحديد علاقاتنا فإننا بذلك نُمكن لكل من يزرع الكراهية بدلاً عن السلام وكل من يُروج للصراع عوضاً عن التعاون، الذي من شأنه أن يساعد شعبينا على تحقيق العدالة والحياة المزدهرة. لا بد أن تنتهي هذه الحلقة المستمرة من الريبة والخصام»[1].

(1) President Barack Obama, «A New Beginning» (speech at Cairo University E Egypt, June 4, 2009), Remarks-by-the-President-at- Cairo- University- 6-04-09.

الفصل التاسع

الأسطورة الخارقة الخامسة:
رفض التغيير أو أسطورة الجمل الذي تجمد في مكانه

قبل عدّة سنين، قرأتُ بمحض الصدفة قصيدة عربية تصف جملاً يجري في الصحراء. فجأةً، يتوقف الجمل بعد أن كان يجري بخطى واسعة. ينظر الجمل وراءه وقد سيطر الخوف عليه من ذلك الشيء الذي يلاحقه، ثم ينظر إلى الأمام محدقاً في المجهول.

وعلى الرغم من أن زمن القصيدة يعود إلى العصر الجاهلي، فإن مشهد القصيدة يحاكي، على نحو مثالي، حياة أي شعب أو مجتمع وجد نفسه عالقاً داخل عملية تغيير اجتماعي سريع. ينطبق هذا الوصف على أوروبا الغربية خلال فترة الثورة الصناعية، وعلى أمريكا في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية، وأوروبا الشرقية بعد سقوط الشيوعية. وينطبق الوصف كذلك على العرب اليوم، الذين وجدوا أنفسهم عالقين في المنتصف بين الحياة التقليدية وتلك المعاصرة.

عندما حطت الطائرة في الرياض خلال زيارتي الأولى لدول الخليج قبل ثلاث سنين، أدهشني مدى مواءمة استعارة الجمل هذه لواقع الحال هناك. ظلت صورة الجمل العالق بين الماضي والمستقبل مسيطرة على تفكيري خلال زياراتي التالية لمنطقة الخليج العربي.

كانت الرياض حتى الخمسينيات مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها مائة ألف شخص. وعندما زرتُ المدينة في عام 1980، كان التعداد السكاني للمدينة قد تجاوز المليون شخص. وبينما قدتُ سيارتي في شوارع المدينة، خلال زيارتي الأولى، شعرت وكأنني أحاول المرور عبر موقع بناء ضخم حيث ازدحم الأفق بالرافعات وضجيج الآليات والمباني الشاهقة التي ترتفع في كل مكان.

عدت إلى الرياض في العام التالي لأشارك في مؤتمر أقيم في منتجع في مدينة الطائف الجبلية، التي تقع غرب الرياض، والمعروفة بالواحة التي زارها النبي محمد، صلى الله عليه وسلم. نظم هذا المؤتمر مجموعة من رجال الأعمال السعوديين- الذين يمثلون جزءًا من غرفة التجارة السعودية - والمسؤولين الحكوميين. علمت أن العديد ممن شاركوا في المؤتمر وُصفوا، من قبيل المزاح، بمافيا جامعة كاليفورنيا الجنوبية، نسبة إلى جامعة كاليفورنيا الجنوبية وهي إحدى أولى الجامعات التي استقبلت عدداً كبيراً من الطلبة السعوديين. تكونت هذه المافيا من مجموعة صغيرة من الشباب الذين نالوا درجة الدكتوراة في الستينيات، من الولايات المتحدة الأمريكية، ثم عادوا إلى وطنهم ليساهموا في تأسيسه. أنشأ هؤلاء وزارات مختلفة، وسعوا إلى تحديثها، وكتبوا مُدوّنة خاصة بقانون العمل والعُمّال والتعامل التجاري، ونظّموا غرفة التجارة السعودية، وهي مؤسسة فاعلة تضم آلاف رجال الأعمال ونساء الأعمال السعوديات.

ساعدت هذه المجموعة في تطوير المجتمع السعودي ودفعه نحو الحداثة، وأدركتُ خلال المؤتمر أنهم مجموعة رائعة يحترمها المجتمع السعودي. تحدث رجال الأعمال عن التخطيط لإنشاء مدن عديدة، وعن قانون العمل والعمال، وكيفية التوفيق بين التقاليد والعالم الحديث والمضيّ قدماً في الوقت ذاته. لقد كان هؤلاء يبنون مدينتهم، بالمعنى الحرفي للكلمة، ويرسون قواعد شركاتهم، من القاع حتى القمة. أدركت من خلال تجمع رجال الأعمال وحديثهم أن كل شيء كان يجري في السعودية على نطاق ضخم وفعّال للغاية.

في مرحلة ما، جلست في حجرة حيث اجتمع خبراء سوريون ولبنانيون وخليجيون وعرب أفارقة، وكانوا جميعاً يبرمون صفقات تجارية. أحد المشاريع التي كانت قيد النقاش مشروع مبدع جداً يهدف إلى تربية الماشية في مزارع السودان الطبيعية التي تغطيها الأعشاب، ثم تصدير لحومها إلى الدول العربية. شارك الجميع تقريباً في مناقشة أكثر التفاصيل تعقيداً. مع اختلاف الخصائص المادية لبلدانهم، كانت حقيقة كونهم جميعاً رجال أعمال يتناقشون

ويعملون سوية، مصدر وحدتهم الأساسية، وقد كانت التجارة المحرك الرئيس لجهودهم الطموحة.

لم أرَ لطموحهم مثيلاً في المنطقة كلها. لقد شعرتُ الشعور ذاته عندما زرت أبوظبي في العام ذاته (1980). رأيت صوراً للمدينة التقطت في خمسينيات القرن الماضي، حين بدت المدينة مثل مخيم ساحلي يضم عشرة آلاف شخص فقط عاشوا هناك، أما في عام 1980، فلقد تزايدَ عدد السكان ليصل إلى مائتي ألف شخص. كانت هذه المدينة كذلك مفعمة بالطاقة التجارية والرؤى المدنية والرغبة في خلق شيء فريد من نوعه، لا مثيل له في العالم أجمع، حتى وإن لزم الأمر بناء شيء عظيم إلى حد مذهل على أرض يتم استصلاحها مسبقاً.

يصل عدد سكان أبو ظبي اليوم إلى مليون ونصف، وتعد أبو ظبي أصغر من مدينة الرياض الحديثة وأفضل منها تنظيماً. وعلى الرغم من نموّها المتسارع على نحوٍ مذهل، فقد استفادت أبو ظبي من أنظمة البناء الدقيقة للغاية. ورغم كونها تقع على حافة الصحراء، فإنها مدينة خضراء بصورة لافتة للنظر. زرع الشيخ زايد، رحمه الله، صاحب الرؤية المتميزة التي أسست هذه المدينة، مائتين وثلاثة وثلاثين مليون شجرة، وشيّد نظام متنزهات داخلية تُروى جميعها من مياه تم استصلاحها.

التقطتُ صورة لجمل يعبر الإشارة الضوئية، خلال زيارتي للمدينة عام 1980. كان ذلك في الطريق الثنائي الاتجاه الذي يربط مدينة أبو ظبي بمدينة دبي، حيث تشكل المدينتان مركزي الكثافة السكانية الرئيسين في دولة الإمارات العربية المتحدة. وإذا نظرتِ إلى الصورة عن كثب، فإنك ستجد بالفعل جمالاً تعبر هذا الطريق الذي أصبح اليوم طريقاً سريعاً ضخماً يتكون من ستة ممرات. بالطبع، لم تعد الجمال اليوم تعبر هذا الطريق.

وعلى الرغم من أن هذا الطموح المفرط والتطور المثير الذي نشهده في دبي، قد أدهش الغربيين وفاق تصورهم– فعلى سبيل المثال، تجد أطول برج في العالم ومنحدرات للتزلج شُيدت داخل صالات مغلقة وجزيرة النخيل السكنية

التي تحوي الكثير من المنتجعات وشُيدت بالفعل على شكل شجرة نخيل- فإن بعضهم يدرك اليوم أن هذا النموّ المتزايد الذي لا يمكن كبحه بات أمراً لا يُطاق. من ناحية أخرى، واصلت أبو ظبي تطوراً مدروساً في محاولتها أن تصبح المدينة الأولى على مستوى العالم ووجهة للسيّاح القادمين من كل بقاع الأرض. لا تستضيف أبو ظبي فروعاً لمتحفي غوغينهايم واللوفر فقط، وإنما أصبحت موطناً لجامعات عالمية مرموقة مثل السوربون وجامعة نيويورك. افتتحت كل من دبي وأبو ظبي مراكز إعلامية وأخرى خاصة بالإنترنت ومراكز صحية، جذبت كلها المقاولين ورجال الأعمال والصحفيين والمستثمرين على مستوى المنطقة العربية كلها.

وعلى الرغم من أن هؤلاء العرب المحدّثين في دولة الإمارات والخليج العربي بوجه عام، قد يستعيرون الكثير من الغرب ويستفيدون من تقدمه، فإنهم يحافظون بشدة على تقاليدهم وثقافتهم. إنهم يغيرون عالمهم بمحض إرادتهم وبخطى منتظمة وبطريقتهم الخاصة.

إن هذه التطورات التي تشهدها الرياض وأبوظبي تعدّ تحولاً تجارياً وبنيوياً على مستوى رائع مثير للدهشة، لكنّ الفكر الغربي المعاصر الذي يناقش المنطقة العربية لا يعترف بهذه الديناميكية اللافتة. فالمناهج الدراسية في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، وكما رأينا في الفصل الثالث، تسهم في نشر الأسطورة القائلة إن العالم العربي مازال عالقاً في الماضي، إذ تعتمد هذه المناهج كثيراً على وصف البدو والجمال عند تشخيصها للعالم العربي الحديث. ولأن النظرة السائدة في الغرب تتلخص في أن التغيير لن يتحقق في العالم العربي إلاّ إذا كان مرتدياً الزي الغربي، فإن التطور الحقيقي الذي يحدث في المنطقة العربية نادراً ما يتم تمييزه.

لعلّ من أهم الأصوات التي تؤكد على عدم قدرة العرب على التقدم والتطور بمفردهم، هو صوت بيرنار لويس (Bernard Lewis)، المستشرق البريطاني الأمريكي وأستاذ جامعة برينستون. يعتقد لويس أن التغيير، إن حدث

بالفعل، في منطقة الشرق الأوسط فإن «الحكام الأوروبيين السابقين هم من بدأوه»[1]. بالمثل، تعكس أفكار دانييل بليتكا (Daniel Pletka)– الخبيرة بالسياسة الخارجية في معهد إنتربرايز الأمريكي (Institute of American Enterprise) والمؤيدة للتيار المحافظ– معتقدات لويس. كتبت بليتكا قائلة: على الرغم من أن التغيير في العالم العربي يجب أن ينبع من الداخل، «فإن من الخطأ الواضح أن نقول إن مثل هذا التغيير يمكن أن يقع دون ضغوط خارجية... يجب على الغرب أن يُبقي الباب مفتوحاً»[2].

إن الفكرة التي يحاول كلاهما إثباتها هي أن المنطقة العربية عالقة مكانها وعلى نحو بائس، وهي بحاجة إلى الغرب ليدفعها إلى الأمام أو يهزّها بعنف– كما حدث في الحرب العراقية– ثم يقود الغرب المنطقة كيفما شاء نحو المستقبل. غالباً ما ناصر توماس فريدمان (Thomas–Freidman) الكاتب المعروف في صحيفة نيويورك تايمز الفكرة الأخيرة تلك. يقول فريدمان: «إن القوى المعارضة للتغيير في هذا العالم الرجعي قوية للغاية»، ويُرجع فريدمان الفضل إلى ما أطلق عليه «فريق بوش»: «فتحة في جدران العالم العربي المستبد» باستخدام بلدوزر الحرب العراقية[3].

قد يعكس التحول السريع في العالم العربي، أو لعله لا يعكس، دور الغرب، لكن التغيير حقيقي وعميق. هناك بالطبع تغييرات سطحية واضحة يسهل تحديدها وغالباً ما يميزها الغرب على أكمل وجه. سافرتُ إلى جدة في عام 2007 لأشارك في منتدى جدّة الاقتصادي، الذي يعدّ أهم تجمع للنخبة من رجال الأعمال والاقتصاديين في المنطقة العربية. اكتظ المكان بنساء شابات

---

(1) Bernard Lewis, «The Middle East, Westernized Despite Itself,» Middle East Quarterly,March 1996,http://www.meforum..org/290/the-middle-east-westernizcd-despite-itsetf.

(2) Danielle Pletka and Mustafa Hamarneh, «Arab Reform and the West,» Dialogue 3, June 2005, http://www.bitterlemons-dialogue.org,/dialogue3.html.

(3) Thomas L. Friedman, «Winds of Change?» New York Times, June 13, 2009, http://www.nytimes.com/2009/06/14/opinion/14friedman.html.

- طالبات يدرسن إدارة الأعمال في جامعة عفّت (Effat College). لم تشارك النساء في مؤتمر الطائف الذي حضرته قبل ثلاثة عقود، على النقيض من نساء الأعمال السعوديات اللواتي جئن للمشاركة في مؤتمر جدة، وقد قدّمن كلمات عكست أفكاراً رئيسة ومهمة. سافرت من جدة إلى الرياض. احتسيت القهوة في اليوم التالي في بهو فندق فور سيزينز في الرياض. يعدّ الفندق جزءاً من مجمع تسوق ضخم للغاية يحوي في أحد طوابقه فرعاً لمتجر ساكس فيفث أفينيو (Saks Fifth Avenue) وفي طابق آخر يحوي فرعاً لمتجر ماركس آند سبينسر (Marks & Spencer) وعلى الجانب الآخر من الشارع يقبع مطعم ماكدونالدز ومقابله يوجد مطعم بيتزاهت. عندما تجولت في المجمع رأيت فتياناً يلبسون الجينز ويعتمرون قبعات لعبة البيسبول وفتيات يلبسن عباءة مفتوحة من الأمام تُظهر سراويل الجينز الحديثة التي ارتدينها. كانوا جميعاً يستمتعون بوقتهم داخل المجمع التجاري على غرار المراهقين في الولايات المتحدة. ولكن يرتدي هؤلاء الفتية ذاتهم، داخل المنزل أو في اللقاءات الاجتماعية أو عند التوجه لأداء فريضة الصلاة، الزي التقليدي الذي يتكون من الثوب الأبيض أو ما يعرف بالدشداشة ورداء الرأس أو ما يُعرف بالغُترة، أما الفتيات فيرتدين العباءة السوداء والحجاب الذي يغطي رؤسهن، والبرقع أو النقاب الذي يغطي وجوههن. يُنوّع هؤلاء المراهقون في أسلوب زيهم بسهولة تامة، وكأن كلا الزيين ينتميان إليهم على حدّ سواء.

كان المشهد خارج المجمع التجاري مألوفاً. الرجال والنساء يسرعون متوجهين إلى أعمالهم في حين يتسوق آخرون. أما الأولاد الذين كانوا يمشون بتباهٍ داخل المجمع التجاري، فكانوا يتهجّون بعض الكلمات وهم في طريقهم إلى المدرسة. يجدر بالذكر هنا، أن مثل هذا المشهد يتكرر في العاصمة واشنطن حيث أعيش. تدل هذه المظاهر بالتأكيد على تغيير سطحي، لكنها تشير كذلك إلى مجتمع أكثر انفتاحاً وتحول يلحظه المدقق. وعلى غرار العديد من الدول، فإن مقياس حياة هذه المدينة المعاصرة التي تعيش تطوراً سريعاً، جعل من الصعب

إنجاز أعمال تجارية تتوافق مع التقاليد الاجتماعية العتيقة التي تعود إلى قرون مضت.

فعلى سبيل المثال، من الشائع أن يلتقي الملك أو أحد الأمراء بالشعب في بُقعة تُعرف بالمجلس، وهو مكان فسيح في مقر إقامة الملك أو الأمير أو في مكتبه. يأتي ما يقارب الخمسمائة شخص إلى المجلس كل أسبوع مقدمين التماسات لقضاء حاجات تخصهم. قد تطلب مجموعة منهم قطعة أرض لتشييد مدرسة ما، وقد يطلب آخر إجراء عملية جراحية لابنه، لأنه لا يستطيع تحمّل نفقتها. قد يطلب آخرون العون لإنهاء مشروع تجاري. يَعِدُ الملك أو الأمير أن يتولى هذه القضايا بنفسه، وتستمر طقوس المجلس، فهي جزء رئيس من «العقد الاجتماعي» المتعارف عليه، الذي تبرمه العائلة الحاكمة مع الشعب. على أي حال، فإن المجتمع الحديث في السعودية يدفع الأمور اليوم نحو اتجاه مغاير. فعلى الرغم من أن الملك والأمراء مازالوا يلبّون المطالب الشخصية، لكنهم يلجؤون، على نحو متزايد، إلى القوانين الخاصة بكل منطقة على حدة، أو إلى الأنظمة الخاصة بإدارة الأعمال في المملكة. لقد تغيرت بنية العلاقات في النصف الثاني من القرن الماضي، مما جعل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية أكثر اتزاناً وعقلانية.

إن التغيير ليس سهلاً، وكلما اقتحم التغيير المجتمع بسرعة، زاد ذلك من احتمالية أن يؤدي إلى تمزيق النسيج الاجتماعي. أدى تسارع عجلة التغيير في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، إلى مولد أصوليين متدينين يُعرفون «بالنّاخبين البيض الغاضبين»، وإلى ظهور الحركات الوطنية والشعبية الجديدة في أوروبا. يعبّر كثيرون، ممن وجدوا أنفسهم مهدّدين بفقدان السيطرة على زمام الأمور أو باختفاء كل ما هو مريح وآمن، عن عدم رضاهم عما يعتقدون أنه مصدر هذا التهديد مثل حكومة مهيمنة، أو هجرة أعراق مختلفة إلى أراضيهم، أو وجود الشواذ جنسياً، أو العمّال الذين تم تهريبهم بصورة غير شرعية، أو ربما «من هم سواهم» وحسب.

لذلك، فعندما ننظر إلى الشرق الأوسط- حيث التغيير السريع والمؤثر والقادر على إعادة صياغة المجتمع- لا يثير دهشتنا بروز ظاهرة مماثلة مثل ظاهرة الأصوليين. وكما هي الحال مع المتطرفين في الغرب، تعارض هذه الفئة من العرب التغيير، وتعدُ بتوفير الأمن والاستقرار عبر العودة إلى التقاليد والماضي الأسطوري.

وجد العالم العربي نفسه - على غرار الغرب- مضطراً إلى التأقلم مع هذا التحول السريع في حين يتعامل في الوقت ذاته مع الكساد العالمي والتغيير الديموغرافي المزعج أحياناً. ينطبق هذا الحديث على المملكة العربية السعودية، وتشير التغييرات الديموغرافية البارزة في السعودية إلى نمو محتمل لسلطة العمالة السعودية خلال العقد القادم. سيؤدي ذلك إلى ظهور ضغوطات هائلة على الدولة تتمثل في خلق ثلاثة ملايين وظيفة خلال العشر سنوات القادمة. يعدّ ذلك نمواً حاداً لا يمكن استيعابه عبر التوسع المثير للقطاع العام فقط، بل يتطلب الأمر، على الأقل، تعاون الموارد الحكومية التي عليها أن تتبع سياسة تقنين قاسية.

إن الأمر المعبِر بحق لا يكمن في مدى هذا التحدي، بل في حقيقة أن المسؤولين في الحكومة السعودية ورجال الأعمال البارزين توجهوا بشراسة لمواجهة هذا التحدي. لقد ذكرت سابقاً أن خمس مدن صناعية هائلة تم تشييدها حديثاً، واستثمرت الحكومة فيها ما يزيد على المائة بليون دولار لدعم نمو القطاع الخاص. وعندما يتم الانتهاء من تصميم هذه المشاريع والمجتمعات الجديدة، ستوفر بالتأكيد ملايين الوظائف الجديدة؛ معظمها داخل القطاع الخاص.

وفضلاً عن ذلك، فلقد دعم نظام التعليم السعودي حركة التغيير للأمام. لقد كانت رسالة الملك واضحة ومفادها أن على الشباب والشابات، على حد سواء، التشبع بفكرة أن التقدم لن يتحقق إلاّ بالطموح والاجتهاد واستغلال المهارات النافعة. تمر المواقف الاجتماعية في السعودية والعالم العربي بوجه عام بتحول

واضح. فعلى سبيل المثال، وفيما يتعلق بقضية عمل المرأة، استجاب واحد وتسعون بالمائة (91٪) في الدول العربية التي استطلعنا رأيها بأنه من المقبول أن تعمل المرأة «لتجد مهنة تساعدها على تحقيق ذاتها»، أما في السعودية فخمسة وثمانون بالمائة (85٪) يوافقون على عمل المرأة، وعندما طرحنا السؤال التالي: «هل على النساء أن يحظين بحقوق مساوية لحقوق الرجال؟»، وافق ثمانون بالمائة (80٪) من بين الدول العربية التي قمنا باستطلاع رأيها، واتفق معهم ستة وسبعون بالمائة (76٪) من السعوديين[1].

إذا ما أمعنّا النظر في حالات العرب الأكثر تشدداً، ولاسيما واسعة الشيوع، نجد أن الأمر مختلف نوعاً ما. أصدر برنامج التطوير الخاص بالأمم المتحدة وبرنامج التمويل العربي الخاص بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية، في عام 2002، سلسلة تقارير حاسمة ومهمة للغاية عُرفت بتقارير التنمية البشرية العربية (AHDR)[2]. حدّد التقرير قضايا معينة تخص العالم العربي بوجه عام، بدت متخلفة إذا ما قورنت بمثيلاتها في دول أخرى، وقد بدأ نجمها يبرز في أماكن مثل جنوب شرقي آسيا والهند. وتعيّن التقارير على وجه الخصوص العيوب التي يعانيها الوطن العربي فيما يتعلق بقضايا محددة كالحرية، وحقوق المرأة، والمعرفة. ويشير التقرير كذلك إلى أن «الإصلاح والتغيير الدائمين في الوطن العربي، لا بدّ أن ينبعا من الداخل»[3]. قابلت مجموعة من الأحزاب العربية في الولايات المتحدة تقارير التنمية البشرية العربية بعبارات مثل: «لقد قلنا لكم ذلك من قبل». ولكن ما يتجاهله هؤلاء أن هذه التقارير كتبها عرب لعرب مثلهم. لاقت هذه التقارير استحساناً واسعاً عبر العالم العربي، فهي لم

(1) Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll, November 1-18, 2009. Şample size: 3,989 adults.

(2) United Nations Development Programme, Regional Bureau for Arab States, The Arab Human Development Report 2002: Creating Opportunities for Future Generations (New York United Nations Publications, 2002), http:// www.arab-hdr. org./publications/other/ahdr/ahdr2002e.pdf.

(3) المرجع السابق

تكن مجرد عريضة تذمر، كما اعتقد العرب، بل هي أشبه بخريطة تقود الدول العربية في خطتها نحو مستقبل متطور.

يصف لنا تقرير نُشر في **نيويورك تايمز**، في السابع عشر من سبتمبر، عام 2009، روح التغيير تلك:

> لقد عملت الثروة التي حققتها دول الخليج العربي من تجارة النفط، بالإضافة إلى الحداثة، في اتجاهين مختلفين. أدى كلاهما إلى الرّقي بمستوى المعيشة، في حين قضت على كثير من الممارسات التي حدّدت هوية هذه الشعوب لأجيال متعاقبة. فالصيد والغوص والبحث عن اللؤلؤ، على سبيل المثال، استُبدلا بالخدمات البتروكيميائية وخدمات التمويل. وقد تحدّت اللغةُ الإنجليزية اللغة العربية كلغة للتجارة والأعمال. استُبدلت الحرف التقليدية بأخرى مبتكرة، وهدم ما تبقى من العمارة التقليدية لتحل محلها ناطحات زجاجية تلامس أفق الحاضر[1].

يتابع التقرير ليؤكد جهود بعض الأفراد مثل وزيرة الثقافة البحرينية التي أبقت على بعض القبور الأثرية وسط ثورة هذا التطور الاجتماعي والاقتصادي. نجد أمثلة على هذا الاهتمام بالمحافظة على التراث، في حين تخطو الدولة خطى عريضة نحو المستقبل في جميع دول الخليج العربي.

وجدت استطلاعات مؤسسة زغبي الدولية عبر الشرق الأوسط عالماً يحاول بشكل عام التأقلم جيداً مع قوى التغيير التي اكتسحت العالم العربي. ولقد أظهرت استطلاعاتنا أن العرب يتطلعون نحو المستقبل أكثر من سعيهم إلى الماضي، وهم لا يتوخون إلا الحصول على فرص أفضل لتكوين عائلات تنعم بالحياة المنتجة والصحة والعافية. وجدنا أن الكثير من العرب الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، هم أكثر تفاؤلاً تجاه حركة التقدم تلك، وما ستخلفه من آثار

(1) Michael Slackman, «In a New Age, Bahrain Struggles to Honor the Dead While Serving the Living,» New York Times, September 17, 2009, http://www.nytimes.com/2009/09/18/ world/middleeast/18bahrain. html.

إيجابية عليهم وعلى أبنائهم[1].

قرب نهاية انتخابات الرئاسة الأمريكية، في عام 1980، كان رونالد ريغان يقتفي أثر الرئيس الأسبق جيمي كارتر، الذي حاول إقناع الأمريكيين بانتخابه لدورة رئاسية جديدة. عاش الأمريكيون وقتاً عصيباً آنذاك، وتمكن ريغان من تغيير اتجاه الانتخابات والتأثير في الرأي العام الأمريكي عندما طلب منهم، قبل أن يختاروا مرشيحهم، أن يسألوا أنفسهم السؤال التالي: «هل أنتم في حال أفضل مما كنتم عليه قبل أربع سنين»[2]. منذ ذلك الحين يطرح السياسيون السؤال ذاته، وبصورة منتظمة، ليعيشوا جوّ الانتخابات.

أما نحن فمازلنا نطرح السؤال ذاته على العرب منذ عقد من الزمان. قمنا كذلك بتوسيع نطاق سؤال ريغان فطرحناه بثلاث طرق مختلفة، لا لنحدد مدى رضى أفراد العينة عن وضعهم الحالي فقط، وإنما لنحدد أيضاً مدى تفاؤلهم أو تشاؤمهم قصير المدى وبعيده، إزاء المستقبل. لذلك طرحنا الأسئلة التالية: «هل أنت في وضع أفضل أو أسوأ مما كنت عليه قبل أربع سنين؟» و«هل ستكون في حال أفضل أم أسوأ مما أنت عليه بعد مرور أربع سنين من هذه اللحظة؟» وأخيراً: «هل سيكون أطفالك في حال أفضل أم أسوأ مما أنت عليه اليوم؟»

قمنا، عبر السنين، باقتفاء أثر اتجاهات متباينة في الدول العربية التي قمنا باستطلاع الرأي العام فيها وحيث كان للمواطنين هناك ردود فعل متباينة نحو التطورات المحلية والإقليمية. في معظم الحالات، كانت مستويات التفاؤل والرّضى عن الوضع العام عالية في دول الخليج العربي. لكن الأمر اختلف في كل من لبنان والأردن ومصر حيث أثّرت أحداث العقد الماضي -كالحرب العراقية والصراعات الثلاثة الدامية التي وقعت في الضفة الغربية وغزة ولبنان- سلباً في شعوب هذه الدول. في عام 2006، على سبيل المثال، كان اللبنانيون والأردنيون مكتئبين للغاية. على أي حال، فعندما أجرينا استطلاعاً جديداً في عام 2009، لاحظنا ارتفاع مؤشرات التفاؤل في هذه الدول باستثناء دولة

(1) Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll.

(2) Ronald Reagan and Jimmy Carter, presidential debate, October 28, 1980.

الإمارات العربية المتحدة حيث انحدرت الأرقام إلى مستويات دُنيا بسبب الصدمة التي أحدثتها الأزمة الاقتصادية التي أصابت دبي (انظر الجدول 9–1). وعلى الرغم من ذلك، وجدنا بشكل عام، حالة من الرضى النسبي والتفاؤل إزاء المستقبل، تتفوق على نسب الاستجابات لأسئلة «أفضل أو أسوأ» من تلك التي طُرحت على الرأي العام الأمريكي[1].

الجدول (9–1): مشاعر التفاؤل والرضى في ست دول عربية، عام 2009 (بالنسبة المئوية).

	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات العربية المتحدة
–هل أنت أفضل أو أسوأ حالاً مما كنت عليه قبل أربع سنوات؟	19/41	24/39	22/38	18/41	15/59	21/30
– هل ستكون في حال أفضل أو أسوأ بعد مرور أربع سنين من الآن؟	13/51	20/39	18/41	13/47	5/55	21/32
– هل سيكون أطفالك في حال أفضل أو أسوأ مما أنت عليه اليوم؟	15/46	23/40	19/52	14/40	5/63	10/43

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، الاستطلاع الخاص بالدول العربية الست، 1–18 / نوفمبر: 2009. حجم العينة: 3,989 بالغاً.

ملحوظة:تشير النسب السابقة إلى استجابة أفضل/أسوأ بالترتيب.

(1) Zogby International, Poll of American Voters, November 30-December 8, 2009. Sample size: 1,006 adults. (Note: The Arab World «better off/ worse off» ratios in Table 9.1 compare quite favorably with recent US. numbers. When asked if they were better off or worse off than they were ten years ago, 41% of Americans say «better off,» while 46% say «worse off» And «how will you be ten years from now?» 48% expect to be «better off,» while 22 % say they will be «worse off.»)

يجدر بالذكر أن سرعة التقدم الاجتماعي في الدول العربية لا تتطابق دوماً مع مقاييس التوقعات الغربية. كما يوضح الجدول (9–2).

تحظى قضايا مثل نشر الديمقراطية ودعمها، وتشجيع الحوار السياسي وتحرر المرأة، في أفضل الحالات، باهتمام متواضع بالنسبة إلى العديد من العرب الذين طُلب إليهم ترتيب هذه القضايا حسب أهميتها. لكن، أن ننكر حدوث تغيير في الشرق الأوسط لأنه، ببساطة، ليس التغيير الذي نرغب فيه في الغرب، إنما هو، في أفضل الحالات، بلادة، وفي أسوئها، خُبث ومكر. وإن كنا مهتمين فعلاً بلعب دور في تطور المجتمع العربي، فعلينا أن نُبقي عيوننا مفتوحة وآذاننا مُصغية لمعرفة حقيقة ما يرغب العالم العربي في تحقيقه.

بوجه عام، احتلت قضايا مثل تحسين الرعاية الصحية وتوسيع نطاق فرص العمل وتحسين نظام التعليم وحل الصراع الإسرائيلي– الفلسطيني، المراتب العليا. لكن تجارب كل دولة على حدة، تلعب دوراً في تحديد أهمية هذه القضايا. فلنلاحظ، على سبيل المثال، القلق المتزايد في لبنان والمغرب إزاء مواجهة الإرهاب والتطرف؟ أو كيف تحتل قضايا مثل محاربة الفساد والمحسوبية مرتبة عُليا في قائمة القضايا المطروحة.

هذا هو واقع الحياة في العالم العربي: أي ليس كما يتصورها الإصلاحيون الغربيون وصُنّاع القرار السياسيون. نجد هذه النظرة السطحية لواقع العرب وقد انعكست في استطلاع لرأي الشارع العربي في هذه الدول الست، عندما سألناهم: أي هذه القضايا الإصلاحية يمكن أن تسهم الولايات المتحدة في تحقيقها (انظر الجدول 9–3).

عندما سألت أفراد العينة عن أهم القضايا التي يمكن أن تكون الولايات المتحدة فيها أكثر نفعاً، كان حل الصراع الإسرائيلي– الفلسطيني في أعلى القائمة، فالولايات المتحدة تحتل مكانة متميزة تمكنها من التعامل مع هذه القضية بفاعلية عالية. أعطى المستجيبون كذلك أولوية للجهود الرامية إلى بناء قدرات الفرد وتوسيع نطاق فرص العمل وتحسين الرعاية الصحية والتعليم.

ولا نجد في أي من الدول العربية رغبة في تدخل الولايات المتحدة في شؤونها الداخلية عبر الإصلاحات السياسية، فهي لا تحتل مكانة متقدمة في القائمة.

ما الهدف من كل هذا الحديث إذاً؟ إن العرب في الوطن العربي ليسوا تقليديين متزمتين ليرفضوا التغيير إلاّ اذا كان على الطريقة الأمريكية! إنهم، ببساطة، يختارون طريقهم نحو مستقبل أفضل بأنفسهم ولا يمكن عدّ هذا حقيقة راديكالية. تخيلوا معي إلى أي مدى يمكن للولايات المتحدة تقبّل عروض بريطانية لشراء أسلحة قد تتسبب بقتل الكثيرين داخل أمريكا، أو تقبلها مقترحات يابانية لتطوير نظام الرعاية الصحية في أمريكا! وبالمثل، وعلى الرغم من أن الكثير من الأمريكيين قد يدعمون حقوق المرأة في العالم العربي بوجه عام، فمن المنطق بداية أن نتحقق إن كانت المرأة العربية ترغب في التغييرات التي نحضرها إلى عالمها، أو إن كانت ترغب في تدخلنا في حياتها.

إن فهمنا للموضع الصحيح الذي يرغب فيه الآخرون الحصول على مساعدتنا ودعمنا يعدّ أمراً منطقياً، ويضمن لنا أن وقتنا وأموالنا ستُنفق في المكان الصحيح، وستسهم في خلق ظروف تمهد للتعاون من أجل تحقيق الإصلاحات المنشودة في المستقبل. لكن، يتطلّب هذا كله الاستماع للآخرين.

الجدول (9-2): أهمية القضايا التي تواجهها الدولة.

ما مدى أهمية القضايا التي يواجهها بلدك اليوم؟
حسب مقياس يتكون من خمس درجات، يرمز الرقم (1) إلى «القضية الأهم»، في حين يرمز الرقم (5) إلى «القضية الأقل أهمية».

- توسيع نطاق فرص العمل
- مواجهة التطرف والإرهاب
- الإصلاح السياسي أو الحكومي
- القضاء على الفساد والمحسوبية
- تحسين نظام الرعاية الصحية
- حل الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.
- حماية الحقوق الشخصية والمدنية
- تحسين نظام التعليم
- زيادة الحقوق الممنوحة للمرأة
- عدم وجود حوار سياسي حول القضايا المهمة.
- نشر الديمقراطية ودعمها

الرتبة	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	دولة الإمارات العربية المتحدة
1	الرعاية الصحية	الرعاية الصحية	فرص العمل	الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني	الرعاية الصحية	التعليم
2	فرص العمل	فرص العمل	الإرهاب والتطرف	التعليم	فرص العمل	الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني
3	التعليم	التعليم	الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني	الفساد والمحسوبية	الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني	الرعاية الصحية
4	الإرهاب والتطرف	الفساد والمحسوبية	الفساد والمحسوبية	فرص العمل	التعليم	فرص العمل
5	الفساد والمحسوبية	الإرهاب والتطرف	الإصلاح	الرعاية الصحية	الإرهاب والتطرف	حماية الحقوق المدنية
6	حماية الحقوق المدنية	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني	الرعاية الصحية	نشر الديمقراطية	الفساد والمحسوبية	المرأة
7	الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني	حماية الحقوق المدنية	حماية الحقوق المدنية	حماية الحقوق المدنية	نشر الديمقراطية	الفساد والمحسوبية
8	نشر الديمقراطية	نشر الديمقراطية	نشر الديمقراطية	الإرهاب والتطرف	حماية الحقوق المدنية	الإرهاب والتطرف
9	عدم وجود حوار سياسي	الإصلاح	التعليم	الإصلاح	المرأة	الإصلاح
10	المرأة	المرأة	عدم وجود حوار سياسي	المرأة	الإصلاح	نشر الديمقراطية
11	الإصلاح	عدم وجود حوار سياسي	المرأة	عدم وجود حوار سياسي	عدم وجود حوار سياسي	عدم وجود حوار سياسي

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع آراء ست دول عربية، 1-18/ نوفمبر، حجم العينة 3,989 بالغاً.

ملحوظة: تمثل الاستجابتان (1+2) أعلى نسبتين.

الجدول (9-3): قضايا الإصلاح التي يمكن للولايات المتحدة أن تسهم في تحقيقها.

أي القضايا التالية يمكن للولايات المتحدة أن تكون أكثر نفعاً في تحقيقها؟

- توسيع نطاق فرص العمل
- تحسين نظام الرعاية الصحية
- زيادة الحقوق الممنوحة للمرأة
- مواجهة التطرف والإرهاب
- حل الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني.
- عدم وجود حوار سياسي حول القضايا المهمة.
- الإصلاح السياسي أو الحكومي
- حماية الحقوق الشخصية والمدنية
- القضاء على الفساد والمحسوبية
- تحسين نظام التعليم
- نشر الديمقراطية ودعمها

الرتبة	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	دولة الإمارات العربية المتحدة
1	فرص العمل	فرص العمل	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني
2	التعليم	التعليم	الإرهاب والتطرف	التعليم	فرص العمل	التعليم
3	الرعاية الصحية	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني	الرعاية الصحية	فرص العمل	التعليم	الرعاية الصحية
4	الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني	الرعاية الصحية	فرص العمل	الرعاية الصحية	الرعاية الصحية	فرص العمل

المصدر: مؤسسة زغبي الدولية، استطلاع آراء ست دول عربية، 1-18/ نوفمبر / 2009، حجم العينة 3,989 بالغاً.

ملحوظة: يعتمد ترتيب القضايا السابقة على النسب المئوية الخاصة باستجابات أفراد العينة.

الجزء الثالث

الأصوات العربية، ما أهميتها؟

الأخطاء والإخفاقات

الفصل العاشر

العراق: تاريخ قاطع كالسيف

شاءت الظروف أن أتناول الغداء مع كارين هوغيز في صيف عام 2005، وهي واحدة من مستشاري الرئيس جورج بوش، ومحل ثقته منذ أن كان حاكم ولاية تكساس. وقد احتلت مؤخراً منصب وكيل وزارة الخارجية للشؤون الخارجية والدبلوماسية، وهو المنصب ذاته الذي احتلته شارلوت بيرز من قبل. ومع أننا لم نكن نتشارك الآراء السياسية ذاتها، فإنني كنت أكن احتراماً خاصاً لهوغيز، وقد ثمنت قرارها بالتخلي عن حقها في التقاعد لقبول هذا المنصب الصعب الذي سعت من خلاله للدفع بجورج بوش كي يحصل على ولاية ثانية.

لقد تسلمت هوغيز منصبها ولديها مخزون كبير من الثقة الرئاسية، ففي إحدى المؤتمرات الصحفية في أكتوبر عام 2000 حين كان المرشح الرئاسي جورج بوش يدافع عن نفسه في تهمة حول قيادة سيارته وهو تحت تأثير الكحول، تصدت هوغيز للصحفيين بشراسة واستطاعت الخروج برئيسها من المؤتمر دون خسائر إعلامية، ومن هذا المنطلق الذي يُظهر العلاقة الوطيدة بين هوغيز والرئيس حداني الأمل في إقناع هوغيز بضرورة تغيير المسار الدبلوماسي الأمريكي الحالي.

في أثناء موعد الغداء في وزارة الخارجية، ناقشت مع هوغيز تفاصيل زيارتها المقبلة للشرق الأوسط، وقد طرحت عليّ السؤال ذاته الذي يطرحه عادة شاغلو هذا المنصب وهو: «ماذا يجب عليّ أن أفعل أولاً؟» عادةً ما تكون إجابتي على النحو التالي «عليكم بالاستماع». وبما أنها كانت ستستهل زيارتها للشرق الأوسط بالذهاب إلى المملكة العربية السعودية، فقد ارتأيت أن أمدها ببعض الدروس التي تعلمتها أثناء إقامتي في الرياض في حزيران عام 2003،

حين حللت ضيفاً على السفير الأمريكي بوب جوردان هناك، الذي رتب لي لقاء مع عدد من رجال الأعمال المعروفين، ومن ضمنهم بعض أصدقائي القدامى، حول مأدبة غداء أقيمت في السفارة الأمريكية، وقد ألقيت خطاباً في تلك المأدبة أردت من خلاله توضيح الآثار الكاملة لهجوم الحادي عشر من سبتمبر على العلاقات السعودية الأمريكية، وذلك بالتركيز على الأيام العصيبة التي عاشها الأمريكيون في تلك الفترة، ومشاعر الخوف والغضب التي انتابت الجميع، كما تطرقت للدعم الذي تلقاه العرب والأمريكيون المسلمون بعد خفوت ردود الفعل الغاضبة بعد الهجوم مباشرة، وفي نهاية خطابي أشرت إلى أن صورة المملكة السعودية قد تأثرت بدرجة كبيرة، لأن السعوديين لا يفعلون شيئاً في مقابل الحملات السلبية الموجهة ضدهم، وأخذت أحث الجمهور الحاضر من السعوديين الذين يعرفون أمريكا ويهمهم مستقبل العلاقات السعودية الأمريكية على فعل المزيد لتغيير تلك الصورة السلبية. وقد كانت ردود فعل الحاضرين مفاجئة لي وللسفير جوردان، حين قالوا إن أحداً من الإدارة الأمريكية لم يتحدث إليهم بهذه الطريقة سابقاً، وإن الإدارة الأمريكية عادة ما تتحدث إلى السعوديين لكنها لا تشركهم مطلقاً في هذا الحديث ولا تستمع إليهم[1]. وبناءً على ذلك كانت نصيحتي الأولى لهوغيز هي أن تستمع إلى هؤلاء الناس وتشركهم في الحديث وتطرح عليهم الأسئلة لمنحهم الشعور بأهمية ما يقولونه. بالإضافة إلى ذلك، فقد أوضحت لهوغيز أن من أهم المواضيع التي كانت مطروحة للنقاش في مأدبة الغداء تلك، كان موضوع الحصول على التأشيرات الأمريكية، إذ إن معظم الحاضرين كانوا ممن درسوا في الولايات المتحدة ولهم علاقات شراكة قوية في مجال الأعمال مع شركاء أمريكيين، وبعضهم الآخر لهم أبناء يدرسون في المدارس والجامعات الأمريكية، غير أنهم جميعاً يواجهون صعوبات في الحصول على التأشيرة الأمريكية وهو أمر يقلقهم جداً، لذلك فقد أشرت على هوغيز بأن تحاول زيارة السفارة الأمريكية في الرياض لتتحدث إلى الجمهور الذي يقدم الطلبات كي

(1) James Zogby, personal notes from trip to Riyadh, Saudi Arabia, June 10, 2003.

يحصل على تأشيرات السفر للولايات المتحدة، وتقوم بمناقشته في المصاعب التي يواجهها في السفارة والأسباب التي يقدمها الراغبون في زيارة الولايات المتحدة، لأن هذه الجهود المبذولة ستؤتي ثمارها في فتح أبواب جديدة أمام المزيد من التفاهم بين الطرفين الأمريكي والسعودي.

يبدو أن نصيحتي لم تكن سهلة التطبيق كما كنت أعتقد، فما إن بدأت هوغيز جولتها في العالم العربي والإسلامي حتى أخذت في إلقاء المحاضرات في معظم الأماكن التي زارتها والتجمعات التي دُعيت إليها. وفي محاضرة ألقتها أمام تجمع نسائي من الطالبات في إحدى الكليات في مدينة جدة، أعربت هوغيز عن رغبتها في أن تكون مشاركة النساء في المجتمع فاعلة وحقيقية[1]، وشددت على موضوع قيادة المرأة للسيارة، وهو موضوع لا يشكل أولوية بالنسبة إلى المرأة السعودية، وهكذا لم تلق ملاحظات هوغيز الاهتمام والحماس الكافيين، كما اعتبرت النساء الحاضرات أن هوغيز تعقد مقارنة غير عادلة بين دور المرأة السعودية في مجتمعها ودور المرأة في المجتمع الأمريكي، فقد قالت إحدى المشاركات العربيات في اللقاء: «إن النمط العام الذي يرسمه الغرب عن المرأة العربية بأنها امرأة مضطهدة وغير سعيدة هو نمط غير صحيح، فنحن هنا جميعاً سعيدات»[2]، وهكذا نعود ثانية إلى مفهوم أننا نتحدث إلى العرب، لكننا لا نتحدث معهم ولا نشركهم في الحوار، وهو الأمر الذي أدى إلى ترك انطباع أولي سلبي عن هوغيز رغم مواهبها السياسية الفذة.

لم تخل مسيرة هوغيز من بعض النقاط المضيئة خلال الفترة التي شغلت فيها منصب وكيل وزارة الخارجية للشؤون الخارجية والدبلوماسية، والتي تمثلت في جهودها لإعادة تنظيم المساعدات الأمريكية الممنوحة لمساندة الدبلوماسية في العالم العربي، إذ أطلعت هوغيز على نتائج استطلاع مؤسسة

---

(1) Steven R. Weisman, «Saudi Women Have Message for US. Envoy.» New York Times, September 28, 2005, http://www.nytimes.com/2005/09/28/international/middleeast/28hughes.html.

زغبي الدولية حول المساعدات الأمريكية، وهي تشير إلى أن الولايات المتحدة تركز مساعداتها في المجالات التي لا يحتاج فيها العرب إلى المساعدة، في حين لا ترسل ما يكفي من المساعدات في المجالات التي يقول العرب إنهم بحاجة فعلية للمساعدة فيها مثل التعليم والقطاع الصحي وتوفير فرص العمل الجديدة، ويبدو أن هوغيز أخذت تلك المعلومات بعين الاعتبار. وما رأيناه من توجيه للمساعدات نحو المجالات التي يطلبها العرب خلال الفترة الرئاسية الثانية لبوش ليس إلا دليلاً على ذلك، غير أن تلك الخطوة المهمة على الطريق الصحيح سرعان ما فقدت أهميتها في خضم الفخر المزيف للسياسة الأمريكية بإنجازاتها، الذي سيطر على علاقاتها مع العالم العربي.

لقد تحدثت مع هوغيز للمرة الأخيرة في الأسبوع ذاته الذي تنحت فيه عن منصبها في وزارة الخارجية، وقد التقينا في فندق هاي آدمز مقابل البيت الأبيض بعد أن قرأت لها مقالاً في صحيفة واشنطن بوست تتباهى فيه بانتصار الولايات المتحدة في العالم الإسلامي، عقب أن أظهرت استطلاعات الرأي تضاؤل شعبية القاعدة في أفغانستان والعراق بنسبة 90٪[1].

لقد حذرت هوغيز في ذلك اللقاء من مغبة التسرع في إعلان انتصار الولايات المتحدة، إذ إن القراءة المتفحصة لنتائج هذا الاستطلاع، التي تشير إلى تراجع شعبية القاعدة، لا تعني بالضرورة انتصار الولايات المتحدة فهما أمران مختلفان تماماً[2].

لماذا لا يمكن أن ندعو ذلك انتصاراً للولايات المتحدة؟ في هذا الجزء من الكتاب نلقي الضوء على خمس مناطق مختلفة تخصُّ الشرق الأوسط هي العراق ولبنان والمملكة العربية السعودية وفلسطين، بالإضافة إلى موضوع شائك آخر هو أوضاع العرب الأمريكيين، وذلك من أجل توضيح العوامل التي هددت العرب والمصالح الأمريكية على حد سواء في العقود الماضية،

---

(1) Karen P. Hughes, «Sinking in the Polls,» Washington Post, September 17, 2007

(2) Zogby International, Five-Nation Survey of the Middle East, November 11 -21, 2006. Sample size: 3,500 adults.

وسنبدأ عرضنا هذا بالعراق.

لا يستطيع أحد أن ينكر أن موقف الولايات المتحدة في العراق كان صعباً للغاية بحلول عام 2006، وخلافاً للصور البطولية التي كان يروجها الإعلام الأمريكي للجنود وهم يتلقون الترحيب والتهليل من قبل المواطنين العراقيين، جوبه الجنود الأمريكيون بمقاومة عنيفة ومسلحة. أما الحرب التي كان يعتقد الأمريكيون أنها ستكون سريعة وسهلة، فقد اتضح أنها استنفدت مليارات الدولارات، وقضت على أرواح 3000 جندي، بالإضافة إلى أرواح آلاف المدنيين العراقيين، وبمواجهة هذا التناقض الصارخ بين وعود دعاة الحرب والحقائق والأرقام التي أخذت ترد من واقع المعركة، أمر الكونغرس بمراجعة كاملة للموضوع برمته. وهكذا، تشكلت لجنة خاصة تدعى لجنة الشريط الأزرق لتقصي الحقائق في العراق (ISG) لمراجعة الجهود الأمريكية خلال الحرب وتقديم توصيات مستقبلية، وقد رأس هذه اللجنة اثنان من أهم رجال الدولة في الولايات المتحدة وهما وزير الخارجية السابق جيمس بيكر والرئيس السابق للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب لي هاملتون، وفي النهاية أصدرت لجنة (ISG) تقريراً شاملاً وموسعاً حول إخفاق السياسة الأمريكية في العالم العربي، وقدمت توصيات مفصلة تستند على مقابلات وحوارات تم إجراؤها مع زعماء ومحللين سياسيين من جميع أنحاء العالم[1].

وعلى الرغم من الجهود التي بُذلت في وضع تقرير لجنة ISG، فإن نتائج هذا التقرير لم تكن مفاجئة لأحد، بل على العكس، إذ أظهرت نتائج التقرير الصورة الحقيقية للسياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط عموماً لا في العراق وحدها، وكان معظم تلك النتائج يدعم نظرية واحدة، ألا وهي أننا كنا ندفع ثمناً باهظاً لتدخلنا في منطقة لا نعرف عنها إلا النزر القليل. ومن

(1) James A. Baker III, Lee H. Hamilton, Lawrence S. Eagleburger, Vernon E. Jordan Jr., Edwin Meese III, Sandra Day O'Connor, Leon E, Panetta, William J. Perry, Charles S. Robb, and Alan K. Simpson, The Iraq Study Group Report, Washington, DC, December 2006.

هذا المنطلق فإن الفجوة بين التحرير الموعود والاحتلال الموجود كانت تصب في موضوع الخليج، الذي طالما كان الحد الفاصل بين الأمريكيين والعالم العربي، غير أن هذه المرة كانت المسألة مكلفة جداً بوجود 150,000 من الجنود الأمريكيين في مناطق الخطر، بالإضافة إلى مليارات الدولارات التي أنفقت والخسائر الكبيرة في الأرواح وتعرض سمعة الولايات المتحدة للتدهور. وبعد كل ذلك، فلا أحد يعلم على وجه الدقة كم من الوقت ستستغرق عملية إعادة بناء العراق في ظل الصراعات الموجودة فيها الآن، وهكذا فإن النموذج العراقي هو مثال واضح على تراكم عقود من الجهل في السياسة الأمريكية تجاه العالم العربي، سواءٌ كان هذا الجهل مقصوداً أو غير مقصود، وتلك النتائج التي أظهرها تقرير اللجنة كانت لطمةً لصناع القرار في السياسة الأمريكية، علَّهم يعيدون حساباتهم ليشرعوا في الاستفادة من الأخطاء السابقة، ولاسيما أن هذه النتائج جاءت على يدي خبراء السياسة الخارجية في الولايات المتحدة.

سادت حالة من الترقب والانتظار في الشهور التي سبقت إعلان نتائج التقرير، ومع ذلك فعندما ظهرت نتائج التقرير وتوصياته إلى العلن تم تجاهلها بصورة كبيرة، وفي النهاية تلاعب الكونغرس بتلك النتائج، واختارت إدارة الرئيس بوش ما يناسبها منه متجاهلة الباقي، لكن دفن الحقائق لا يعني بالضرورة قتلها والخلاص منها.

خلال الاستعداد للحملة العسكرية على العراق، كان الناطقون باسم البيت الأبيض يتحدثون عن عملية شاملة وسريعة، لن تكلف الولايات المتحدة أكثر من ملياري دولار على الأكثر، وأن النفط العراقي سيتكفل بتمويل الباقي، كما صُوِّر هؤلاء الجنود الأمريكيون بأنهم سيحملون مشاعل الحرية إلى العراق، وسيعاملون معاملة الأبطال، وأن الديمقراطية التي ستنشأ في العراق ستصبح منارة تهتدي بها كل دول الشرق الأوسط فيما بعد[1]، وقد روجت وسائل

(1) For example: «I believe demolishing Hussein's military power and liberating Iraq would be a cakewatk» in Ken Adelman, «Cakewalk in Iraq,» Washington Post, February 13, 200.2, A27; «My own judgment based on my time as secretary of

الإعلام تلك الادعاءات بكثافة، ساخرة من تهديدات الرئيس العراقي السابق صدام حسين بأن معركته مع الأمريكيين ستكون أم المعارك. ومن أمثلة الترويج الإعلامي قبل الغزو الأمريكي مباشرة نجد بيل أوريلي وهو من أشهر الإعلاميين في قناة فوكس الإخبارية يقول: «إن العمليات العسكرية لن تدوم أكثر من أسبوع»[1]، أما بيل كريستول وهو محلل ومراقب شهير ومحرر جريدة ويكلي ستاندرد، فعزف على تلك النغمة المضللة بقوله: «إن القلق المتزايد من عدم اتفاق الشيعة والسنة في العراق هو قلق لا أساس له من الصحة»[2]، وفي النهاية يسهم فريد بارنز وهو أحد الإعلاميين في قناة فوكس الإخبارية في هذه الحرب الإعلامية بقوله: «الحرب هي الجزء الأصعب في القضية، وبعدها يهون كل شيء، نعم إن تأسيس الديمقراطيات عمل صعب، لكنه ليس أصعب من كسب الحرب»[3].

وبينما كانت واشنطن تعد عدتها للحرب، كُنْتُ بعيداً عن تلك الأجواء في جنوب البلاد، حيث عملت محاضراً في جامعة نورث كارولينا ديفيدسون، وكنت أراقب ما يجري من موقعي الهادئ في حرم الجامعة بعيداً عن صخب الإعلام والتعبئة التي تقوم بها الإدارة الأمريكية، لذلك فقد كانت كل تلك الأحداث تبدو لي سريالية نوعاً ما، وبدلاً من أن ألقي بنفسي في هذا التيار الصاخب، أخذت أعيد ترتيب الأمور بالعودة إلى التاريخ العربي، وإعادة وضع الأحداث التي تجري الآن في الشرق الأوسط في إطارها التاريخي الواسع.

قد يغفل المرء أهمية التاريخ عندما يكون غارقاً في أحداث الحاضر

Defense, and having operated in this area in the past, I'm confident that our troops will be successful, and T think it'll go relatively quickly... Weeks rather than months,» from Dick Cheney, interview by Bob Schieffer, Face the Nation, CBS, March 16, 2003; «We are talking about a country that can really finance its own reconstruction and relatively soon,» from Paul Wolfowitz, testifying before the defense subcommittee of the House Appropriations Committee, March 27, 2003.

(1) Bill O'Reilly, The O'Reilly Factor, Fox News Channel, January 29, 2003,

(2) Bill Kristol, interview by Terry Gross, Fresh Air, NPR, April 1, 2003.

(3) Fred Barnes, Fox News Channel, April 10, 2003.

المتلاحقة، وهي حقيقة تواجهني دائماً كلما تصفحت إحدى الجرائد أو حاولت الاستماع إلى نشرة الأخبار، إذ ألاحظ أن معظم المراسلين والمعلقين السياسيين يعتقدون أن التاريخ يبدأ في اللحظة التي يتلقون فيها الخبر، غير أن جهلهم بتاريخ الشرق الأوسط وثقافته يعزلهم عن السياق العام للأحداث التي يحاولون تغطيتها، ويجعلهم فريسة سهلة للإعلام الأمريكي والروايات الأمريكية الرسمية للأحداث، وهكذا تفقد معظم التغطيات الإعلامية للحرب على العراق سياقها الحقيقي، حاجبة بذلك الصورة الحقيقية لهذه الحرب عن المواطن الأمريكي المتلهف للأخبار، في وقت تجري فيه نقاشات مهمة قد تحدد حياة مواطنين أمريكيين آخرين في بلاد بعيدة أو موتهم.

لم يكن لأحد بالطبع أن يتوقع نتائج دخول الولايات المتحدة مع حلفائها إلى العراق بالتحديد، غير أن محاولة توظيف المنظور التاريخي المحلي للأحداث كان سيسمح لنا برؤية أفضل للكارثة التي نتجت عن هذا التدخل، بل إن المنظور التاريخي كان سيوفر لنا إشارات تحذيرية كافية قبل صدور تقرير العراق بثلاث سنوات على الأقل.

عندما علق أوريلي على الحرب، وصرح بأنها لن تستغرق أكثر من أسبوع، كان في الواقع يتجاهل الفرق بين الأهداف العسكرية السريعة المرسومة سلفاً، واحتلال أمة بكاملها، وهو فرق واضح ومعروف في التاريخ العسكري، وها نحن وبعد ثلاث سنوات من الحرب ماتزال العمليات العسكرية الأمريكية في أوجها والخسائر في الأرواح تتراكم لدى الطرفين.

أما تجاهل كريستول للشروخ الطائفية في العراق، فينم عن جهل عميق بتاريخ العراق الحديث إذ تسيطر الطائفة السنية التي برز منها صدام حسين وهي أقلية في العراق على الغالبية الشيعية لسكان هذا البلد، أما الآن وبعد مرور ثلاث سنوات فقد أصبح الأمريكيون يعرفون ما هو المثلث السني في العراق، فضلاً عن الميليشيات الشيعية التي تكاد تسوق العراق إلى هاوية الحرب الأهلية، كما برزت أصوات تدعو إلى تقسيم العراق جغرافياً حسب الطوائف

والأعراق المختلفة الموجودة فيه. وأخيراً نعلق على تصريح بارنز، الذي مفاده أن بناء الديمقراطيات أسهل بكثير من الحرب، بأنه يتجاهل التاريخ الاستعماري الطويل في منطقة الشرق الأوسط، كما أنه يتجاهل أيضاً التاريخ الحديث للحزب الديمقراطي ذاته، فقد كان هناك جدل عنيف في فترة التسعينيات داخل الحزب الديمقراطي لمحاربة الجهود المنصبة في بناء الأمم، لأنها مهمة صعبة وشاقة ومكلفة وتتطلب على الأقل معرفة كافية بهذه الأمم المراد بناؤها، والآن وبعد ثلاث سنوات من الحرب لا يطمح معظم الأمريكيين إلا في بناء دولة مسالمة وشبه فاعلة في العراق، ولا يتطرقون أبداً إلى وجود ديمقراطية على الطراز الغربي.

لم تكن تلك الادعاءات الثلاثة هي المسؤولة بالطبع عن فوضى الاحتلال الذي تورطت فيه الولايات المتحدة، لكنها مع ذلك تمثل نموذجاً للبيئة الإعلامية التي خرج منها ثوار الحرب، أما حقيقة ما كان يجري بكل بساطة، فهو أن معظم الأمريكيين أيدوا الحرب على العراق وهم لا يعرفون شيئاً تقريباً عن ذلك البلد.

أطلقت مجلة ناشيونال جيوغرافيك في مارس عام 2003 نتائج استطلاع قامت بإعداده حول المعلومات العامة لدى الشباب الأمريكي، ومن بين نتائج هذا الاستطلاع نجد ما يلي:

استطاع 13٪ فقط من الشباب الأمريكي من الفئة العمرية ما بين 18–34 (وهي الفئة العمرية ذاتها التي ينتمي إليها الجنود الذين يحاربون خارج الولايات المتحدة) تحديد موقع العراق على الخريطة[1]، وهذا الجهل بالمعلومات الأساسية هو بالضبط ما أتاح الفرصة لدعاة الحرب وأصحاب المصالح فيها ليظهروا بمظهر الخبراء الذين يقدمون المعلومات الصحيحة أمام عدسات

(1) National Geographic- Roper, 2002 Global Geographic Literacy Survey, prepared by RoperASW for National Geographic Education Foundation, November 2002, http://www.natianalgeographic.com/ geosurvey2002/download/RoperSurvey.pdf. Sample size: 800 young adults ages 18-34 in the United States.

المصورين، وبدلاً من تقديم الحقائق والمعلومات الموثقة للجمهور لمساعدته في تكوين رأي حر ومستقل، كان هؤلاء مجرد أبواق للآلة الإعلامية في البيت الأبيض والبنتاغون تعيد تصوير العراق الذي لا يعرف عنه معظم الأمريكيين شيئاً، وتسهم في خلق معرفة مضللة وغير حقيقية.

أدى انغماس تلك الأصوات الإعلامية في حمى الحرب، بالإضافة إلى سلبية الكونغرس ونشاط وكالات الاستخبارات المحموم، إلى انزلاق الولايات المتحدة أكثر فأكثر إلى مستنقعها دون التوقف لحظة للتفكر فيما ينتظرنا في العراق.

وقد حاولت في تلك الفترة أن أدعو إلى نقاش مفتوح حول مدى حكمة التدخل في العراق، وأعلنت مع عضو الكونغرس جيسي جاكسون جي آر في فبراير 2003 عن نيتنا تقديم مقترح للكونغرس يدعو الرئيس بوش لمواصلة المساعي الدبلوماسية لنزع السلاح من العراق، وتقديم توضيحات للشعب الأمريكي والكونغرس حول أهداف التدخل في العراق، والكلفة المتوقعة له، والمدة الزمنية التي قد يستغرقها، والاستمرار في التعاون مع الأمم المتحدة والعمل من خلالها إذا لزم الأمر لحل الأزمة الموجودة في العراق[1].

كما نشرت مقالاً بعنوان «أسئلة بلا إجابات» في جريدة بالتيمور صن[2]، وكنت أعرف من اتصالاتي السابقة مع الحزب الديمقراطي بالإضافة إلى نتائج الاستطلاعات أن الغالبية العظمى (68٪) تعارض دخول الولايات المتحدة في حرب على العراق[3].

(1) Rep. Jesse Jackson Jr. and James Zogby, A resolution of the Democratic National Committee supporting and honoring the men and women who serve in our Armed Forces, opposing a pre-emptive US.-led military action against Iraq, and urging President Bush to sustain diplomatic efforts to resolve the United States' issues with Iraq,» introduced February 21, 2003, http://archive.democrats.com/view.cfm?id=12226.

(2) James J. Zogby, «Unanswered Questions,» Baltimore Sun, February 20, 2003.

(3) Zogby International, America Poll, March 14-15, 2003. Sample size: 1,129 US. voters.

لقد شعرت مع جاكسون بالحاجة الماسة إلى فتح باب النقاش على المستوى الوطني في هذه المرحلة الحرجة، غير أن قيادة الحزب لم تكن تشاركنا هذا الشعور، إذ سُمح لي بتقديم مقترحي خلال اجتماع اللجنة التنفيذية، لكن الاقتراح لم يطرح للنقاش أو التصويت.

حاولت من موقعي في كلية دافيدسون أن أبذل بعض الجهود لاختراق الضباب الذي كان يلف البلاد في المرحلة التي سبقت الحرب، وقد ساعدني تلفزيون أبوظبي في إقامة حوار مباشر مع مجموعة من طلابي ومجموعة من زملائهم في بغداد، وفي الثاني عشر من مارس عام 2003، وقبل أيام من بداية القصف على مدينة بغداد، وعندما ظهرت صورة الطلاب العراقيين على شاشة ضخمة في بهو اتحاد طلبة كلية دافيدسون، خيم صمت رهيب على القاعة فقد كان موقفاً حزيناً جداً، وعلق أحد طلابي قائلاً: إن هذا أمر صعب للغاية، أن ترى وجوه هؤلاء الطلاب وتتحدث إليهم وأنت تعلم أنهم سيقصفون قريباً [1].

ناقش الطلاب قرار الدخول في الحرب، وقد عبر طلاب دافيدسون عن نقدهم لسياسة بوش وإدارته للأزمة، غير أن الطلاب العراقيين لم يستطيعوا بالطبع توجيه أي نقد لحكومتهم أو رئيسهم، وعندما سألت طلابي إذ ما كانوا يعتقدون أن الطلاب العراقيين مخلصون فعلاً في ولائهم ومساندتهم لحكومتهم والرئيس حسين، كانت إجاباتهم بالنفي في معظمهم. وفي تعليق لإحدى الشابات العراقيات المشاركات في النقاش قالت: «نعم نحن نريد التغيير في الحكومة، لكننا لا نملك الآن إلا أن ننظر إلى أمر واحد فقط وهو وقف الحرب، ومحاولة العيش ضمن الحصار المفروض علينا، وهو ما حدث معكم بالضبط بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ألم تدعموا حكومتكم بالكامل في ذلك الوقت، ألم تضعوا جانباً كل نقد مهما كان، لأنه يتضاءل أمام هول الكارثة؟

(1) James Zogby, personal notes from a conversation with Davidson student, March 12, 2003.

نحن الآن في كارثة، وهذا ما يحدث عندنا بالضبط»[1].

لاحقاً، علقت طالبة أخرى من بغداد على ما اعتبرته نكتة لا أكثر، حين قيل إن العراقيين سيستقبلون الجنود الأمريكيين بالزهور، وحذرت من أن العراقيين سيحاربون أي أمريكي يحاول دخول العراق[2]. وعموماً لم يُظهر هؤلاء الطلاب أي ترحيب بالجنود الأمريكيين مع أنهم لم يكونوا من البعثيين أو المعادين لأمريكا، بل كانوا طلاباً عاديين وقد زار بعضهم الولايات المتحدة من قبل، لكنهم كانوا جميعاً يريدون حماية بلادهم من الحرب، وهم ينظرون إلى الأمريكيين كغزاة ومحتلين.

بعد ذلك اللقاء التلفزيوني بشهرين وبعد أن قامت القوات الأمريكية بقصف بغداد قصفاً مكثفاً، حاولت أنا وطلابي وبالتعاون مع تلفزيون أبوظبي مرة أخرى العودة إلى ذلك اللقاء مع طلاب جامعة بغداد، الذين غاب معظمهم عن اللقاء بسبب الأوضاع الخطيرة في بلادهم، وبالطبع عبر الطلاب العراقيون على الفور عن غضبهم تجاه التدخل الأمريكي في بلادهم مع أن بعضهم عبَّر عن ارتياحه للإطاحة بنظام صدام حسين، وعندما حاولنا سؤالهم كيف ينظرون إلى الحملة الأمريكية على العراق، وهل يرونها حملة تحرير أم احتلال، أجاب 90٪ منهم بأنهم ينظرون إلى القوات الأمريكية على أنها قوات احتلال.

أما السبب الرئيسي لغضب هؤلاء العراقيين وحنقهم فقد كان الدمار الذي لحق ببلادهم جراء القصف الأمريكي، وعمليات السلب والنهب التي تعم البلاد والتي يعتقد بعضهم أن الجيش الأمريكي يشجعها أو على الأقل يغض الطرف عن مرتكبيها. كما أنهم يشتكون من غياب الأمن وانعدام الخدمات الأساسية والحيوية مثل الماء والكهرباء، بالإضافة إلى تدمير البنية التحتية لمدينة بغداد التي تسبب بها القصف. ومن أهم الحجج التي قدمها هؤلاء الطلاب، وعبرت عن انعدام ثقتهم بالخطط الأمريكية، تساؤلاتهم حول النوايا الأمريكية في العراق، إذ كانوا يتساءلون: إن كان الأمريكيون يسعون فعلاً إلى تحريرنا،

---

(1) Viewpoint with James Zogby, Abu Dhabi TV, March 12, 2003.

(2) المرجع السابق

فلماذا لم يخططوا لمرحلة ما بعد الحرب كما خططوا للحرب ذاتها؟ ولماذا قاموا بتأمين منابع النفط وحمايتها ولم يحاولوا حماية المتاجف التي نُهبت والمستشفيات التي دُمرت؟ ولماذا، وبعد مرور كل ذلك الوقت، مانزال نعاني من انقطاع التيار الكهربائي؟[1] وعندما حاول أحد طلاب كلية دايفيدسون تذكير الطلاب العراقيين بأنهم الآن أحرار ويستطيعون قول ما يريدون، أجابه طالب عراقي: ومن قال إننا لم نكن كذلك من قبل؟ في المقابلة الماضية كنا نتحدث والبوليس السري يستمع إلى ما نقوله، أما الآن فلا أحد يستمع إلينا[2]. لقد أصبح العراقيون الآن أحراراً لينتقدوا لا النظام المخلوع فحسب، وإنما محرريهم المزعومين أيضاً.

لقد حضرت هذا اللقاء إحدى المسؤولات في جهاز CIA، ووجهت بعض الأسئلة إلى الحاضرين، وفي ختام الحوار أسرت لي جانباً بأنها تتمنى لو كان المسؤولون في واشنطن يستمعون إلى الحوار، فهناك الكثير ليتعلموه منه[3].

لسوء الحظ لم يشاهد أحد من المسؤولين في واشنطن هذا الحوار، وحتى لو شاهدوه فلم يكونوا ليعيروه اهتماماً، فهم لا يستمعون إلى ما يقوله شعب العراق، ولو كانوا يستمعون لتوصلوا إلى فهم المشاكل الكثيرة التي تجابهها القوات الأمريكية في ذلك البلد، والمقاومة العنيفة التي تواجهها. ولو كان هناك محللون موضوعيون لتوصلوا إلى نتيجة مهمة مفادها أن الأمريكيين لم يدخلوا الأراضي العراقية فقط، وإنما دخلوا تاريخها الذي يجهلون معظمه، وسواءٌ شئنا أم أبينا فقد أصبح للولايات المتحدة الآن دور أساسي في مستقبل العراق، فقد أصبحنا نحن النظام الجديد بعد أن أطحنا بالنظام القديم، وسيحاكمنا الناس هناك على ذلك الأساس.

يوفر التاريخ سياقاً وإطاراً للمستقبل بالتأكيد، ففي فترة الحرب الباردة على سبيل المثال، كان كثير من الأمريكيين يعرفون أن الاتحاد السوفيتي لا بد

(1) Viewpoint with James Zogby, Abu Dhabi TV, May 8, 2003.

(2) المرجع السابق.

(3) James Zogby, personal notes of postshow conversation, May 8, 2003.

أن يحاول السيطرة على أوروبا الشرقية، إذ كانت تلك المنطقة مصدر تهديد لروسيا عبر التاريخ، ولم يقبل الغرب باحتلال السوفييت لأوروبا الشرقية، وقد كان على حق لأن تلك الدول دفعت ثمناً باهظاً تحت ذلك الاحتلال. لقد كانت الولايات المتحدة تفهم الديناميكية التاريخية في ذلك الوقت، أما ما يحدث الآن من تدخل في منطقة لا نعرف شيئاً عن ماضيها فهو أمر شديد الخطورة.

بعد أن تحدث طلابي مع أولئك المواطنين العراقيين لمدة ساعتين، بدأوا يفهمون القوة التي يوفرها السياق التاريخي، لذلك أخذوا يستوعبون موقف العراقيين من القوات الأمريكية بطريقة أفضل من أولئك الجالسين في مكاتبهم في البيت الأبيض، فدون الاطلاع الواسع والمبني على الاستماع والتفهم للآخر لا بد أن ينشأ سوء فهم عميق للأحداث، ذلك أن الأمريكيين والعراقيين يمثلون واقعين مختلفين تماماً، وكلا الشعبين ينظر إلى الأحداث ويفهمها بطريقة مختلفة، وهذه النظرة المزدوجة هي بالضبط ما بدأ يقوض جهودنا في ذلك البلد عام 2003.

من وجهة النظر الأمريكية، كان تدمير تمثال صدام حسين الضخم واقتلاعه من مكانه نصراً عظيماً يذكرهم بسقوط الاتحاد السوفيتي قبل عقد من الزمن، لذلك فإن هؤلاء الجنود لا بد أن يُعاملوا معاملة الأبطال المحررين، أما بالنسبة إلى العراقيين فقد كان تدمير مدينة بغداد بالقنابل عملاً لا يُغتفر، فهي المدينة العريقة والعظيمة وحاضرة الخلافة الإسلامية في وقت من الأوقات، وقد أعاد تدميرها بهذه الصورة للأذهان الغزو المغولي للمدينة في القرن الثاني عشر حين نُهبت ودمرت مكتباتها الضخمة وأُلقيت كتبها في النهر، لذلك فإن العراقيين لم يستطيعوا أن يروا في الجنود الأمريكيين أبطالاً مُحررين، بل وجدوا فيهم جنوداً مغولاً يعودون من جديد.

ومما يثير الاهتمام في هذا السياق، أن العراقيين أخذوا يستخدمون تاريخنا الخاص لمصلحتهم في هذه الحرب، فقد بدأت المقاومة في العراق بصورة لم

يتوقعها الأمريكيون، ولم تستطع وسائل إعلامنا تفسيرها ولم يعرف الجنود ماذا يفعلون. فهل هي فيتنام أخرى؟ نعم، لقد خاض الأمريكيون من قبل حرباً في الغابات الاستوائية في آسيا، واستعملوا قنابل النابالم وطائرات الهليوكبتر ضد المقاتلين الشيوعيين، وقد تبدو هذه حرباً مختلفة، لكن مع ذلك تبقى حرب فيتنام ندبة ظاهرة على وجه التاريخ الأمريكي، وتلك هي بالضبط قوة التاريخ، فمع أن هذه الحرب في العراق ليست فيتنام مطلقاً، لكننا ومع أول تمرد للعراقيين وظهور للميليشيات أخذنا نقارنها بحرب فيتنام، وبالتأكيد ماتزال هذه المقارنة قائمة حتى اليوم في حربنا ضد طالبان في جبال أفغانستان وودیانها.

لقد كان جهلنا بالعراق وتاريخه سبباً مباشراً لما حدث من فوضى بعد ذلك، وقد استغل السياسيون هذا الجهل في الإعداد للحرب وحشد الجماهير وراءهم. ويُلام في ذلك الإعلاميون أيضاً الذين صوروا الرئيس وكأنه أحد أبطال الأكشن في حربه على العراق، إذ يعلق لو دوبس من قناة سي. إن. إن. CNN قائلاً «يبدو الرئيس وكأنه قائد عسكري أو نجم سينمائي وهو بين رجاله»[1]، وفي اليوم التالي يصف لنا غوين أيفل المشهد من قناة بي. بي. إس. PBS بقوله «لقد هدأت رياح الحرب، لتبدأ حمى السياسة، هنا يظهر الرئيس على ظهر حاملة الطائرات وكأنه الرجل العنكبوت أو توم كروز أو رونالد ريغان عابراً المحيط الهادئ»[2].

ما إن خفتت العمليات العسكرية قليلاً حتى برز عامل الجهل بالمنطقة بصورة واضحة، وما كنا نظن أنها معلومات هامشية وليس لها أهمية اتضح لنا أنها حيوية جداً حين أخذت تؤثر في فاعليتنا ونحن نتعامل مع الوضع القائم بعد الحرب، أما الأسوأ من ذلك فقد كان النقص الشديد في المهارات العملية اللازمة لتسيير الحياة اليومية للجنود والإداريين الأمريكيين، إذ لم يكن بين الجنود إلا عدد قليل ممن يعرفون اللغة العربية على سبيل المثال، وكذلك الحال بالنسبة إلى أعضاء السفارة الأمريكية هناك، الذين بلغ عددهم زهاء الألف،

(1) Lou Dobbs, Moneyline, CNN, May 1, 2003.

(2) Gwen Ifill, Washington Week, PBS, May 2, 2003.

وظهرت الحاجة ملحة لتوفير أمريكيين يتكلمون العربية لتحسين التواصل بين الأمريكيين وأبناء هذا الشعب الذي تسيّر القوات الأمريكية شؤون بلاده[1]. وهكذا، أصبحت الإدارة الأمريكية في العراق محاصرة في المنطقة الخضراء فقط، وبافتقارها إلى من يتكلمون اللغة العربية ظهر حاجز آخر بينها وبين حقيقة ما يجري على أرض الواقع في العراق.

لقد ظهر في تقرير اللجنة أن الولايات المتحدة أنفقت المليارات في العراق عام 2006، غير أن هذا الإنفاق لم يشمل أبداً محاولات فهم العمليات الانتحارية أو الكمائن المفخخة التي يزرعها العراقيون على جنبات الطرق، والتي أودت بحياة عدد كبير من الجنود الأمريكيين[2]، لأن المعرفة بالتاريخ والثقافة في العراق بالإضافة إلى اللغة العربية كانت شبه معدومة، إذ لم يكن هناك من يعرف العربية إلا في عدد قليل جداً من وحدات الجيش الأمريكي في العراق، ولم يكن ذلك كافياً لقراءة وثائق بالعربية، أو حتى معرفة ما يقوله الناس في الشارع.

عندما أطّلع على مثل هذه التقارير، لا أملك إلا أن أتذكر الجهود التي بُذلت لإغلاق أكاديمية خليل جبران العالمية في نيويورك، وتحضرني كذلك ضآلة عدد الطلاب الأمريكيين الذين يتخصصون في اللغة العربية في الجامعات الأمريكية. إن هذا العداء تجاه اللغة العربية، أو على الأقل هذا الإهمال، هو ما أدى إلى ندرة وجود متحدثين بها يساعدون الدبلوماسية الأمريكية والجيش الأمريكي أثناء وجودهما في العالم العربي؛ إنها سنوات الإهمال في حق الثقافة العربية واللغة العربية، بالإضافة إلى محاولات إحباط تعليمها، ما أدى إلى ظهور هذا النقص في استعداد القوات الأمريكية للانخراط في منطقة كتلك.

لو كان هناك فهم أعمق لماضي العراق، لعرف الأمريكيون أن حرب العراق الطويلة مع إيران تمت بمساعدة عدد من الدول العربية ومساندتها، وهي التي كانت تخشى النفوذ الإيراني الشيعي في الخليج العربي، وبعد أن رحل صدام حسين على يدي الأمريكيين، زادت مخاوف هذه الدول من سيطرة إيران،

(1) Baker et al., Iraq Study Group.

(2) المرجع السابق

وتحول العراق إلى حليف قوي لها، لما فيه من أغلبية شيعية. لكن يبدو أن صناع القرار في واشنطن كانوا يتجاهلون هذه الحقيقة التاريخية، ومع أن الرئيس بوش كان قد عرَّف إيران قبل عام واحد من الحرب بأنها تقع ضمن محور الشر، فإن تلك كانت مجرد كلمات لا أكثر، فالعمليات العسكرية الأمريكية في العراق أدت في النهاية إلى زيادة النفوذ الإيراني في المنطقة.

يتلخص ما نعرفه الآن بالآتي: تشير استطلاعات الرأي إلى أن غالبية العرب والأمريكيين يريدون خروج القوات الأمريكية من العراق، لأن بقاءها يزيد من سوء الأوضاع بالنسبة إلى العراقيين[1]، وهذا الرأي ظلَّ قائماً حتى عام 2009 عندما استُطلع العرب حول أحوال العراقيين قبل الحرب وبعدها، إذ أجاب 6٪ فقط بأن أحوال العراقيين قد تحسنت بعد الحرب، في حين أجاب 72٪ بأن أحوال العراقيين كانت أفضل قبل الحرب[2]، كما وجدنا أيضاً عداءً تاريخياً في العالم العربي تجاه إيران والولايات المتحدة ودورهما في العراق، وفي الدول العربية الخمس التي أجريت فيها الاستطلاعات، كانت غالبية السكان تقف ضد الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في العراق وتليها إيران مباشرة.

جدول 10-1 دور الولايات المتحدة وإيران في العراق

الولايات المتحدة	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
إيجابي	15	21	3	31	25
سلبي	83	76	96	68	70

إيران	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
إيجابي	37	36	19	19	14
سلبي	56	59	73	78	71

(1) Anwar Sadat Chair for Peace and Development, 2009 Annual Arab Public Opinion Survey, April-May 2009. Survey conducted in Egypt, Jordan, Lebanon, Morocco, Saudi Arabia, and UAE. Sample size: 4,087 adults. Report includes numbers for 2008 and 2009 annual surveys.

(2) المرجع السابق

المصدر: زغبي الدولية، «بعد أربع سنوات». استطلاع في خمس دول، 26 فبراير – 10 مارس 2007. شملت العينة 3,400 بالغ، وتم تقريب النسب إلى أقرب عدد صحيح، كما لم تحسب الآراء غير الواثقة من الإجابة، ولذلك قد لا يصل مجموع النتائج إلى 100٪ في كل فئة.

غير أن هذه الرغبة في خروج الولايات المتحدة من العراق تزامنت مع مخاوف عديدة من الخروج المفاجئ لقوات التحالف من هذا البلد، مما يفسح المجال أمام التوغل الإيراني الذي قد يجر البلاد إلى حرب أهلية بين الطوائف الموجودة فيها، وهكذا يسهم في خلق حالة من عدم الاستقرار في المنطقة ككل، ويبدو ذلك واضحاً جداً في الجدول 10–2. [1]

جدول 10–2 المخاوف حول العراق

	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
احتلال دائم للعراق	38	15	47	23	16
تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق	12	16	14	16	8
التدخل الإيراني	10	10	5	20	16
حرب أهلية في العراق	39	57	33	39	53

المصدر: زغبي الدولية، «بعد أربع سنوات». استطلاع في خمس دول، 26 فبراير – 10 مارس 2007. شملت العينة 3,400 بالغ.

وصلتني نتائج هذا الاستطلاع في مايو 2007 في الوقت ذاته الذي وفرت لي فيه قناة أبوظبي فرصة جديدة لعقد حوار على الهواء بين طلاب كلية دافيدسون وطلاب جامعة بغداد، وخلال مدة التسعين دقيقة التي استغرقها بث الحوار عبر الأقمار الصناعية، كان طلاب دافيدسون مأخوذين بهول القصص التي يرويها

(1) المرجع السابق

الطلاب العراقيون حول تجربتهم بعد الحرب، وقد عبرت إحدى الشابات عن حالة الإحباط والتردد التي يعيشها العراقيون في بلادهم بقولها «نحن بحاجة إلى المساعدة، فلا تتركونا، ولكن عليكم أن تغادروا ما إن تنتهي المهمة»[1].

لقد سألت الطلاب الأمريكيين في بداية بث الحوار التلفزيوني عن رأيهم في بقاء القوات الأمريكية في العراق، فكانت إجابة معظمهم أن هذه القوات يجب أن تغادر العراق بأسرع ما يمكن، ثم كررت سؤالي ذاته بعد انتهاء الحوار، ففوجئت بتحول موقف معظم الطلاب الذين باتوا يعتقدون أن مسؤولية كبيرة تقع على عاتق القوات الأمريكية تجاه العراق، لذلك لا يمكن أن تغادر العراق الآن، وبعد انتهاء مدة البرنامج، تقدم إليّ أحد طلاب دافيدسون وقال لي بأسف شديد: «من المحبط والمؤسف أن الجدل السياسي الدائر الآن في الولايات المتحدة لا يعير اهتماماً لما سمعناه الآن، فالديمقراطيون يريدون الانسحاب من العراق فوراً، في حين يريد الجمهوريون البقاء والنصر في النهاية، غير أن أحداً من الفريقين لا يكترث لحاجات العراقيين أنفسهم»[2].

ورغم وجود مظاهر انشقاق وانقسام حادّين، ظهرت جلية في العراق خلال الانتخابات الوطنية عام 2010، فإن هناك أولويات كان يتفق عليها الجميع وعلى رأسها تحقيق الوحدة الوطنية كهدف أساس، يليه بعد ذلك تحسين فاعلية الاقتصاد وتوفير فرص العمل والإصلاحات السياسية والقضاء على الفساد[3]. ومن هنا نرى أن الاستماع إلى مطالب العراقيين وفهم حاجاتهم ومحاولة العمل معهم لتحقيق هذه الحاجات، هو طريق التقدم الوحيد المتسم بالمسؤولية.

تحدث السيناتور الأمريكي ترينت لوت عام 2006 بصراحة أمام وسائل الإعلام عن خيبته تجاه ما يجري في العراق قائلاً: «من الصعب على الأمريكيين جميعاً بمن فيهم أنا أن يفهموا موقف العراقيين، فنحن لا نفهم لماذا يقتل بعضهم بعضاً بسبب اختلافات

(1) Viewpoint with James Zogby, «Four Years Later,» Abu Dhabi TV, May 10, 2007.

(2) James Zogby, personal notes, May 10, 2007.

(3) Zogby International, Arab Update Poll, April 3-30, 2010. Sample size: 816 Iraqi adults.

العقيدة؟ ولماذا يكرهون الإسرائيليين وينكرون عليهم حقهم في الوجود؟ لماذا يقتل السنة الشيعة؟ وكيف يميزون واحدهم عن الآخر؟ بالنسبة إلي يبدو الجميع متشابهين»[1].

لا شك أن تصريح لوت هذا ينم عن جهل فظيع، والأفظع من ذلك أن هذا الرجل ليس مجرد عضو عادي في مجلس الشيوخ، لكنه عضو في لجنة الاستخبارات التابعة للمجلس، التي تتواصل مع الرئيس بوش مباشرة، وقد مر على الوجود الأمريكي في العراق ثلاث سنوات حين أدلى لوت بتصريحه للصحافة، ومع ذلك فقد بدا وكأنه لا يعرف شيئاً عن العراق وشعبها.

بدأ الأمريكيون يهتمون بالعراق بعد أن أصبحت أخبارها وجبة يومية في الإعلام، ومع ذلك فقد وجدنا من خلال استطلاعات الرأي الأخيرة أن معظم الأمريكيين مازالوا يفتقدون إلى الكثير من المعرفة حول هذا البلد، بل إنهم مازالوا يجهلون موقعه الجغرافي بالضبط (انظر الجدول 10–3) ومع أن المعلومات الجغرافية مهمة بالتأكيد، لكنها لا تعدو أن تكون بوابة لفهم أوسع وأشمل، فالتاريخ يخلق السياق اللازم، والتواصل يسمح لنا بالتعرف إلى ما نجهله، وكل ذلك لم يكن متوافراً لدينا قبل تورطنا في العراق، ولذلك فقد كان من ضمن توصيات اللجنة إنشاء فريق إقليمي يعمل على خلق إطار أمني مناسب لدعم جهود المصالحة الوطنية في العراق.

الجدول 10–3 قدرة الأمريكيين على تحديد مواقع الدول المجاورة للعراق.

الدول	قدرة الأمريكيين على تحديد الموقع
الكويت	47
السعودية	35
تركيا	29
الأردن	25
سوريا	23
باكستان	28

(1) Ted Barrett, «Lott: Bush Barely Mentioned Iraq in Meeting with Senate Republicans,» CNN, September 28, 2006.

- اختيرت باكستان مع أنها ليست من الدول المجاورة للعراق.
- المصدر: زغبي الدولية، استفتاء الأمريكيين الذين لهم الحق في الانتخاب، 30 نوفمبر
- 8 ديسمبر عام 2008. شملت العينة 1,006 بالغين.

الآن ومع انسحاب جميع الحلفاء من العراق، وتطلع الأمريكيين لانسحاب قواتهم من هذا البلد مع نهاية عام 2011، يعود المنظور التاريخي ليطفو على السطح، ولعل صانعي القرار في واشنطن يتذكرون وهم يخططون لمستقبل العراق أن الدول المجاورة لهذا البلد لديها مخاوف مشروعة حول مستقبله، وأنها ستحاول بطريقة أو أخرى التدخل في العراق لحماية مصالحها الحيوية. فهناك دول مثل الكويت والسعودية تأثرت كثيراً في الماضي بسبب العراق، وخاضت إيران حرباً طويلة مع هذا البلد، أما تركيا وإيران وسوريا فتشترك مع العراق في المسألة الكردية، في حين تحملت سوريا والأردن عبء إيواء اللاجئين العراقيين في فترة الحرب، كما تعاني دول الخليج الأخرى من القلق بسبب عدم الاستقرار في العراق، الذي تخشى أن ينتقل إليها مع الوقت.

تتشابك كل هذه المخاوف وتتقاطع - في الواقع- مع تاريخ العراق والوجود الأمريكي في هذا البلد، وتضيف المزيد من التحديات أمام محاولات خروجنا من هذا الموقف الصعب الذي خلقناه بأيدينا.

خلال الحملات الانتخابية الرئاسية الأولى عام 2008، كان الديمقراطيون يميلون نحو انسحاب سريع من العراق، غير أن أوباما كان متفرداً في رأيه في ذلك الوقت، عندما صرح بأنه يفضل «انسحاباً مسؤولاً»، وليصبح الانسحاب من ذلك البلد مسؤولاً، فعلينا أن نفعل الكثير لتضميد جراح العراق التي خلفتها الانشقاقات الطائفية والعرقية، ولا بد أن نسارع إلى إيجاد «فريق التواصل» الذي أوصت به لجنة الكونغرس، ويشمل أعضاء من الدول المجاورة للعراق للعمل معاً وخلق إطار للأمن الإقليمي في المنطقة، إذ لم يفت الأوان بعد للاستماع وتعلم الدروس من التاريخ العراقي، وفي النهاية لن يبقى

النجاح أو الإخفاق في هذه المهمة مرهوناً بالتاريخ المحدد لخروج القوات الأمريكية من العراق، وإنما بمدى استفادة الأمريكيين مما تعلموه في العراق، والخيارات التي سيقدمونها بناءً على ذلك.

الفصل الحادي عشر

لبنان: نصف الحكاية

أودى انفجار مروع في 14 فبراير عام 2005 بحياة رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري وحياة واحد وعشرين شخصاً من مرافقيه، وخلال أيام تجمع آلاف اللبنانيين في وسط بيروت حداداً على الحريري، وللمطالبة بالسير على نهجه، وتنفيذ أهدافه التي رسمها قبل وفاته بما فيها إنهاء الوجود السوري في لبنان، وقد اتخذ هذا التجمع العفوي والغاضب فيما بعد عدة أسماء منها «ثورة الأرز» ثم «تجمع الرابع عشر من آذار»، وهو اليوم الذي شهد المظاهرات الحاشدة في وسط بيروت.

كانت تلك المظاهرات تعبيراً عن الحاجة لتقرير المصير، ولذلك فقد اعتبر المحافظون في الولايات المتحدة هذه المظاهرات دليلاً على نجاح أمريكا في نشر الديمقراطية في المنطقة. بعد ذلك الحادث بثلاثة أسابيع كنت ضيفاً في أحد البرامج الحوارية بعنوان «هارد بول» لمناقشة الأحداث في لبنان مع مضيفي كريس ماثيوز، وأحد المسؤولين السابقين في البنتاغون وهو كين أديلمان، وديفيد إغناثيوس من جريدة واشنطن بوست[1]. كان إغناثيوس قد عاد لتوه من لبنان، وبدا متحمساً جداً لثورة الأرز إيماناً منه بأن هذه الثورة ما هي إلا إحدى الدلائل على نجاح التدخل الأمريكي في العراق ومحاولات أمريكا لتقديم الديمقراطية في العالم العربي، وكان يقول: «هناك جيل جديد يظهر في كل مكان في الشرق الأوسط بمن فيهم اللبنانيين»[2].

وافقت تلك الفكرة هوى لدى الرئيس بوش، فقد كان يبحث عن إشارات مضيئة في الوضع الأمريكي الذي يزداد تعقيداً في العراق، وفي اليوم ذاته؛ أي في الثامن من آذار عام 2005، وبينما كان الرئيس بوش يلقي خطاباً في جامعة

(1) Hardball with Chris Matthews، MSNBC، March 8، 2005.

(2) المرجع السابق

الدفاع الوطني احتفاءً «بتقدم الحرية»، على حد تعبيره، بعد التأكيد على التقدم الذي تحرزه القوات الأمريكية في أفغانستان والعراق، جاء على ذكر الوضع في لبنان كدليل آخر على النصر الذي حققته الولايات المتحدة[1]، غير أنني أظن أن ما قاله الرئيس لم يكن صحيحاً.

لقد زرت الحريري أكثر من مرة خلال رحلاتي إلى لبنان، ووجدته رجلاً يملك رؤية والتزاماً نحو بلاده التي يحب، وقد ساءني الحادث الذي راح ضحيته إلى أبعد حد، وتعاطفت مع مطالب مؤيديه، وكنت أدعم مطالبهم بإنهاء الوجود السوري في لبنان، وتقديم الجناة في حادث الاغتيال للعدالة. ومع ذلك فأنا لا أعتقد أن تفسير المظاهرات التي سادت بيروت بعد مقتل الحريري يمكن أن يكون بهذه البساطة، ولاسيما في بلد بالغ التعقيد مثل لبنان.

في البداية، لم يكن الأرزيون القوة الوحيدة التي تنظم المسيرات والمظاهرات في بيروت، ففي مكتبي كنت أشاهد القنوات الأمريكية التي تهلل للديمقراطية القادمة في الشرق الأوسط، وفي الوقت ذاته أراقب قناة الجزيرة وهي تعرض مسيرات حاشدة أخرى في بيروت، غير أن هذه المسيرات كانت من تنظيم حزب الله الذي يصر على التمسك بسوريا، ويردد الهتافات المعادية لأمريكا. من الواضح طبعاً أن موت الحريري بهذه الصورة فجر أكثر من حراك في هذا البلد المعقد صاحب التاريخ المتوتر منذ وقت طويل.

أجرت زغبي الدولية استطلاعاً في الفترة ذاتها لرصد آراء اللبنانيين حول من يعتبرونه مسؤولاً عن اغتيال الحريري، وقد أظهر الاستطلاع انقساماً واضحاً في الآراء، إذ قال نصف المسيحيين المارونيين تقريباً أنهم يعتقدون أن المعارضة اللبنانية أو السلطات السورية لها يد في اغتيال الحريري. ومن بين الجماعة السنية التي ينتمي إليها الحريري بالإضافة إلى المسيحيين الأرثوذكس أجاب عدد متساو تقريباً من الأشخاص بأنهم يعتقدون أن المعارضة اللبنانية/وسوريا

(1) President George W. Bush, «President Discusses the War on Terror» (Speech to National Defense University, Washington, DC, March 8, 2005) http://georgewbush-whitehouse.gov/news/releases/ 2005/03/20050308-3.html.

والولايات المتحدة/وإسرائيل وراء جريمة اغتيال الحريري، في حين وجه 14٪ من شيعة لبنان أصابع الاتهام نحو سوريا، ولام أكثر من 70٪ منهم إسرائيل والولايات المتحدة على هذه الجريمة[1].

لقد كان استطلاعنا ونتائجه متاحة للجميع، غير أن أحداً من المشاركين في برنامج هارد بول تلك الليلة لم يعر اهتماماً على الإطلاق لحقيقة أن 40٪ من اللبنانيين على الأقل كانوا يوجهون الاتهام إلى أمريكا وإسرائيل في مقتل الحريري، وأن هذه الحقيقة تناقض تماماً المفهوم الذي يحاول بوش وإدارته ترويجه من أن اللبنانيين تأثروا بالنصر الذي حققته الولايات المتحدة على صدام حسين، ويريدون أن يتمثلوا الديمقراطية العراقية الجديدة.

في الواقع، لقد حاولت الولايات المتحدة احتواء الاضطرابات الحاصلة في لبنان، فضلاً عن إعادة تقديمها بصورة مختلفة تناسب الولايات المتحدة، وتتفق مع نظرتها للأمور في الشرق الأوسط. فالاسم الذي انتشر في الصحافة الغربية «ثورة الأرز» لم يكن الاسم الذي اختاره الوطنيون اللبنانيون لثورتهم، بل كان من اختيار باولا دوبرسكي؛ وكيل وزارة الخارجية للشؤون الدولية[2]، أما الحركة الاجتماعية فقد عُرفت في لبنان باسم «انتفاضة الاستقلال»، لكن الإدارة الأمريكية ارتأت أن هذا الاسم يذكر بالانتفاضة الفلسطينية، ويجب تجنبه واختيار اسم آخر يربط الحركة الاحتجاجية بأوروبا الشرقية مثلاً، حيث ظهرت حركات مطالبة بالديمقراطية، فكانت الثورة المخملية في جمهورية الشيك، وثورة البرتقال في أوكرانيا، غير أن هذه التسمية المنمقة للحركة الاحتجاجية في لبنان، أثبتت فشلها وبعدها عن الواقع، وما لم نصل إلى فهم فصول التاريخ اللبناني بكل تعقيداته سنبقى بعيدين عن فهم القصة الكاملة في لبنان.

(1) Zogby International/Information International (Z1/11). Hariri Poll, February 19-24, 2005. Sample size: 1.250 adults.

(2) Jefferson Morley, «The Branding of Lebanon's Revolution,» Washington Post, March 3, 2005.

يحظى لبنان بتنوع ديني لا مثيل له في العالم العربي، إذ يشكل المسلمون من السنة والشيعة كلّ على حدة 30٪ من نسبة السكان، ومعظم الباقي من المسيحيين، ومعظم هؤلاء المسيحيين من المارونيين، ولاحتواء الفروقات بين كل هذه الطوائف فإن النظام السياسي في لبنان يقوم على اقتسام السلطة في إطار نظام سياسي توافقي بدأ بعد الحرب العالمية الأولى والاحتلال الفرنسي للبنان، الذي فرض مناصب سياسية محددة تتقاسمها الطوائف الدينية اللبنانية، وهكذا قسمت المناصب على النحو التالي: يكون رئيس الجمهورية من الطائفة المارونية، في حين يتم اختيار رئيس الوزراء من الطائفة السنية المسلمة، ورئيس المجلس الوطني من الطائفة الشيعية، وتُمنح الطائفة الأرثوذكسية دوراً أقل في الحياة السياسية وكذلك الطائفة الدرزية.

نجحت هذه التوليفة تاريخياً إلى حد ما، وكان هناك نوع من التعايش السلمي بين هذه الطوائف جميعاً، غير أن التغير الديمغرافي الذي حدث في عدد السكان، وبخاصة تزايد أعداد الطائفة الشيعية مقابل الطائفة المارونية في لبنان، أدى إلى اختلال التوازن الذي كان قائماً عبر مطالبة الطائفة الشيعية بالمزيد من النفوذ السياسي بناءً على الزيادة السكانية. كما تزايدت الضغوطات الخارجية على البلاد بعد حرب عام 1948، التي أدت إلى هجرة مئات الآلاف من الفلسطينيين من بلادهم للاستقرار في مخيمات للاجئين في لبنان، مما أدى إلى تكوين شريحة سكانية جديدة أخذت بالازدياد مع مرور الوقت، بالإضافة إلى التدخل السوري وتوسع النفوذ الإيراني في البلاد. أدت كل هذه العوامل في النهاية إلى نشوب حرب أهلية عام 1975، دامت خمسة عشر عاماً، وانتهت بعد أن احتلت إسرائيل الجنوب اللبناني، وسيطرت سوريا سياسياً على بقية أنحاء البلاد بعد أن أسست لها وجوداً عسكرياً في لبنان.

لقد تجاهل المعلقون الأمريكيون أمثال إغناثيوس وأديلمان هذا التاريخ في أثناء محاولة فهمهم مجريات الأمور عام 2005، غير أنني كنت قد خبرت التغييرات على الساحة اللبنانية عن كثب خلال زياراتي للبنان عام 1978 وعام

1979، عندما كانت البلاد في أتون الحرب الأهلية.

في إحدى تلك الزيارات، التي حاولت من خلالها مقابلة مجموعة من المعتقلين الفلسطينيين الذين تم إطلاق سراحهم مؤخراً بعد أن تعرضوا لمختلف صنوف التعذيب في السجون الإسرائيلية، كنت أشعر بحالة التدهور التي وصلت إليها البلاد. وعندما حاولت أن أشرح لأقربائي اللبنانيين من الطائفة المارونية سبب زيارتي للمخيمات الفلسطينية، لم يستطع أحد منهم أن يتفهم ذلك. أما في المخيم الفلسطيني، فقد أُجبرت على تسليم جواز سفري إلى فتى فلسطيني في الرابعة عشرة تقريباً يحمل بندقية كلاشينكوف على كتفه، لم يعجبه اسمي المسيحي بالطبع، إذ كان هناك عرف سائد في ذلك الوقت بأن المسيحيين اللبنانيين لا يجب أن يتصلوا بأي شكل من الأشكال مع الفلسطينيين والعكس صحيح كذلك، أما كل الجهود التي كنت أبذلها في المخيمات الفلسطينية فكانت تلاقي بعض العبارات التي تعبر عن الاستحسان الضمني لا أكثر، ولذلك فقد بت أعتقد في تلك الفترة أن عملي خارج البلاد قد يعود بنفع أكبر.

لقد عاد رفيق الحريري إلى لبنان في فترة الحرب الأهلية كذلك، وقد وُلد لعائلة سنية متواضعة، وقد ارتقى بفضل عمله في مجال المقاولات في العربية السعودية ليصبح من أثرياء العالم، إذ كان المقاول المفضل لدى العائلة المالكة السعودية خلال فترة السبعينيات، التي شهدت تطوراً هائلاً في حركة الإعمار في السعودية وارتفاعاً كبيراً في أسعار البترول، غير أن الحريري فضل العودة إلى بلده لبنان، الذي كانت تمزقه الحرب في الثمانينيات، وأخذ ينفق من ثروته الخاصة على المؤسسات الخيرية والتعليمية الضخمة التي أسسها هناك، ليصبح وجود الحريري في لبنان إحدى النقاط المضيئة القليلة في وسط الظلمة الحالكة التي كانت البلاد تتخبط فيها.

عندما عدت إلى لبنان عام 1991، هالني كم الدمار الذي لحق بالعاصمة بيروت، ومع أن القصف الإسرائيلي والاجتياح للعاصمة عام 1982 كان سبباً

مباشراً للدمار، فإن اللبنانيين أنفسهم ساهموا في تخريب مدينتهم الجميلة، وهنا يحضرني ما قالته لي صديقة لبنانية وهي طبيبة من بيروت في ذلك الوقت، إذ قالت لي: «أنتم- اللبنانيين الأمريكيين- آخر من تبقى ممن يسألون عن لبنان ككل ويتذكرونه وحدة واحدة، فلا أحد يشعر بذلك، فالجميع يتذكرون فقط حزبهم أو منطقتهم أو أبناء طائفتهم»[1].

قاد العمل الخيري الحريري في النهاية إلى السياسة، وقد قابلته بعد أن تم انتخابه رئيساً للوزراء عام 1992، وتعرفت إلى ذلك الرجل الطموح الذي كان يحمل عشقاً خاصاً لبلاده، ويأمل في إعادة إعمار بيروت التي يحب، وكان يفكر في شوارعها وطرقاتها ومبانيها وكل شيء فيها، وكنت كلما زرته بعد ذلك في مكتبه[2] يطرح عليّ السؤال ذاته، كيف وجدت بيروت هذه المرة؟ وفي إحدى المرات نقلت له شكوى اللبنانيين من أنه ينفق الكثير من الأموال على بيروت فقط دون غيرها من مناطق لبنان، فأجاب الحريري بسرعة: «بل نحن ننفق الكثير خارج بيروت أيضاً، ولكن بيروت هي قلب لبنان، وإذا كان هذا القلب لا ينبض بحيوية فإن البلاد جميعها لن تعيش، ولذلك فإن بيروت لا بد أن تكون محط اهتمامنا الأول»[3]. وفي مقابلة أخرى معه في منزله الكائن على ربوة مطلة على المدينة، سألته أن يترك حياً واحداً في بيروت على حاله بعد الحرب دون التدخل لإصلاحه وتجديده حتى يكون ذكرى وعظة لأهل بيروت عن الدمار الذي حلّ بمدينتهم والذي يمكن أن يتكرر ثانية، فأجابني بأن تلك فكرة جديرة بالاهتمام، لكنه لا يعتقد أن تلك الحرب يمكن أن تتكرر[4].

لقد كتبت مقالاً عن الحريري بعد وفاته أقول فيه أنْ لا داعي لإقامة نصب

(1) James Zogby, personal notes from a conversation with Dr. Amal Shamma, September 29, 1985.

(2) James Zogby, personal notes from a meeting with my cousin Jack Zogby and Rafiq Hariri, July 6, 2001.

(3) James Zogby, personal notes from a conversation with Rafiq Hariri, October 23, 2000.

(4) James Zogby, personal notes from a conversation with Rafiq Hariri, July 6, 2001.

تذكاري للحريري، فبيروت كلها هي نصبه التذكاري، وإن من سخرية القدر أن يلقى الشخص الذي أفنى عدة عقود من عمره في إعادة بناء بيروت وإبعاد ذكرى الحرب عن أهلها، حتفه في انفجار في أحد شوارعها التي أمر بإصلاحها.

من جهة أخرى، يبدو أن موت الحريري لم يذهب سدى، إذ إن جهوده الضخمة لإعادة إعمار لبنان والسير به قدماً نحو التقدم، جعلا منه رمزاً وطنياً لدى الطوائف اللبنانية جميعها. وتظهر استطلاعات الرأي التي جمعناها في لبنان بعد وفاته أن معظم اللبنانيين من كل الطوائف كانوا يشعرون بالحزن والغضب لمقتله، كما عبر عدد كبير منهم عن مساندتهم لمن سيحلون محله ويسيرون على نهجه ويملكون النظرة ذاتها لمستقبل لبنان، بل إنهم سيصوتون لهم في الانتخابات النيابية المقبلة[1].

إن مشكلة الرموز الوطنية العظيمة مثل الحريري، أنها تشع بقوة ويمكن للآخرين أن يروها من زوايا مختلفة، ويفسروا ميراثها بصور مختلفة، وما الخلاف الذي رصده استطلاعنا حول الجهة المسؤولة عن موت الحريري إلا أول الطريق لخلافات متعددة نشأت بعد ذلك.

لقد وحد موت الحريري اللبنانيين في حزن مشترك، ومع ذلك فإن الصراعات الطائفية مازالت تنخر المدينة، كما كشفت استطلاعات الرأي التي أجريناها والتي تشير إلى انقسامات عميقة، فمثلاً أكد اثنان من كل خمسة من المارونيين والدروز أن اغتيال الحريري سيؤدي إلى انسحاب الجيش السوري من البلاد وهو ما حدث بالفعل، في حين وافق على ذلك 7٪ فقط من الشيعة[2]. ومن جهة أخرى أظهر 60٪ من الشيعة قلقهم من أن تؤدي الإجراءات التي سيتم اتخاذها بعد مقتل الحريري إلى تهديد أمن لبنان، في حين شاركهم هذا

(1) Zogby International / Information International, Hariri Poll.

(2) Zogby International / Information International, Lebanon Poll, April 7-14, 2005. Sample size 1.250.

الرأي 15٪ من المارونيين والدروز فقط[1]. اختلفت الطوائف أيضاً حول كيفية المحافظة على أمن لبنان، إذ رأي المارونيون أن انسحاب الجيش السوري من لبنان عامل رئيس في هذه المسألة، وشاركهم في هذا الرأي ثلث المسلمين فقط من الطائفتين السنية والشيعية وربع الطائفة الأرثوذكسية، كما انعكس هذا الاختلاف أيضاً في موقف الطوائف من دور سوريا والولايات المتحدة في لبنان. (انظر الجدول 11-1)

جدول 11-1 موقف الطوائف اللبنانية من الدور السوري والأمريكي

		المارونيون	السنة	الشيعة
الولايات المتحدة	داعم	67	20	7
	معارض	31	80	93
سوريا	داعم	15	34	54
	معارض	84	65	42

المصدر: زغبي الدولية، استطلاع لبنان 7-14 إبريل 2005، شملت العينة 1,250 بالغاً.

في المقابل، وجد عدد كبير من اللبنانيين وبخاصة المسيحيون الأرثوذكس والمسلمون من السنة والشيعة أن الحل الوحيد لتأمين الأمن الوطني للبنان يكمن في تعزيز قوات الأمن اللبنانية والجيش اللبناني على كامل التراب اللبناني، ومع أن 60٪ من أبناء الطائفة الدرزية عبروا عن الحاجة إلى نزع السلاح من المليشيات اللبنانية لضمان مستقبل أفضل للبنان، فإن هذا الرأي لم يشاركهم فيه سوى واحد من كل ستة مارونيين وعدد أقل من المسلمين من الطائفتين السنية والشيعية، و ليس هذا بمفاجئ، إذ إن قرار الأمم المتحدة رقم 1559 كان موجهاً نحو حزب الله بالتحديد، لنزع سلاح هذا الحزب، بيد أن هذا القرار لم ينفذ. (راجع الجدول 11-2).

(1) المرجع السابق

جدول 11–2 نزع سلاح حزب الله

هل يجب نزع سلاح حزب الله؟

	الجميع	المارونيون	السنة	الشيعة
لا أوافق	41	8	31	79
أوافق إذا وافق حزب الله	31	57	28	6
أوافق	6	18	3	—
أوافق في حالة السلام	18	17	28	14

المصدر: زغبي الدولية / المعلومات الدولية، استطلاع لبنان 7–14 إبريل 2005. العينة المشاركة: 1,250 بالغاً.

لم يكن الغرب يقرأ صورة السياسة اللبنانية بطريقة صحيحة، غير أن اللبنانيين أنفسهم كانوا واعين بالتغيرات السياسية التي طرأت على البلاد، وفي يوليو من عام 2005، وبعد انسحاب وحدات الجيش السوري من لبنان، فاجأ رئيس الوزراء المنتخب آنذاك؛ فؤاد السنيورة، العالم الغربي باختياره عدداً من أعضاء حزب الله، ليكونوا وزراء في حكومته الجديدة، وقد كان هدف السنيورة من هذا الاختيار واضحاً تماماً، فمن أجل تشكيل حكومة موحدة فعلاً، لا بد أن يكون هناك تمثيل مناسب للشيعة، الذين يمثلون ثلث عدد السكان تقريباً، والذين كانوا يعانون عزلة سياسية لمدة طويلة، ولم يجدوا غير حزب الله ليكون ممثلاً عنهم، وقد كان فؤاد السنيورة يعي خطورة اختياره لوزراء من حزب الله في حكومته، لكنه كان يعرف أيضاً أنه لا بد من إتاحة الفرصة أمام الطوائف الدينية الرئيسية لتشارك في صناعة مستقبل لبنان. (انظر الجدول 11–3).

الجدول 11-3 الوحدة الوطنية

هل تؤيد أو تعارض قيام حكومة وحدة وطنية تضم أعضاء من حزب الله؟

	الجميع	المارونيون	السنة	الشيعة
مؤيد	76	70	77	79
معارض	12	17	12	12

المصدر: زغبي الدولية / المعلومات الدولية، استطلاع لبنان 7-14 إبريل 2005. العينة المشاركة: 1,250 بالغاً.

لقد كانت خطوة جريئة من فؤاد السنيورة، غير أن شبح الانقسام اللبناني في السابق كان يطارد اللبنانيين جميعاً ولم يكن أحد يريد أن يعود ذلك الماضي من جديد. قام حزب الله عام 2006 بقتل عدد من الجنود الإسرائيليين وخطف آخرين، وقد كان ذلك نوعاً من الاستفزاز الذي رفضته حكومة السنيورة، وقد أدى ذلك إلى رد عنيف من إسرائيل بقصف جوي دمر البنية التحتية اللبنانية، ومن بينها مطار رفيق الحريري الذي تم افتتاحه حديثاً في بيروت. انتهت تلك الأحداث بعد زهاء شهر من بدايتها، لكنها خلفت 160 قتيلاً من الجانب الإسرائيلي وزهاء 1,400 من الجانب اللبناني، بالإضافة إلى وجبة سياسية جديدة كانت تُعد في المطبخ اللبناني.

مع الأسف لعبت الولايات المتحدة دوراً في تفاقم الصراع في لبنان، إذ كان رجال القرار في البيت الأبيض متحمسين في البداية لحكومة السنيورة، غير أن دعمهم للسنيورة صاحبه أيضاً دعم لإسرائيل، وسكوت على اعتدائها على لبنان، وتدميرها بنيته التحتية عام 2006، مما أدى إلى تقوية موقف حزب الله وإضعاف مواقف المعتدلين في السياسة اللبنانية، وبالتالي إضعاف موقف الولايات المتحدة في هذا البلد. وبدلاً من دعم السنيورة للتقدم نحو الإصلاح والمصالحة، دفعت الولايات المتحدة الوضع نحو المواجهة.

وكما حدث في فترة السبعينيات، أخذت القوى الخارجية تدعم موقف

الطرفين كلٌ على حدة، فوقفت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة خلف السنيورة، في حين عرضت سوريا دعماً كبيراً لحزب الله، وأخذ كل طرف يؤكد شرعيته على حساب الآخر، وأنه يمثل إرادة الأغلبية في لبنان، أما الآخرون فهم مجرد دمى تحركها أطراف خارجية.

لو أن الولايات المتحدة دعمت حكومة السنيورة وفي الوقت ذاته دفعت باتجاه إصلاح النظام السياسي، وهو المطلب الأول لجميع الطوائف في لبنان، لوجدنا على الأقل نقطة مضيئة في وسط كل تلك الفوضى. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أرضية أخرى تجمع عليها جميع الأطراف اللبنانية بمختلف طوائفها ألا وهي دفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام، وخلق فرص عمل للشباب تمكنهم من البقاء في بلادهم للعمل على مستقبل أفضل، ولكن بدلاً من ذلك، اكتفت الولايات المتحدة بهامش صغير من السياسة اللبنانية وهو دعم حكومة السنيورة، لتصبح في النهاية جزءاً من المشكلة اللبنانية، لا معيناً في حلها.

لقد قدمتُ اقتراحاً حول ذلك خلال أحد اجتماعات الكونغرس، أدعو فيه إلى تغيير سياسة الولايات المتحدة تجاه لبنان، إذ إن نظامه السياسي القائم على التوافق بحاجة إلى بعض التعديل في ضوء التغييرات الديمغرافية في البلاد، مع الأخذ بعين الاعتباز حقوق جميع الطوائف الدينية، كما أن الحكومة المركزية في حاجة إلى دعم من خلال تأهيل الجيش النظامي وتدريبه ليستطيع فرض سلطته على كامل التراب اللبناني، ويستتبع ذلك نزع السلاح من جميع الفصائل المسلحة بما فيها حزب الله. كما دعوت القيادة اللبنانية وحلفاءها الدوليين إلى ملاحظة أن لبنان مازال هشاً، ويمكن لأي محاولات غير مسؤولة أن تكسره.

واجهت حكومة السنيورة نكسة خطيرة عام 2006 عندما استقال جميع الوزراء المرتبطين بحزب الله من مناصبهم اعتراضاً على تحقيقات الأمم المتحدة في موت الحريري وسلسلة الاغتيالات اللاحقة التي طالت عدداً من مؤيدي الحريري ورجال الصحافة، وبذلك تصاعد التوتر وأخذت حكومة السنيورة

بالتفكك، ولحقت ذلك مسيرات حاشدة للطائفة الشيعية أغلقت البرلمان ووضعت مكتب رئيس الوزراء تحت الحصار، ثم تطورت تلك المسيرات بعد عام واحد باتجاه العنف وسفك الدماء لتتعطل الحكومة تماماً عام 2007.

لم يتحسن الوضع كثيراً عام 2008 بل ازداد سوءاً، إذ رفع حزب الله سلاحه في وجه الحكومة معيداً للأذهان ذكريات الحرب الأهلية الأليمة، وبالطبع لم تستطع الولايات المتحدة أن تلعب دوراً يذكر في ذلك الصراع، فآل الأمر إلى دولة قطر التي مثلت الجامعة العربية في محاولة رأب الصدع والدخول في مفاوضات للسيطرة على الوضع حتى حلول انتخابات عام 2009.

عُقدت الانتخابات البرلمانية في مايو 2009 ليفوز تجمع 14 آذار، الذي يقوده سعد الحريري نجل الرئيس السابق بأغلبية المقاعد، ولأن سعد الحريري كان يُعد صديقاً للغرب ويرأس تجمعاً مضاداً لحزب الله، فقد نظر الساسة الأمريكيون إلى نتائج تلك الانتخابات وفق أنها دعم للأفكار والقيم التي تحاول أمريكا نشرها في المنطقة، ومع ذلك بقيت المشاكل اللبنانية الداخلية على حالها، فمثلاً فاز تجمع الحريري بأغلبية المقاعد في البرلمان لأن هذه المقاعد موزعة حسب المناطق، ومع أن حزب الله فاز بعدد أقل من المقاعد، فإن عدد الأصوات التي جمعها كانت أكبر في مجموعها، ولذلك أصر حزب الله على تمثيله في الحكومة المقبلة، ولضمان الموافقة على الحكومة الجديدة اضطر الحريري إلى تأليف حكومة وحدة وطنية تضم عناصر من حزب الله، تماماً كما فعل السنيورة من قبل.

ورغم استمرار وجود كل تلك المشاكل السياسية في لبنان، فإن الشعب اللبناني يظل شعباً إيجابياً وقوياً، وكما يظهر في استطلاعنا في مايو 2009، يُظهر اللبنانيون ارتياحاً تجاه سير الأمور في لبنان وتفاؤلاً بالمستقبل، وقد كانت تلك أول مرة نرى فيها أرقاماً إيجابية في لبنان منذ عقود، وهو تطور واعد تستطيع الحكومة أن تعتمد عليه في الأيام المقبلة. وهناك أيضاً توافق الآراء ضمن الطوائف اللبنانية المختلفة، فعندما سألنا اللبنانيين في إبريل عام 2010

عن الأولويات التي يعتقدون أنها تواجه البلاد، أجابت كل الطوائف بأنها أولويات ثلاث وهي: تطوير الاقتصاد وخلق المزيد من فرص العمل، وحماية استقلال البلاد، وتحقيق الوحدة الوطنية، وهي أرضية كافية لتوحيد اللبنانيين والتقدم إلى الأمام[1].

لدعم وتشجيع حكومة سعد الحريري، على صانعي القرار في الولايات المتحدة أن يأخذوا بعين الاعتبار التاريخ الحديث للبنان والطبيعة المعقدة لسياسة التوافق اللبنانية، ففي لبنان قد ينطبق المثل القائل «لا غالب ولا مغلوب»، فالسياسة في هذا البلد تحتاج إلى تضحيات دقيقة، ولذلك علينا في أمريكا أن نتعلم درس التاريخ جيداً، ونحسن الاستماع إلى هموم الآخرين ومطالبهم حتى نتقن اللعبة السياسية هناك.

(1) Zogby International, Arab Update Poll, April 3-30, 2010. Sample size: 817 Lebanese adults.

الفصل الثاني عشر

المملكة العربية السعودية: إصلاحهم وليس إصلاحنا

يقع مجلس الشورى السعودي داخل مجمع قصر اليمامة الضخم في الرياض، ويبدو من الخارج مبنى كبيراً أبيض اللون، وتحتل قبة كبيرة قلبه، أما من الداخل فتشع الجدران بزخارف مذهبة على الطراز الإيطالي الرائج في المنطقة، غير أن قاعة الاجتماعات الرئيسة تبدو مثل أي قاعة برلمانية غربية، فالأعضاء المعينون يجلسون إلى مكاتب على أطراف القاعة، في حين يقف المتحدثون على منصة خشبية مميزة.

لقد زرت المجلس برفقة عدد من أعضائه عام 2004، وذلك في زيارة خاصة لبعض المحللين السياسيين الأمريكيين لتقييم الموقف حول الإصلاحات في المملكة العربية السعودية، عبر أسئلة جهزها الوفد الأمريكي لطرحها على مجموعة متنوعة من المثقفين السعوديين وصناع القرار في ذلك البلد.

كان ترويج الديمقراطية في العالم العربي، هو الهاجس الأساس في الولايات المتحدة إبان ذلك الوقت، ولذلك تم تسخير عدد من المحللين والإعلاميين للبحث في الموضوع، ولم يمر شهر دون أن يُعقد مؤتمر حول هذا الموضوع، وبالطبع كان الدفع بموضوع الديمقراطية في العالم العربي ذريعة لتبرير الحرب على العراق بما أن الأسباب الرئيسة لدخول الحرب مثل البحث عن أسلحة دمار شامل في العراق قد تلاشت. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان في الولايات المتحدة بعض الليبراليين والمحافظين يتفقون ودون الاستناد إلى دليل حقيقي على أن السبب الرئيس للعدائية الملحوظة لدى شعوب المنطقة نحو الغرب يكمن في غياب الديمقراطية.

نعم، لقد كان موضوع دفع الديمقراطية إلى الأمام في الشرق الأوسط

الموضوع الوحيد في السياسة الخارجية الذي تتفق عليه حكومة بوش مع معارضيها في الولايات المتحدة، ومع ذلك فقد كان الجميع مخطئين في تصورهم هذا.

نحن نوافق على وجه العموم على أن حقوق المواطنين في المشاركة السياسية أمر لا بد أن يُحترم ويؤخذ على محمل الجد، غير أن مفهوم الإصلاح الذي تطرحه الولايات المتحدة يحمل معاني مختلفة بالنسبة إلى السعوديين كما سمعنا من بعض المشرعين هناك، وقد لا يتفق ذلك تماماً مع رؤية الإدارة الأمريكية.

كان أول فريق سعودي قابلناه في زيارتنا عام 2004 بقيادة الدكتور عبد الرحمن الزامل، وهو عضو في البرلمان السعودي، وخبير في تاريخ العربية السعودية، وقد تنقل بين عدة مناصب حكومية مختلفة لسنوات طويلة أسهم خلالها في سن عدد من القوانين وتنسيق الأعمال الوزارية من أجل خلق البنية الأساسية للمجتمع المدني، وبعد وصوله إلى سن التقاعد استقال من الخدمة العامة ليتفرغ لعمله التجاري الخاص، فأصبحت مؤسسته من أنجح المؤسسات وأضخمها في البلاد لتدخل أسهمها في سوق الأوراق المالية السعودي، وبعد عدة سنوات من العمل الخاص، تم استدعاؤه ثانية للعمل الحكومي كنائب في البرلمان أو المجلس ليصبح أحد دعاة التغيير فيه.

خاض الزامل تحدياً مهماً مع وزير المواصلات قبل لقائنا معه بعدة أيام فقط، إذ قام باستجواب وزير المواصلات حول نية الحكومة رفع الضرائب على عبور الشوارع الرئيسة، وقد استند في استجوابه على انعدام الشفافية في الحكومة، واعترض على عدم خضوع مؤسساتها للمساءلة، وقد نُقل هذا الاستجواب على الهواء في القناة السعودية الثالثة، ليصبح الزامل بعد ذلك رمزاً شعبياً بالنسبة للسعوديين حيث أعاد لهم الثقة بالمجلس وأعضائه، وبالنسبة لي هذا هو تعريف رجل الإصلاح.

سألنا الزامل في بداية اللقاء عن رأيه حول سياسة الرئيس بوش الجديدة في ترويج الإصلاحات الديمقراطية في العالم العربي، فأجاب باقتضاب «نحن لا

نريد إصلاحاتكم، فنحن لا نحتاج إليها»[1] وقد يقرأ المرء هذه الإجابة المباشرة والقاطعة فيعدها تعبيراً عن العداء للولايات المتحدة ومخططاتها، لكن هناك دروساً أخرى يمكن أن نتعلمها من هذا الرفض.

لقد كان الرأي العام العربي عموماً في تلك الفترة مضاداً للأفكار والقيم الأمريكية، ولاسيما بعيد الحرب على العراق، ونشر الفضائح حول ما يحدث في سجن أبو غريب، بالإضافة إلى حبس المتهمين العرب في قضايا الإرهاب في خليج غوانتانامو، والكثير الكثير من التساؤلات حول السياسة الأمريكية في المنطقة.

يعتبر الأمريكيون مجتمعهم نموذجاً يُحتذى في مجال الديمقراطية، غير أن عدداً كبيراً من العرب لا يشاركونهم الرأي في هذا الموضوع، وبعد المزيد من النقاشات مع الزامل اتضح أنه لا يرفض الإصلاحات الديمقراطية في حد ذاتها، وإنما يرفض سياسة بوش في فرضها، فلطالما كانت المملكة العربية السعودية صديقة للولايات المتحدة، وكذلك أعضاء مجلس الشورى ومن بينهم الزامل، وهم أشخاص درس معظمهم في الولايات المتحدة ولهم أصدقاء كثر فيها، ومع ذلك فهم غير معنيين الآن بالإصلاحات التي تحاول الولايات المتحدة ترويجها أو فرضها، إذ إن أفكار الولايات المتحدة أصبحت مرتبطة الآن بالحرب على العراق وسجن أبو غريب وسجن غوانتانامو، وكأنها بضاعة فاسدة بالنسبة إلى الكثير من العرب.

لقد كان أحد الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها الإدارة الأمريكية هي اعتقادها أنها تستطيع فرض التحول الديمقراطي في العالم العربي، وهو اعتقاد ساذج يدعمه تصور أمريكي بأن العرب يرون في أمريكا قلعة للحرية كما رآها الأوروبيون في أوروبا الشرقية من قبل، عندما كانت تحاول تخليصهم من هيمنة الاتحاد السوفيتي.

ومع أن الكثير من العرب يُعجبون ببعض الجوانب في الحياة الأمريكية، فإن السياسة الأمريكية في المنطقة أسهمت في تغيير هذا الموقف، ويبدو ذلك جلياً

(1) James Zogby, personal notes from meeting, March 20, 2004.

في الاستطلاعات التي أجرتها زغبي الدولية عام 2004 في خمس دول عربية، وكان محورها السؤال التالي: «هل تعتقد -فعلاً- أن الولايات المتحدة تدعم الديمقراطية في بلدك؟»، وقد كانت ردود الأفعال سلبية للغاية في جميع تلك البلدان، ما عدا لبنان حيث كان هناك اختلاف كبير بين الطوائف حول هذا الموضوع (راجع جدول 12-1).

الجدول 12-1 تقييم للمساعدة الأمريكية في العالم العربي

بسؤال المشاركين لتقييم فاعلية المساعدة الأمريكية للعالم العربي، كانت نسبة من أجابوا بأنها مساعدة إيجابية كما يلي:					
	المغرب	الأردن	لبنان	السعودية	الإمارات
تدعم الديموقراطية في بلدك	10	17	46	1	7
تساهم في حل الصراع العربي الإسرائيلي	58	44	62	32	43

المصدر: زغبي الدولية «العرب يريدون الإصلاح، المساهمة الأمريكية في حل الصراع العربي الإسرائيلي». ديسمبر 2004، استناداً إلى استطلاع تم إجراؤه من 6-24 نوفمبر 2004. العينة المشاركة 2,600 بالغ.

بعد انتهاء محادثاتنا مع الزامل، قابلنا في اليوم التالي مجموعة أخرى من أعضاء المجلس لاستطلاع آرائهم حول موضوع الإصلاح، وقد كان أول المشاركين في النقاش حول برنامج الإصلاح الديمقراطي الذي تقترحه الإدارة الأمريكية رجل من صنف مختلف، فهو محام ومدرس وله رأي مسموع في المجتمع السعودي، وقد كان ذكياً وعميقاً في حديثه. أثنى هذا المحامي بحماس على برنامج الرئيس بوش الإصلاحي، وعندما طلبنا منه المزيد من التفاصيل حول رأيه هذا، قدم لنا تفسيراً كان مفاجأة لزملائي الأمريكيين في الوفد، إذ قال إن دعوة بوش للإصلاح كانت مفيدة لأنها أيقظت الحكومات العربية التي كانت حليفة للولايات المتحدة لسنوات طويلة وتعتمد على

دعمها، وقد دفعت هذه الحكومات ثمناً باهظاً لهذا الدعم ألا وهو السكوت عن انتقاد الولايات المتحدة في دعمها الفاضح لإسرائيل، واستغلالها نقاط الضعف في العالم العربي، وباختيار الحكومات العربية لهذا الطريق فقدت شرعيتها ومصداقيتها لدى شعوبها في العالمين العربي والإسلامي، لكن بوجود الإصلاح الديمقراطي ستتغير السياسات في المنطقة، وينتهي التدخل الأمريكي، وتصبح الفرصة سانحة لإيجاد وحدة عربية إسلامية لتقف في وجه التحديات التي تفرضها الولايات المتحدة وإسرائيل. لقد كشف عضو المجلس هذا عن ثمن آخر ستدفعه الولايات المتحدة جراء سياستها السيئة في المنطقة، إذ ستجر الإصلاحات الديمقراطية اللاعبين الأساسيين من حلفاء الولايات المتحدة إلى الهاوية. ولو نظرنا مثلاً إلى الدعم الأمريكي البسيط الذي قدمته الولايات المتحدة لمنظمة فتح عام 2006 في الانتخابات التشريعية الفلسطينية، لوجدنا أنه أدى إلى نتائج عكسية تماماً، إذ استغلت حماس تسريب خبر تلك المساعدات في الترويج لفكرة أن الولايات المتحدة تدعم مرشحي فتح للفوز بالانتخابات، وليصب ذلك الدعم في مصلحة حماس في النهاية، وكان ذلك درساً واضحاً للولايات المتحدة، فعندما تنتهج سياسات تؤدي إلى انقلاب الشعوب ضدك، وتحاول بعد ذلك الدعوة لانتخابات ديمقراطية، لن تكون النتيجة في صالحك على الإطلاق.

يجب على صناع القرار في الولايات المتحدة أن يدركوا، وهم في خضم الترويج للديمقراطية في الشرق الأوسط، أن العرب قد لا ينظرون إلينا كخبراء في الديمقراطية كما نعتقد وهذا هو الأمر الأول، أما ثانياً فقد لا تأتي الحكومات الديمقراطية القادمة كما نشتهي، ومع أن أمريكا تعلق آمالاً كبيرة على قوة الديمقراطية، فإنها يجب أن تفهم وجهة نظر العرب الخاصة بالسياسة الأمريكية في منطقتهم، وأن التحول الديمقراطي الذي تنادي به أمريكا لن يكون حلاً سحرياً لمشاكل الشرق الأوسط.

أعتقد أننا لا نفهم تماماً العلاقة بين التطرف المعادي للولايات المتحدة

وحلفاء أمريكا من العرب، فسياسة الولايات المتحدة في المنطقة هي السبب الرئيس لوجود التطرف المعادي لأمريكا فيها لا الحكومات الاستبدادية، فهذه الحكومات تعرض نفسها للخطر في الواقع بتحالفها مع الولايات المتحدة وسياساتها غير المقبولة من جانب شعوب المنطقة، وإذا نظرنا إلى رأي الشارع العربي سنجد أن الولايات المتحدة لا تدعم موقف حلفائها من الحكام العرب، بل على العكس ستكون سبباً في الإطاحة بهم.

يقول شبلي تلحمي؛ الأستاذ في مركز أنور السادات للسلام والتنمية في جامعة ميرلاند في الولايات المتحدة بُعيْد بداية الحرب على العراق، إن نتيجة هذا الصراع لن تؤدي إلى تقدم العملية الديمقراطية في الشرق الأوسط بل ربما ستؤدي إلى تقليصها، فمع تصاعد الغضب الشعبي تجاه الولايات المتحدة وتقرب الحكومات العربية منها لمواجهة الضغوط الداخلية ستتسع الفجوة بين الطرفين، ولن تسمح تلك الحكومات بتغيير أنظمتها السياسية[1]. وقد أظهرت السنوات السبع الماضية بعد حرب العراق صدق نبوءة هذا الرجل، فالحكومة في الأردن أوقفت عملية التحول الديمقراطي في نظامها السياسي بعد أن كانت تسير بخطوات ثابتة في هذا الاتجاه، وفي الوقت ذاته توقفت الانتخابات في كل من مصر ولبنان وفلسطين بعد أن أخذ المتشددون يكتسحون أغلبية المقاعد فيها، وخوفاً من المصير ذاته جمدت دول عربية أخرى الإصلاحات الديمقراطية التي كانت في بداياتها، وبالتزامن مع هذه الأحداث أخذت الحركات المتطرفة بما فيها القاعدة توجه ضرباتها نحو السعودية ومصر والأردن، لا بسبب نقص الديمقراطية فيها، وإنما بسبب علاقتها الوثيقة بالولايات المتحدة. وهكذا فعندما تطرح الولايات المتحدة مبادراتها لتفعيل الديمقراطية في العالم العربي، غالباً ما تنتهي هذه المحاولات بالإضرار بحلفائها وإضعاف مواقفهم.

لقد شاركت في فعاليات المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت عام 2005، حيث استمعت إلى مساعدة نائب وزير الخارجية الأمريكية لشؤون

(1) Shibley Telhami, «Arab Public Opinion: A Survey in Six Countries,» San Jose Mercury News, March 16, 2003.

الشرق الأوسط ليز تشيني تلقي كلمتها فيه، وقد بدأتها باعتراف مفاجئ يقول إن سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وخلال الستين عاماً الماضية لم تكن تعبر عن القيم الأمريكية[1]. اعتقد الحضور أن هذه المقدمة سيعقبها اعتراف بأن السياسة الأمريكية لم تكن متوازنة في تعاملها مع الصراع العربي الإسرائيلي، غير أن مساعدة النائب فاجأت الجميع بالهجوم على حلفاء أمريكا من الحكام العرب، معتذرة عن دعم بلادها للديكتاتوريات وللملكيات في العالم العربي بدلاً من دعم الديمقراطية. ربما كانت تشيني تطلق هذا الخطاب كتجربة لجس نبض الشارع العربي، وتمهيد الأرضية لخطاب وزيرة الخارجية كونداليزا رايس في القاهرة بعد المنتدى الاقتصادي بشهر واحد، الذي كان يقدم ملاحظات متشابهة حول تفعيل الديمقراطية في العالم العربي. لكن، حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن السيدتين لم تلحظا قطّ الانطباع السيّئ الذي تركه خطاب تشيني في الرأي العام العربي. لقد كان في الواقع خطاباً صادماً، فها هي مسؤولة أمريكية رفيعة في الأردن تهاجم ملك هذا البلد، وهو حليف لأمريكا منذ زمن بعيد. بعد ذلك بعام واحد وفي ظل أجواء مشحونة بالكراهية تجاه أمريكا[2]عقب حربها على العراق والهجوم الإسرائيلي على غزة، توجه الرئيس جورج بوش إلى الأردن ليلتقي هناك رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، حيث لقيه في المطار الملك الأردني عبد الله، فهل كان الرئيس بوش يدرك الجهد الذي يبذله الملك والمخاطرة التي يخوضها من أجل صداقته مع الولايات المتحدة في تلك الفترة المتوترة؟

يعيدني هذا التناقض إلى مكالمة هاتفية تلقيتها قبل عدة سنوات من أحد مستشاري ولي العهد السعودي آنذاك الملك عبد الله بن عبد العزيز، وكان ذلك المستشار صديقاً لي، وقد هاتفني للتعرف إلى نتائج الانتخابات الأمريكية

(1) World Economic Forum, «What is the Origin of Arab People Power?- The World Economic Forum in Jordan Debate,» news release, May 21, 2005.

(2) Zogby International, Five Nation Survey of the Middle East, November 11-21, 2006. Sample size 3.500 adults.

وإمكانية فوز جون كيري، فقلت له إن النتائج لم تحسم بعد غير أنني أعتقد أن السعودية سترغب في فوز جورج بوش لأنه يدعم المملكة، بينما صرح كيري بانتقادات كثيرة لها في الآونة الأخيرة، غير أن ردة فعل ذلك الصديق أدهشني في ذلك الوقت، إذ قال لي: «نحن نفضل رئيساً أمريكياً لا يحبنا، أكثر من رئيس يفرض سياسات تؤدي إلى كراهية شعوبنا للولايات المتحدة»[1].

ومرة أخرى نكرر أن سياسات الولايات المتحدة المستفزة وغير المرغوب فيها من جانب الشعوب تحرج حلفاءنا الحكام وتجعلهم يفكرون كثيراً قبل الاستمرار في صداقتنا. يعتقد صناع السياسات في الولايات المتحدة والغرب عموماً أن الديمقراطية هي الدواء الناجع للتطرف ومعاداة الغرب في الشرق الأوسط[2]، وأن فرض التحول الديمقراطي حتى وإن كان ذلك بصورة شكلية، سيؤدي بالشعوب إلى طرح مشاعرها المعادية جانباً والتفرغ لبناء النظام الجديد. ونكرر ثانيةً أن هذا التصور بعيد كل البعد عن الواقع، إذ وجدنا في عدد من الانتخابات التي جرت في العالم الغربي، أن الجماهير الغاضبة، والتي تحركها مشاعر الظلم الطويل، لم تكن سعيدة لمجرد وجود انتخابات عامة، وإنما على العكس، فكلما ازدادت حرية الانتخابات زادت صور التعبير عن مشاعر الغضب تجاه الولايات المتحدة وحلفائها.

لقد عاشت الولايات المتحدة هذه الظاهرة محلياً قبل أكثر من أربعين عاماً خلال فترة التوسع الديمقراطي في فترة الستينيات، عندما كان الأمريكيون الأفارقة يطالبون بحقوقهم المدنية التي حُرموا منها مدة طويلة، وظلت المدن التي يتكون معظم سكانها من السود تعاني من المظاهرات صيفاً بعد آخر، وكان الرئيس ليندون جونسون -وهو من قاد الحملة التشريعية للحقوق المدنية- غاضباً ومشوشاً في البداية، لكنه استطاع في النهاية أن يستوعب

(1) James Zogby, personal notes, November 4, 2004.

(2) For Example, «It is the spread of freedom, democracy, and justice that is the antidote to Islamic extremism.» Stephen Hadley, «Remarks to the American Israel Public Affairs Committee National Summit» Washington, DC, October 31, 2005, http://georgebush-whitehouse.archivers.gov/news/ release/2005/10/20051031-4.html.

غضب هؤلاء المحرومين وقال في إحدى خطاباته «عندما تدوس رقاب العباد مدة ثلاثمائة عام، ثم تحاول بعد ذلك أن تعطيهم حقوقاً، فإنهم لن يظهروا شكرهم في البداية، بل سيحاولون تدمير كل ما يتعلق بك»[1]. كذلك هي الحال في العالم العربي، فالفترة التي أعقبت الانتخابات الحرة، لم تكن فترة استقرار وهدوء بل كانت فترة تصفية حسابات، وقد كان ذلك واضحاً بعد فوز حماس في الانتخابات عام 2006 في فلسطين، وازدياد شعبية حزب الله في لبنان، والمكاسب التي حققتها بعض الأحزاب المتطرفة في العراق.

يستند الغربيون أحياناً إلى نظرية أخرى في ترويج الديمقراطية، وهي أن الديمقراطيات لا تلجأ للحرب، وهو افتراض مضحك بالفعل بالنسبة إلى العرب، فقد عانى العالم العربي طويلاً من الحرب مع إسرائيل عام 1956 وعام 1967، كما أن الحرب على العراق ماتزال في أوجها وتؤثر تداعياتها في جميع أبناء الوطن العربي.

تساند الولايات المتحدة بقوة ترويج الديمقراطية في العالم العربي، غير أن كل الجهود المبذولة في دعم هذه القضية قد لا تؤتي ثمارها إذا لم يصحبها فهم عميق لرأي العرب في الإصلاح والديمقراطية، بل وفي أمريكا ذاتها، لكن ذلك لا ينفي الحاجة إلى التوسع في الحريات العامة وبناء الديمقراطيات في العالم العربي، ولا بد لهذه العملية أن تبدأ من الداخل حتى تتجذر وتنمو بصورة طبيعية، ولا يمكن أن تُستورد من الخارج لتكون جاهزة للتنفيذ. وقد أظهرت نخب الأمة من أكاديميين ومهنيين ورجال أعمال استعدادها لتلعب دوراً مهماً في التغيير إذا مُنحت الفرصة الكافية، كما يجب منح الشباب أيضاً الأمل لتحقيق آمالهم وتطلعاتهم كي يعرف المواطنون جميعاً دون تمييز أن لهم حقوقاً ستُحترم وآراء تستحق الاستماع.

علينا أن نعي أن التحول الديمقراطي عملية تبدأ في التاريخ، وتتطلب

---

(1) Nick Kotz، Judgment Days: Lyndom Baines Johnson، Martin Luther King Jr.، and the Laws That Changed America (New York: Houghton Mifflin Harcourt، 2005). 418.

استعداداً اجتماعياً وثقافياً، وإذا افترضنا الجدية في المقترحات الغربية حول التحول الديمقراطي، فلا بد أن يؤخذ الرأي العربي بعين الاعتبار في القرارات السياسية المستقبلية في العالم العربي.

لم تكن المواقف السعودية معادية تماماً لأمريكا، فمثلهم كمثل الكثيرين من العرب، كان السعوديون يعارضون سياسة الرئيس بوش وإدارته في المنطقة، لكن هذه المعارضة تغيرت سريعاً بعد انتخاب الرئيس أوباما رئيساً للولايات المتحدة حسبما أوضحت الاستطلاعات التي قمنا بها، وقد كان الدعم الأكبر للرئيس الأمريكي الجديد في السعودية حيث أيده أربعة من كل خمسة أشخاص شملهم الاستطلاع[1].

كما لاقت الجهود الدبلوماسية التي بدأ بها الرئيس عهده استحساناً كبيراً في المملكة، إذ أعرب 79٪ من السعوديين الذين شملهم الاستطلاع عن أملهم في تحسين السياسة الأمريكية في المنطقة بعد المساعي الدبلوماسية التي قام بها فريق الرئيس أوباما، وكلما ازدادت شعبية الرئيس الأمريكي وسياسته، زادت الفرص لمشاركة الولايات المتحدة في العملية الديمقراطية في المملكة دون الخوف من ردود أفعال معادية لأمريكا.

إن المملكة العربية السعودية والدول العربية الأخرى تريد التغيير بالفعل، لكنه تغيير مختلف عما تقدمه الولايات المتحدة في مقترحاتها، إذ يضع العرب على قمة مطالبهم التنمية الاقتصادية وتحسين نوعية الحياة، والخدمات الرئيسة قبل كل شيء[2].

وفي النهاية تشير استطلاعاتنا إلى أن العرب لا يرغبون في أن يتدخل أحد في سياساتهم الداخلية، ويعتبرون ذلك شأناً خاصاً بهم.

وبالنظر إلى هذا الرفض للتدخل الخارجي في الشؤون السياسية الداخلية

(1) University of Maryland and Zogby International, Annual Arab Public Opinion Survey, April 21- May 11, 2009. Sample size 4.087 adults.

(2) Zogby International, «Arabs Want Reform, US Help in Solving Israeli-Palestinian Crisis,» December 6, 2004. Based on poll taken November 6-24, 2004. Sample size 2.600 adults.

للعرب، قد يكون من الأجدى بالنسبة إلى الدول الغربية التي تحاول دعم الديمقراطية والإصلاح أن تبدأ بدعم البنية التحتية في الدول العربية، وتساعدها في توسيع مجالات التجارة والاستثمار لتستطيع النهوض باقتصادها، وهكذا فإن الاقتصاد الناجح وتطوير التعليم يؤديان في النهاية إلى الإصلاحات السياسية المرجوة دون مقاومة من الشعوب، إذ إن الإصلاح لا بد أن يتم بناءً على رغبة الشعوب دون أن يُفرَض من الخارج. وهذا -وفق ما يبدو- هو الاتجاه الذي تفضله إدارة أوباما، فمنذ الخطاب الذي ألقاه الرئيس في الرابع من يونيو عام 2009 في جامعة القاهرة، حتى خطاب وزيرة الخارجية كلينتون في «ندوة المستقبل» في المغرب في نوفمبر عام 2009، كانت الإدارة الأمريكية الجديدة تتبنى خطاباً أكثر واقعية للإصلاح، دون التعرض المباشر للإيديولوجيات.

تبقى الديمقراطية هدفاً لا يمكن الوصول إليه دون الاهتمام بالحاجات والظروف المحلية لكل بلد، وتتمثل في المحافظة على حقوق الإنسان وتطوير التعليم ودعم منظمات المجتمع المحلي وزيادة فرص العمل، وهذه هي المجالات التي يريد العرب أن تساعدهم الولايات المتحدة فيها، وبناءً على التطور في تلك المجالات سيكون هناك إصلاح أعمق وأشمل.

ثمة موضوع واحد مهم في مجال القضايا السياسية يود العرب جميعاً من الولايات المتحدة أن تتخذ إزاءه سياسات أكثر إيجابية، ألا وهو موضوع الحل السلمي للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني (انظر الجدول 12-1)، وإذا ما استطاعت الولايات المتحدة أن تحرز تقدماً في هذا المجال، فقد يعزز ذلك من مكانتها في العالم العربي، ويمهد الطريق أمام إصلاحات أكثر تأثيراً ودور أهم.

الفصل الثالث عشر

فلسطين: جرح في القلب

بعد ثلاثة أعوام من المناوشات المسلحة المتبادلة من الجانبين، دخل المقاتلون الفلسطينيون في غزة حرباً مصغرة مع الجيش الإسرائيلي. فبعد سلسلة من العنف المتبادل على الحدود، أعلنت حكومة حماس انتهاء فترة خمسة أشهر من الهدنة بين الطرفين، وكثفت إطلاق القذائف الصاروخية على جنوب إسرائيل، وفي رد على هذا الإجراء قامت القوات المسلحة الإسرائيلية بطلعات جوية استهدفت قصف مراكز الشرطة الفلسطينية والمباني الحكومية والبنية التحتية للبلاد، ثم تلت تلك الحملة الجوية حملة أخرى على الأرض لاجتياح غزة، وبعد نهاية الحرب في يناير 2009، كان قد سقط 1,300 قتيل من الجانب الفلسطيني و13 قتيلاً من الجانب الإسرائيلي، بالإضافة إلى تشريد آلاف الغزيين الذين فقدوا منازلهم في أثناء القصف، وباتوا يفترشون العراء مع غياب الخدمات الأساسية كالماء والكهرباء.

نظر كلّ من العرب ومشاهدي وسائل الإعلام الغربية إلى تلك الحرب بطريقة مختلفة تماماً عاكسة وجهة نظر الطرفين، ولأن إسرائيل منعت الصحفيين من دخول قطاع غزة لنقل الأحداث عن كثب، فإن المشاهد الغربي كان يرى الأحداث عن بعد، حيث يقف المراسلون على ربوة خارج غزة، في حين ترتفع أعمدة الدخان وراءهم نتيجة للقصف الإسرائيلي المكثف، وقد كانوا يستقون معظم الأخبار من التقارير التي كان يعلنها الجيش الإسرائيلي، وفي المقابل كانت شبكات التلفزة العربية تملك مراسلين في كل مكان في غزة، ينقلون الأحداث لحظة بلحظة، بما حملته من عنف ودمار، وقد وصف أحد المراسلين ما يجري في ذلك الوقت بأنه ليس حرباً بل حفلة صيد[1]، فقد كان

(1) Phone conversation with Arab Journalist in Gaza, January 6, 2009.

الإسرائيليون يقتنصون الفلسطينيين المحاصرين في غزة عبر حرب غير متكافئة على الإطلاق، وجرى كل ذلك وسط نقص شديد في الغذاء والدواء نتيجة للحصار الطويل الذي فرضته إسرائيل على قطاع غزة.

لقد شاهد العرب كلَّ ذلك بحزن وغضب شديدين، عبر عنهما صديق لي يحتل منصب وزير في إحدى دول الخليج -وقد تلقى تعليمه في الغرب، وهو من المتعاطفين مع أمريكا وليس فرداً من حماس- حين اتصل بي في أثناء الأحداث الدامية معبراً عن انزعاجه العميق، لأنه «لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاء ما يجري»، وأضاف إنه «يود لو استطاع تقديم يد العون بأي طريقة، ولاسيما فيما يخص الأطفال»[1]. لقد لخص هذا الوزير مشاعر العرب جميعاً تجاه فلسطين فيما عبر عنه.

عندما تقوم زغبي الدولية باستطلاعاتها في الشرق الأوسط، نجد أن الشأن الفلسطيني يحتل دوماً إحدى المراتب الثلاث الأولى ضمن الاهتمامات العربية، ويوضح العرب دائماً أن فلسطين ليست مسألة سياسية فقط، وإنما هم شخصي يحمله العرب جميعاً، تماماً كما كان اليهود الأمريكيون يشعرون تجاه إخوتهم الأوروبيين في الحرب العالمية الثانية، ومع أن الفلسطينيين لم يعانوا مذبحةً كالهولوكوست حيث قتل الملايين من الأبرياء، فإنهم يعانون يومياً من الألم والاضطهاد نفسيهما، كما يحمل العرب مشاعر الذنب تجاه ما يحدث للفلسطينيين الذين يعدهم العرب إخوة لهم، وقضيتهم هي الجرح المفتوح على الدوام.

لطالما نظرت الإدارات الأمريكية المتعاقبة إلى الصراع العربي الإسرائيلي باهتمام. ومنذ إدارة الرئيس السابق نيكسون حتى الآن، اتفقت هذه الإدارات على أن السلام الدائم شرط أساسي لاستقرار المنطقة، غير أن معظم الأمريكيين لا يعون عمق المعاناة الفلسطينية، وكيف تلقي هذه المعاناة بظلالها على العالم العربي، وإذا أرادت الإدارة الأمريكية أن تلعب دوراً حقيقياً في حلّ هذا الصراع والتخفيف من معاناة ذاك الشعب، فعليها أن تنظر عميقاً في تاريخ

(1) Phone conversation with Gulf state minister, January 7, 2009.

الصراع الذي مازال يغذي هذه المأساة.

لقد ألقيت محاضرة خاصة عام 2005 في جمع من العسكريين الإسرائيليين، ضم 40 جنرالاً وآخرين من رتب عسكرية مختلفة حضروا إلى واشنطن في ندوة حول السياسة العامة في جامعة الدفاع القومي[1]. لقد تحدثت من قبل إلى جمهور عربي في محاولة لحث العرب على تفهم وجهة النظر الإسرائيلية - اليهودية ومخاوف إسرائيل من جيرانها، وهي مخاوف تاريخية لدى الشعب اليهودي عززتها قصة الهولوكوست، وما تعرض له اليهود من أهوال في أوروبا. أما الآن فلدي الفرصة السانحة لأتحدث إلى الإسرائيليين وأطرح الجانب العربي من القصة، ولاسيما أن فقدان فلسطين والمعاناة التي يعيشها الفلسطينيون يومياً عززا لدى العرب الشعور بفقدهم جزءاً من تاريخهم الخاص.

ولقد ذكّرت هؤلاء الإسرائيليين بأن قصة ولادة أمتهم، التي تشكلت بعد صدور وعد البريطاني بلفور -الذي دعم قيام وطن قومي لليهود في فلسطين- لهي قصة مختلفة لدى العرب الفلسطينيين، فهم يرون أن خيانة بريطانيا وفرنسا لالتزاماتهما تجاه العرب في تلك الفترة أدى إلى ضياع أرض فلسطين وشتات أبنائها.

لقد جلب الانتداب البريطاني إلى فلسطين آلاف اليهود، الذين عدوا أنفسهم الطلائع الأولى للصهيونية، في حين عدهم العرب غرباء يريدون سلبهم أرضهم، وظل العرب طوال عقدين من الزمن ينتفضون ويعترضون على الانتداب البريطاني في فلسطين، وما تمخض عنه من زيادة أعداد المهاجرين اليهود إلى بلادهم، وفي عام 1939 تم الإعلان عن هدنة يلتزم بها العرب بشرط أن توقف السلطات البريطانية الهجرة اليهودية، مراعاة لمشاعر القلق المتنامية لديهم.

حصلت الدول في بلاد الشام في الفترة ذاتها؛ أي قبل الحرب العالمية الأولى

(1) James J. Zogby, «Outside View: History and Peace Making,» Unites Press international, May 25, 2005, http://www.upi.com/Business_News/Security-Industry/2005/05/25/Outside-View-History-and-peace-making/UPI-91651117005720.

وبعدها، على جزء من استقلالها باستثناء فلسطين التي زادت أوضاعها سوءاً بعد أن ربحت إسرائيل حرب عام 1948، وأعلنت قيام دولة إسرائيل، لينتج عن ذلك طرد زهاء 650,000 فلسطيني وتشريدهم من ديارهم، ليتجسد مفهوم النكبة بعد ذلك بقيام وطن يهودي في أرض كانت عربية لعدة قرون خلت، وأصبحت فلسطين بالنسبة إلى العرب جرحاً غائراً لا يندمل.

أوضحت للجنرالات الإسرائيليين أن القصة لم تنته بقيام إسرائيل من وجهة نظر العرب، بل ازداد الجرح اتساعاً خلال الستين عاماً الماضية، وإذا كان معظم الإسرائيليين يرون في حرب الأيام الستة عام 1967 ومصادرة الأراضي العربية لبناء المستوطنات، وتدمير منازل الفلسطينيين وسجن الزعماء الفلسطينيين وطردهم، إجراءات ضرورية لحماية أمن إسرائيل، فإن هذه الإجراءات جميعاً لم تهيج الفلسطينيين وحدهم بل معظم العرب أيضاً، الذين يرون أنها تمس حقوقهم وتهدد أمنهم.

لقد أوضحت كل ذلك لجمهوري من الإسرائيليين، غير آمل في إقناعهم بتغيير وجهة نظرهم، لكنني كنت أطمح إلى جعلهم ينظرون إلى الجانب الفلسطيني العربي من القصة، الذي قد يفتح باب الحوار فيما بعد. ولقد كان هناك الكثير من الأسئلة بعد انتهاء المحاضرة، وبدا لي أن بعض الحاضرين كانوا يفكرون على الأقل فيما قلته وبدا ذلك مشجعاً.

في أثناء شرحي لفكرة أن الفلسطينيين والعرب فقدوا جزءاً من تاريخهم بفقدان فلسطين، وكيف أسهم هذا الشعور في تشكيل النفسية الفلسطينية، قام شخص من الحضور معترضاً على الفكرة، وقال إنني لا أعرض أكثر من الكلمات المنمقة، وأن السبب الحقيقي في خلق المشكلة هو إخفاق الفلسطينيين في الاعتراف بدولة إسرائيل عند قيامها، وأنهم شعب يُفضل العنف، فأجبته إنه يستطيع لوم الفلسطينيين كما يشاء وتجاهل حقيقة وجودهم، غير أن هذا التجاهل لن يؤدي إلا إلى تراكم المزيد من الغضب في نفوس الطرفين، وزيادة حالة التوتر في المنطقة، وإطالة أمد الصراعات الدموية.

كان الحاضرون يؤمّنون برؤوسهم دليل الموافقة على ردي، وبدا هذا أمراً إيجابياً بالنسبة إلي، إذ يدل على أن طريق التفاهم مايزال مفتوحاً، وأن إمكانية تفهم كل طرف لرواية الآخر حول الأحداث موجودة حتى بين هؤلاء الجنرالات، الذين يرون أن مهمتهم الأولى هي قتال الفلسطينيين ممن يملكون رؤية مختلفة، وفي نهاية النقاش طلب مني بعض هؤلاء العسكريين المزيد من التواصل، وأن أرسل إليهم مقالي الأسبوعي في الجريدة.

أعتقد أن الحل الوحيد لهذا الصراع طويل الأمد يجب أن يبدأ بتفهم الطرفين لوجهة نظر بعضهما البعض حول تاريخ الصراع، وعلى الإسرائيليين والأمريكيين أن يفهموا ويعترفوا بالدور الذي لعبته إسرائيل وحلفاؤها الغربيون في حرمان الفلسطينيين من حقوقهم. وفي المقابل، على الفلسطينيين -عموماً- أن يظهروا المزيد من التفهم تجاه تاريخ اليهود، والدور الذي لعبه موقف العرب منهم في تأجيج حالة الخوف التي تسيطر على النفسية اليهودية.

يبقى تأثير التجارب التاريخية التي تمر بها الشعوب قوياً للغاية، ولكل شعب أو قبيلة أو مجموعة دينية أو ثقافية تجربتها الخاصة التي تشكل جزءاً من ماضيها ومستقبلها، وعادة ما تكون هذه التجارب خارج السيطرة التاريخية، كما حدث في الجنوب الأمريكي خلال الحرب الأهلية وبعدها، أو ما حدث في أوروبا الشرقية خلف الستار الحديدي، أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فقد كانت تلك التجربة العصيبة هي ما حدث عام 1948 بقيام دولة إسرائيل، ليتحول الفلسطينيون إلى لاجئين أو أغراب في بلادهم.

ليس الفلسطينيون هم الضحايا الوحيدون، فاليهود يملكون أيضاً قصصاً كثيرة حول المجازر التي ارتكبت بحقهم، والتي تجسدت في الهولوكوست، لذلك فإن العمليات الانتحارية التي يقوم بها الفلسطينيون في القدس، أو القنابل التي يزرعونها في تل أبيب أو الصواريخ التي تنطلق على جنوب إسرائيل، لها مفعول أكبر بكثير من قتل الأرواح أو نشر الخوف بين السكان، فهي تعيد إلى أذهان اليهود ذكريات بشعة من عذابات القرن الماضي، ولذلك

فإن تأثيرها مشابه لتأثير الاعتداء على غزة أو تدمير بيت في القدس على العرب والفلسطينيين، ولضمان النجاح لأي تدخل غربي لحل النزاع العربي الإسرائيلي، لا بد أن تؤخذ الحقائق السابقة بعين الاعتبار.

لقد كانت التغطية الإعلامية الغربية للحرب الإسرائيلية على غزة باهتة ومرتبطة بالرواية الإسرائيلية للحرب، ومع الأسف كانت تلك هي الصورة التي عرضها الغربيون عموماً والأمريكيون في الولايات المتحدة منذ بداية تأسيس دولة إسرائيل عن طريق الأدب ووسائل الإعلام الترفيهية. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك رواية ليون يوريس التي تصدرت قائمة المبيعات عام 1958، وهي «إكسيدوس»، بالإضافة إلى الفيلم الذي حمل الاسم ذاته عام 1960، وقد كان من بطولة بول نيومان، إذ مثل دور البطل العظيم الذي يحارب قوات البحرية البريطانية، ويقود شعبه إلى أرض الميعاد[1].

موَّل البحث، الذي سبق كتابة الرواية بعامين، إدوارد جوتليب، وقد عمل مديراً للعلاقات العامة في نيويورك، وحاول بتمويل هذا العمل تحسين صورة إسرائيل في الغرب(2). وقد نجح هذا العمل بالفعل في إثارة الكثير من التعاطف تجاه المستوطنين الإسرائيليين، الذين يحلمون بإقامة وطن لهم في فلسطين يعيشون فيه بحرية ويضطرون لمواجهة السكان المحليين بكل الوسائل من أجل تحقيق هذا الحلم، وهي بالتأكيد قصة وجدت لها صدىً مألوفاً لدى الأمريكيين، إذ تعيد إلى الأذهان قصة المستوطنين الأمريكيين الأوائل، وصراعهم مع سكان أمريكا الأصليين من الهنود الحمر.

لقد تأثر الجمهور الأمريكي برواية يوريس في إطارها الأوسع، فمن خلال سياق مجازر الهولوكوست بالإضافة إلى قصة الشتات اليهودي في الإنجيل، تشكلت أرض خصبة لإثارة التعاطف الأمريكي مع قيام الدولة اليهودية.

---

(1) Leon M. Uris, Exodus (New York: Doubleday, 1958); Exodus, DVD, directed by Otto Preminger (1960: Los Angeles, CA: MGM, 2002).

(2) Jack G. Shaheen, Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People (New York: Olive Branch Press, 2001), 189.

لذلك لاقت الرواية بالإضافة إلى الفيلم نجاحاً منقطع النظير، وقد شكل في الذاكرة الجمعية الأمريكية، ولأجيال لاحقة، الصورة الموجودة الآن للصراع العربي الإسرائيلي، وهي الصورة التي تُعرف الإسرائيليين بأنهم رواد يشاركوننا أفكارنا وقيمنا. أما قصة الشتات الفلسطيني فهي لا تلتقي مع تاريخنا وتجربتنا الدينية بالطريقة ذاتها، فنحن نجهل الكثير عن تاريخ الشرق الأوسط، كما أن إسرائيل عرفت ومنذ اللحظة الأولى أهمية تقديم تاريخها الخاص للغرب بلغته التي يفهمها ويتعاطف معها، ولأن الإسرائيليين فهموا أهمية ترويج قصتهم في الغرب، في حين لم يعر الفلسطينيون حتى اليوم هذا الجانب أيّ اهتمام يُذكر، مازال الإسرائيليون قادرين على السيطرة على العقلية الغربية وتشكيل مواقفها تجاه الصراع العربي الإسرائيلي، يضاف إلى ذلك بالتأكيد أن إسرائيل حافظت على قوة عسكرية متفوقة على كل القوى العسكرية الأخرى لجيرانها طوال الستين عاماً الماضية.

في البداية كانت إسرائيل تريد تأكيد أنها شعب يسعى للعمل الجاد لتحديث الشرق الأوسط وجعل هذه الصحراء واحة للديمقراطية والتطور في مواجهة العرب المتخلفين. وقد بنت إسرائيل هذا القالب مرتكنة على أفكار الزعيم الصهيوني وايزمان، التي انتشرت في الثلاثينيات حول تصوره للصراع في المنطقة حين يقول «تقف في هذا الجانب قوى التخريب؛ قوى الصحراء... في حين تقف في الجانب الآخر قوى البناء والحضارة، إنه الصراع القديم بين الحضارة والصحراء»[1]. ومع تعمق الصراع العربي الإسرائيلي في السبعينيات، أخذت إسرائيل تتبع سياسة أشمل.

أسس بنيامين نتنياهو عضو الحزب اليميني في أواخر السبعينيات سياسة إعلامية جديدة تصور الفلسطينيين بأنهم إرهابيون وعملاء للاتحاد السوفيتي،

(1) Colonial Office, Great Britain, 733/297/75156/II/Appendix A, extract from Weizmann's speech, April 23, 1936; Peel Commission Report, 96-97 cited in Philip Mattar, The Multi of Jerusalem; Al-Haji Amin-al-Husayni and the Palestinian National Movement (New York: Columbia University Press, 1988), 73.

وهي سياسة تم توثيقها بذكاء شديد من قبل الباحث الأمريكي فيليب بول، الذي أوضح أن بنيامين لعب ورقة المعاداة للاتحاد السوفيتي ليجمع حوله الكتاب والسياسيين الأمريكيين لرسم عملية موجهة لتشويه الصورة الفلسطينية وتنفيذها[1]، وبما أنهم يعرفون أن المجال مفتوح أمامهم دون أدنى منافسةٍ من الفلسطينيين، فقد استطاعوا أن ينجحوا في مساعيهم.

لقد حققت القوالب السلبية التي رسمتها إسرائيل للفلسطينيين أهدافها، واستطاعت تشويش رؤية الأمريكيين والأوروبيين تجاه معاناة الفلسطينيين، الذين لم يكونوا أكثر من أدوات إرهابية في نظر هؤلاء، وهيأ كل ذلك الفرصة لاحقاً لاجتياح إسرائيل للبنان عام 1982، ومحاولة إعاقة الوجود القانوني لمنظمة التحرير الفلسطينية في الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد، ومع أن التفوق العسكري الإسرائيلي سمح بتحقيق مكاسب إسرائيلية على الأرض، فإن قدرة الإسرائيليين على تصوير الصراع بأنه صراع أمة متحضرة ضد مجموعة من الإرهابيين الهمجيين سمح لهم بتثبت هذه المكاسب لاحقاً.

أخفق الفلسطينيون في المقابل في فهم طبيعة هذه الحملة، وبالتالي في تأسيس استراتيجية مضادة، وظلوا في المقابل ينادون بالشرعية الدولية لحل قضيتهم، وما لم يفهمه الفلسطينيون فعلاً، أن المعركة السياسية الحقيقية لم تكن تدور حول تعريف مفاهيم مجردة مثل العدالة، بل إن المعركة كانت حول تعريف هوية الفلسطينيين ومن هو هذا الشعب، وهي المعركة التي خسرها الفلسطينيون طويلاً حتى اليوم، لأن الإسرائيليين نجحوا في تعرية خصومهم من صفة الإنسانية، وهكذا فقدوا الحق بالمطالبة بالعدالة. لقد تعلمت هذا الدرس قبل ثلاثة عقود تقريباً عندما زارني عمدة «الناصرة» في ذلك الوقت توفيق زياد؛ تلك المدينة الشهيرة بأنها مهد طفولة المسيح ولذلك تحمل أهمية دينية خاصة، لكنها اليوم مدينة إسرائيلية تسكنها أغلبية عربية فلسطينية تحمل الجنسية الإسرائيلية.

(1) Philip Paull, «`International Terrorism': The Propaganda War» (master's thesis, San Francisco State University, 1982).

كان توفيق زياد معروفاً في جميع أرجاء العالم العربي بشعره الذي يتغنى بفلسطين ويصور نكبة أبنائها، غير أنه كان شخصاً واقعياً جداً ويتمتع بروح الفكاهة، وقد كان لقائي الأول به عام 1975 في مطار جي إف كي بنيويورك، حيث جاء ضمن مجموعة من القادة العرب الإسرائيليين الذين حضروا للولايات المتحدة في جولة لإلقاء بعض المحاضرات. حييت أحدهم وهو رجل مثقف معروف، ثم استدرت إلى زياد وأخبرته بأنني كتبت فصلاً من رسالتي عنه، فالتفت زياد إلى زميله ضاحكا وهو يقول: «إنه يقرأ لك ويعرفك، لكنه يكتب عني أنا!»

بعد ذلك اللقاء بخمس سنوات، عاد زياد إلى الولايات المتحدة في جولة أخرى، وفي كل لقاء له كان يستنكر العنف الذي تستخدمه بعض الفرق الفلسطينية. وفي إحدى المناسبات كان هناك حفل لجمع الأموال أقامته إحدى المنظمات الفلسطينية الأمريكية، يقوم على عرض لجوانب من الفلكلور الفلسطيني من فنون الدبكة والأثواب التقليدية والشعر، وفي إحدى الفقرات ظهر على المسرح مجموعة من الأطفال الذين كانوا يرتدون الزي العسكري ويحملون بنادق خشبية بين أيديهم، فالتفت إليَّ زياد قائلاً: «هذا ليس جزءاً من تراثنا أو من ثقافتنا، بل إنه مع الأسف فُرض علينا، ولا يجوز أن نحتفل به»[1].

كان توفيق زياد ذاته جزءاً من تراث الحكاية الفلسطينية، وهو تراث يعكس تمسك الفلسطينيين بأرضهم، ورغبتهم في استعادة هويتهم وتراثهم المفقود، ولقد خبرت ذلك العالم في منتصف السبعينيات من خلال شعر زياد وزملائه الشعراء الفلسطينيين أمثال فدوى طوقان وإبراهيم طوقان ومحمود درويش وسميح القاسم، كما اكتشفت رسامين موهوبين مثل كمال بُلاطة وإسماعيل شموط، حولوا الأمل إلى صوت جماعي يعبر عن أحلام شعبهم، وكان لابد لأعمال هؤلاء أن تُحترم وتُنشر حتى يعرف الآخرون ما فقده الفلسطينيون

(1) James Zogby, personal notes from a conversation with Tawfiq Zayyad, October 2, 1980.

ويستمعوا إلى صوتهم المطالب بالعدالة.

الآن وبعد مرور أربعة عقود، فإن أكثر ما يؤلمني هو كمية الأعمال التي فُقدت أو لم تظهر للعلن، فالحكايات لم تُحك والشعر لم يُنشر على نطاق واسع لسنوات، كما أن معظم اللوحات الفنية لم تُعرض، أما الأجيال الجديدة التي ترغب في معرفة فلسطين والصراع الدائر فيها فلا بد أن تلجأ للنشرات الإخبارية أو البيانات السياسية.

عندما أرى آلاف الرجال يتظاهرون في غزة، معبرين عن غضبهم، وملوحين بقبضاتهم في الهواء، وأستمع إلى خطب قادة حماس المشحونة، أتذكر دعوة توفيق زياد لنبذ العنف ووقف الاحتفاء به، غير أن أسباب غضب هؤلاء الشباب في غزة لم تعد سراً على أحد، إذ تصاعدت نسب البطالة في منتصف التسعينيات لتصل إلى 50٪ ثم إلى 80٪ بعد أن سيطرت إسرائيل على منافذ غزة جميعها، معيقة حركة تنقل العمال من القطاع وإليه، بالإضافة إلى وقف التصدير والاستيراد. وقد علق الفلسطينيون في شبكة الفقر ضمن بقعة تعد من أكثر مناطق العالم ازدحاماً بالسكان، وهكذا لم يجد الشباب أمامهم إلا دعاة التطرف ملجأً، ليتولد العنف الذي حصد أرواح الأبرياء من الطرفين، غير أن المأساة الأعمق كانت فقدان هؤلاء الشباب أحلامهم وآمالهم تحت قيادة حماس، ليؤكدوا في النهاية الصورة النمطية المرسومة للفلسطينيين في الغرب.

رفضت إسرائيل عام 2005 العمل مع السلطة الفلسطينية بناءً على اقتراح قدمته الولايات المتحدة عبر وزيرة خارجيتها كونداليزا رايس، يتمثل في تفاوض إسرائيل مع الرئيس الفلسطيني محمود عباس حول خطة انسحاب تسمح باتفاق حول حركة البضائع والخدمات من قطاع غزة وإليه، والسماح للسلطة الفلسطينية بنقل سلطتها ممثلة بقواتها الأمنية وإداراتها إلى القطاع، غير أن إسرائيل أصرت على انسحاب من طرف واحد. ومع أن رايس استطاعت الضغط على إسرائيل للموافقة على هيكل عام لخطة اقتصادية لمرحلة ما بعد

الانسحاب، فإن تلك الخطة لم تنفذ مطلقاً. وبزيادة عزلة غزة عن العالم الخارجي لم يبق إلا الفقر والغضب المتصاعد في نفوس أهلها، ولأن السلطة الفلسطينية لم تكن حاضرة هناك لتقديم الدعم السياسي والاقتصادي وحُرمت من حرية الحركة بين غزة والضفة الغربية، أصبحت حماس هي القوة الوحيدة المتنفذة في غزة.

اتخذت حركة حماس قرارات عنيفة للغاية بعد فوزها بالانتخابات التشريعية عام 2006، فبدلاً من وقف العنف، سمحت باستمراره، وبدلاً من الدفع باتجاه توازن السلطة ومحاولة تأمين احتياجات الشعب وتحسين الاقتصاد من أجل تمكين الناس وإعطائهم المزيد من فرص العمل، ظلت حماس على تشددها وكأنها حزب معارض لا حكومة جديدة ينبغي أن تحوي جميع الاتجاهات، لذلك خسرت حكومة حماس الدعم الدولي مبددة بذلك ثمار نجاحها في الانتخابات.

لقد تجاهلت حماس درساً تاريخياً مهماً وهو ألا تختار معركة لا تستطيع كسبها، وظلت تصر على خيارات زادت بالطبع من صعوبة الحياة بالنسبة إلى الفلسطينيين في القطاع، بالإضافة إلى إصرارها على لعب دور الإرهاب، مما أسهم أكثر فأكثر في تعزيز الصورة النمطية التي رسمتها إسرائيل للفلسطينيين منذ زمن بعيد، وأصبح ذلك جزءاً من مأساة فلسطين اليوم، غير أن تلك المأساة ليست مقصورة على الفلسطينيين وحدهم، بل هي مأساة إسرائيل أيضاً، فهي تعيش جنباً إلى جنب مع جيران لا تراهم ولا تفهمهم. كما ينطبق ذلك أيضاً على الضفة الغربية والجدار العازل الذي بني حولها، والذي يمتد الآن مئات الأميال عبر الأراضي الفلسطينية قاطعاً بعض القرى إلى نصفين، وحاجباً المستعمرات الإسرائيلية تماماً عن جيرانها في الجانب الآخر من الجدار.

إن حقيقة أن الإسرائيليين لا يرون جيرانهم الفلسطينيين ولا يفهمونهم، لها جانب مجازي آخر ظهر لي واضحاً في مقال في جريدة نيويورك تايمز عام 2009، يصف صراع فرقة من العازفين الشباب في غزة وجهل جيرانهم الإسرائيليين

بإمكانية وجود فنانين فلسطينيين يمكنهم عزف الموسيقى الكلاسيكية، وقد اقتبس المقال قول نعوم بن زين –وهو ناقد موسيقي– في جريدة هآريتس: «نحن لا نراهم كبشر يمتلكون ثقافتهم الخاصة»[1].

كان التفوق العسكري الإسرائيلي سبباً في عدد من الحروب في المنطقة بداية بحرب عام 1948 ثم 1956، 1967، 1973، 1978، 1982، 2006، 2008–2009، هذا بالإضافة إلى الطلعات الجوية والردود الانتقامية السريعة على عمليات محددة. وعلى الرغم من جميع تلك العقبات والنكسات، مازال هناك بعض الفلسطينيين الذين يسعون إلى استعادة قصة أمتهم الحقيقية وعكسها بطريقة إيجابية، فهناك على سبيل المثال رئيس الوزراء الفلسطيني سلام فياض الذي يقترح خطة تنفذ على مدى عامين وهي، فلسطين: إنهاء الاحتلال، ثم تأسيس الدولة. وتدعو هذه الخطة الفلسطينيين إلى بناء الاقتصاد والخريطة السياسية والأجهزة الأمنية في الضفة الغربية حتى تستطيع احتضان الدولة الفلسطينية تمهيداً لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي. لقد كان فياض جريئاً في تقديم هذا البرنامج للندوة الاقتصادية العالمية في سويسرا، بالإضافة إلى المؤتمر السياسي السنوي الأهم في إسرائيل في هرزليا. وهناك أيضاً ظاهرة المسيرات السلمية ضد الجدار الإسرائيلي العازل في الضفة الغربية، وقد استقطبت بعض تلك المسيرات عدداً من دعاة السلام في إسرائيل، فضلاً عن دعم بعض الجهات الغربية، وقد أبدع بعض المتظاهرين في إيصال رسالتهم للعالم، حين طلى هؤلاء أجسادهم باللون الأزرق ليمثلوا أعضاء من قبيلة نافي التي ظهرت في فيلم أفاتار، وكانت الرسالة واضحة جداً، فهؤلاء الفلسطينيون –مثلهم كمثل قبيلة نافي– هم أصحاب حق، لذلك فمقاومتهم للاحتلال هي مقاومة مشروعة.

يتعمق صدع الصراع الإسرائيلي الفلسطيني أكثر فأكثر في مواجهة التعنت الإسرائيلي تجاه حقوق الفلسطينيين ليصل إلى عمق الوطن العربي، وقد أكدت استطلاعات الرأي التي قمنا بها في مختلف الدول العربية أهمية القضية

(1) Daniel J. Wakin, «Minuets, Sonatas and Politics in the West Bank,» New York Times, May 31, 2009, http://wwwnytimes.com/2009/06/06/arts/ music/oldali.html.

الفلسطينية بالنسبة إلى الشعوب العربية، إذ يعتبرها العرب قضيتهم الشخصية، وقد أجاب اثنان من كل ثلاثة مغاربة بأن القضية الفلسطينية مهمة وقد كان ذلك أقل معدل لدعم القضية الفلسطينية حصلنا عليه من خلال الاستطلاع الذي شمل عدة شعوب عربية، أما معظم الدول الأخرى فقد أظهرت دعماً بمعدل 85٪ أو أكثر (انظر الجدول 13-1)، إذ إن العرب يشتركون مع الفلسطينيين في الهوية العربية، أما على المستوى السياسي فإن العرب يرون أن القضية الفلسطينية هي العائق الأكبر أمام السلام والاستقرار في الشرق الأوسط. بمعنى آخر، يرى معظم الذين شملهم الاستطلاع في كل بلد عربي أن حلَّ الصراع العربي- الإسرائيلي هو الخطوة الأولى نحو مستقبل سياسي أفضل في المنطقة (انظر الجدول 13-2).

بالنظر إلى أهمية الشأن الفلسطيني، فإن من المدهش أن العرب لايزالون يدعمون الحل السلمي للقضية على أساس الدولتين بعد كل الإحباط الذي يواجهونه جراء الدعم الأمريكي المتواصل للسياسة الإسرائيلية، مع أن استطلاعاتنا تشير إلى أن عدداً من العرب لا يعتقدون أن إسرائيل ستقبل بهذا الحل (انظر الجدول 13-3).

جدول 13-1 أهمية القضية الفلسطينية

السؤال الموجه في الاستطلاع حول أهمية القضية الفلسطينية من 1 إلى 5 حيث 1 هو الأقل أهمية و5 هو الأكثر.

	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
مهمة	66	76	88	90	88	85
غير مهمة	19	12	7	4	12	2

المصدر: زغبي الدولية/المعلومات الدولية، استطلاع في ست دول عربية، نوفمبر 1-18، 2009، شملت العينة 3,989 بالغاً. لم تتضمن النتائج آراء من قالوا بأنهم غير واثقين.

جدول 13–2 أهم العقبات أمام السلام والاستقرار في الشرق الأوسط.

	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط	38	37	10	9	40	10
نقص الديمقراطية	3	5	11	15	7	7
الخلل في توزيع الثروات	4	3	11	4	6	11
الصراع الفلسطيني الإسرائيلي	53	54	58	69	47	59
إيران	1	1	7	2	1	12
الدين	1	1	2	1	—	2
لا أعرف	1	1	2	1	—	—

المصدر: زغبي الدولية/المعلومات الدولية، رأي العرب حول أداء أوباما خلال المائة يوم الأولى من حكمه. استطلاع في ست دول عربية، 21 إبريل – 11 مايو 2009. شملت العينة 4,087 بالغ، وتم تقريب النسب إلى أقرب عدد صحيح.

ورغم مرور أكثر من ستين عاماً على الصراع العربي الإسرائيلي وخيبات الأمل المتواصلة حول هذا الموضوع، فإن العرب ظلوا متفائلين بقدوم السلام (انظر الجدول 13–4).

الجدول 13–3 هل أنت مستعد للسلام؟

أي الجمل التالية تعبر عن وجهة نظرك؟

1. **أنا مستعد لسلام عادل وشامل مع إسرائيل إذا كانت إسرائيل مستعدة لإعادة كل الأراضي المحتلة عام 1967 بما فيها القدس الشرقية، وعلى الحكومات العربية أن تبذل جهداً في ذلك.**
2. **أنا مستعد لسلام عادل وشامل مع إسرائيل إذا كانت إسرائيل مستعدة لإعادة كل الأراضي المحتلة عام 1967 بما فيها القدس الشرقية، غير أني لا أعتقد أن إسرائيل ستتخلى عن تلك الأراضي سلمياً.**

3. حتى لو أعادت إسرائيل كل الأراضي المحتلة عام 1967 سلمياً، على العرب أن يستمروا في قتال إسرائيل مهما كانت النتائج.
4. غير متأكد

	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
1	14	14	34	36	37	10
2	49	52	47	49	44	70
3	6	8	18	13	18	8
4	22	14	2	2	1	12

المصدر: زغبي الدولية، شمل الاستطلاع ست دول عربية، 1–18 نوفمبر، وشملت العينة 3,989 بالغاً.

جدول 13–4، ما احتمالية أن ترى السلام يتحقق في حياتك؟

	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
ممكن جداً	27	24	16	18	19	25
ممكن نوعاً ما	50	53	60	61	63	12
مستحيل	20	19	23	18	18	60

المصدر: زغبي الدولية، شمل الاستطلاع ست دول عربية، 1–18 نوفمبر، وشملت العينة 3,989 بالغاً.

بالنظر إلى مركزية الصراع العربي– الإسرائيلي في المنطقة، وحاجة الولايات المتحدة إلى وجودها قرب مصالحها في هذه المنطقة، فعلينا أن نعمل بجدية على تقريب وجهات النظر ونبدأ بعملية تضميد الجراح بين الطرفين.

لقد حاول الرئيس أوباما في الفترة الأولى من رئاسته أن يبث الأمل بين العرب بأنه سيحاول جاداً العمل على تحقيق حلم السلام، إذ قال في اليوم الثاني لتوليه الرئاسة وأثناء تعيينه جورج ميتشيل مبعوثاً خاصاً للشرق الأوسط:

«الآن، وفي الوقت الذي نتعاطف فيه مع الإسرائيليين حيال تساقط الصواريخ على حدودهم، فإننا نتعاطف كذلك مع الفلسطينيين الذين يبدو مستقبلهم مظلماً، إذ يواجه السكان المدنيون نقصاً في الغذاء والدواء والماء الصالح للاستعمال بعد أن عانى هؤلاء طويلاً من فقر خانق. لا بد أن تفتح المعابر في غزة لتسمح بوصول المساعدات وتبادل المواد إذا أردنا هدنة طويلة الأمد، وستدعم الولايات المتحدة مؤتمراً دولياً لضمان وصول مساعدات للفلسطينيين على المدى القريب، بالإضافة إلى المساعدة في إعادة ترميم الاقتصاد الفلسطيني على المدى البعيد[1]».

أظهر الرئيس أوباما كذلك إشارات أخرى لدعم الرواية الفلسطينية للصراع عندما حث إسرائيل على إيقاف ما سماه ببناء المستوطنات غير الشرعية، وفي المقابل حث الفلسطينيين على وقف العنف والتحريض على إسرائيل، كما حث الدول العربية على إبداء بعض الليونة تجاه إسرائيل. وهذه هي الطريقة الصحيحة لولوج الولايات المتحدة إلى وجهتي النظر للطرفين. غير أن هذا الموقف بحاجة إلى مزيد من التماسك والثبات، وهنا تعثر فريق أوباما أكثر من مرة.

كانت الإشارة الأولى التي تلقاها العرب من إدارة أوباما حول إمكانية تراجع هذه الإدارة عن مواقفها في سبتمبر 2009 خلال اجتماع للهيئة العامة للأمم المتحدة في نيويورك، إذ تراجع الرئيس الأمريكي عن الضغط على إسرائيل لإيقاف بناء المستوطنات، على الرغم من أنها كانت مسألة مهمة في بناء الثقة بين الإدارة الأمريكية والفلسطينيين قبل بدء المفاوضات. وربما أدرك أوباما أن إسرائيل سترفض وقف بناء المستوطنات، لذلك طلب من الطرفين البدء في المفاوضات دون شروط مسبقة[2]. لقد أخفقت الإدارة الأمريكية في تقدير أهمية هذا الموضوع بالنسبة إلى الفلسطينيين، بعد أن تضاعف عدد المستوطنات

(1) President Barack Obama, speech announcing the appointment of George Mitchell as special Middle East peace envoy, U.S. Department of State, Washington, DC January 22, 2009.

(2) President Barack Obama, speech to the United Nations General Assembly, September 23, 2009.

أكثر من مرة منذ توقيع اتفاقية أوسلو عام 1993، ودون الاتفاق على تجميد بناء هذه المستوطنات يبقى الجانب الفلسطيني متشككاً في نوايا إسرائيل حول الانسحاب من الأراضي المحتلة.

بعد زهاء شهر وفي أكتوبر عام 2009، خيبت الإدارة الأمريكية آمال العالم العربي مرة أخرى عندما رفضت نتائج تقرير لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان حول جرائم حرب ارتكبتها إسرائيل وحماس خلال الحرب على غزة، وأجبرت القيادة الفلسطينية على سحب تأييدها لنتائج هذا التقرير، وبذلك فقدت القيادة الفلسطينية دعم شعبها، الذي أراد محاسبة كلٍّ من إسرائيل وحماس على أفعالهما.

تصاعد شعور الفلسطينيين بالخذلان عندما أعلنت وزيرة الخارجية بحماسة عن قبولها عرض إسرائيل بإيقاف بناء المستوطنات مدة عشرة أشهر فقط في الضفة الغربية في نوفمبر 2009، وقد كان ذلك كافياً ليعكس أن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت بالتراجع عن مطلبها الأول بوقف الاستيطان نهائياً قبل البدء بالمفاوضات.

لا عجب إذاً أن شعبية أوباما انخفضت نوعاً ما عندما أجرينا استطلاعنا في نهاية عام 2009، إذ كان معظم العرب ما عدا السعوديين غير واثقين بأن الإدارة الأمريكية يمكن أن تلعب دوراً مهماً في التوصل إلى حلٍّ للمشكلة (انظر الجدول 13—5).

وقد كان الأمر أكثر وضوحاً في الاستطلاعات التي أجريناها على الفلسطينيين في الفترة ذاتها، إذ كانوا أقل ثقة بجهود الإدارة الأمريكية، ورأى 87٪ ممن شملهم الاستطلاع أن الولايات المتحدة لم تكن ملتزمة بعملية السلام، في حين رأى 21٪ فقط أن إدارة أوباما كانت ملتزمة بمساعدة الفلسطينيين على إنهاء الاحتلال. كما عبر 36٪ من الفلسطينيين عن رأيهم أن إدارة أوباما تمثل تغييراً إيجابياً مقارنة مع إدارة بوش، في حين رأى 60٪ منهم ألا فرق مطلقاً بين الإدارتين[1].

(1) Palestine Center for Public Opinion, Poll #168, November 2009 Sample size: 1,050

لقد تسبب المشكلة التي عرضناها آنفاً بالأخطاء التي وقعت فيها الإدارة الأمريكية، ومع أن الإدارة الأمريكية الحالية بدت مختلفة في البداية، فإنها لم تنجح في منح اهتمام متساوٍ لوجهتي النظر الفلسطينية والإسرائيلية، وهو خطأ حاولت تلك الإدارة معالجته في مارس 2010 عندما أعلنت إدانتها لبرنامج المستوطنات في القدس الشرقية المحتلة، مع تأكيد الولايات المتحدة دعمها لأمن إسرائيل. ورغم ذلك أشارت استطلاعاتنا في مارس 2010 إلى أن هذا الجهد الذي بذلته الولايات المتحدة لم ينجح تماماً في تغيير فكرة الرأي العام العربي عن الإدارة الأمريكية، فقد ظهر في الاستطلاع هبوط في الثقة بالولايات المتحدة، وعبّر ربع السعوديين فقط، وواحد من كل عشرة مصريين ولبنانيين وأردنيين وأقل من واحد بالمائة من الفلسطينيين عن ثقتهم بالإدارة بقيادة أوباما على حل الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي[1].

في النهاية، ليس المطلوب من الإدارة الأمريكية أن تفضل طرفاً على آخر، بل المطلوب أن تسير الإدارة الأمريكية في السياسة التي أعلنتها سلفاً، وهي سياسة التوازن بين الطرفين للمضي قدماً في عملية السلام. وعندما سُئل الأمريكيون عن الجانب الذي يجب أن تنحاز إليه الولايات المتحدة، أجابت الغالبية العظمى بأن الإدارة الأمريكية يجب أن تتخذ موقفاً متوازناً بين الطرفين، أما عند سؤال الأمريكيين أي العلاقات هي الأهم بالنسبة للولايات المتحدة، علاقاتها بإسرائيل أم بالعرب، أم أن الطرفين متساويان في الأهمية، أجابت غالبية ساحقة من الأمريكيين بأن علاقات الولايات المتحدة مع كل من الطرفين متساوية في الأهمية، (انظر الجدول 13-6، 13-7).

adults. Arab World for Research and Development (AWRAD), Role of the the U.S. Government Evaluation of Living Conditions and Institutions, Elections and Reconciliation, December 8-10, 2009. Sample size: 1,200 Palestinians in the West Bank and Gaza.

(1) Zogby International, Arab Update Poll, April 3-30, 2010 Sample size: 4,658 adults.

جدول 13-5: تقييم تعامل الإدارة الأمريكية مع الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي.

ستكون إدارة أوباما عادلة في تعاملها مع الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي:						
	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
أوافق	35	42	24	29	62	13
لا أوافق	41	43	52	38	26	68
لا يوجد رئيس أمريكي عادل في هذا الموضوع	20	11	20	18	9	19

المصدر: زغبي الدولية، رأي العرب في الرئيس أوباما بعد الـ100 يوم الأولى من توليه الرئاسة. استطلاع في ست دول عربية، 21 إبريل- 11 مايو 2009. شملت العينة 4,097 بالغاً.

ملاحظة: تعبير أوافق ضم من يوافقون بشدة ومن يوافقون نوعاً ما، أما تعبير لا أوافق فقد ضم من يعترضون بشدة ومن يعترضون نوعاً ما، وقد تم تجاهل من لم يكونوا متأكدين.

خلال السنوات الأولى من عملية السلام في أوسلو، كنت ضمن كثيرين ممن يعتقدون أن الأوان قد حان لإنهاء الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، وبعد توقيع الاتفاقية في سبتمبر 1993 في البيت الأبيض، كان العرب الأمريكيون واليهود الأمريكيون بالإضافة إلى زعماء كثيرين في العالم يؤمنون بأن هذا الصراع يقترب من الحل، لكن للوصول إلى هذا الحل كان لا بد من وجود قيادة أقوى من تلك التي كانت موجودة آنذاك، فبدلاً من الحل المنشود توسعت دائرة العنف والخوف وتصاعدت وصولاً إلى نقطة لم يعد يستطيع معها القادة الإسرائيليون والفلسطينيون حلّ المشكلة وحدهم، مما يضيف عبئاً أكبر على الولايات المتحدة والغرب عموماً بالاستماع إلى الأصوات المنادية من الطرفين. وإذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لقيادة الجهود من أجل السلام فعليها أن تتخلى عن انحيازها لإسرائيل وتطور أسلوباً جديداً لفهم هذا الصراع، وحتى

يحدث ذلك لن يكون هناك فائزون من أي طرف، بل سيكون هناك المزيد من الضحايا.

جدول 13–6، سياسة الولايات المتحدة للسير في عملية السلام.

ماذا تعتقد أن على الولايات المتحدة أن تفعله للتقدم في عملية السلام؟	
السياسة الأمريكية	نسبة الموافقين
الانحياز لإسرائيل	22
الانحياز للفلسطينيين	3
اختيار سياسة وسطية	70

المصدر: زغبي الدولية، استطلاع لرأي الناخبين الأمريكيين، 30 نوفمبر، 30 نوفمبر– 8 ديسمبر 2009، شملت العينة 1,006 بالغين.

جدول 13–7: أهمية العلاقات الأمريكية مع إسرائيل والعرب

حسب رأيك، ما الهدف الأهم بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية الواجب اتباعه؟	
الأهداف	نسبة الموافقين
علاقة الولايات المتحدة مع إسرائيل	11
علاقة الولايات المتحدة مع العرب	6
كلّ منهما يمثل أهمية متساوية	80

المصدر: زغبي الدولية، استطلاع لرأي الناخبين الأمريكيين، 30 نوفمبر، 30 نوفمبر– 8 ديسمبر 2009، شملت العينة 1,006 بالغين.

بالإضافة إلى ذلك، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار ملاحظة الجنرال دايفيد بتراوس القائد الأعلى للقوات الأمريكية، حين قال إن الإخفاق في حلّ هذا الصراع سيقوض المصالح الغربية في الشرق الأوسط، وذلك في خطاب له أمام مجلس الشيوخ في مارس 2010، مضيفاً إن العداء المتواصل بين إسرائيل وجيرانها يمثل تحدياً كبيراً لقدرتنا على رعاية مصالحنا في المنطقة، إذ إن هذا

الصراع يثير مشاعر معادية للولايات المتحدة في العالم العربي، لما تقدمه من دعم لإسرائيل. إن المشاعر الغاضبة التي يحملها العرب ضدنا تحد من تعميق علاقاتنا مع الحكومات والشعوب، وتضعف من شرعية الأنظمة المعتدلة في العالم العربي، في حين يستغل تنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات المسلحة هذه المشاعر لصالحها، كما أن هذا الصراع يتيح الفرصة لإيران لمد نفوذها في العالم العربي[1].

(1) General David Petraeus, testifying before the Senate Armed Services Committee, March 16, 2010.

الفصل الرابع عشر

العرب الأمريكيون: جسر لردم الهوة

دُعيت عام 2005–2006 إلى براغ ووارسو وبرلين ولندن للحديث حول أوضاع المهاجرين من العرب والمسلمين في الولايات المتحدة، إذ كان هناك قلق متزايد في أوروبا من أن تغريب المجتمعات المسلمة فيها قد يودي بشباب هذه المجتمعات إلى التطرف، ولأنني أمتلك خبرة طويلة في التعامل مع العرب المهاجرين في الولايات المتحدة، فضلاً عن تواصلي الدائم مع العرب والمسلمين في أوروبا، فإنني مطلع على المشاكل التي تواجهها الجماعات العربية، والفرق الكبير بين التجربتين الأوروبية والأمريكية.

قابلت خلال جولتي شباناً من الجيل الثالث في المهجر من الجالية الكردية في ألمانيا، وآخرين من الجالية الجزائرية في فرنسا، وباكستانيين في المملكة المتحدة، وقد اتفقوا جميعاً على أنهم يعيشون على هامش مجتمعاتهم. وربما يكونون مواطنين ناجحين في تلك المجتمعات، غير أنهم يظلون دائماً أتراكاً أو عرباً أو باكستانيين بالنسبة إلى المجتمعات الأوروبية التي يعيشون فيها.

تُظهر أمريكا في المقابل حالة خاصة جداً من الاحتواء، فهي أمة فريدة من المهاجرين قدموا، رجالاً ونساءً، من جميع أصقاع الأرض ليصبحوا أمريكيين خلال جيل واحد؛ فقد قذفت أمواج من الهجرة بآلاف القادمين الجدد، الذين يحملون ثقافات مختلفة وتجارب متعددة وديانات أخرى إلى الولايات المتحدة. إن احتواء كل هؤلاء المهاجرين ضمن الحياة الأمريكية لا يمحو اختلافاتهم ولا يفقدهم ثقافاتهم، بل إن هذه الاختلافات تثري النسيج الاجتماعي وتعطي لأمريكا معناها الحقيقي، وهذا الانفتاح على التنوع والاختلاف هو أحد الملامح الإيجابية في الشخصية الأمريكية.

بالتأكيد، كان هناك دائماً من ينادي بسيطرة عرق واحد أو ديانة واحدة في

أمريكا، وحاول هؤلاء إغلاق الأبواب أمام الآخرين والحد من سقف الحرية في هذه البلاد، وقد كانت هناك ضغوطات كثيرة خلال القرن المنصرم للحد من الهجرات والتضييق على الأمريكيين الجدد، غير أن أمريكا المنفتحة كانت تكسب المعركة في النهاية ليصبح المهاجرون الجدد مواطنين فاعلين في المجتمع يثرون تركيبته بتنوعهم، غير أن ذلك لم يحدث دون صراع وصعوبات عدة حاول الجميع التغلب عليها.

مع بدايات القرن الماضي على سبيل المثال، كان الجميع ينظرون إلى المهاجرين الإيرلنديين نظرة دونية، أما في عشرينيات القرن فقد كان الإيطاليون هم المستهدفون، وكذلك تعرض اليهود للتمييز العنصري، وحدث ذلك لاحقاً للبولنديين والمهاجرين من أوروبا الشرقية الذين كانوا موضعاً للشبهات، وتعرضوا للكثير من العنف من جانب جماعة «الأمريكيين الحقيقيين». وبحلول عام 1960 عندما انتخب جون كنيدي –بعد أن تجاوز شكوك الناخبين حول عقيدته الكاثوليكية– بدأت الأمور تنحو إلى التغيير في المجتمع الأمريكي. ومع ذلك، لم يكن الأمريكيون من أصول إفريقية –حتى ذلك الوقت– يمتلكون حق الانتخاب بعد. كل هذا صحيح بالطبع، غير أن القصة الأمريكية لم تكن لتتكامل دون إسهامات الأمريكيين الأفارقة، والأمريكيين اليهود، والإيرلنديين، والايطاليين، وآخرين كُثر ممن وضعوا بصمتهم في تاريخ هذه الأمة.

واجه العرب الأمريكيون كذلك التمييز العنصري ضدهم في أمريكا، وقد شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى جهوداً كثيرة داخل الكونغرس للحد من أعداد المهاجرين القادمين من جنوب أوروبا والدول الآسيوية، وبما أن معظم العرب الأمريكيين ينحدرون من أصول لبنانية وسورية (دول البحر الأبيض المتوسط في القارة الآسيوية) فقد حُددت نسبة المهاجرين من تلك الفئة لتنخفض بصورة كبيرة، وفي تبرير السيناتور دايفيد ريد، وهو المسؤول عن تحديد نسب المهاجرين في الفترة ما بين 1922–1935، أوضح أنه يرغب في

تقليل أعداد من أسماهم «بالحثالة السورية» في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كتبت إحدى صديقات والدتي السيدة ليلى مندور رسالة غاضبة للسيناتور ريد عام 1929 تعترض فيها على ما جاء في خطابه من وصف للسوريين، وكان رد السيناتور كما يلي:

«أنا لم أقل أن كل السوريين (حثالة)، لكنني قلت ذلك في سنوات سابقة عندما كنا نستقبل حثالة البحر الأبيض المتوسط، التي كان معظمها يأتي من سوريا وتركيا، وأنا أعتقد أننا سمحنا بدخول عدد كبير من المهاجرين غير المرغوب فيهم من منطقة البحر الأبيض المتوسط، ومن ضمنهم سوريون يختلفون عنك وعن بعض أبناء عرقك، ولا يمكن تصنيفهم بأنهم مهاجرون جيدون»[1].

كانت أمي -كمثل السيدة ليلى- فخورة بتراثها، وعندما كانت في الواحدة والعشرين من عمرها كتبت مقالاً في مجلة عربية أمريكية عن حاجة العرب الأمريكيين في ذلك الوقت للتعرف إلى تراثهم والتمسك به، وانتقدت تصرفات بعض أبناء جيلها آنذاك:

«يخجل كثير من جيل الشباب السوريين في هذا البلد من الاعتراف بأصولهم السورية، فهم يرفضون تعلم العربية، وحتى لو كانوا يعرفون اللغة العربية فهم يترددون في استعمالها خجلاً من أن يسمعهم أحد، كما أنهم يرفضون التقاليد والعادات السورية ظناً منهم أنهم بذلك يصبحون أمريكيين، فكيف إذن سنكتسب احترام الآخرين إذ لم نكن نحترم أنفسنا؟»[2].

وقد كانت أمي على حق تماماً، ومازالت رسالتها تلك تلهمني حتى اليوم في عدد من المناسبات، ففي أواخر الستينيات -عندما كنت أدرس في جامعة تمبل في فيلادلفيا- اشتركت في مسيرة ضد الحرب في فيتنام، وعندما كنت

---

(1) David Reed, United States Senator from Pennsylvania, in a letter to Lila Mandour, May 21, 1929, personal files of James Zogby, Washington, DC.

(2) Saleemie A. Zogby, «Syrians Are Respected,» The Syrian World, Volume I (April 1927): 51,

ألقي خطاباً حول المناسبة، صرخ أحد الحاضرين: «لماذا تسمحون للعرب بالحديث؟» لم أعرف في البداية أنني كنت المقصود بذلك النداء، وقد ذهلت عندما علمت أنه كان يعنيني. وبعد تلك الحادثة بعدة سنوات عندما كنت أستاذاً مساعداً في قسم الأديان، تلقيت رسالة تهديد من مجموعة دينية يهودية تقول: «أيها الكلب العربي سوف تموت»، وكان ذلك تحذيراً لي بألا تطأ قدمي حرم الجامعة مرة أخرى، وفي اليوم التالي، وعند وصولي إلى الصف الذي كنت أحاضر فيه، كانت مجموعة من أعضاء تلك الجماعة تتجمهر أمام الباب مهددة باستعمال العنف ضدي، غير أن أمن الجامعة استطاع تفريقهم وإزاحتهم عن الطريق، ومنذ ذلك اليوم بدأت أفهم مغزى تلك العنصرية.

لم أعتبر نفسي عربياً في يوم من الأيام، لقد كان لدي عدد كبير من الأصدقاء والطلاب من العرب على اختلاف جنسياتهم غير أنني لم أكن عربياً، فقد ولدت في يوتيكا في نيويورك، ورغم أنني فخور بتراثي العربي، فإنني كنت دائماً أعد نفسي عربياً أمريكياً، لكن بالنسبة إلى بعض أبناء وطني من الأمريكيين يبدو أن صفة العربي كانت تنزع عني صفة الأمريكي.

عبر السنين فيما بعد، ظلت خلفيتي العرقية تظهر من حين لآخر في عدة مناسبات، ففي عام 1972، ذهبت في مقابلة من أجل وظيفة أستاذ في قسم التاريخ والفلسفة بجامعة شيبنزبيرغ في جنوب وسط بنسلفانيا، وقد كنت كذلك مؤهلاً للتدريس في مجال الشرق الأوسط والإسلام، غير أن المشرفين على المقابلة أوضحوا لي أنني لن أقوم بتدريس أيٍّ من هذه المواضيع، إذ سيكون ذلك موضع جدل كبير في القسم. وبعد ذلك بعدة سنوات، وعندما كنت أدرس مادة متخصصة في الشرق الأوسط في كلية ديكنسون، سألني أحد الإداريين إن كنت أرغب في تدريس مساقات أخرى ولمّح لي إن كنت أستطيع مساعدته في إقناع بعض العرب بتمويل تلك المساقات.

يبدو أن انحداري من أصول عربية كان يثير الشكوك في بعض المواقف، في حين يثير الشهية لجلب المزيد من الأموال في مواقف أخرى. وبغض النظر عن

الدوافع التي تسببت بمثل هذه المواقف سواءٌ كانت سياسية أو عرقية أو دينية، فإن تلك المواقف ظلت تطاردني فترة طويلة، فمن رسائل التهديد عبر البريد الإلكتروني إلى التعليقات الموجهة إليّ في المقابلات التلفزيونية، والتي مازالت أذكر أحدها عندما استضافني جون ماك لوغلن صاحب البرنامج السياسي وَن أون وَن في قناة NBC إن بي سي عام 1999، وقد دار بيننا الحوار التالي:

ماك لوغلن: ألا تريد سلطة في القدس؛ عاصمة دولتك المقبلة في فلسطين؟

زغبي: فلسطين ليست دولتي المقبلة.

ماك لوغلن: لكنك عربي.

زغبي: أنا مواطن أمريكي وعاصمتي هي واشنطن[1].

لا بد هنا أن أضيف ولو بعجالة أن كوني مواطناً أمريكياً هو أمر غير مفهوم بالنسبة إلى العرب كذلك وليس بالنسبة إلى الأمريكيين وحسب. وقد دُعيت لإلقاء خطاب في اجتماع لوزراء الخارجية العرب في الجامعة العربية في سبتمبر عام 2002، وذلك في مقر الجامعة بالقاهرة، حيث كانوا يرغبون في التعرف على تجارب العرب الأمريكيين في الولايات المتحدة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر مباشرة، وقد استفدت من فرصة وجودي في ذلك المكان لأوضح للحاضرين أن يتواصلوا مع الشعب الأمريكي مباشرة للتغلب على الآثار السلبية والصورة النمطية التي خلفتها هجمات الحادي عشر من سبتمبر ضد العرب والمسلمين، وحذرتهم بعد ذلك من تصاعد خطر الحرب على العراق، ثم توجهت إلى الوفد العراقي بقولي إن على حكومتهم أن تتعاون مع المفتشين الدوليين، ويمكنهم بعد ذلك أن يتقدموا بشكوى ضد هؤلاء المفتشين، غير أنهم يجب أن يمتثلوا أولاً لرغبة المجموعة الدولية في التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل داخل الأراضي العراقية.

اعترض أحد الوزراء قائلاً بأن هذا ليس عدلاً، فأجبته بأن السياسة مع الأسف لا تستند دائماً على العدالة، ولو كان ذلك صحيحاً، لكان الهنود الآن

(1) James Zogby, interview by John McLaughlin, one on One, WRC-TV, July I8, I999.

يحكمون أمريكا، وعند ذلك قال الوزير الليبي: «أنت تتكلم كالأمريكيين»، فأجابه صديقي الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي «نعم، فهو أمريكي بالفعل»[1].

لم تلق ملاحظة الوزير السعودي ترحيباً كافياً لدى الموجودين على ما يبدو، وتأكد لي ذلك عندما دُعيت في فبراير عام 2009 للحديث في مؤتمر للمغتربين العرب في الجامعة العربية، وهنا لم أملك إلا أن أعتذر عن عدم حضور ذلك اللقاء، إذ لم أكن مغترباً بالفعل، فأنا مواطن أمريكي. ولطالما أزعجتني الحاجة لتذكير الآخرين بأنني مواطن أمريكي وُلد وترعرع في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي حاجة يشاركني فيها عدد كبير من العرب الذين وُلدوا وعاشوا في الغرب وبخاصة من أبناء جيلي.

لقد تربيت على القيم الأمريكية، وكنت منخرطاً في حركات السلام والحقوق المدنية منذ بداياتي الأول، غير أن وعيي بتلك القيم ومحاولتي تطبيقها في السياسة الأمريكية في العالم العربي جلب لي بعض العداوات، وأنا لا أنكر بالطبع أن نشاطي السياسي كان سبباً رئيسياً في النقد الذي يوجه إليّ دائماً، وهو أمر قد لا ينطبق على طبيب عربي أمريكي على سبيل المثال، ولكن ومع كل الإحباطات والانتقادات الموجودة فأنا مازلت أؤمن بأن الأصوات العربية الأمريكية يجب أن تُسمع، لأن ذلك يصب في مصلحة أمريكا في نهاية الأمر ويجعل منها أمة أقوى وأذكى، وكما قالت أمي سابقاً: «كيف يمكن أن نكسب احترام الأمريكيين الآخرين، إذ لم نحترم أنفسنا أولاً»؟

اليوم -وعلى معظم المستويات- يندمج العرب الأمريكيون بالكامل في الحياة الأمريكية، وتظهر الإحصائيات أنهم في مقدمة أبناء الأمة من ناحية الدخل والتعليم، كما ظهر من بينهم في العقود الأخيرة ثلاثة جنرالات وأربعة حكام وخمسة نواب في مجلس الشيوخ وأكثر من اثني عشر نائباً في البرلمان، وقد كان هناك وزير واحد على الأقل من أصول عربية ضمن

(1) Personal notes from the League of Arab States Meeting of Arab Foreign Ministers in Cairo, Egypt, September 4, 2002.

الحكومات الأمريكية الثلاث الأخيرة.

ليست الصورة وردية تماماً كما تبدو على السطح، إذ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر واجه عدد كبير من المهاجرين الجدد من أصول عربية مضايقات شتى، ناهيك عن مشاعر العداء والتمييز، وقد واجه آخرون بمن فيهم أنا وعضو الحزب الجمهوري داريل عيسى وهو لبناني أمريكي، تهديدات بالقتل في مناسبات مختلفة، ومع ذلك فقد اعتقلت المباحث الفيدرالية جميع من بعثوا برسائل تهديد إليّ، وتمت محاكمتهم على ما ارتكبوه[1].

لحسن الحظ كانت تلك المشاعر وقتية ومرتبطة بالخوف الذي انتاب الأمة بعد هجوم الحادي عشر من سبتمبر، لكن سرعان ما استفاقت البلاد من تلك الصدمة، وتحدث الرئيس بوش مدافعاً عن العرب الأمريكيين، وكذلك فعل أعضاء الكونغرس والأحزاب المختلفة، وفي هذا السياق لا يمكنني أن أنسى شعوري وأنا أدخل إلى اجتماع خاص في الحزب الديمقراطي في مدينة نيويورك بعد 9/11، لأجد أن حزبي كان يصوت على قرار يندد بالتمييز ضد العرب الأمريكيين في هذه المرحلة، ولم يكن هذا التصرف مقصوراً على الحزب الديمقراطي، فقد التفّت الكنائس والمجموعات المدنية والحقوقية، وحتى المواطنون العاديون، جميعاً، حول جيرانهم من العرب الأمريكيين أو الأمريكيين المسلمين لحمايتهم والدفاع عنهم[2].

رغم كل هذا التقدم، فإن الأصوات العربية ماتزال مهمشة في مجال مهم

(1) United States Department of Justice, «Zachary J. Rolnik Pleads Guilty to Federal Hate Crime Violations Against Dr. James J. Zogby,» news release, June G, 2002, http://www.justice.gov/opa/pr/2002/June/02_crt_342.htm; Federal Bureau of Investigation, Washington Field Office, «Former Foreign Service Officer Sentenced on Federal Civil Rghts Charges,» July 11, 2008, http: f/washingtondc.fbi.gov/ dojpressrellpress relo8/wfo71108a.htm; United States Department of Justice, «Federal Authorities Arrest Iowa Man for Sending E-mail Threat,» October 13, 2004, http://wwwjustice.gov/opa/pr / 2004/October/04_crt_695.htm.

(2) Arab American Institute, Heating the Nation: The Arab American Experience After September ii (Washington, DC: Arab American Institute Foundation, September 2002), http://aai.3cdn.net f 64de7330dc475fe470_htm 6boyk4.pdf.

بالنسبة إليها، إذ تستطيع هذه الأصوات أن تقدم الكثير؛ ألا وهو ردم الهوة بين بلادنا وبلدان الشرق الأوسط. عندما أتيت إلى واشنطن للمرة الأولى في منتصف السبعينيات، أسست حملة حقوق الإنسان الفلسطيني للدفاع عن ضحايا التعذيب والأسرى الفلسطينيين، وكنت أود العمل من خلال منظمات قائمة بالفعل، ولكن وبسبب المناخ السياسي السائد في ذلك الوقت لم أستطع إقناع منظمة أمنيستي الدولية Amnesty International بتبني قضية الفلسطينيين، إذ كانت المنظمة تخشى أن تفتقد الدعم الممنوح لها بسبب ذلك، ومع أن أمنيستي الدولية هي المنظمة الأضخم عالمياً في مجال حقوق الإنسان، فإن فرعها في لندن هو الفرع الوحيد الذي يتبنى حقوق الضحايا الفلسطينيين. وهكذا أسست حملة حقوق الإنسان الفلسطيني معتمداً بالأساس على دعم الكنيسة عبر اتحاد كنيسة المسيح، وقد كنت محظوظاً جداً، إذ استطعت التواصل مع قادة حركات السلام وحقوق الإنسان التي دعمت مارتن لوثر كنج مثل القس والتر فاونثروي وجوزيف لوري، بالإضافة إلى المغني المعروف بيتر سيغار.

بعد أن وقفت منظمتنا على قدميها، تقدمت بطلب عضوية لدى تجمع «سياسة عسكرية خارجية جديدة» وهو تجمع يشكل مظلة لمنظمات حقوقية أخرى متعددة، وقد قُبل طلب منظمتنا الجديدة بالإجماع، غير أن المنظمات الثلاث التي عارضت انضمامنا للتجمع هددت بالانسحاب إذا قبل التجمع طلب عضويتنا، وهي منظمات فاعلة جداً في مجال الحقوق المدنية، لكنها رفضت تماماً انضمام منظمة حقوق الإنسان الفلسطيني. عدت بعد ذلك بثلاث سنوات لأقدم الطلب ذاته بانضمام منظمتنا للتجمع، لكنني جوبهت بالرفض الأول ذاته مع أنني تعهدت بعدم مناقشة أمور الشرق الأوسط في اجتماعات التجمع، وكانت المبررات التي قدمها لي الأعضاء تستند إلى خوف التجمع من أن دخول العرب قد يؤثر في الدعم المقدم لمجموعات أخرى مثل تجمع غواتيمالا أو السلفادور.

لم تكن صعوبة التعامل مع هذه المنظمات هي الوحيدة التي قد تواجه عربياً

أمريكياً قد يحاول الدفاع عن القضايا العربية، إذ قرأت منذ قرابة العقدين من الزمن في جريدة الواشنطن بوست عن برنامج يبث مقابلة تناقش الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي بحضور خبراء في الإرهاب، وهم مجموعة من المدافعين عن إسرائيل يلقبون أنفسهم بالخبراء في كل ما يتعلق بالشأن الفلسطيني أو العربي، وقد كنت في الوقت ذاته قد أسست لجنة العرب الأمريكيين ضد التمييز، التي كانت مهمتها محاربة التمييز وخلق مزيد من التوازن في موقف الأمة تجاه قضايا الشرق الأوسط، لذلك فقد اتصلت بمقدم البرنامج لأحثه على استضافة أصوات مختلفة في حلقة النقاش المزمع عقدها في برنامجه، وجاءني الرد بأنهم في البرنامج يعرفون المنظور الذي أنطلق منه، لكنهم يريدون «خبراء» في هذا المجال، وقد فهمت تلك الإجابة بأنني لو كنت شخصاً آخر لكان من الممكن اعتمادي كخبير في البرنامج، لكن وبما أنني من أصول عربية فإن ذلك ليس وارداً.

لقد بلورت لي ردود الأفعال هذه ما تعنيه محاولة إنشاء منظمة للدفاع عن العرب، إذ لم يكن ذلك مجرد سوء استماع للرأي الآخر، بل محاولة لإقصائنا من ساحة النقاش دون خجل، فأنا لم أكن أحاول التشكيك في كفاءة الضيوف في الحلقة وقدرتهم على إثراء النقاش، لكنني أعتقد أيضاً أن بعض العرب الأمريكيين يملكون الكفاءة والقدرة ذاتهما على تفسير مشكلة الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي وتحليلها، والحديث عن دوافع الفلسطينيين وآرائهم ورغباتهم وتقديمها للرأي العام الأمريكي.

يتخذ هذا الإقصاء السياسي أشكالاً أخرى أيضاً، فلطالما كان العرب الأمريكيون نشطاء في السياسة الأمريكية ويخدمون في جميع المجالات الحكومية، وقد كان وجودهم مقبولاً عندما كانوا ينتظمون ضمن أصولهم العرقية مثل اللبنانيين أو السوريين، ولكن مع بداية السبعينيات –عندما بدأت جماعات العرب الأمريكيين تتوحد معاً وتشكل قوة ضاغطة– بدأت المشاكل بالظهور. ومع أن قبول تجمع العرب الأمريكيين لم يتخذ إطاره الرسمي إلا

عام 1984، عندما شكّل جيسي جاكسون ورونالد ريغان لجاناً خاصة بالعرب الأمريكيين لدعم ناخبيهم، فإن مشاكل إقصاء العرب الأمريكيين لم تنته عند ذلك الحد، وفي عام 1987 سجلتُ عشرات الحالات لسياسيين من الحزبين الرئيسيين قاموا برفض تبرعات قدمها لهم أشخاص مهمون من الجالية العربية الأمريكية لدعم حملاتهم الانتخابية[1].

كان السبب الرئيسي وراء تأسيس معهد العرب الأمريكيين عام 1985 هو التعامل مع مشكلة إقصاء العرب الأمريكيين من الحياة السياسية، ومثل معظم الجماعات العرقية التي سبقتنا كان هدفنا المشاركة في الحياة السياسية من خلال صناديق الاقتراع، لنُسمع الصوت العربي في الولايات المتحدة ولاسيما فيما يتعلق بالسياستين الداخلية الخارجية، ومرة أخرى قمنا عام 1988 بانتخاب أكثر من 400 أمريكي من أصول عربية ليمثلونا في مجلس الولاية وأكثر من 50 آخرين ليمثلونا على المستوى الوطني، وذلك تحت مظلة الحملة الانتخابية الرئاسية لجيسي جاكسون.

لقد عملنا مع حلفاء لنا في الجالية اليهودية التقدمية، وعرضنا على اللجنة الديمقراطية الوطنية في أتلانتا مسودة مشروع ينادي «بالاعتراف المشترك، وتسوية الأراضي المتنازع عليها وحق تقرير المصير للإسرائيليين والفلسطينيين»[2]، وقد استخدمنا في تلك المسودة الكلمات ذاتها التي جاءت في إعلان نشرته جريدة نيويورك تايمز ووقع عليه عدد من المثقفين اليهود، غير أن مجرد فتح باب النقاش حول الموضوع لقي معارضة شديدة[3].

عندما عرضت القضية أمام اللجنة وبحضور أحد القادة اليهود الذين

(1) James Zogby and Helen Hatab Samhan, The Politics of Exclusion (Washington, DC: Arab American Institute, 1987); Samhan expounds on this subject in Helen Samhan, «Politics and Exclusion: The Arab American Experience,» Journal of Palestine studies XVI, no. 2 (Winter 1987): 11-28.

(2) Official Proceedings of the 1988 Democratic National Convention (Washington, DC: DNC Services Corporation, 1988), 259-265.

(3) «Let 1987 Be the Year of Peace in the Middle East» (advertisement), New York Times, June 7 1987, E7.

وقعوا العريضة المنشورة في الجريدة، قال لي ذلك القائد: «عندما وقعت تلك العريضة كنت أعلم ماذا أقصد، لكنني غير واثق من أنك تحمل المقصد ذاته»[1]. لم يوضح لي ذلك الرجل ما يعتقد أنه مقصدي، لكنني استطعت أن استشف أنه يعتبرني غريباً مع أنني أمريكي مثله، وأستطيع أن أقول إن مواقف معظم العرب الأمريكيين حول قضايا الشرق الأوسط لا تختلف كثيراً عن مواقف اليهود الأمريكيين من اليسار الإسرائيلي. وكما يوضح الجدول 14-1، فإن كلا الطرفين يؤيد حل الدولتين ويريد الأمن لإسرائيل وفلسطين، كما يعارض كلٌّ من الطرفين؛ أي العرب الأمريكيون واليهود الأمريكيون، إقامة المستوطنات، ويريد المزيد من التدخل الأمريكي لدعم المفاوضات لحل الصراع، ورغم ذلك فإن كون هذه المطالب تأتي من العرب الأمريكيين يثير الشبهات حولها ويفقدها مصداقيتها.

جدول 14-1 دعم العرب واليهود الأمريكيين لقضايا الشرق الأوسط.

هل تؤيد	يهود أمريكيون	عرب أمريكيون
حق إسرائيل في دولة آمنة ومستقلة	98	88
حق الفلسطينيين في دولة آمنة ومستقلة	90	96
التفاوض من أجل سلام يؤدي إلى قيام دولتين وحل مشكلة القدس واللاجئين	87	94
تجميد المستوطنات	63	77
المبادرة العربية للسلام	70	82

المصدر: زغبي الدولية، لقاء العين بالعين: استطلاع للرأي العام العربي الأمريكي واليهودي الأمريكي، تحت رعاية «أمريكيون من أجل السلام الآن» ومعهد العرب الأمريكيين، 22-23 مايو 2007، شملت العينة 501 من البالغين.

لقد عِشت طوال حياتي محاولاً إسكات الأصوات البديلة حول موضوع

(1) James Zogby, personal notes from a conversation at the Democratic National Convention in Atlanta, GA, July 21, 1988.

الشرق الأوسط، وقد أثرت هذه المحاولات في كثير من زملائي سواء من العرب الأمريكيين أو اليهود الأمريكيين المعتدلين، وغيرهم من موظفي وزارة الخارجية المخلصين الذين كانوا يتهمون بمحاباة العرب، وقد كان ذلك مؤلماً بالنسبة إلي بالطبع، غير أن الأهم من ذلك أن تلك المحاولات كانت تُضر في النهاية بالسياسة الأمريكية، لأنها تستبعد أصواتاً جديدة ومفاهيم مختلفة من حلقة النقاش حول سياسة الولايات المتحدة ومصالحها في العالم العربي.

ستبقى أمريكا موجودة بالطبع، حتى وإن لم تحتضن كل أولئك الإيرلنديين والإيطاليين واليابانيين واليهود والألمان والمكسيكيين والأفارقة والعرب، ولكن لو اقتصرت الأمة الأمريكية على المستوطنين الأوائل من الإنجليز الذين قدموا إلى هذه البلاد في بدايات عام 1600، لكانت الآن بلاداً أصغر حجماً وأقل ثراءً، ولفقدت تلك الحيوية المميزة التي تتمتع بها الآن. ولذلك فإن دمج العرب الأمريكيين في جميع الجوانب السياسية لا بد أن يكون إحدى أولويات السياسة في الولايات المتحدة، كما أن هذا التعصب الذي يحول دون الاندماج الكامل للعرب الأمريكيين في المجتمع الأمريكي يخلق نقاطاً سوداء في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. أما الحل لتجاوز هذا التعصب فيأتي عبر التعليم وزيادة الوعي باللغة العربية وثقافة العرب وتاريخهم، وفي النهاية سيؤدي ذلك إلى تسهيل الحياة اليومية للعرب الأمريكيين في هذا البلد، بالإضافة إلى تجاوز الأخطاء الفادحة التي ترتكبها الولايات المتحدة في الخارج.

يمكن للعرب الأمريكيين كذلك أن يلعبوا دوراً مهماً في تحسين السياسة الأمريكية وتسويقها في الخارج، إذ يمكن أن يساعدوا في شرح وتقديم أسلوب الحياة الأمريكية والإمكانات التي تعرضها الولايات المتحدة على العالم العربي، مكونين بذلك حلقة وصل ثقافية ولغوية بين الولايات المتحدة والعالم العربي في مختلف المجالات مثل تطوير الاقتصاد والمباحثات التجارية وحتى في مكافحة الإرهاب، أما المجال الأكثر حاجة لجهود العرب الأمريكيين فهو موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي، ومحاولة

تحقيق سلام دائم بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

إذا ما قارنّا المشكلة الإيرلندية في القرن الماضي مع الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي سنجد أن هناك الكثير من نقاط الشبه بين المشكلتين، فكلتاهما تتضمن صراعاً على الأرض بين فريقين متخاصمين تتنازعهما خلفيات دينية مختلفة، ويقدم كلّ منهما رواية تاريخية مغايرة للصراع الدائر بينهما، وكما هي إسرائيل الآن، امتلكت المملكة المتحدة قدرة عسكرية متفوقة، في حين كانت بعض الفصائل الإيرلندية تستخدم التفجيرات لترويع المواطنين البريطانيين، والفرق الوحيد في ردة الفعل الأمريكية تجاه الصراع أن الأمريكيين كانوا يفهمون راوية كلّ من الطرفين البريطاني والإيرلندي حول تاريخ الصراع.

لا بد أن نعترف بأن التاريخ الأمريكي ومحاولة التحرر من الهيمنة البريطانية في المراحل الأولى من تكوين الأمة قد لعب دوراً في إثارة تعاطف الشعب الأمريكي والسياسة الأمريكية مع القضية الإيرلندية، إلا أن الدور الأساسي في توضيح تاريخ المسألة الإيرلندية كان بفضل جهود أصوات الأمريكيين من أصول إيرلندية، الذين موّلوا إيصال أصواتهم ودافعوا بكل قوة عن قضيتهم في الولايات المتحدة، لذلك لم تتمكن بريطانيا من الهيمنة الكاملة على تاريخ الصراع كما تفعل إسرائيل الآن. ومع أن حكومة الولايات المتحدة انتقدت في مرات عديدة الهجمات الإرهابية التي نفذها الجيش الجمهوري الإيرلندي وعدد من الفصائل الإيرلندية الأخرى، فإن الشعب الإيرلندي لم يُصنف يوماً بأنه «مجموعة من الإرهابيين»، وعندما جند الرئيس بيل كلينتون عدداً من الإيرلنديين الأمريكيين لدعم جهود السلام لحل المسألة الإيرلندية، أثبت هؤلاء أنهم قوة دافعة مهمة في سبيل تحقيق هذا الغرض، وأخيراً أسهموا في تثبيت سلام دائم بين الطرفين عام 1998.

تظهر على الصفحة الأولى من جواز السفر الأمريكي العبارة التالية: «باسم وزارة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية وإلى كل من يهمه الأمر، يرجى السماح لحامل هذا الجواز بحرية المرور دون تأخير، وأن تقدم له كل مساعدة

أو حماية قد يحتاج إليهما»، وهي عبارة بسيطة ومعروفة غير أن الولايات المتحدة لم تستطع تنفيذها عندما كان الأمر يتعلق بمواطنين أمريكيين من أصول عربية وتحديداً فلسطينية عند زيارتهم إسرائيل أو الدولة الفلسطينية. ومع أن الولايات المتحدة وإسرائيل حليفان من الدرجة الأولى، فإن الأمريكيين من أصول عربية أو فلسطينية يعاملون كأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، فأحياناً لا يسمح لهم بدخول الأراضي الإسرائيلية والفلسطينية، ويتعرضون للاستجواب والتأخير والإذلال، وقد وصل الأمر بإسرائيل إلى تطبيق هذه المعاملة على بعض الدبلوماسيين الأمريكيين العرب ممن كانوا في مهمات مختلفة.

قد يتوقع المرء هذه المعاملة من أحد أعداء الولايات المتحدة السابقين أيام الحرب الباردة، وليس من الحليف الأول للولايات المتحدة، ومع أن حكومة الولايات المتحدة تدخلت للحد من هذه التصرفات في بعض الحالات، فإنها ترفض حتى الآن التنديد بها، والأسوأ من ذلك أن وزارة الخارجية أصدرت بياناً تحذيرياً تنصح فيه الأمريكيين الذين يرغبون في زيارة أقاربهم في إسرائيل بألا يتوقعوا من إسرائيل أن تعاملهم معاملة المواطنين الأمريكيين.

أخيراً، وفي عام 2008 وفي ردٍ على الشكاوى المتكررة التي قدمتها بهذا الخصوص لوزيرة الخارجية كونداليزا رايس تلقيت الرد المتوقع من قوة عظمى كالولايات المتحدة هذا نصه: «في رأينا إن المواطن الأمريكي هو مواطن أمريكي حتى النهاية وليس لدينا مواطنون من الدرجة الثانية، وإذا كنت تحمل جواز السفر الأمريكي الأزرق، فلا بد أن تعامل معاملة المواطن الأمريكي، ولجميع المواطنين الأمريكيين الحق ذاته في المعاملة»[1].

(1) United States Department of State, Bureau of Consular Affairs, «Travel Warning: Israel, the West Bank and Gaza.» August 14, 2009, http:// travel.state.gov/travel/cis_pa_tw/tw/tw_922.html; Arab American Institute, «AAI Calls on Secretary of State to Protect American Citizen Travelers,» news release, September 3, 2009, h.ttp://wwwaaiusa.org/ press-room; 4240/aai-calls-on-secretary-of-state-to-protect-american-citizen-travelers; James J. Zogby, «Enough Is Enough,» Washington Watch, August 31, 2009, http://www.aaiusa.org/washington-watch/4235/enough-is-enough.

لقد جلب لي دفاعي عن قضايا العرب الأمريكيين وتأسيسي لمعهد العرب الأمريكيين الكثير من المكافآت المادية والمعنوية، ومن أجمل تلك المكافآت كان التعرف إلى أصحاب المناصب الرفيعة في الحكومة الأمريكية والعمل معهم مثل آل غور نائب الرئيس عام 1993 الذي عرفني بنائب الكونغرس ميل ليغن، وأسسنا معاً مشروعاً لتشجيع الأعمال في الضفة الغربية وقطاع غزة. وعندما طلب مني نائب الرئيس تعريفه بنفسي قصصت له قصة هجرة والديّ من لبنان إلى الولايات المتحدة، ولم يملك إلا أن يعجب بقصة الكفاح تلك التي وصلت بابن أحد المهاجرين إلى مقابلة نائب رئيس الولايات المتحدة والجلوس معه في مكتبه في البيت الأبيض.

لم يفارقني أبداً ذلك الشعور بالدهشة مما حدث في حياتي، ولن أنسى ما قدمته الولايات المتحدة لي ولعائلتي من فرص الارتقاء والتفوق، وينطبق هذا بالطبع على عدد كبير من العائلات العربية الأمريكية، ولكم قرأت بفخر الرسائل التي كان يرسلها عَرابي فارس وعمي ألبرت من أوروبا إبان هجرتهما إلى هناك خلال الحرب العالمية الثانية.

لقد تلقيت عشية وفاة والدتي عام 1998 العديد من مكالمات التعزية، وكان أولها من الرئيس كلينتون الذي ربته والدته بعد وفاة والده كما حدث معي تماماً، وتأثر كلانا بوالدته لدرجة كبيرة. كما تلقيت مكالمة من نائب الرئيس آل غور والقس جيسي جاكسون الذي أهداني بعض عبارات حكمته المعروفة حين قال: «لا تيأس أبداً، إن نجاح والدتك في تربيتك سيكون دافعاً لك لتجاوز الألم ومواصلة الأعمال التي ألهمتك هي للقيام بها»[1]، وذلك بالضبط ما كانت تقوله أمي وهي المرأة العربية الأمريكية الفخورة بجذورها وتراثها، إن مقياس نجاح الديمقراطية الأمريكية يكمن في قدرتها على دمج كل المواهب والمهارات التي تملكها الأعراق المختلفة وفي تقبلها لتراث تلك الأعراق، وبذلك تتقدم الأمة الأمريكية وتتطور، ولاتزال أمريكا تملك الإمكانات لتكون نموذجاً يُحتذى في العالم، تتعلم منه أوروبا والعالم العربي كذلك كيف

(1) James Zogby, personal notes, December 1998.

يمكن صهر جميع المواطنين بغض النظر عن خلفياتهم لتوسيع مفهوم المواطنة، لأن الاحتواء هو العلاج الوحيد للتغريب والتطرف.

الجزء الرابع

تصحيح الأوضاع

الفصل الخامس عشر

دور الحكومة

سافر الرئيس أوباما إلى قلب العالم العربي في يونيو عام 2009، وقدم خطابه التاريخي الموجه للمسلمين عموماً من أحد مدرجات جامعة القاهرة، وكان بذلك يخطو الخطوة الأولى في الاتجاه الصحيح نحو الاقتراب من العالم العربي، أما دعوته في ذلك الخطاب إلى مزيد من الفهم والشراكة والحوار الصريح، فقد مثلت عزمه على تجاوز العقبات والقوالب النمطية المعهودة التي كانت تعيق الدور الأمريكي في الشرق الأوسط. وبذلك بدا وكأن الرئيس الأمريكي ينتهج خطاً سياسياً جديداً -بعيداً كل البعد عن الإخفاقات السابقة- وهو خط قوبل بالترحيب في دول العالم العربي، بالإضافة إلى العواصم الأوروبية التي كان قادتها وشعوبها على حد سواء يتطلعون إلى دور أمريكي جديد، بعيداً عن التحيز المعهود الذي شاب السياسة الأمريكية لسنوات في علاقتها مع الشرق الأوسط.

وكما حدث في خطاب أوباما في فيلادلفيا عام 2008 عندما تحدث إلى جمهور من الأمريكيين البيض والسود حول التوترات التي سادت علاقة الأعراق المختلفة وسوء الفهم الموجود تاريخياً في أمريكا بسببها، تحدث أوباما بطريقة مشابهة في القاهرة عن الخليج الواسع الذي يفصل الغرب عن العالم الإسلامي أمام جمهور واسع من المسلمين والغربيين كذلك.

لقد تحدث الرئيس في القاهرة كما تحدث سابقاً إلى قناة العربية، عن الحاجة إلى الاستماع في الشرق الأوسط لا إملاء الشروط وذلك بقوله: «نلتقي هنا في وقت يشوبه التوتر في العلاقات بين الولايات المتحدة والمسلمين حول العالم. وهو توتر له جذور تاريخية تتخطى أي جدل سياسي حالي، غذته الكولونيالية التي حرمت عدداً كبيراً من المسلمين من حقوقهم الطبيعية، ثم أسهمت الحرب

الباردة بعد ذلك في تصعيد ذلك التوتر لعقود كانت الدول الإسلامية تُستخدم فيها لخدمة مصالح الدول العظمى دون الأخذ بعين الاعتبار تطلعات شعوب تلك الدول ومصالحها».[1]

أتى الرئيس بعد ذلك على ذكر الرعب الذي خلفه هجوم الحادي عشر من سبتمبر، وقال «إنه ليس مجرد سبب للتوتر الذي ساد العلاقات الأمريكية العربية، بل هو بالأحرى أحد أعراض سوء الفهم والخوف الذي ميز تلك العلاقة»، وأضاف «إن التطرف العنيف، استغل ذلك التوتر في تجنيد فئة قليلة لكنها مؤثرة من المسلمين الذين قاموا بهجمات الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من هجمات عنيفة أخرى ضد المدنيين مما أدى إلى خلق توجه معادٍ للإسلام لدى بعضهم في بلادي وفي الدول الغربية الأخرى، وزاد من مشاعر الخوف وعدم الثقة لدى الطرفين»[2].

نادى الرئيس أوباما بعد ذلك بإنهاء الجهود الدبلوماسية المبنية على سوء الفهم، التي تسيطر عليها قوى العنف والتطرف وقال: «مادامت علاقتنا مبنية على الاختلافات الموجودة بيننا، فإننا لن نصل إلى أي شيء، بل على العكس سنعطي الفرصة لأولئك الذين لا يرون إلا الكراهية والذين يؤججون الصراع بدلاً من التعاون الذي يساعد شعوبنا في تحقيق العدالة والرخاء، ولذلك فلا بد لهذه الحلقة من الخصومة والريبة أن تنتهي»[3].

بعد أن عرَّف الرئيس المشاكل التاريخية التي كانت تخيم على علاقة الغرب بالمسلمين، وبالتالي علاقته مع معظم العالم العربي، تحدث الرئيس عن التزامه بإعادة تشكيل هذه الشراكة بقوله إنها شراكة «مبنية على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل، وأن أمريكا والإسلام لا يتنافسان بل يتعاونان»[4]. كما

(1) President Barack Obama, «A New Beginning» (speech, Cairo University, Egypt, June 4, 2009).

(2) المرجع السابق

(3) المرجع السابق

(4) المرجع السابق

التزم الرئيس من جانبه بمحاربة النمطية السلبية عن الإسلام أينما وُجدت[1]، وطلب من المسلمين كذلك رفض مشاعر العداء لأمريكا بقوله: «لا يجوز تنميط المسلمين في قالب واحد، ولا يمكن كذلك حصر أمريكا في قالب الإمبراطورية التي تهتم بمصالحها فقط، إذ إن الولايات المتحدة تُعد أهم مصادر التقدم التي عرفها التاريخ»[2]، وقد عزز أوباما دعوته لنوع جديد من الشراكة اعتماداً على حقيقة بسيطة مفادها أن مصالح الشعوب ومصائرها لا بد وأن تتقاطع في ظل العولمة وقال: «لقد تعلمنا من تجربتنا الأخيرة إنه عندما يضعف النظام المالي في بلدنا، فإن الرخاء يتأثر في كل مكان»[3]. وطالب أوباما الجميع بأن يتجاوزوا أخطاء الماضي بقوله «مهما كانت فكرتنا عن الماضي فلا بد أن نتجاوزه ونحاول حلَّ مشاكلنا عبر الشراكة والمساهمة في التطور»[4]، وأخيراً تطرق إلى العقبات والقيود التي قد تعيق تحقيق ما يصبو إليه بقوله: «لا يمكن لخطبة واحدة أن تمحو آثار سنوات متراكمة من الخوف وعدم الثقة، فالكلمات وحدها لا تقدم شيئاً لشعوبنا، وعلينا أن نتصرف بجرأة وصراحة لتأمين حاجات هذه الشعوب في السنوات القادمة»[5]، وما أصدق هذا القول.

لقد كان خطاب الرئيس في القاهرة ناجحاً جداً على المستوى الشعبي، وقد ظهر ذلك في نتائج الاستطلاعات التي أجريناها في العالم العربي، والتي أظهرت ارتفاعاً كبيراً في نسبة التوقعات بالنسبة إلى الولايات المتحدة، أما في أوروبا فقد اعتبرت لجنة جوائز نوبل أن هذا الخطاب هو أحد عوامل استحقاق أوباما لجائزة نوبل للسلام، ولكن ما إن اصطدمت أهداف الرئيس بالتحديات الخطيرة المتمثلة في انتشار التطرف وعدم الاستقرار في باكستان وأفغانستان، بالإضافة إلى تعنت طرفي الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي في المفاوضات، حتى أخذت إمكانية تحقيق هذه الأهداف تتضاءل، وتضاءلت معها آمال العرب

(1) المرجع السابق

(2) المرجع السابق

(3) المرجع السابق

(4) المرجع السابق

(5) المرجع السابق

في إحداث أي تغيير حقيقي. أما داخل الولايات المتحدة، فقد قُوبلت دعوة الرئيس الأمريكي بانقسامات حادة بين الأحزاب الرئيسية بين مؤيد ومعارض يتهم الرئيس بأنه يتخذ مساراً ليّناً في مواجهة الإرهاب والتطرف.

لقد كان كل ذلك متوقعاً نوعاً ما، غير أن صعوبة إحداث التغيير لا تعني بالضرورة استحالة تنفيذه، وفي الفصل القادم سأقدم نماذج مهمة من منظمات أهلية ورجال أعمال ووجوه إعلامية وأشخاص عاديين يساعدون في زيادة فهمنا للعالم العربي، وفيما يلي سأعرض بعض المبادرات الحكومية التي تقوم بالمهمة ذاتها.

- فريق دراسة العراق

ليس هناك مثال أوضح على سوء فهم الولايات المتحدة للعالم العربي من تدخلها وحلفاءها في العراق، ومع أن أنظار العالم تتجه الآن نحو مناطق أكثر سخونة مثل إيران وأفغانستان، فإن العراق يبقى تحدياً لا يمكن تجاهله.

لقد كان الدخول إلى العراق واحتلالها عملية سهلة نوعاً ما، غير أن الخروج من العراق بدا مسألة مختلفة، إذ يبدو أنها تتطلب التنسيق والتعاون مع الدول المجاورة لهذا البلد، وخلال حملته الرئاسية الانتخابية عام 2008 كان الرئيس أوباما يرفض الدعوات التي تنادي بالتخلي عن العراق، وأصر على «أن الولايات المتحدة يجب أن تنسحب من ذلك البلد بحذر شديد تعويضاً عن التهور الذي صاحب عملية الدخول إليه»[1]، أما الآن وقد أزف الموعد المرتقب لانسحاب القوات الأمريكية من العراق، فلم يبق إلا القليل من الوقت لترتيب انسحاب مسؤول من ذلك البلد، ويبقى الهم الأكبر هو ما يمكن أن نفعله حتى موعد الانسحاب لا موعد الانسحاب ذاته. أما الخطوط العريضة لترتيبات الانسحاب فلا بد أن تستند إلى توصيات فريق دراسة العراق، وهو الفريق الذي عينه الكونغرس في مارس عام 2006، وكان يقوده وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر، وعضو الكونغرس السابق لي هاملتون.

(1) President Barack Obama, interview by Gwen Ifill, NewsHour, PBS, March 17, 2008, http;//www.pbs.org/ newshour/bb /white_house/jan-june08/obama_03-17.html.

رغم كل الجهود التي بذلها عدد من الزعماء العراقيين، فإن العراق مازال يعاني من حالة انقسام عميقة، وحتى الآن مايزال 20٪ من سكانه إما من اللاجئين أو المشردين داخل العراق، كما أن البلاد في حالة انقسام عرقي ومذهبي تهدد بحرب أهلية وتجعلها عرضة للعديد من المكائد والدسائس الخارجية من بلدان مختلفة تحاول تثبيت أقدامها في العراق لخدمة مصالحها الخاصة. وبهذا الخصوص يقدم فريق دراسة العراق مقترحاً لإنشاء إطار أمني إقليمي على شكل مجموعة اتصال ترأسها تركيا والمملكة العربية السعودية بالاشتراك مع سوريا والأردن والكويت، ومما يثير الجدل أن الفريق يقترح إشراك إيران أيضاً في المجموعة[1]. ومع أن الغرب محق في مواجهة إيران ومساءلتها حول برنامجها النووي مثلاً أو تدخلاتها في المنطقة، فإن إشراكها في الجهود المبذولة لإرساء الاستقرار في العراق أمر لا بد منه، فهي لاعب أساسي في الموضوع بحكم موقعها وتاريخها، لذلك فمن الأفضل أن تشترك إيران علناً في المباحثات والترتيبات الخاصة بمستقبل العراق بدلاً من أن تحرك الأحداث في الخفاء. وبما أن الوضع السياسي في العراق سيظل هشاً لفترة من الزمن مع احتمال تصاعد التوترات المحلية، فلا بد من خلق هذا الإطار الأمني الإقليمي للحفاظ على الأمن والسلام في البلد.

وفي النهاية، وحتى بعد انسحاب القوات الأمريكية بالكامل من العراق، لا بد أن تعي الولايات المتحدة أنها لا يمكن أن تتخلى عن العراق بعد أن أصبحت جزءاً من تاريخ هذا البلد، إذ لا بد أن تكون هناك علاقة طويلة الأمد بين البلدين تسهم من خلالها الولايات المتحدة في إعادة إعمار العراق وتطويره والحفاظ على سلامته الوطنية.

- تعاليم باول وزيادة الشفافية

قدم رئيس هيئة الأركان المشتركة آنذاك كولن باول Colin Powell عام 1992 عدة تعليمات تتعلق بالعمليات العسكرية خارج أمريكا، التي عُرفت

(1) James A. Baker III, Lee H. Hamilton, and others, The Iraq Study Group Report (New York: Vintage Books, 2006), 46ff.

فيما بعد «بتعاليم باولPowell Doctrine » وأصبحت نموذجاً يُحتذى لأي عملية عسكرية[1].يضع باول في هذه التعاليم عدة شروط يجب توافرها قبل إرسال قوات أمريكية إلى ساحات القتال ومنها: يجب أن يعرف الشعب الأمريكي والكونغرس ثمن الالتزام بالحرب، ليتمكنوا من دعمها طوال فترة وجود القوات الأمريكية خارج البلاد، كما يجب أن تُطرح قضية الحرب بشكل موسع ويُجاب عن الأسئلة المتعلقة بمدى فاعلية العمليات العسكرية وتكلفتها قبل الشروع بها، ولا بد كذلك من استنفاد كل الوسائل السلمية لحل النزاع قبل تقرير العمليات العسكرية.

ومع أن هذه التعليمات كانت بمثابة صمام الأمان أمام المغامرات العسكرية عموماً، فإنها كانت متعلقة بالعالم العربي بشكل مباشر، إذ كانت المواجهة العسكرية الأهم بالنسبة إلى الولايات المتحدة في الفترة الأخيرة تدور رحاها في العالم العربي، بالإضافة إلى أن منطقة العالم العربي ظلت مجهولة بالنسبة إلى الأمريكيين وغير مفهومة حتى بالنسبة إلى السياسيين لدينا، لذلك فمن الصعب على الشعب الأمريكي فضلاً عن الكونغرس أن يفهم الالتزامات المترتبة على خوض حرب موسعة في تلك المنطقة. ودون شك، لم تتحقق شروط باول في حرب الولايات المتحدة على العراق ولا حتى في أفغانستان كما أعتقد. لهذا السبب فأنا أقترح أن يتم تمديد تعاليم باول، فمع تورط الأمريكيين والأوروبيين في العراق وأفغانستان وخوفهم من تدخلهم في مناطق أخرى من العالم، لا بد للحكومات أن تكون حريصة على إطلاع مواطنيها وإشراكهم في مناقشات عامة حول احتمالية دخول حرب من أي نوع في المستقبل، كما يجب على الحكومات أن تكسب تأييد مواطنيها دون اللجوء للكذب والمناورات، وأفضل طريقة بالنسبة إلى الولايات المتحدة لكسب هذا التأييد هي إطلاع الكونغرس على جميع حيثيات الموضوع من جانب الأهداف والتكلفة والالتزامات المترتبة على أي حملة عسكرية، ولا بد أن تشمل النقاشات الهيئات غير الحكومية

(1) Colin L. Powell, «U.S. Forces: Challenges Ahead,» Foreign Affairs 72, no. 5 (Winter 1992/1993): 32.

كذلك من منظمات وخبراء في المنطقة المقصودة لضمان نقاش حر ومفتوح.

بالإضافة إلى ذلك، لا بد أن تستمر تلك النقاشات والحوارات في أثناء الحملة أيضاً لمتابعة ما يستجد من أمور في ساحة الحرب ومراقبة تطور الأحداث، كما يجب أن يمتد التقييم ليشمل المنطقة بأكملها لا منطقة الحرب فقط، إذ إن منطقة كالشرق الأوسط مثلاً لا بد أن تتأثر جميعها بأي حرب على أي جزء فيها.

ونظراً لعدم الارتياح الشعبي الذي صاحب مشاركة المملكة المتحدة في الحملة على العراق، أطلق رئيس الوزراء غوردون براون Gordon Brown ملف تحقيق العراق في يوليو عام 2009. وقد تضمن التحقيق عدة جلسات علنية دُعي إليها شهود رسميون وغير رسميين لسماع أقوالهم حول سبب مشاركة بلادهم في الحرب على العراق وكيفيتها، وما الدروس المستفادة من تلك المشاركة، وبالطبع لو أن هذه الشفافية كانت موجودة قبل إرسال قوات عسكرية إلى العراق لكانت أجدى نفعاً وأعظم فائدة للجميع، ومع ذلك فإن التحقيق البريطاني حول العراق يمثل تطوراً مهماً قد تستفيد منه دول أخرى.

يماثل النموذج السابق في الولايات المتحدة ما حدث من سلسلة من جلسات الاستماع التي دُعي إليها عضو الكونغرس وليام ديلاهنت عام 2008، الذي كان في ذلك الوقت رئيس اللجنة الفرعية للشؤون الخارجية الخاصة بالمنظمات الدولية وحقوق الإنسان، حيث رتبت اللجنة جلسات استماع لعدة شهود ومختصين حول صورة أمريكا في الخارج، ومصالحها في المناطق التي توجد فيها قواتها، وبعد انتهاء الجلسات أصدر عضو الكونغرس تقريراً شاملاً حول النتائج التي توصلت إليها اللجنة[1].

إن وجود مثل تلك الجلسات يُعد أمراً ضرورياً لأنه يخلق قنوات لسماع وجهات النظر المختلفة المتعلقة بسياسات الولايات المتحدة في العالم العربي، وهو أمر لم يكن يحدث من قبل، إذ كانت وجهات النظر المعارضة تُدفن في

(1) U.S. House Committee an Foreign Affairs, Subcommittee on International Organizations, Human Rights, and Oversight, The Decline in America's Reputation: Why? 110th Cong., 2nd sess., 2008, H, Rep. 42-566.

مهدها كما حدث مع السيناتور ريتشارد ديربن عام 2005، عندما تحدث إلى الكونغرس عن تقرير لأحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، واصفاً فيه صنوف التعذيب التي يتعرض إليها المعتقلون في سجن غوانتانامو، وعلق ديربن بأن وسائل التعذيب المذكورة في التقرير تضاهي الوسائل المستخدمة في الأنظمة القمعية مثل النظام النازي أو السوفيتي[1]. وما إن أنهى السيناتور عرض تقريره حتى تعرض على الفور إلى هجوم واسع من الجمهوريين في الكونغرس، وقد شمل الهجوم بعض الديمقراطيين أيضاً من أعضاء حزبه، غير أن شجاعة ديربن مكنته من تجاوز الهجوم والنقد القاسي اللذين تعرض لهما بهدف دفن وجهة نظره، وفي النهاية وجدنا أن إغلاق سجن غوانتانامو وإنهاء ما يحدث فيه من تجاوزات كان على رأس أولويات الرئيس أوباما عند انتخابه.

ومن ضمن الجهود المبذولة لزيادة الشفافية في الحكومة. إطلاق وزارة العدل للمذكرات الداخلية التي كانت تستخدمها إدارة الرئيس بوش مبررةً استعمال «وسائل تحقيق مكثفة»؛ أي وسائل تعذيب. وقد أظهرت هذه المذكرات تفاصيل متعلقة حول وسائل التحقيق المسموح بها، غير أن الوزارة لم تتخذ أي إجراءات بحق المسؤولين عن كتابة مثل تلك المذكرات، وفي الوقت ذاته تم تأخير إغلاق سجن غوانتانامو بحجة التعقيدات القانونية والسياسية، إذ إن معظم المعتقلين في هذا السجن قدموا من بلاد لا تريد استرجاعهم، أو أنهم اعتقلوا بناءً على اعترافات قدموها تحت التهديد، وبذلك يبقى المخرج القانوني المتاح هو نقل ما تبقى من المعتقلين في سجن غوانتانامو إلى موقع آخر، وهو حلٌّ جزئي سيضعف من مكانة أمريكا أمام الرأي العام العربي.

– التقدم الفلسطيني

رغم الأخطاء السياسية لإدارة الرئيس أوباما، فإن نظرته إلى الصراع العربي– الإسرائيلي بأنه قضية مركزية كانت صحيحة تماماً. فقد تحدث الرئيس

(1) Senator Richard Durbin, speaking on Guantanamo detainees, 109th Cong., Ist sess., Congressional Record 151 (June 14, 2005): S 6591-5.

بتعاطف شديد عن معاناة الفلسطينيين، ووضع إصبعه على المخاوف الحقيقية لكلا الطرفين حين قال: «إن الحل الوحيد يكمن في تحقيق طموحات الطرفين من خلال دولتين مستقلتين حيث يعيش كلٌّ من الفلسطينيين والإسرائيليين في أمن وسلام»[1].

ومرة أخرى، لا بد من ترجمة تلك الكلمات الصادقة إلى أفعال على أرض الواقع، وهو ليس بالأمر السهل، إذ لا يمكن تجاوز سنوات طويلة من الإهمال بين ليلة وضحاها بعد أن تصلبت مواقف كلٍّ من الطرفين، ومع أن كلا الطرفين يودان العيش بسلام، فإنهما لا يثقان ببعضهما ويرفض كل فريق تقديم المزيد من التنازلات، لكن –وكما تشير استطلاعات الرأي في زغبي الدولية– فإن الطريق الوحيد لبناء جسور التفاهم بين الغرب عموماً والعالم العربي، ينبغي أن يمر عبر حل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

إن حلَّ هذا الصراع مهم في حد ذاته، غير أنه يحمل أهمية خاصة بالنسبة إلينا كذلك، إذ سيوفر للولايات المتحدة الحلفاء المناسبين والدعم المطلق لمواجهة التطرف وتطبيق الإصلاحات المنشودة، ومع دعم معظم الأمريكيين لسياسة أكثر توازناً تجاه الشرق الأوسط، بالإضافة إلى وقوف الغالبية العظمى من العرب الأمريكيين واليهود الأمريكيين وراء حل الدولتين، ستحظى الإدارة الأمريكية بالدعم المطلوب لمواجهة المعارضة التي قد تظهر، للمضي قدماً في دفع عملية السلام إلى الأمام.

لطالما أحس العرب بأن أي اختلاف في السياسة الأمريكية تجاه الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي سيؤدي إلى مزيد من التعاطف مع إسرائيل ومزيد من الضغوطات على الفلسطينيين، غير أن الرئيس أوباما ينوي تصحيح هذا الوضع غير المتوازن. وتظهر استطلاعاتنا أن العرب يريدون أن يظهر الغرب مواقف متشابهة تجاه التصرفات الإسرائيلية والفلسطينية كذلك، ولا يعني ذلك التخلي عن إسرائيل، بل يعني الإصرار على الاستمرار في المفاوضات بممارسة ضغط متساوٍ على الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، وربط إدانة العنف الفلسطيني بتطمينات

(1) Obama, «A New Beginning.»

حول حفظ حقوق الفلسطينيين، وضمان عدم ضياع المزيد من أراضيهم.

يمكننا الاعتماد في تقدمنا على دليل مهم وهو كتاب «مفاوضات السلام العربي الإسرائيلي: القيادة الأمريكية في الشرق الأوسط»، الذي يوثق جميع المفاوضات السابقة والذي أصدره معهد الولايات المتحدة للسلام (USIP)، وهو هيئة يُمولها الكونغرس وتختص بدراسات السلام[1].

يستند الكتاب على عمل مجموعة بحثية رأسها دانيال كارتزير (سفير الولايات المتحدة السابق لدى إسرائيل ومصر)، وقد قابلت المجموعة أكثر من مائة شخص من المسؤولين والخبراء في سبع دول مختلفة، بمن فيهم مسؤولون شاركوا في مفاوضات السلام من الإدارات الأمريكية الخمس الأخيرة، وخرجت بتقييم مهم وشامل حول الإخفاقات والنجاحات في جميع المفاوضات السابقة، وقدمت توصيات قيمة للتقدم في العملية السلمية لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار.

- إصلاحات ومساعدات مطلوبة

بعد عام من توقيع اتفاقية أوسلو، أي في عام 1994، عقد مؤتمر دولي في كازبلانكا لدعم تقدم عملية السلام الفلسطينية-الإسرائيلية، وبصفتي أحد أعضاء مؤسسة بناة السلام التي رأسها نائب الرئيس آل غور، عقدت جلسة حول بناء الاقتصاد الفلسطيني بحضور عدد من الوزراء الفلسطينيين ورجال الأعمال بمن فيهم وزير التخطيط الاقتصادي نبيل شعث، وقد قدم الفلسطينيون تصوراً لاحتياجاتهم في أثناء الجلسة، وقائمة بالمشاكل التي قد تعترضهم في مسيرة التنمية الاقتصادية.

بعد انتهاء الجلسة، لحق بي شاب أمريكي بدا متحمساً وهو يخبرني أنه قد حصل للتو على عقد بقيمة 12 مليون دولار من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) لتنمية مهارات الفلسطينيين في تنظيم المشاريع في المناطق

(1) Daniel C. Kurtzer and Scott B. Lasensky. Negotiating Arab–Israeli Peace: American Leadership in the Middle East (Washington، DC: US. Institute of Peace Press، 2008).

المحتلة، ولم يكن الشاب يعرف بالطبع أياً من رجال الأعمال الفلسطينيين أو الوزراء، لكنه كان متحمساً للقائهم والتعرف إليهم.

فوجئ نبيل شعث، بل استاء عندما ذكرت له ما قاله الشاب الأمريكي، إذ إن عقداً بمبلغ 12 مليون دولار يشكل جزءاً كبيراً من قيمة المساعدات الأمريكية التي وعدت بها إدارة الرئيس كلينتون الفلسطينيين في ذلك العام، التي بلغت قيمتها 75 مليون دولار، وأضاف بأن الإدارة لم تستشر الفلسطينيين على الإطلاق في كيفية صرف تلك المساعدات، إذ إن تنظيم المشاريع لا يهم الفلسطينيين في الوقت الراهن، وهناك أمور أكثر إلحاحاً في بناء الاقتصاد الفلسطيني. وعندما علم أحد رجال الأعمال الفلسطينيين لاحقاً بالقصة أخذ يضحك قائلاً: «نحن لا نحتاج إلى الأمريكيين ليعلمونا تنظيم المشاريع، فنحن نستطيع القيام بذلك وحدنا، ما نحتاجه فعلاً هو بعض القروض حتى نستطيع بناء اقتصادنا، ونحتاج كذلك إلى إنهاء الاحتلال حتى نستطيع الوصول إلى الأسواق الخارجية»[1].

كنت أتمنى أن تكون تلك القصة من الماضي ولن تتكرر، لكن مع الأسف تُكرر الإدارات الغربية الأخطاء ذاتها مراراً وتكراراً في مساعداتها للعالم العربي، إذ تقدم مساعدات غير مطلوبة ولا يحتاجها العالم العربي فعلياً، ومن أوضح الأمثلة على ذلك التخبط في مشروع المجمع السكني الذي بنته USAID في غزة حيث كانت كلفة كل شقة زهاء 100,000 دولار، في حين يبلغ معدل دخل الفرد السنوي في غزة 800 دولار، لتذهب بذلك أموال دافعي الضرائب الأمريكيين أدراج الرياح. ومع ذلك فهناك بعض الأمل يلوح في الأفق، فمع وجود بعض العراقيل، إلا أن الاتجاه الواضح في الحكومة الآن ينحو باتجاه تصحيح الأمور، وذلك بإشراك مجموعات من دول مختلفة لدعم الإصلاح والتطوير، وقد أعلنت وزيرة الخارجية السيدة هيلاري كلينتون إطلاق مجموعة من الشراكات الواعدة مع منظمات مدنية ومجتمعية لدعم المجتمع المدني وخلق المزيد من الوظائف، وتتضمن الترتيبات مجموعة مشاريع لتطوير مساهمة

(1) James Zogby, personal notes, November 2, 1994.

العلوم والتكنولوجيا في خدمة المجتمع، ودعم التعليم وتطوير فرص العمل وزيادتها ودعم قطاع الشباب وتحسين الخدمات الاجتماعية وزيادة فاعلية الحكام المحليين، وفي أثناء إعلانها تعيين مدير جديد لمؤسسة USAID في يناير عام 2010 أكدت كلينتون ما يلي:

«لقد أملينا بعض الحلول عن بعد فيما مضى، دون أن نعي حقيقة الأمور على أرض الواقع، لكن اتجاهنا الجديد هو أن نمضي في شراكة مع الدول النامية، ونعطيها الأولوية في إدارة وتنفيذ استراتيجيات ذات أهداف محددة، إذ إن التنمية المبنية على التشاور لا على الأمر تعزز القيادة المحلية والملكية اللازمة لتحويل الأفكار الخلاقة إلى نتائج ملموسة ودائمة»[1].

إن هذا التحول في سياسة المساعدات نحو تقديم المساعدات التي تطلبها الدول وتحتاج إليها لهو أمر إيجابي للغاية، ونحن نعلم سلفاً أن المساعدات الخارجية تفعل المعجزات إذا ما وُضعت في مكانها المناسب وفق الحاجات المحلية، وخير دليل على ذلك المركز الدولي للمشاريع الخاصة (CIPE)، الذي يُعد نقطة مضيئة في السياسة الأمريكية الخارجية، كما أنه واحد من أربعة مشاريع تعمل من خلال المؤسسة الوطنية لدعم الديمقراطية[2]. أما المركز فهو مؤسسة غير ربحية تتبع الغرفة التجارية الأمريكية، وقد عمل أكثر من خمسة وعشرين عاماً مع شركاء حول العالم «لبناء مؤسسات مدنية تدعم المجتمع الديمقراطي»[3]. وللمركز تاريخ طويل في العمل في بلاد الشرق الأوسط عبر عمليات بسيطة لا تتكلف أكثر من ستة مليارات دولار في المنطقة، لكنها عمليات فاعلة ومؤثرة لأنها تمكن المنظمات المحلية من بناء ذاتها لإحداث تغيير في المجتمع بدءاً من القاع إلى القمة. كما يعمل المركز مع رجال أعمال وغرف تجارية ومنظمات أهلية غير حكومية لتشجيع المبادرات ومحاربة الفساد

(1) Hillary R. Clinton, «On Development in the 21st Century» (speech, The Peterson Institute far International Economics, Washington, DC, January 6, 2010), http://www.state.gov/secretary/ rm/2010/01/134838.htm.

(2) Center for International Private Enterprise, http://www.cipe.org.

(3) المرجع السابق

وتشجيع الشفافية في الحكومة بالإضافة إلى دعم روح المواطنة والقيم العليا.

- تغيير في البرنامج

لدينا مثال واضح وقوي يظهر الفرق بين الشراكة مع العرب في برامج مساعدات مبنية على احتياجاتهم الخاصة مقابل الجهود والبرامج المبذولة من طرف واحد والمفروضة على العرب دون استشارتهم، ألا وهو مبادرات إطلاق قنوات تلفزيونية وإذاعية غربية التوجه في العالم العربي، حيث يدفع الأمريكيون ومنذ العام 2004 تمويل قناة الحرة وهي قناة تلفزيونية حكومية، وإذاعة سوا. لكن مع الأسف فكلتاهما تعتمدان نموذجاً إعلامياً قديماً يعود إلى القرن الماضي. لقد فات الإدارة الأمريكية أن العالم العربي لا يعيش خلف ستار حديدي، وأن معظم شعوبه تمتلك منافذ كثيرة للمعلومات عبر الإنترنت والقنوات الفضائية المختلفة، وتزداد هذه المنافذ يوماً بعد يوم.

لم تمتلك حكومة الولايات المتحدة قنوات إخبارية دولية لها وزنها في السابق، كما هي الحال بالنسبة إلى المؤسسة الإخبارية البريطانية BBC مثلاً، التي لها باع طويل في هذا المجال حول العالم، ولذلك فقد جاءت قناة الحرة دون المستوى المطلوب، ينقصها الإداريون المحترفون والمعدون والمقدمون أصحاب الخبرة، وتحولت إلى قناة دعائية رخيصة يديرها يميني لبناني، وتعرض برنامجاً أسبوعياً يقدمه أحد أعوان إسرائيل في لبنان.

عندما بدأت قناة الحرة إرسالها، أظهرت استطلاعاتنا أن العرب كانوا يتابعون القنوات الأمريكية بالفعل وذلك عبر أجهزة الاستقبال الخاصة بالقنوات الفضائية، وكانت البرامج الأمريكية تلقى الكثير من الإعجاب في العالم العربي على عكس الحكومة الأمريكية[1]. أما التساؤل المحير هنا فهو لماذا تنفق الحكومة الأمريكية 100 مليون دولار سنوياً لإنشاء محطة تلفزيونية حكومية في العالم العربي، لتنافس القنوات الأمريكية الممتازة والموجودة بالفعل؟

أظهرت الاستطلاعات أيضاً أن مشاهدة البرامج والأفلام الأمريكية قد

(1) Zogby International, Impressions of America, June 2004. Sample size: 3,300 adults.

حسّنت من موقف الرأي العام تجاه الأمريكيين، وهكذا فقد كانت فكرة إنشاء قناة موجهة إلى العرب فكرة جيدة، لكن لماذا لم يتم عمل ذلك بالشراكة مع العرب، وبخاصة أن ذلك لم يكن بالأمر الصعب، فقد عملت لعقد من الزمن مع ثلاث شبكات عربية فضائية مختلفة ووجدت أن هذه الفضائيات مفتوحة أمام التعاون المشترك بما في ذلك شراء حقوق الملكية للبرامج الأمريكية، بالإضافة إلى البرامج التدريبية مع الشبكات الأمريكية، وقد كانت الشبكات الثلاث وهي (MBC، ART، وتلفزيون أبوظبي) مستعدة لكل أشكال التعاون.

مع وجود كل هذا الانفتاح والتنوع في العالم العربي، فإن فكرة الإنتاج المشترك بين الحكومة الأمريكية، والقطاع الخاص العربي هي فكرة بناءة ستتيح للإعلاميين العرب فرصة العمل مع نظرائهم الأمريكيين. وبدلاً من أن تنفق الحكومة الأمريكية ملايين الدولارات على شبكات منافسة دون المستوى، ستقدم خدمة مطلوبة في منطقة الشرق الأوسط عن طريق تقديم الدعم التقني والبشري لشبكات موجودة وفاعلة في العالم العربي من أجل تحسين قدراتها.

– تعريف العالم العربي بنا بزيادة البرامج المتبادلة

لطالما أحببت استضافة رجال السياسة والمحللين المختصين في برنامجي الأسبوعي، ولكن هناك برنامج واحد أتطلع إليه دوماً، وهو استضافة مجموعة من الشباب الجامعي العربي من الأقطار العربية كافة، وفتح باب النقاش أمامهم ليعبروا عن آرائهم[1]. تتكون المجموعة من زهاء 20 شاباً وفتاة قدموا للولايات المتحدة ضمن برامج التبادل الثقافي السنوية، وتكون استضافتهم في البرنامج بعد انتهاء مدة إقامتهم في الولايات المتحدة، حيث يحضرون صفوفاً دراسية مع زملائهم الأمريكيين ويزورون بيوتهم، ويتجولون في أنحاء الولايات المتحدة للاطلاع على طرق الحياة المختلفة في هذا البلد، وغالباً ما تتغير نظرة هؤلاء الشباب للولايات المتحدة بعد بقائهم هنا فترة من الزمن، ويعبرون في البرنامج عن سعادتهم بالفرصة التي أُتيحت لهم لزيارة الولايات المتحدة والتعرف على الحياة فيها عن كثب، لأن ذلك يعطيهم الفرصة لتغيير الصورة النمطية عن

(1) For example, Viewpoint with James Zogby, Abu Dhabi TV, August 13, 2009.

العرب الموجودة لدى بعض الأمريكيين. هذه البرامج هي جزء من الجهود التي تُمولها الحكومة الأمريكية لاستقدام أكثر من 2000 زائر سنوياً للولايات المتحدة عن طريق منح فُلبرايت وبرامج التبادل الثقافي وبرامج الدراسة الثانوية المتبادلة.

وقد زادت ميزانية تلك المبادرات منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ولا بد أن تزداد أكثر فأكثر لأنها تستحق كل دولار يصرف فيها، إذ إنها تتيح الفرصة للشباب لإثراء تجربتهم الحياتية وهكذا تمنحهم المزيد من القوة، كما أنهم يغيرون نظرتهم لصالح الولايات المتحدة بعد أن يتعرفوا إلى الشعب الأمريكي عن قرب[1]. ومع ذلك فإن هؤلاء الشباب لا يمثلون إلا جزءاً بسيطاً من العرب الذين يودون زيارة الولايات المتحدة، وتلك مشكلة أخرى لا بد أن نتطرق إليها.

يعتقد معظم الأمريكيين أن الولايات المتحدة بلاد مضيافة ومفتوحة، غير أن عدد التأشيرات المرفوضة لدخول الولايات المتحدة يشير إلى عكس ذلك، مع أن معظم تلك التأشيرات تعود إلى أكاديميين وأطباء، ومرضى يطلبون العلاج، ورجال أعمال مهمين. لقد خلطت الحكومة الأمريكية ومنذ الحادي عشر من سبتمبر بين سياسة الهجرة وسياسة مكافحة الإرهاب، وكانت النتيجة حرمان آلاف العرب من زيارة الولايات المتحدة أو العمل فيها، ومنهم بالطبع من يستحق تأشيرة الدخول، فرجل الأعمال الذي يتعامل مع شركاء في الولايات المتحدة ليس إرهابياً بالطبع، والطبيب القادم لإجراء أبحاث في بلادنا ليس إرهابياً أيضاً، لذلك يجب تغليب المنطق للخروج من هذا المأزق وتسهيل إجراءات الدخول إلى الولايات المتحدة، إذ إن صورة المئات من الأشخاص يصطفون في طوابير طويلة أمام السفارات الأمريكية في الخارج ليلقوا في النهاية معاملة مهينة من ضابط التأشيرات داخل السفارة هو أمر غير مقبول، ويؤثر سلباً في صورة أمريكا في الخارج، وهو بالفعل ما تحاول الإدارة الأمريكية إصلاحه.

(1) Zogby International, Impressions of America.

لقد أدت تلك السياسة العدائية تجاه القادمين إلى الولايات المتحدة إلى هبوط حاد في عدد زوار أمريكا، فمن 150,000 زائر دخلوا الولايات المتحدة من مصر والسعودية ولبنان والأردن والمغرب قبل الحادي عشر من سبتمبر، انخفض العدد إلى 50,000 فقط عام 2003، ليرتفع قليلاً عام 2008 إلى 85,000 زائر. من الواضح أن التصور النمطي الذي تتبعه إدارة الهجرة في منح التأشيرات قد أثبت فشله، كما أنه يوسع الهوة بين العالم العربي والولايات المتحدة لتزداد المشاعر المعادية لأمريكا، وهو ما يتطلع إليه المتطرفون. علينا أن نؤمن الحماية لبلادنا بالطبع، وينطبق هذا على منافذنا الحدودية بما فيها نقاط منح التأشيرات، غير أن المسؤولين يجب أن يعوا أهمية منح التأشيرات وتسهيل دخول من نرغب في وجودهم هنا لا محاولة حمايتنا ممن لا نرغب بوجودهم فقط، وإذا أرادت الولايات المتحدة أن تصنع من ديمقراطيتها مثالاً يُحتذى فعليها أن تفتح الباب أمام الزائرين ليروا هذه الديمقراطية عن كثب بمن فيهم العرب بالطبع.

- فكرة جديدة

صُدمت الولايات المتحدة عام 1957 عندما استطاع الاتحاد السوفييتي الوصول إلى الفضاء أولاً بإطلاق المركبة الفضائية سبوتنيك، وعلى الفور سارع الكونغرس الأمريكي إلى إقرار قانون تعليم الدفاع الوطني (NDEA) عام 1958، الذي ينص على توفير ميزانيات خاصة في الجامعات والمعاهد لزيادة برامج تعليم الرياضيات والعلوم، كما كانت هناك فقرة خاصة في القانون، وهي الفقرة السادسة، تنص على توفير الدعم للدراسات في المجالات المهمة بما فيها اللغة العربية والدراسات الشرق أوسطية، ولاحقاً تبنت مؤسسات مهمة تلك الدراسات مثل مؤسسة فُلبرايت وغيرها، كما زادت التمويلات المخصصة لدراسة اللغة العربية بعد الحادي عشر من سبتمبر، لكن ليس بصورة كافية.

أظهرت استطلاعات زغبي الدولية أن الأمريكيين لا يعرفون شيئاً تقريباً عن العالم العربي، وأن عدداً قليلاً جداً من المعاهد والجامعات تهتم بتقديم برامج

متقدمة لدراسة اللغة العربية، أو الدراسات الشرق أوسطية، ولذلك فعلى الحكومة أن تفكر بجدية في زيادة البرامج المدعومة لزيادة عدد الدارسين في كلا المجالين بحيث تخصص منحاً للأمريكيين الراغبين في خوض هذا النوع من الدراسات، ويمكن للكونغرس أيضاً أن يساهم في توسيع برنامج فُلبرايت الذي يوفر برامج التبادل الثقافي والأكاديمي بين المؤسسات التعليمية الأمريكية والعربية.

- العرب الأمريكيون أحد أعمدة السياسة والدبلوماسية

كما عرضنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب، فإن العرب الأمريكيين والمسلمين الأمريكيين عموماً، يمكن أن يلعبوا دوراً مهماً في تجسير الهوة بين العالم العربي والولايات المتحدة، ولا بد من توسيع مشاركتهم السياسية في هذا المجال، وينبغي كذلك أن تُستغل الخلفية الثقافية والحضارية للعرب الأمريكيين بصورة أفضل، بأن يتم تعيين المزيد منهم في المناصب الحكومية المتعلقة بالدبلوماسية الخارجية وبرامج المساعدات والمنح، وفي المقابل لا بد أن تكون هناك لجنة استشارية خاصة بالعرب الأمريكيين في وزارة الخارجية، يستطيعون عن طريقها المساهمة في الجهود الدبلوماسية بشكل أوضح.

إن الأمر هنا لا يتعلق بالعدالة أو المساواة بين المجموعات العرقية، لكنه يتعلق بالمنطق السليم، إذ على الحكومات أن تفعل ما في وسعها للاستماع إلى الأصوات العربية سواء أكانت هذه الأصوات في العالم العربي أو في أمريكا، والأهم من ذلك أن تحاول الحكومة بأشكالها المختلفة أن تتعلم الإصغاء إلى ما تقوله هذه الأصوات، وهو ما يفعله القطاع الخاص بشكل جيد وعلى الحكومة أن تستفيد من ذلك.

الفصل السادس عشر

ماذا يمكننا أن نفعل؟

تقع على الحكومات بالطبع المسؤولية الأكبر في تصحيح السياسات تجاه العالم العربي، لكن في ظل الديمقراطيات يمكن لقطاعات أخرى في المجتمع أن تسهم في ذلك بدور فاعل، فمؤسسات الأعمال التي تستثمر في الشرق الأوسط، والمؤسسات التعليمية التي تعد الأجيال القادمة، بالإضافة إلى وسائل الإعلام التي ترسم صورة الغرب في تعامله مع الشرق الأوسط، يمكن أن تلعب كلها دوراً مهماً في تصحيح الأوضاع. أما نحن- المواطنين في الديمقراطيات الغربية- فعلينا واجب يحتم علينا الاطلاع والمشاركة في النقاشات العامة حول الدور السياسي الذي تلعبه حكوماتنا في العالم العربي.

- مشاركة المواطنين

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، ساعدت والدي في إدارة دكانه، وفي أحد الأيام حضرت جارتنا السيدة ميتزغير لشراء بعض الحاجيات، وأخذت تتفحص حبات الدراق التي كنت قد عرضتها للتو، وفي أثناء تفحصها كانت تضغط على الحبات بقوة مسببة رضوضاً فيها مما أثار حنقي، وعندما حاولت لفت نظرها منعني والدي وتوجه إليها قائلاً: «صباح الخير سيدة ميتزغير، كم يبدو شعرك جميلاً اليوم، هل قمت بتصفيفه بطريقة مختلفة»؟ وهنا ابتسمت السيدة ميتزغير وشكرته، فاقترب والدي وقال لها: «أرى أنك تتفحصين الدراق»؟ فأجابت السيدة: «نعم ولكنها جميعها مرضوضة»، فأجاب والدي: «ولكن لا بد أن تشميها أولاً، وإذا أعجبتك سأمنحك تخفيضاً إضافياً في سعرها».

وهكذا اشترت السيدة الدراق وأكثر، وبقيت أنا دهشاً من أسلوب والدي في معالجة الموقف حين خرج الجميع سعداء، وهذا بالضبط أساس الشراكة

المفيدة، ولطالما أعجبت بأسلوب رجال الأعمال في إتمام صفقاتهم، غير أن بعضهم تنقصه هذه المهارة.

لقد تذكرت الدروس التي تعلمتها في دكان والدي عام 2002 عندما دعاني السفير السابق إيد جيرجيان من معهد بيكر للسياسة العامة للمشاركة في الحوار السوري–الأمريكي في هيوستن، وتلاه حوار آخر بعد بضع سنوات في دمشق. وقد دعاني جيرجيان لأكون ضمن الفريق الأمريكي الذي سيتقابل مع الفريق السوري لبحث مسائل تتعلق بالأعمال والسياسة والتبادل الثقافي.

كان المحور الأول للنقاش هو الأعمال، وقد استطاع رجال الأعمال بخبرتهم التفاهم بعضهم مع بعض بسهولة مما ساعد في تقدم الحوار، لتبدأ بعد ذلك جلسة النقاشات السياسية التي لم تمض بسلاسة الجلسة الأولى، إذ بدأ الحاضرون بتوجيه الاتهامات المتبادلة ولم تصل المفاوضات إلى شيء، وسرعان ما انتهت الجلسة دون تحقيق أي تقدم يذكر. وهنا تذكرت أسلوب والدي السلس وتمنيت لو يدرك هؤلاء السياسيون أهمية معرفة الآخر قبل الشروع في المطالب والاتهامات. مازلت أعتقد أنه لو اتبع السياسيون أسلوب رجال الأعمال في المباحثات الدبلوماسية لكانت الأمور أفضل حالاً مما عليه الآن، والعكس صحيح أيضاً، إذ لو طبقنا نموذجنا السياسي على التجارة لكنّا الآن جميعاً في عداد المفلسين، لا يمكن لأحد أن يسوق بضاعته تحت التهديد، أو بادعاء أنها البضاعة الوحيدة المتاحة، وهنا تبرز نقطة مهمة جداً كدرس واضح من الجلسات التي حضرتها في الحوار الأمريكي السوري، إن القطاع العام لا بد أن يتعلم الكثير من الدروس من القطاع الخاص.

دعيت في عام 2005 للحديث أمام المجلس الدولي لإحدى الشركات الأمريكية، التي كانت تفتتح مشروعاً لها في العالم العربي، وقد أطريت على جهود الشركة مذكراً المجلس بأن افتتاح الشركة فروعاً لها في العالم العربي يجعلها جزءاً من الجهود الدبلوماسية المبذولة في الشرق الأوسط بطريقة أو أخرى. وكما قال لي رفيق سفري محمود في إحدى الرحلات؛ وهو أحد

رجال الأعمال الفلسطينيين، إن الشركات الأمريكية تسوق أسلوب الحياة الأمريكية وليس البضائع الأمريكية وحسب، فالأردني الذي يشرب القهوة في ستاربكس في عمان، أو السعودي الذي يتناول البيتزا في بيتزا هت في الرياض، لا يفعل ذلك لأن القهوة أو الطعام في هذه الأماكن أفضل من غيره، لكن لأنه يشعر أنه يشتري قطعة من الحياة الأمريكية، وليس ثمة أفضل من المنتجات الأمريكية لتمثيل هذه الحياة.

لقد استفادت الشركات الأمريكية لعقود من صورة الحياة الأمريكية في تسويق منتجاتها وذلك عبر شركائها في الشرق الأوسط، غير أن تلك الاستفادة سلاح ذو حدين، إذ ينبغي أن تتحلى الشركات الأمريكية العاملة في الشرق الأوسط بالمسؤولية في تقديمها أفضل المنتجات والخدمات، وأن تخضع للمساءلة والمحاسبة، ومعظم هذه الشركات تقدم ذلك بالفعل، ولكن يبقى هناك المزيد مما يمكن فعله.

- إكسون موبيل (شركة أمريكية متعددة الجنسيات للنفط والغاز)

بينما تحصد إكسون موبيل أرباحاً خيالية من استثماراتها في العالم العربي، تقوم كذلك ببذل جهود خاصة للاستثمار في المجتمع المحلي عبر برامج محلية. وقد بدأت تلك الجهود قبل دمج العملاقين إكسون وموبيل عام 1999، إذ تمتلك شركة موبيل تاريخاً طويلاً في تقديم الحضارة العربية والإسلامية للغرب، إذ مولت الشركة إنتاج مرجع ضخم حول الإسهامات العربية والإسلامية في عصر النهضة[1].

كما قامت إكسون موبيل مؤخراً بتخصيص جزء من ميزانيتها لتمويل مجموعة من النشاطات التي تعود بالنفع على العرب والأمريكيين معاً، ويتضمن ذلك منحاً دراسية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا يديرها معهد التعليم الدولي[2]، وتتاح هذه المنح لجميع المواطنين في أربع عشرة دولة عربية للحصول

(1) John R. Hayes, ed., The Genius of Arab Civilization: Sources of Renaissance (Cambridge, MA: MIT Press, 1983).

(2) Exxon Mobil, 2008 Worldwide Giving Report, http://www.exxonmabil.com/

على شهادة الماجستير في العلوم الجيولوجية من الجامعات الأمريكية.

لا تقتصر مساهمات إكسون موبيل على مجالات البترول والجيولوجيا، وإنما تتعداها إلى جوانب إنسانية أخرى، فقد أسهمت الشركة في منحة مقدارها مليون دولار على مدار ثلاث سنوات لدعم المنظمة البريطانية «أنقذوا الأطفال» ومشروعها الخاص في مصر المسمى «برنامج إشراق»، وقد ساعد هذا التمويل على منح 1000 فتاة مصرية من عمر 12—17 سنة فرصة أخرى لمتابعة تعليمهن، كما تستثمر الشركة في دعم مجموعة من البرامج التعليمية والثقافية التي تشرف عليها عدة مؤسسات تعليمية في الولايات المتحدة.

- ستاربكس

يشغل مقهى ستاربكس 280 فرعاً في الشرق الأوسط بناءً على اتفاقية مع مؤسسة الشايع الكويتية، وتوجد هذه الفروع في بلدان الخليج العربي ومنطقة بلاد الشام وشمال إفريقيا. وتستخدم مقاهي ستاربكس أكثر من 2,700 عامل في فروعها مع التزامها باستخدام العمالة المحلية في لبنان والأردن ومصر[1].

يحاول ستاربكس أن يعزز روح الشراكة مع المجتمع المحلي وبخاصة في مجال البيئة، فعلى سبيل المثال، مول المقهى مشروعاً لزراعة 500 شجرة من أشجار الصنوبر في لبنان في منطقة دمرتها حرائق الغابات. وأسهم ستاربكس كذلك في حملات لتنظيف الشواطئ في دول الخليج العربي، بالإضافة إلى اشتراكه مع مؤسسة «دبي العطاء» في حملة لتوفير مستلزمات مدرسية وأدوات النظافة الشخصية لزهاء 50,000 طفل فلسطيني بعد الحرب على غزة عام 2008—2009.

قد تبدو هذه الأعمال تحقيقاً لمصلحة الشركة الشخصية، وترويجاً لعلامتها التجارية، وربما كان ذلك صحيحاً، غير أن التزام ستاربكس بتشغيل العمالة

Corporate/community_cantributions_report.aspx.

(1) Starbucks, Facts About Starbucks Coffee Company, http://me.starbucks.com/NR/rdonlyres/ 19A33462-4647-4AAB-Booo-998F8113C8B9/9182/FactsaboutStarbucksMiddleEastENGLISH.pdf.

المحلية، والمساهمة في الأعمال الخيرية يصب في النهاية في مصلحة الصورة العامة لأمريكا بقدر ما يصب في مصلحة ستاربكس، وليس من الضروري أن تنفي إحداهما الأخرى.

- **أنظمة سيسكو**

تمتلك أنظمة سيسكو اثني عشر مكتباً في ثماني دول في الشرق الأوسط يعمل فيها أكثر من 628 موظفاً، وتشارك الشركة بالمسؤولية الاجتماعية عبر نشاطات تصب في التعليم وتطوير الاقتصاد، وقد حصلت الشركة على جوائز عدة لجهودها في هذا المجال بما فيها جائزة وزير الخارجية الأمريكية للتميز عام 2005 لمساهمتها في مبادرة التعليم الأردنية[1]. ومن الأمثلة المهمة على مبادرات سيسكو في الشرق الأوسط، إعلانها عام 2008 عن استثمار بقيمة 10 ملايين دولار لمدة ثلاث سنوات في الأراضي الفلسطينية، وذلك لخلق المزيد من فرص العمل وتطوير البنية الاقتصادية. أما في مصر فقد اشتركت سيسكو مع الندوة الاقتصادية العالمية لخلق مبادرة التعليم في مصر، وهو مشروع يوظف تكنولوجيا الحاسوب لتحسين مستويات التعليم في الدول النامية وإصلاحها. وأخيراً، وفي لبنان، أوجدت سيسكو برنامجاً مماثلاً أسمته «شراكة من أجل لبنان» بتكلفة مقدارها 20 مليون دولار لمدة ثلاث سنوات، وقد صممت المبادرة لتوسيع انتشار التعليم وتدريب القوى العاملة وخلق فرص عمل جديدة، بالإضافة إلى إرساء بنية تحتية للتكنولوجيا لربط المجتمعات.

- **عمل غير مكتمل**

هناك شراكة فاعلة في العالم العربي، ومع ذلك فهناك المزيد مما يمكن تقديمه في هذا المجال، فمثلاً لا نجد الكثير من الاهتمام في الجامعات والمعاهد الأمريكية بتدريس اللغة العربية أو التاريخ العربي والإسلامي مع أن الاهتمام بمنطقة الشرق الأوسط يتزايد يوماً بعد آخر. وقد مولت الأمم المتحدة إصدار تقرير حول التنمية البشرية في العالم العربي ظهر فيه نقص حاد في عدد

(1) Cisco, CSR Report 2009, Middle East, http://www.cisco.com/web/about/ac227/csr2009 /map/middleeast.html.

الكتب المترجمة من الإنجليزية إلى العربية، ولكن من المقلق فعلاً العدد الضئيل من الكتب الكلاسيكية العربية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية والمنشورة بهذه اللغة، وتلك كلها مجالات يمكن للشراكة أن تلعب فيها دوراً إيجابياً، ولا بد من تشجيع الشركات الأمريكية الكبرى على بعث برامجها التبادلية الخاصة وتمويل مقاعد محددة في الجامعات العربية للدراسات الأمريكية بالإضافة إلى الدراسات العربية في الجامعات الأمريكية.

- برنامج مؤاخاة المدن: أسلوب شيكاغو

البرنامج الدولي لمؤاخاة المدن هو برنامج يؤاخي بين مدن أمريكية ومجتمعات أخرى حول العالم لتوفير فرص التبادل الثقافي وتطوير فرص التبادل التجاري والتعليمي، وهناك زهاء 1000 مدينة أمريكية في هذا البرنامج استطاعت تأسيس علاقات مع أكثر من 2,500 مدينة في 135 بلداً ليس بينها إلا عدد قليل من الدول العربية[1].

لقد كانت مدينة شيكاغو بقيادة عمدتها رتشارد دالي من أوائل المدن التي تبنت هذا البرنامج، ولها علاقات وثيقة مع مدن عربية مختلفة مثل عمّان في الأردن وكازبلانكا في المغرب، وستنضم إلى هذه القائمة قريباً مدينة أبوظبي عاصمة الإمارات العربية المتحدة. وقد استضافت شيكاغو عام 2008 الندوة الأولى للمدن العربية والأمريكية بحضور خمسين أمينا ومحافظاً من سبع عشرة جنسية مختلفة، وستعقد الندوة المقبلة في مدينة عمّان. وبناءً على التزامها بتعميق التفاهم مع العالم العربي، أطلقت شيكاغو برنامجاً متكاملاً لتعليم اللغة العربية في مدارسها الابتدائية والثانوية، واليوم يشمل هذا البرنامج أكثر من ألفي طالب في مختلف مدارس شيكاغو. ويوضح عمدة شيكاغو أهدافه من هذه البرامج بقوله «نحن بحاجة إلى بناء علاقات ثقافية قوية بالإضافة لتوسيع اتصالاتنا التجارية لبناء اقتصاد محلي قوي ومتنوع يمكن من المنافسة في المجتمعات العالمية الجديدة، ويؤدي كل ذلك إلى تفاهم أكبر بين ثقافات الأمم

(1) Sister Cities International, http://www.sister-cities.org/.

المختلفة ويوثق عرى الصداقة بينها»[1].

- **وسائل الإعلام: تقديم العالم العربي لأمريكا**

يلعب المراسلون الذين يغطون الأحداث حول العالم دوراً مهماً في نقل المعلومة للجمهور العريض، وعندما تكون التغطية الوحيدة مرهونة بصحفيين يتعاطفون مع الولايات المتحدة أو مع القوات البريطانية في الحزام الأخضر، أو بمن يستلهمون معلوماتهم من القوات الإسرائيلية خارج غزة دون أن يسمح لهم بدخول المدينة لتغطية الحرب الدائرة فيها بالفعل، عند ذلك لن تكون التقارير والقصص التي ينقلونها صادقة تماماً. وينطبق الأمر كذلك على التقارير المنقولة في حالة السلم كذلك، إذ لن يستطيع المراسلون نقل صورة حقيقية عن العالم العربي إلا إذا تعاطوا معه فعلياً على أرض الواقع، عندها فقط يمكنهم أن ينقلوا للمشاهد الغربي صورة تساعد في تحقيق مزيد من الفهم لهذا العالم. لحسن الحظ هناك أمثلة لامعة في الصحافة المكتوبة والمرئية تضم أشخاصاً يفهمون المنطقة بحق ويعرفون الكثير عن شعوبها وتاريخها، ولا ينتظرون التقارير الرسمية التي تطلقها وزارة الدفاع، وبذلك فهم يسهمون إسهاماً مباشراً في جهود الولايات المتحدة في العالم العربي عن طريق أداء واجبهم كما ينبغي. تقدم محطة بي. بي. سي BBC تغطية شاملة وعميقة لجميع الأحداث في العالم العربي سواءً في حالات الحروب والأحداث الطارئة أو حتى الأحداث اليومية، وذلك بحرفية عالية يستفيد منها المتابع لهذه المحطة المميزة، أما قناة فرانس 24 France وسي. إن. إن C.N.N الدولية والجزيرة الإنجليزية، فكلها تتنافس فيما بينها لنقل صورة مقربة للأحداث، ولكن مع الأسف، فإن المشاهد الأمريكي داخل الولايات المتحدة لا يجد قنوات إخبارية مماثلة تساعده في تكوين صورة حقيقية للأحداث، إذ لا توفر المحطات الأمريكية الرئيسة أكثر من نصف ساعة من الأخبار يومياً، يكون محورها الأخبار المحلية التي يكون معظمها منصباً على القصص الإنسانية الخفيفة. أما المحطات التلفزيونية

(1) Mayor Richard M. Daley, remarks at Arab American Foundation Dinner, April 21, 2010.

الرئيسة الثلاث في الولايات المتحدة (سي إن إن CNN، فوكس Fox، إم إس إن بي سيMSNBC) فقد أصبحت جميعها تحت سيطرة الأحزاب الكبرى، ويظهر ذلك حتى في تغطيتها للأحداث الخارجية العالمية. لا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة إلى الصحافة المكتوبة، ففي بريطانيا على سبيل المثال هناك عدد من المحررين المميزين في الصحف القومية البريطانية أمثال رولا خلف في صحيفة فاينينشال تايمز، وبرايان ويتكر من صحيفة الغارديان، وماكس رودنبيك من مجلة الإيكونوميست، الذين يقدمون أخباراً وتحاليل معمقة تعكس خبرتهم الواسعة في الشرق الأوسط، واحتكاكهم المباشر بشعوبها، أما هنا في الولايات المتحدة، فلا نجد إلا صحيفة نيويورك تايمز مهتمة بنقل تغطية منتظمة عن العالم العربي.

تطالعنا بين الحين والآخر بعض النقاط المضيئة في الإعلام الأمريكي مثل كريستيان أمنبور مذيعة قناة سي إن إن الشهيرة، التي أعدت برنامجاً في عدة حلقات حول العالم الإسلامي بعنوان «أجيال مسلمة»، وقد عُرض على قناة سي إن إن في أغسطس عام 2009 وموجود حتى الآن على الموقع الإلكتروني للقناة، حيث عَرضت فيه رؤية معمقة لتفاصيل حياة الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي من الشرق الأوسط حتى وسط وجنوب آسيا[1].

حسب رأيي الخاص، هذه هي التلفزة الحقيقية، إذ تأخذ المشاهد في رحلة ليفهم حالة اليأس التي يعاني منها أبناء غزة، ويتعرف إلى فتاة مصرية ترتدي الحجاب ومدى سعادتها وفخرها بهذا الرداء، وينظر إلى تأثير برنامج «شارع السمسم» التعليمي على أجيال من الأطفال في العراق وفلسطين. نعم لا بد أن تصل أصوات الشباب العربي المسلم إلى الغرب، وهو بالضبط ما يفعله إعلاميون مثل أمنبور.

لقد غطى كثير من الإعلاميين الغربيين الحرب على العراق وذلك من خلال مرافقتهم للحملة العسكرية، أو عبر وجودهم في مناطق آمنة نوعاً ما، غير

(1) «Generation Islam,» Christiane Amanpour Reports, CNN, August 13, 2009, http: //www.cnn.com/SPECIALS/2009/generation.islam/.

أن صحافيين مثل نورا بستاني من جريدة واشنطن بوست، وتغريد الخضري من جريدة نيويورك تايمز بالإضافة إلى أنتوني شديد المراسل السابق لصحيفة واشنطن بوست، الذي يعمل حالياً في صحيفة نيويورك تايمز، خاطروا جميعاً بحياتهم لينقلوا قصصاً من أرض الواقع. كانت البستاني في لبنان أثناء الهجوم الإسرائيلي على البلاد عام 2006، وبدت تغطيتها الإنسانية لذلك الهجوم وتأثيره على سكان مدينة بيروت من أجمل التقارير التي غطت تلك الحرب. أما شديد فقد فاز بجائزة البوليتزر مرتين عن جهوده في إبراز الصورة الحقيقية للمجتمع العراقي في أثناء تجواله في شوارع بغداد في السنوات الأولى للحرب، ومن جانبها غطت الخضري الحرب على غزة من داخل مناطق الاشتباك، واستطاعت أن تنقل للمشاهد الأمريكي الجانب الإنساني من معاناة أهل غزة عبر زيارتها للمستشفيات وحديثها مع العائلات المنكوبة.

لقد واجه المراسلون الثلاثة أخطاراً جمة، غير أنهم استطاعوا تقديم معلومات قيمة عن التكلفة الإنسانية للحروب التي غطوها، بالإضافة إلى متابعتهم سير الأحداث من زوايا مختلفة، لا تقتصر على جانب واحد، وهو الواجب الحقيقي للإعلام، الذي تقع على عاتقه مسؤولية المجازفة من أجل تقديم المعلومة الصحيحة، وذلك بتكليف مراسلين يفهمون المنطقة المطلوب تغطيتها، ويستطيعون التواصل مع أهلها حتى يتمكنوا من تصوير القصة كاملة، وهذا هو ببساطة الإعلام الجيد والمسؤول، ودون هذه القواعد الأساسية سنبقى جميعاً تحت رحمة المعلومات أحادية الجانب.

تقع على كاهل القنوات الإخبارية مسؤولية إضافية كذلك، إذ عادة ما تستضيف هذه القنوات من تسميهم بالخبراء في الشأن العراقي أو الإيراني وما إلى ذلك، وبخاصة في حالات الحرب أو الأحداث الكبرى، وفي الحقيقة فإن هؤلاء الخبراء لا يعرفون شيئاً عن تلك الدول، وربما لم يزوروها يوماً، لكنهم يستقون كل ما لديهم من معلومات من الصحف اليومية لا أكثر، ومع ذلك يقدمون ما لديهم من آراء ومعلومات وكأنها أمر واقع وحقيقي، وهذا بالطبع

يضر بالرأي العام المتعطش للمعلومات، الذي يرغب في تكوين رأي حول ما يجري خارج بلاده. لذلك فلا بد أن تتحرك الشبكات الإخبارية بطريقة أفضل للاستعانة بخبراء إقليميين من مناطق مختلفة ليعرضوا وجهات نظر مختلفة، يستطيع المشاهد من خلالها المقارنة بين الآراء واستنباط الحقيقة الخالصة، لا أن تركن تلك الشبكات إلى محللين وخبراء محليين يتكرر ظهورهم في كل مناسبة على شاشات التلفزة. وبالطبع لن تصح الديمقراطية إلا بوجود المعلومات الصحيحة المتاحة للمواطنين، التي تمكنهم من تكوين وجهات نظر تؤدي بهم إلى صناديق الاقتراع المناسبة. أما في الشأن العربي فعلى وسائل الإعلام الرئيسة أن تتحرى الدقة في المواضيع والأحداث التي تؤثر في الولايات المتحدة، والتي تجري في العالم العربي، حتى نستطيع في النهاية أن نفعل ما يجب علينا فعله أو على الأقل أن نتجنب ما يجب تجنبه.

- تحدي التعليم

إن تعليم الطلاب عن العالم العربي لا بد أن يكون جهداً مشتركاً تلعب الحكومة فيه دوراً مهماً بتمويل برامج الدراسات الشرق أوسطية. لكن هناك عبئاً آخر يقع على الشركات الكبرى العاملة في الشرق الأوسط بالفعل، ومع أن عدداً من هذه الشركات تعي هذا الدور وتقدم الدعم اللازم في هذا المجال، فإن هناك عدداً آخر منها لاتزال مساهماتها دون المستوى المطلوب، ولتصحيح هذا الوضع، على الأنظمة التعليمية في الولايات المتحدة وأوروبا أن تفهم مدى أهمية إعداد طلاب قادرين على الانخراط في العالم العربي ومدركين لطبيعة التعقيدات في هذه المنطقة.

يحضرني دائماً تحذير الشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان؛ وزير الخارجية الإماراتي، الذي بدأت به كتابي هذا عندما تحدث عن مزيد من الجهود لفهم العالم العربي، وأنا أعتقد أن الخطوة الأولى هي مساعدة العالم العربي على فهم الغرب، وذلك من خلال توسيع المناهج التعليمية الموجودة حالياً في الغرب عموماً لإتاحة الفرصة أمام الطلاب الراغبين في التعرف على العالم العربي

وتاريخه، بالإضافة إلى دراسة اللغة العربية التي هي مفتاح الولوج إلى هذا العالم.

إن تمويل مثل هذه المشاريع هو أمر في غاية الأهمية، ورافد مهم لتحسين التعليم، ولذلك فمن الضروري مقاومة الجهود التي تسعى إلى وصم التبرعات العربية في هذا المجال ورفضها، وبخاصة أن هذه التبرعات تُقدم إلينا دون شروط مسبقة، إذ تبرع الأمير الوليد بن طلال من المملكة العربية السعودية بتمويل برنامجين في غاية الأهمية أحدهما مركز جامعة جورج تاون للتفاهم الإسلامي - المسيحي، والآخر برنامج الدراسات الإسلامية في جامعة هارفرد[1]. كما موّل الأمير الوليد برنامج الدراسات الأمريكية في الجامعة الأمريكية في كلٍّ من القاهرة وبيروت إيماناً منه بمد جسور التواصل بين الغرب والعالم العربي[2]، ونتيجة لهذه الجهود حصل مئات الطلاب على فرص لم تكن متاحة من قبل، ومع ذلك فقد رُفضت تبرعات أخرى من العرب للمساهمة في برامج محددة في مؤسسات التعليم العالي تحت ضغط حملات التجمعات المعادية للعرب، مع أن جميع تلك التبرعات كانت قانونية تماماً[3].

بالنسبة إلى الجامعات التي تضم عدداً كبيراً من الطلاب العرب والمسلمين، فأمامها فرصة حقيقية لتبادل التعاون وخلق حوارات بناءة مع هؤلاء الطلاب، لذلك فلا بد من دعم برامج مثل برنامج المجلس الوطني للعلاقات الأمريكية العربية، نموذج جامعة الدول العربية MAL [4]، الذي أُنشئ عام 1983،

(1) Prince Alwaleed Bin Talal Center for Muslim-Christian Understanding, Georgetown University, http://cmcu.geargetown.edu/; Prince Alwaleed Bin Talal Islamic Studies Program, Harvard University, http:// www islamicstudies.harvard.edu/.

(2) American University of Beirut's Prince Alwaleed Bin Talal Bin Abdulaziz Alsaud Center for American Studies and Research, http:// www. aub.edu.ib/faslcasar; Prince Alwaleed Bin Talal Abdulaziz Alsaud Center for American Studies and Research at the American University in Cairo, http://www.aucegypt.edu/ResearchatAUC/rc/casar/.

(3) Himdi Heba; «Harvard to Return Zayed's Cash Gift,» Arab News, July 30, 2004, http:// wwwarabnews.com/?page=4&section=o&article=49084 &d=3o&m=7&y=2oo4.

(4) National Council on US.-Arab Relations' Model Arab League, http:// www.ncusar.

وحرص منذ ذلك الوقت حتى الآن على تمكين المئات من الطلاب والمدرسين الأمريكيين من زيارة عدة مدن عربية للاطلاع على ثقافاتها عن قرب، كما موَّل المجلس افتتاح فروع لنموذج الجامعة العربية في إحدى عشرة مدينة في الولايات المتحدة انضم إليها أكثر من 30,000 طالب. واعتماداً على برامج نموذج الولايات المتحدة يعين نموذج الجامعة العربية عدداً من طلاب الجامعات لدراسة ثقافة وتاريخ إحدى الدول العربية، ومن ثم يمثلونها ويدافعون عنها في جلسات نموذج الجامعة العربية، وبذلك يكتسب الطلاب خبرات مهمة في مهارات القيادة والحوار والمفاوضات، كما أنهم يتعمقون في فهم تاريخ حضارة البلد الذي يمثلونه، بالإضافة إلى البلدان الأخرى التي يتفاعلون مع ممثليها في أثناء جلسات النقاش.

- المواطنون: مشاركون ومطلعون

لقد حللت ضيفاً على برنامج واشنطن جورنال في قناة سي سبان C–span الإخبارية عام 2005 بعد الانسحاب الإسرائيلي من غزة، وقد كنت أرد على مكالمات المتصلين بالبرنامج الذين يسألون عن الأوضاع في تلك الفترة[1]. سألني أحد المتصلين حول تاريخ الصراع في المنطقة، فأشرت عليه بالرجوع إلى موقعي الإلكتروني حيث يجد تاريخاً مختصراً للصراع موثقاً من جانب الأمم المتحدة، وسيجد هناك الإجابة الشافية، ثم انتقلت إلى المتصل التالي[2]. عندما عدت إلى مكتبي لاحقاً ذلك اليوم، وجدت 400 رسالة إلكترونية، في بريدي من أشخاص يطلبون تحميل تلك الوثيقة التي أشرت إليها في إجابتي على المتصل الذي كان يطلب معلومات تاريخية عن جذور الصراع العربي الإسرائيلي، وفي نهاية ذلك اليوم وصل عدد الذين حمّلوا الوثيقة إلى 2400 شخص (الرابط لتحميل الوثيقة بالإضافة إلى وثائق أخرى موجود في ملحق

org/modelarableague/index.html.

(1) Washington Journal, C- SPAN, July 28, 2005.

(2) United Nations, Division for Palestinian Rights, Question of Palestine, http://www.un.org/Depts / dpal/qpal/.

هذا الكتاب). ولذلك فإنا لا أدهش أبداً عندما تُظهر استطلاعات الرأي التي نقوم بها أن اثنين من كل ثلاثة أمريكيين يرغبون في الاطلاع على مزيد من المعلومات حول العالم العربي، وإذا كنت عزيزي القارئ قد وصلت إلى هذا الجزء من الكتاب فقد تكون أحد أولئك الذين يرغبون في معرفة المزيد عن هذا العالم.

إن المسار الصحيح للديمقراطية يحتم على الحكومات تنوير المواطنين الذين يدعمون سياسة هذه الحكومات وحمايتهم من التضليل، وبذلك يتمكن المواطنون من المشاركة في العملية الدبلوماسية والإدلاء برأيهم بوضوح فيما يتعلق بموقف أمريكا في العالم العربي. وبناءً عليه فإن على الحكومات والشركات ووسائل الإعلام والمعلمين أن يقدموا المزيد في هذا المجال، وفي عصر المعلومات الذي نحياه الآن، يمكن للأفراد المطلعين أن يشكلوا رأياً ضاغطاً باتجاه التغيير.

- زيادة التبادل

لطالما حثت الحكومات العربية على تشجيع مزيد من التفاهم ونبهت على ضرورة إرسال وفود من المواطنين لزيارة الولايات المتحدة لتشترك في حوارات مع المجموعات المختلفة في أمريكا. وقد أظهرت استطلاعاتنا أن 60٪ من الأمريكيين يرحبون بهذا النوع من الزيارات، ويرون فيها فرصة لتعلم المزيد عن الثقافة العربية[1].

لذلك فنحن نهيب دائماً بالعرب أن يمولوا المزيد من البرامج مثل برنامج مركز كنيدي للأرابيسك الذي ينقل الثقافة العربية إلى قلب الولايات المتحدة، ويعرّف الجمهور الأمريكي بها عن كثب، وبالإضافة إلى ذلك، على العرب أن يوفروا مواد تعليمية للمدرسين الذين يعلمون اللغة العربية فضلاً عن المجموعات التي تنشر المزيد من المعلومات عن العالم العربي، ولا شك أن هناك جهوداً تبذل بصدق في هذا المجال، لكنها لا تسد الحاجة المتصاعدة للمزيد.

هناك طرق أخرى يمكن للمواطنين الأمريكيين من خلالها الاطلاع

(1) Zogby International, Poll of American Voters, November 30-December 8, 2009. Sample size: 1,006 adults.

والمشاركة في الحوارات الدائرة حول سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، مثل الانضمام للمجلس الأمريكي للشؤون العالمية (WACA)، الذي تتوزع فروعه في أكثر من 100 مدينة أمريكية حيث تمثل هذه المجالس ثمرة الجهود الوطنية من أجل «إشراك أكبر عدد ممكن من المواطنين في تبادل المعرفة والآراء في القضايا العالمية»[1]، وتستضيف هذه المجالس متحدثين من الخارج بعضهم من العالم العربي يناقشون العديد من المواضيع المتعلقة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة، مما يقدم مادة ثرية للراغبين في مزيد من المعرفة للإجابة عن تساؤلاتهم.

كما أنصح كذلك ببرنامج «القرارات العظمى» الذي تشرف عليه جمعية السياسة الخارجية[2]، إذ تعقد هذه الجمعية جلسات سنوية تضم ما يقارب 350,000 مواطن، يتوزعون على 800 مجموعة لمناقشة الأمور الحيوية في البلاد، وتطرح المواضيع التي ستتم مناقشتها في بداية كل سنة، كما يتم إرسال كتيبات حول هذه المواضيع إلى جميع المشاركين، ويلتقي الأعضاء خلال العام لمناقشة المواضيع المطروحة، ثم يتم الاقتراع عليها في نهاية العام.

إن خلاصة القول هي ما يلي: استمعوا إلى الأصوات العربية وافهموا ما تريد قوله، ولا تعتمدوا على المثقفين فقط. وعليكم أيضاً الانخراط بشتى الوسائل في هذه المنطقة المتوترة من العالم لتكوين رأي حر وواضح يمكّنكم من فهم العالم العربي وتغيير صورة الولايات المتحدة لدى العرب، ويمكنكم المساهمة أيضاً في تغيير الطريقة التي تنظر بها الحكومات الغربية إلى العالم العربي، وتلك هي بحق المعادلة المطلوبة من أجل مستقبل مشرق للعرب والغرب كذلك، إذ إن مصائرنا مرتبطة بعضها ببعض، وعلينا أن نقوم بالخطوة الصحيحة.

(1) World Affairs Councils of America (WACA), http://www.worldaffairs councils.org/.

(2) Foreign Policy Association, Great Decisions Program, http://www.great decisions.org/.

الخاتمة

الربيع العربي

قادتني الجولة التي بدأتها في هذا الكتاب، في نهاية المطاف، إلى الشرق الأوسط وذلك في منتصف يناير من عام 2011، وبعد وقوع خمسة وثلاثين حدثاً مختلفاً في عشرين ولاية أمريكية، وعندها كانت الصحوة العربية التي باتت تُعرف اليوم «بالربيع العربي» في بدايتها، في حين أطاح المتظاهرون بُحكم الرئيس التونسي زين العابدين بن علي الذي دام ثلاثة وعشرين عاماً. نجح المعارضون لحكم بن علي في تونس في إجبار الدكتاتور وعائلته على الرحيل، ومازالوا حتى اللحظة ينزلون إلى الشارع مطالبين الجيش الذي يتحكم في زمام الأمور، بالمزيد من الإصلاحات، وعلى نطاق واسع. وعلى الرغم من أن بعض المظاهرات المتفرقة قد بدأت بالفعل في دول عربية أخرى، فليس لدينا سوى لمحة بسيطة عما يمكن أن تُفضي إليه هذه المظاهرات.

في غضون ذلك، بدأ الائتلاف الهش لحكومة رئيس الوزراء اللبناني سعد الحريري بالتفكك، وأخذ حزب الله يترقب. وكانت القضية المتنازع عليها هي تقرير المحكمة الدولية الخاص بالتحقيق في اغتيال رفيق الحريري؛ والد سعد ورئيس الوزراء اللبناني الأسبق، والعديد من مساعديه ومؤيديه، إذ أشارت بعض المعلومات التي تسربت مبكراً أن المحكمة الدولية ستُلقي بالمسؤولية على بعض عناصر حزب الله. نمت مخاوف من أن حزب الله إن أُدين بالفعل، فإن الميليشيا المسلحة الخاصة به ستستخدم عتادها مرة أخرى (كما فعلت في السابق في عام 2008)، لإجبار الحكومة على فضّ ارتباطها بالمحكمة الدولية، ومن ثم إلغاء التفويض الرسمي الممنوح للأخيرة.

وجدت نفسي، في إحدى الليالي، وبينما كانت كل الأحداث السابقة جارية، في منزل صديق لي يقطن في الرياض. كُنا عشرة أفراد نجلس في غرفة المعيشة الخاصة بالعائلة نشاهد التغطية الإعلامية لهذه الأحداث المثيرة عبر شاشة التلفاز. تنقلّنا عبر جهاز التحكم عن بعد بين قناتي العربية، وهي محطة

فضائية سعودية مؤيدة للغرب - والجزيرة، وهي محطة فضائية تملكها قطر ويُعرف عنها أنها تتبنى موقفاً راديكالياً مغايراً. كان الأمر أشبه بمشاهدة محطة إم. إس. إن. بي. سي (MSNBC) أو سي. إن. إن (CNN) ومحطة فوكس نيوز (Fox News) لمتابعة لحظة حاسمة في السياسة الأمريكية. يعرف العرب، بوجه عام، المصادر الإخبارية الخاصة بهم، ويتفهّمون تحيزها لجهة دون أخرى، لذلك يفضلون أن يشاهدوا ما تقوله جميع المحطات عن الأحداث المهمة التي تستحوذ على اهتماماتهم. أثارت التقارير جدلاً محموماً بين المجتمعين، حين أقرّ بعضهم أن التطورات الحادثة في تونس هي تغييرات إيجابية، واتخذ آخرون موقفاً معيناً فيما يتعلق بالأزمة اللبنانية، في حين اعتقد البقية أن كلا الأمرين قد يخرج عن نطاق السيطرة.

في ساعة ما في تلك الأمسية، دخل ابن صديقي المُضيف، الذي يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، الغرفة وأمسك بجهاز التحكم عن بعد وأعلن قائلاً: «لقد بدأ الاستعراض»، فانتقل على الفور إلى محطة تبث برنامجاً استعراضياً خاصاً بالمنطقة العربية ويُعرف بـ«للعرب مواهب» (Arab's Got Talent) وهو برنامج يحاكي البرنامج الأمريكي المعروف «لأمريكا مواهب» (America's Got Talent). ولمدة ساعة، شاهدنا برنامج المسابقات هذا، الذي استحوذ على اهتمامنا. دار جدل حول من سيفوز في هذا الاستعراض، وكان جدلاً واسعاً بقدر ما كان الجدل السابق حول قضيتي تونس ولبنان الذي تأجّل، فترة مؤقتة، دون أن يعترض أي من الحضور. عبر هذا التغيير الجذري في مجرى الأحداث، تمكن أصدقائي من الاستمتاع بوقتهم -على الرغم من اهتمامهم العميق بالتطورات السياسية التي تجري حولهم- على غرار العديد من الأشخاص في كل مكان.

كانت الانتفاضة التونسية مثيرة للغاية ومُلهمة. بدأت هذه الانتفاضة في ديسمبر من عام 2011 عندما ضحى ذلك الشاب التونسي -وهو بائع متجول تعرض إلى الإهانة والاستفزاز- بنفسه، فتطور الأمر إلى ثورة جماهيرية مسالمة.

تصدّت هذه الثورة للقمع والعنف فأطاحت، في نهاية المطاف، بدكتاتور وحكومة، عبر عرض رائع «لسلطة الشعب».

لم يحدث مثل هذا الحراك الشعبي في الوطن العربي من قبل، فلقد بات أمراً نادراً، ذلك أننا لم نشهد سوى انتفاضات مختلفة ضد سطوة الاستعمار، الذي ساد شمال إفريقيا قبل عقود مضت. وشهد الوطن العربي، في زمننا الحاضر، الانتفاضة الفلسطينية الأولى ومظاهرات عارمة جابت شوارع لبنان بعد اغتيال رئيس الوزراء السابق؛ رفيق الحريري، غير أن مثل هذه الأحداث كانت محدودة ومتباعدة زمنياً، والأهم من ذلك فإن الآمال التي صاحبتها لم تتحقق.

خلّف الاستعمار والاستغلال الإمبريالي (معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور، على سبيل المثال) آثاراً سلبية، فلقد وقعت المنطقة العربية تحت وطأة سياسة الإحلال، وقُسمت وغُيرت ملامحها ضدّ رغبة مواطنيها الذين تعرضوا إلى الإهانة. وبالتأكيد، لاتزال آثار هذه الجراح واضحة. لعلّ أكثر شعور مؤلم يسيطر على معظم العرب، ذلك المتعلق بأنهم لم يصنعوا تاريخهم بأيديهم، بل شكلّه آخرون، وأنهم لم يتمكنوا من التحكم بمصائرهم. لقد كان هذا الشعور أشبه بمرض الأمة، فكانت انتفاضة تونس أولاً، ومصر ثانياً، دواءً ناجعاً.

بعد مضي بضعة أسابيع، وتحديداً في العاشر من شباط، كنت في لندن برفقة صديقي المؤلف باتريك سيل (Patrick Seale)، نشاهد خبراً عاجلاً مدهشاً بثّته محطة بي. بي. سي (BBC). قُسّمت الشاشة إلى جزأين ظهر في أحدهما الرئيس المصري حُسني مبارك في محاولته الأخيرة لإنقاذ حُكمه. وفي الجزء الآخر من الشاشة، ظهرت حشود الجماهير التي تجمّعت في ميدان التحرير. لقد تجاوز الصدع الذي فصل المشهدين حدود شاشة التلفاز. حاول مبارك أن يستغل جميع الأوراق الممكنة أمام جمهور من المؤيدين المزعومين، فتحدث بلهجة الأب العطوف والوطني المخلص الكاره للتدخل الأجنبي في شؤون

بلده، والمصلح الاجتماعي، وغير ذلك من الأدوار باستثناء ذلك الدور الذي مثّل جُلّ اهتمام الجماهير المحتشدة في ميدان التحرير. لم ينجح مبارك في أداء الدور المزعوم، بل على النقيض، هيّجت لهجته هذه الجماهير التي استشاطت غضباً وعمّقت عزمها وتصميمها على مواصلة ما بدأته. اختار مبارك أن يقف في وجه سلطة الشعب التي لا يمكن مقاومتها، فرفض التنحي. ولكن، في نهاية المطاف، انتصرت سلطة الشعب. رفض المحتجون المحتشدون التماس مبارك، وعدّوه «أقل من المتوقع، ومتأخراً جداً»، فوسّعوا نطاق مسيراتهم الاحتجاجية لتتجاوز حدود ميدان التحرير.

تنحى مبارك في اليوم التالي، مما دفع بالجماهير إلى السعي وراء تحقيق المزيد من التغيير. لم تكن تلك نهاية الأمر، بل كانت بداية عملية لم تَبْدُ نتائجها واضحة.

عندما عُدت إلى الولايات المتحدة لأستأنف من جديد جولتي التي تمخض عنها هذا الكتاب، تطور الوضع في ليبيا واليمن والبحرين إلى حدّ الغليان، وكان الانقسام اللبناني متأججاً، وبدأ الشأن السوري يتصدر عناوين الأخبار، أما فلسطين فمازالت جرحاً مفتوحاً. كان هناك الكثير من المواضيع المطروحة للنقاش، وبدا الناس متحمسين للمشاركة فيها. شاركت خلال الشهرين التاليين في أكثر من أربعين معرضاً للترويج لكتابي أُقيمت في سبع عشرة مدينة، وفي كل منها طُرحت عليّ الأسئلة ذاتها: «هل ساهمتَ في هذا الربيع العربي؟» و«هل تشعرُ في ضوء التغييرات الجارية أنك بحاجة إلى أن تُعيد كتابة أي جزء من كتابك؟» كانت إجابتي عن السؤال الأول: «لا، لم أساهم في الربيع العربي»، وكانت إجابتي عن السؤال الثاني: «لا، لم أشعر بحاجتي إلى ذلك».

في واقع الأمر، فاجأت الثورات العربية الجميع، ولعلها أفزعت الكثيرين. لم تكن المنطقة العربية غير مهيأة لمثل هذا النوع من الأحداث فحسب، وإنما أصاب الذهول والإرباك صُنّاع القرار الأمريكيين. يؤكد ف. غريغوري غوز الثالث (F. Gregory Gause III)، وهو باحث متميز في شؤون منطقة

الخليج العربي، في كتابه شؤون خارجية أن «الغالبية العُظمى من الأكاديميين المتخصصين في شؤون المنطقة العربية» شعروا بالمثل[1]. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، ولكنني استنتجت من نقاش أجريته مع بعض قادة الثورة المصرية الشباب أنهم دُهشوا لما حققوه من نجاح بارز. يصف أحدهم الأمر قائلاً: لقد اتسع نطاق الاحتجاج باضطراد، وسرعان ما أدركنا أن هذا الأمر سيكون أضخم بكثير مما حلمنا به»[2].

لقد أصابتني الدهشة كذلك، كغيري ممن شهدوا هذه الأحداث، لكن، وعلى الرغم من ذلك، لم أشعر بما شعر به العديدون في الغرب تجاه الثورات العربية. لم يكن الهدف من وراء هذا الكتاب: أصوات عربية، تأريخ الأحداث الجارية في الوطن العربي أو أن يكون الكتاب أشبه بتقرير سياسي يُسطر التطورات المتنامية في المنطقة، فقد كان هدفي الرئيس تأكيد حقيقة أننا هنا، في الغرب، لا نعرف ما يكفي عن العالم العربي، وبخاصة أننا نواجه تحديات عسكرية وسياسية واقتصادية في هذا الإقليم الحساس. نحن نجهل الكثير لأننا لا نستمع إلى ما يقوله العرب عن حياتهم وطموحاتهم، وشعورهم حيال الطريقة التي يعاملهم بها الغرب. ولأننا لا نستمع إليهم، فإن محاولاتنا الهادفة إلى التواصل مع هذا الإقليم، قد حادت عن الطريق الصحيح.

وعلى الرغم من الحاجة الملحة التي فرضتها الأحداث الجارية حالياً، مازلنا في الغرب غير قادرين على فهم شعوب المنطقة العربية وتاريخها وثقافتها. فالمحللون السياسيون الذين يناقشون هذه الأحداث على عجل، هم أشبه برجل ضرير يتخبط في حجرة مُعتمة. إنهم ينظرون إلى العرب، بطريقة مكرورة، أو يُقيّمون التطورات السياسية في الوطن العربي من خلال عدسة لم تُفرز سوى صور ثقافية نمطية ومتحيزة. قد تبدو النتائج التي يتوصل إليها هؤلاء المحللون

(1) F. Gregory Gause III, «Why Middle East Studies Missed the Arab Spring: The Myth of Authoritarian Stability,» Foreign Affairs, July/August 2001, http://www.foreignaffairs.com/articles/67932/f-gregory-gause-iii/why-middle-east-studies-missed-the-arab-spring

(2)James Zogby, personal notes, May 5, 2011.

منطقية على السطح، لكنها - وعلى نطاق واسع- وليدة افتراضات خاطئة تقود إلى استنتاجات مغلوطة ومزيد من الفهم الخاطئ لهذا العالم.

فعلى سبيل المثال، كانت مقارنة الأحداث في العالم العربي بانهيار الستار الحديدي[1] طريقة مريحة، بالنسبة إلى العديد من المُعلّقين، لفهم «الربيع العربي». وهكذا أصبحت تونس أقرب ما يكون إلى مدينة غدانسك (Gdansk)[2]، أما أحداث ميدان التحرير فتشبه إلى حد كبير هدم حائط برلين. وبرحيل رأسيْ نظام الحكم الدكتاتوري في كل من تونس ومصر، افترض مقدمو البرامج التلفازية الحوارية ومؤلفو المقالات الافتتاحية أن بقية دول العالم العربي - كما كانت الحال مع بقية دول أوروبا الشرقية- ستحذو حذو مصر وتونس. ومن هنا، فرض هؤلاء قناعاتهم الإيديولوجية على دوافع الثورات العربية وأحداثها ونتائجها.

أما الأدلة، فيبدو أنها في حالة «الربيع العربي»، ليست بذات أهمية. فعلى سبيل المثال، يؤمن المحافظون الجدد إيماناً عميقاً أن العرب مُنقادون نحو التطرف، إما لأنهم يعملون داخل أنظمة قمعيّة أو لأن قادة مستبدين استغلوا فكرة معاداة الغرب (أمريكا) للتستر على حكمهم الفاشل. لذلك، يفترض المحافظون الجدد والعديد من الليبراليين أن الجماهير العربية، بعد أن نجحت في الإطاحة بأنظمة الحكم الدكتاتورية، سترحّب بأمريكا وتنسى حزنها «الواهم» على ضياع فلسطين. ويستدل هؤلاء على اعتقادهم هذا بتأكيدهم، وكلهم شعور بالفخر، أن المتظاهرين في الشوارع العربية لم يقوموا بحرق العلم الأمريكي أو الإسرائيلي.

---

(1) الستار الحديدي (Iron Curtain): كان ونستون تشرشل أول من استخدم هذه العبارة في الأربعينيات من القرن العشرين. وتشير العبارة إلى سياسة العزلة التي انتهجها الاتحاد السوفييتي في السابق بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أقام حواجز تجارية ورقابة صارمة، عزلت البلاد ودول أوروبا الشرقية، التي كانت تسير في فلكه عن بقية العالم. (المترجم)

(2) غدانسك أو دانزيغ (كما يُطلق عليها الألمان Danzing): مدينة بولندية تقع على بحر البلطيق. خلال الحرب العالمية الأولى سيطرت ألمانيا على هذه المدينة ثم تمتعت المدينة بحكم ذاتي تحت رعاية عصبة الأمم بعد توقيع الألمان معاهدة فرساي. (المترجم).

إلا أن هذه الافتراضات كانت خاطئة تماماً وذلك لسببين، أولاً: على الرغم من أن العلمين الأمريكي والإسرائيلي لم يُحرقا في شوارع القاهرة، فالجماهير كذلك لم تُلوّح بهما عالياً ببهجة وسرور. ثانياً: إن العالم العربي ليس أوروبا الشرقية التي قبعت خلف الستار الحديدي. لقد تطلّعت شعوب بولندا وليتوانيا وغيرها، إبّان الاحتلال السوفييتي، إلى الغرب والولايات المتحدة بحماسة شديدة، أما العرب، كما رأينا مسبقاً، فهم معجبون بالقيم والثقافة الأمريكية، لكنهم يشعرون بأن الولايات المتحدة قد غرّرت بهم عندما تعلق الأمر بالسياسة التي اتبعتها في المنطقة العربية. فعلى سبيل المثال، فقد حُسني مبارك شعبيته، على نطاق واسع، لأنه أيّد الولايات المتحدة وسياستها البعيدة كل البعد عن حاجات الشعب المصري ومشاعره وطموحاته.

إن مضاهاة الوضع في المنطقة العربية بالستار الحديدي تعكس ميلاً خطيراً نحو عَدّ الوطن العربي عالماً يفتقر إلى التنوع، وتحث هذه المضاهاة على تجاهل الديناميكية السياسية المتميزة والفعّالة في كل دولة. نعم، إن عدوى الثورة التي بدأت في تونس وسرعان ما انتشرت لتصيب مصر وغيرها من الدول العربية تزودنا بدليل واضح على لُحمة العرب؛ تلك اللُّحمة التي تربط شعوب المنطقة بأكملها. فعلى سبيل المثال، وعلى الرغم من أن الأعمال الاحتجاجية التي اتخذت شكل تعبئة عامة وأزعجت الحكومة الباكستانية في عام 2009، ومظاهرات الشباب الإيرانيين المؤيدين للديمقراطية والانفتاح في العام ذاته، قد أثارتا اهتمام العالم العربي وتعاطفه، فإن كلا الحدثين لم ينتج عنهما سوى رد فعل بسيط داخل المنطقة العربية. لكنّ المسألة كانت مختلفة تماماً عندما رأى العرب هذه الشعوب التي يشاطرونها الهوية الثقافية والسياسية ذاتها تنهض من سباتها لتطالب بالتغيير.

وعلى الرغم من أن إدراك وجود مثل هذه اللُّحمة بين الشعوب العربية يعدّ أمراً مهماً، فإننا نقرّ بوجود اختلافات عبر المنطقة بأكملها.

إن المبررات الضمنية التي أفرزت مشاعر الإحباط والاضطراب في كل من تونس ومصر مثلاً، تختلف تماماً عن العوامل التي أشعلت الثورات في كل من اليمن والبحرين وسوريا وليبيا. ففي مصر وتونس أفرزت المؤسسة العسكرية رئيسي الدولتين، أما الأنظمة السياسية التي قاما بتشكيلها والموالية لهما فهي رجعية ومتحجرة، وسرعان ما أصابها الفساد، وأصبحت بيروقراطية بإفراط، وبعيدة كل البعد عن الحاجات الحقيقية للشعوب. لقد نما اقتصاد كلتا الدولتين بمعدلات مثيرة للدهشة والإعجاب، لكنّ مزايا هذه الثروة الجديدة تمتعت بها دائرة صغيرة تتكون من أفراد العائلة الحاكمة وأصدقاء النظام الحاكم، مما ولّد اضطراباً اجتماعياً. توضح نتائج الاستطلاعات التي قمنا بها أن الوظائف والفرص الاقتصادية كانت الدوافع الرئيسة وراء الاضطراب الاجتماعي في تونس ومصر، ويليها الفساد وفقدان النظام شرعيته. أُطيح بالرئيسين في كلتا الدولتين لكن الجيش، الذي عدّه الشعب مؤسسة حيادية، احتفظ بسلطته وسيطر على الوضع.

كانت بعض هذه العوامل فاعلة في ليبيا واليمن وسوريا والبحرين، إلا أن عوامل أخرى كانت مهمة أيضاً. في ليبيا، على سبيل المثال، نجد التنافس القبلي. في اليمن أيضاً، نجد نزاعات قبلية محلية موغلة في القدم. أما في سوريا، فترقد الدولة واقتصادها تحت وطأة سلطة قمعية تتمثل في الجيش وحزب يمثل أقلية في البلاد. لكن، في البحرين كان التمييز الطائفي الذي عاشته الغالبية العظمى من الشعب؛ أي الشيعة، السبب الرئيس وراء اندلاع الاضطرابات.

هناك أيضاً، الدول العربية التي لم تكد تشهد اضطرابات أو لعلها لم تعانِ منها وذلك بسبب انعدام وجود دوافع نحو التغيير. تتمتع الحكومات في هذه الدول بشرعية كافية لتأمين قاعدة متينة مؤيدة للنظام الحاكم. أما في دول أخرى، فكانت مستويات الرضى الشعبي عن الوضع داخل هذه الدول، عالية فلم تسع هذه الشعوب إلى المطالبة بالتغيير. فعلى سبيل المثال، لم تكن قدرة

الحكومتين السعودية والإماراتية على الإنفاق على البرامج الاجتماعية السبب الوحيد وراء فوز كلتيهما بدعم الشعب لهما وتأييده. لقد احتفظت العائلتان الحاكمتان في كل من السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة اللتين تتكونان من مجتمعات قبلية، بشرعيتهما الواضحة، فالعائلتان الحاليتان تنحدران من العائلتين الأصليتين اللتين أسستا الدولتين، وهما تحظيان باحترام الشعبين أجمعهما. والأهم من ذلك، أن العائلة الحاكمة في كل من الدولتين تستجيب لحاجات شعبها، فهي قريبة من العامة، لذا لم يتحدّ الشعب في السعودية أو الإمارات سلطتها.

آمل أنني تمكنت عبر صفحات هذا الكتاب من توضيح أن مشكلة عدم الاستماع إلى صوت العرب تتجاوز القادة العرب الذين خلعتهم شعوبهم أو أولئك الذين لايزالون يحتفظون بسلطتهم، فتلك معضلة أيضاً بالنسبة إلى الغرب. لقد تجاهلت الولايات المتحدة وبريطانيا، لزمن طويل، اهتمامات الشعوب العربية وهمومها والقضايا الحساسة الخاصة بهذه الشعوب. لقد عاملت هاتان الدولتان العرب كما لو كانوا بيادق[1] تحركانهم كيفما شاءتا. وبينما انصب اهتمامنا على احتياجاتنا وسياستنا، تُرك العرب ليتعاملوا أو يتكيفوا مع واقع خلقناه نحن لهم، في حين سعينا إلى حماية مصالحنا ولم نستجب مطلقاً إلى ما فيه صالحهم.

اليوم ومع تفتّح «الربيع العربي»، لا بدّ أن يتغير هذا الوضع. عندما نظّم التونسيون والمصريون أنفسهم في مسيرات احتجاجية مطالبين الآخرين بالاستماع إليهم، قدّموا عملاً جديداً قلب موازين المعادلة السياسية في المنطقة العربية. لم يعد بالإمكان تجاهل الرأي العربي والتعامل معه كما لو كان ليس مهماً. ولم يعد بالإمكان فرض سياسات معينة وافتراض أن الشعب سيقبلها قبولاً أعمى.

لقد ألهمت الثورتان التونسية والمصرية الشعوب العربية ودفعتها إلى الايمان بأن صوتها يجب أن يُسمَع ويُحترَم. سيؤدي ذلك حتماً إلى تعقيد الحياة بالنسبة

(1) يعدّ البيدق ضعيفاً في لعبة الشطرنج. (المترجم)

إلى الغرب وبعض صُناع السياسة العرب. لقد أدرك الرئيس أوباما ذلك، في الحادي عشر من شباط من العام الحالي (2011)، عندما قال إن الأحداث الجارية في المنطقة العربية ما هي إلاّ البداية، وبعد ذلك اليوم لن يبقى شيء على حاله[1]. وحتى هذه الكلمات لا تعبّر بحق عن التأثير الكامل الذي أحدثه وسيحدثه التحول الجاري في العالم العربي الآن. في الواقع، إن التغيير القادم سيكون أكبر من قدرة أي منا على تخيّله.

إن التطورات التي تكشفت في المنطقة العربية منذ اندلاع الثورة التونسية تولّدت داخلياً، وتلك أهم حقيقة علينا إدراكها. لقد كانت السياسة التي اتبعتها الولايات المتحدة في المنطقة، لسنوات طويلة، مبنية على تلك الأسطورة المتعجرفة التي آمن بها المحافظون الجدد ومن هم على شاكلتهم، والقائلة بأن التغيير لا يمكن أن يحدث إلاّ بفعل ضغوطات خارجية يمثلها الغرب ذاته. واليوم، اتضح زيف هذه الأسطورة لما انطوت عليه من كذب وهراء.

لقد كانت هذه الحركات الثائرة التي هزّت الأمم العربية مصدر إلهام خلق شعوراً جديداً بالفخر والاعتزاز بين الشعوب العربية، التي شعرت طويلاً بأنها ضئيلة وعاجزة عن إحداث التغيير. لقد باتت هذه الثورات سريعة الانتشار، وعمل مؤيدوها على تقليد النهج والشعارات ذاتها التي رفعتها الثورتان التونسية والمصرية. لقد كان هؤلاء عرباً، وأكرر وأؤكد أن تلك الثورات نبعت من الدّاخل فلم يقُدْها «لورنس العرب» أو «تشيني» أو «رامسفيلد»، ولم يحرك أي منهم خيوط الدّمى في أي من هذه الانتفاضات العربية، فلا يزعمن أحد أنه شكّل مصير العرب وحدّده!

إن الطريق أمام هذه الثورات لا يخلو من العوائق الخاصة به، وسيعيش المارّون فيه بعض النكسات، لكن الرحلة ستستمر. وعندما يُسطّر التاريخ هذه المرحلة الواعدة ستكون حقيقة أن العرب وحدهم هم من دشّنوا هذه الثورات

(1) President Barack Obama, remarks on Egypt (White House, Washington DC, February 11, 2011), http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2011/02/11/remarks-president-egypt

ونفذوها بأنفسهم، وأنهم مستعدون لمواصلة جهودهم حتى يخلقوا لأنفسهم المستقبل الذي أرادوه لا أن يتخلوا عنه لنزوات قوى خارجية، هي الحقيقة الأبرز.

لعلّ أحد المؤشرات المباشرة إلى هذا المفهوم الجديد، الذي سأصفه بقدرة العرب على تفويض ذاتهم لتسيير مستقبلهم، يمكن إدراكه من خلال نتائج أول استطلاع للرأي العربي أجرته مؤسسة زغبي الدولية بعد تفتّح «الربيع العربي»[1]. كانت مستويات التفاؤل مرتفعة للغاية، وبخاصة في كل من المغرب ومصر والسعودية، عندما سألنا أفراد العينة في ست دول عربية عما إذا كانوا يعتقدون أنهم وبعد مرور خمس سنوات من الآن سيكونون أفضل حالاً أو أسوأ.

الجدول [1]: مدى تفاؤل العرب أو تشاؤمهم.

1	أفضل	أسوأ	تبقى الحال كما هي عليه (٪)
المغرب	76	14	10
مصر	85	7	2
لبنان	23	32	18
الأردن	34	34	31
السعودية	67	23	9
الإمارات	38	9	37

يُظهر الاستطلاع كذلك أن هناك شكاً وشعوراً بانعدام الأمان، لكن لا يثبط أي من ذلك مشاعر التفاؤل حيال المستقبل.

وإذا ما نظرنا إلى مشاعر العرب تجاه أمريكا بعد مرحلة «الربيع العربي»، فإن النتائج تخبرنا بالكثير. لقد وجدنا أنه وعلى الرغم من التغييرات الجارية في العديد من دول المنطقة العربية، فمازالت الولايات المتحدة تحتل منزلة متدنية، وعلى نطاق واسع، ذلك أن التغييرات التي يأمل العرب حدوثها في السياسة

(1) Zogby International, Arab Attitudes, 2011 (Washington DC: Arab American Institute Foundation, 2011), http://www.aaiusa.org/reports/arab-attitudes-2011.

الأمريكية، لم تتبلور بعد.

فكما يوضح الجدول[2]، تلاشت مشاعر البهجة التي تولدت بعد الانتخابات الرئاسية عام 2009، والتي أسهمت آنذاك في زيادة الأصوات المؤيدة لموقف الولايات المتحدة تجاه العرب في معظم الدول العربية.

الجدول (2): هل تؤيد موقف الولايات المتحدة تجاه الدول العربية؟ (٪)

2	المغرب مؤيد	مصر مؤيد	لبنان مؤيد	الأردن مؤيد	السعودية مؤيد	الإمارات مؤيد
2011	12	5	23	10	30	12
2009(1)	55	30	23	25	41	21
2008(2)	26	9	21	16	13	22

عندما طلبنا من أفراد العينة في الدول العربية الست ذاتها، التي قمنا باستطلاعات للرأي فيها بشكل منتظم خلال العقد الماضي، أن يقوّموا مدى فاعلية الدور التي تلعبه كل من إيران، وتركيا، والسعودية، والولايات المتحدة «للمساهمة في تحقيق السلام والاستقرار في العالم العربي»[1]، حصلت الولايات المتحدة على أدنى تقدير في جميع الدول باستثناء السعودية. من المثير للدهشة أن السعودية؛ الدولة التي لم تتأثر عملياً «بالربيع العربي»، منحت الولايات المتحدة أعلى تقدير إيجابي وإن كان أقل من 24٪.

الجدول (3): المساهمون في تحقيق السلام والاستقرار في الوطن العربي.

3	المغرب		مصر		لبنان		الأردن		السعودية	
	أوافق ٪	لا أوافق ٪	أوافق ٪	لا أوافق ٪	أوافق ٪	لا أوافق ٪	أوافق ٪	لا أوافق ٪	أوافق ٪	لا أوافق ٪
تسهم إيران في تحقيق السلام والاستقرار في العالم العربي	16	83	32	68	57	42	22	72	4	95
تسهم تركيا في تحقيق السلام والاستقرار في العالم العربي	82	14	65	35	85	15	58	35	76	21

(1) Zogby International, Arab Attitudes, 2011.

تسهم الولايات المتحدة في تحقيق السلام والاستقرار في العالم العربي	11	87	10	89	16	84	5	95	24	71
تسهم السعودية في تحقيق السلام والاستقرار في العالم العربي	69	27	82	17	61	39	57	42	99	1

عندما سألنا أفراد العينة عن رأيهم في العوائق الرئيسة التي تعترض سبيل «السلام والاستقرار في الشرق الأوسط»، كانت أبرز إجابتين «استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية» و«تدخل الولايات المتحدة في شؤون الوطن العربي»[1].

الجدول (4): العوائق الرئيسة التي تعترض سبيل السلام والاستقرار في الشرق الأوسط.

4	المغرب	مصر	لبنان	الأردن	السعودية	الإمارات
استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية	1	1	4	1	1	5
تدخل الولايات المتحدة في شؤون العالم العربي	2	2	1	2	1	1
انعدام الديمقراطية في الدول العربية	3	3	2	5	4	2
انعدام تكافؤ الفرص الاقتصادية	4	4	3	4	5	3
تدخل إيران في شؤون العرب	5	4	5	3	1	4

إن كانت ثورات «الربيع العربي» قد كشفت أمراً ما، فإنها قد كشفت مدى بُعد الولايات المتحدة عن التطورات القائمة في الوطن العربي ومدى ضآلة تأثيرنا على مجرى الأحداث هناك. عندما اتهم الناقدون المتحفظون البيت الأبيض بعدم اتخاذ خطوات كافية لدعم تلك الحركات المؤيدة للديمقراطية في الوطن العربي، كان رد فعل الرئيس أوباما عبر خطاب ألقاه في وزارة الخارجية في التاسع عشر من مايو 2011، تأكيد اهتمام الولايات المتحدة بالعالم العربي، لكنه اعترف أيضاً بأن للتأثير الأمريكي حدوداً معينة. قال أوباما: «علينا أن

(1) المرجع السابق

نواصل ما نفعله بتواضع. إن هذه الشعوب وحدها قد دشنت هذه الثورات وستقرر بنفسها، في نهاية المطاف، نتائجها»[1]. وأضاف الرئيس أوباما أن مساهمة الولايات المتحدة تتلخص في دعم التحوّل الحادث في المنطقة العربية عبر مساعدة الأنظمة الديمقراطية التي بدأت في الظهور إلى حيز الوجود، وذلك عبر استثمارات من شأنها توفير المزيد من فرص العمل، ومن خلال تقديم منح مالية لدعم تطور وتعمير هذه الدول.

أنهى الرئيس أوباما خطابه السابق بالعبارة الملائمة حين اقترح أن بإمكان الولايات المتحدة أن تقدم مساهمة حقيقية لتحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط، عبر تشجيع حل للنزاع العربي - الإسرائيلي على أساس حدود 1967 المعترف بها دولياً. وعند الحديث عن السلام والاستقرار في الشرق الأوسط لا تبرز أهمية حقوق الشعب الفلسطيني فقط، وإنما تبقى هذه الحقوق القضية الحاسمة التي تسهم في خلق فهم سلبي عند العرب لدور الولايات المتحدة.

وبينما كان العالم العربي يعيش تغييرات عميقة، اتخذت نوعية النقاش الدائر في الولايات المتحدة حول الشرق الأوسط والشعوب العربية والإسلامية منحىً سلبياً. فعلى سبيل المثال، أجازت الإدارة التعليمية في ولاية تكساس - المؤيدة لسياسة عنصرية مناهضة للعرب على نحو مبالغ فيه - قراراً يستنكر بشدة «التحيز الواضح في الكتب المدرسية الخاصة بمادة الدراسات الاجتماعية في مدارس ولاية تكساس، للإسلام ومعاداة المسيحية»[2]. نظراً لما تتمتع به الولاية من تأثير واسع على مؤسسات النشر، وقد أنذر القرار بتعميق الفجوة المعرفية التي هدّدت مصالح الولايات المتحدة في كل من العالمين العربي والإسلامي.

في النصف الثاني من العام الحالي (2011) شهدت الولايات المتحدة صخباً

(1) President Barack Obama, remarks on the Middle East and North Africa (State Department, Washington DC, May 19, 2011), http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2011/05/19/remarks-president-middle-east-and-north-africa.

(2) Texas State Board of Education, Resolution Regarding Bias in Texas Social Studies Textbooks (Austin, TX, passed September 24, 2010), http://www.tea.state.tx.us/WorkArea/linkit.aspx?LinkIdentifier=id&ItemID=2147487008&libID=2147487006

محلياً معارضاً للخطط الهادفة إلى تشييد مركزٍ للمجتمع الإسلامي في جنوب ولاية مانهاتن. وعلى الرغم من أن الموقع الذي اختير لتشييد المركز كان بعيداً جداً عن غراوند زيرو (Ground Zero) - الموقع السابق لمركز التجارة العالمي والذي تعرض لهجوم إرهابي في الحادي عشر من سبتمبر 2001 أدى إلى تدميره بالكامل- بدأت مجموعة من النشطاء المناهضين للعرب والمسلمين، وهم المجموعة ذاتها التي نجحت في إغلاق أكاديمية خليل جبران العالمية في بروكلن، حملة لوقف تنفيذ المشروع بحجة أن المركز الإسلامي سيُدنّس «أرضاً مقدسة». وسرعان ما انضمّ إلى هذه الحملة عدد من القادة الجمهوريين، بالإضافة إلى اللجنة الوطنية لأعضاء الكونغرس الجمهوريين (National Republican Congressional Committee)، وقام هؤلاء بتحريف الحقائق (حين أصبح المركز الإسلامي «مسجداً»)، ومن ثمّ اتسع نطاق هذه الحركة المعارضة من احتجاج رافض لتشييد مبنى معين في بقعة محددة إلى هجوم واسع النطاق على الإسلام ذاته.

سعى المرشحون الجمهوريون في حملاتهم الانتخابية الخاصة بالكونغرس الأمريكي، إلى جعل «فكرة المسجد تلك» القضية الرئيسة. فعلى سبيل المثال، تمكن المرشح الجمهوري رينيه إلميرز (Renee Ellmers)؛ المرشح عن المقاطعة الثانية في ولاية كارولينا الشمالية، من هزيمة عضو الكونغرس السابق بوب إثيريدج (Bob Etheridge)، عن طريق إعلانات تتمحور حول الموضوع ذاته: «بعد غزو المسلمين للقدس وقرطبة والقسطنطينية، قاموا بتشييد مساجد ترمز لانتصاراتهم تلك. واليوم، يريدون أن يشيدوا مسجداً بجوار غراوند زيرو. ما موقف بوب إثيريدج؟ لن يتحدث، لن يفصح عن موقفه ولن يتّخذ أي موقف! لم ينتصر الإرهابيون، وعلينا أن نقول لهم بلغة واضحة: «لا»! لن يُشيد أي مسجد على غراوند زيرو»[1].

(1) Renee Ellmers, No Mosque at Ground Zero, advertisement produced by Renee Ellmers for U.S. Congress, uploaded September 21, 2010, http://www.youtube.com/watch?v=0QvKOdiyFaw.

في ولاية ميزوري، صرّح إد مارتن (Ed Martin)؛ المرشح الجمهوري المنافس لعضو الكونغرس روس كارنافان (Russ Carnahvan)، بعبارة تعكس أصداء الموضوع السابق ذاته، فقال: «إنني أعارض بشدة فكرة تشييد ذلك المسجد المزعوم على غراوند زيرو، وأعتقد أن أولئك الذين يحاولون أن يظهروا كقدوة بزعمهم أنهم يؤمنون بحرية العقيدة، ساذجون للغاية أو لعلهم يسخرون منا بشكل لا يُصدق»[1].

أطلقت شخصيات جمهورية أخرى مثل سارة بالين (Sarah Palin)، التي كانت مرشحة لمنصب نائب الرئيس في عام 2008، ونيوت غينغريتش (Newt Gingrich)؛ المتحدث الأسبق باسم البيت الأبيض، عبارات شبيهة، فقد وصفت بالين المركز الإسلامي «بطعنة في القلب»[2]، في حين رأى غينغريتش أن تشييد المركز الإسلامي في تلك البقعة هو أشبه ما يكون بـ «وضع رمز للنازية بجوار متحف خاص بالمحرقة (الهولوكوست)»[3]. سرعان ما أصبح الإسلام والمسلمون، والعرب بشكل عام هدفاً لانتقاد وهجوم كل من يطمح إلى اعتلاء كرسي الرئاسة من الجمهوريين، الذين أسهموا في تضييق أفق الطيف الإيديولوجي الخاص بحزبهم. عبّر غينغريتش في خطاب ألقاه أمام الآلاف من أتباع جون هاغي (John Jagee) -مؤسس حركة مسيحيين دفاعاً عن إسرائيل- عن اعتقاده الغريب أنه: (إذا لم نحسم نهائياً هذا الصراع حول طبيعة أمريكا، فإنه في اللحظة التي يكبر فيها [أحفادي] ويصبحون في عمري الحالي، ستتحول هذه الأرض إلى وطن للوثنيين؛ ومن المحتمل أن يسيطر عليها

(1) Ed Martin, The «Ground Zero Mosque,» advertisement produced by Ed Martin for U.S. Congress, posted August 15, 2010, http://edmartinforcongress.com/2782/the-ground-zero-mosque/.

(2) Sarah Palin, interview by Greta Van Susteren, On the Record, Fox News, August 16, 2010, http://www.foxnews.com/on-air/on-the-record/transcript/palin-obama-039doesn039t-get-it039-ground-zero-mosque-location-039stab-heart039?page=2.

(3) Edward Wyatt, «3 Republicans Criticize Obama's Endorsement of Mosque,» New York Times, August 14, 2010, http://www.nytimes.com/2010/08/15/us/politics/15reaction.html.

الإسلاميون الرّاديكاليون، ولن يدرك أحفادي معنى أن هذه الأرض كانت أمريكية الهوية في يوم من الأيام»[1].

انضم إلى هذه المعركة هيرمان كين (Herman Cain)؛ ملك البيتزا، الذي سرعان ما تحوّلت اهتماماته نحو منصب الرئيس. عندما طُرح عليه سؤال يتعلق بإمكانية تعيينه لأمريكي مسلم لينضم إلى مجلس الوزراء الخاص بحزبه أو يشغل منصب قاضٍ في المحكمة الفيدرالية، أجاب كين: «لا، لن أفعل. وسأبرر لك الأمر. هنالك محاولة لتسلل قوانين الشريعة الإسلامية (Sharia) والعقيدة الإسلامية إلى حكومتنا، وكلتاهما لا تنتمي إلى هذه الحكومة»[2].

دافع تيم بولينتي (Tim Pawlenty)؛ حاكم ولاية مينيسوتا الأسبق، عن الرسالة ذاتها عندما تفاخر بإلغائه برنامجاً طُبق في الولاية، وكان الهدف منه تسهيل حصول سكان الولاية من المسلمين على رهن عقاري خاضع لأحكام الشريعة الاسلامية. أكد بولينتي، عبر المتحدث باسمه، أن «الولايات المتحدة يجب أن تُحكم بالدستور الأمريكي لا بقوانين ذات طابع ديني». وبذلك برّر بولينتي إلغاءه البرنامج السابق[3].

ولا يثير دهشتنا أن نعلم أن مثل هذا الاستغلال السياسي أدى إلى استفحال الانقسام بين الأحزاب عندما يتعلق الأمر بقضايا خاصة بالعرب، وقضايا خاصة بالمسلمين في الوقت الحاضر. ولقد أظهرت أحدث استطلاعاتنا الخاصة بالناخبين الأمريكيين أن آراء أفراد العينة انقسمت بالتساوي تقريباً بين «مؤيد»

---

(1) Kendra Marr, «Newt Gingrich Talks Faith—Not Affairs—at Cornerstone Church in Texas,» Politico, March 27, 2011, http://www.politico.com/news/stories/0311/52023.html#ixzz1I1Exj7oT.

(2) Scott Keyes, «Exclusive: Herman Cain Tells ThinkProgress 'I Will Not' Appoint a Muslim in my Administration,» ThinkProgress, March 26, 2011, http://think-progress.org/politics/2011/03/26/153625/herman-cain-muslims/.

(3) Ben Smith, «Pawlenty Shut Down Islam-Friendly Mortgage Program,» Politico, March 25, 2011, http://www.politico.com/blogs/bensmith/0311/Pawlenty_shut_down_Islamfriendly_mortgage_program.html

و »معارض»، لكن هذا الانقسام يخفي وراءه انقساماً حزبياً شاسعاً أسهم كل من بالين وغينغريتش وبولينتي في التحريض عليه، بالإضافة إلى آخرين سعوا جاهدين، في الشهور الأخيرة، إلى تعميقه[1].

الجدول (5): مشاعر الناخبين الأمريكيين تجاه العرب والمسلمين.

5	جميع الناخبين		الديمقراطيون		الجمهوريون	
	مؤيد ٪	معارض ٪	مؤيد ٪	معارض ٪	مؤيد ٪	معارض ٪
مشاعر الناخبين تجاه العرب	45	40	59	28	30	56
مشاعر الناخبين تجاه المسلمين	41	49	57	29	22	71

عندما بدأنا استطلاع الرأي العام الأمريكي إزاء العرب والمسلمين خلال ما يزيد على عقد مضى من الزمن، أخبرنا أكثر من ثلاثة أرباع هؤلاء أنهم «ليس لديهم معرفة كافية [بالعرب والمسلمين]» وأنهم «بحاجة إلى معرفة المزيد» عنهم. وبفضل الجهود التي بذلناها مؤخراً لتعريف المجتمع الأمريكي بالعرب والمسلمين انحدر الرقم ليصبح أكثر من النصف بقليل. مرة أخرى وجدنا أن انقسام الأحزاب حيال هذه المسألة كان بالفعل أكثر ما أزعجنا حين قال ثمان وستون بالمائة (68٪) من الديمقراطيين أن «ليس لديهم معرفة كافية»، في حين قال ست وستون بالمائة (66٪) من الجمهوريين أن لديهم «معرفة كافية» وأنهم «ليسوا في حاجة إلى معرفة المزيد».

خلّفت هذه المواقف السياسية آثاراً عكسية، فتراجعت المعدلات المؤيدة لأمريكا عبر العالم العربي لتصبح كما كانت عليه في عهد الرئيس بوش،

(1) Zogby Interactive, National Poll of Likely Voters, June 28–30, 2011. Sample size: 1,804 adults.

وتلاشى التفاؤل حول تغيير الولايات المتحدة مذهبها وسياستها المتبعين في المنطقة العربية، الذي برز بعد أن ألقى الرئيس أوباما خطابه في جامعة القاهرة. يجدر بنا أن نكرر القول إن الولايات المتحدة لم تفقد شعبيتها عند بعض الشعوب العربية بسبب دعمها قادة تلك الشعوب، فلقد فقد بعض القادة العرب شعبيتهم بسبب أعمالهم ودعمهم لسياسة الولايات المتحدة. لقد أخرجت الولايات المتحدة نفسها من اللعبة لأنها رفضت الاستماع إلى ما يحدث بالفعل على أرض الواقع في المنطقة العربية. ما عاد التونسيون والمصريون وغيرهم من العرب الذين يسعون إلى تغيير واقعهم يتطلعون إلينا؛ فهذه ثورتهم وليس ثورتنا!

نحن بحاجة الآن إلى إدراك إلى أي درجة أسهمت سياساتنا الفاشلة التي تبنيناها في الماضي في تعميق جهلنا بوجهة نظر هذه الشعوب العربية وإضعاف قيمنا المُعلنة وتعريض كل من أراد أن يصبح صديقاً للولايات المتحدة للخطر. سنستمر في التصرف بطريقة خرقاء؛ وربما بطريقة وحشية أحياناً، منحازين إلى الجانب الخاطئ من التاريخ، لكننا سنتجنب كل ذلك إذا وضع القادة السياسيون جانباً شعار «السياسة كالمعتاد!»، وأنهوا استخفافهم القاسي بمعاناة الفلسطينيين، وكانوا على استعداد لمواجهة مخاوفهم السياسية، والتصرف بالطريقة الصحيحة لا بالطريقة الملائمة، وإذا وقفنا نحن في وجه «رُهاب الإسلام» (إسلام فوبيا) الذي يهدد بتمزيق نسيج أمتنا، واستطعنا استعادة التزامنا نحو الحريات الرئيسة وسلطة الدستور في توفير الحماية للجميع، وإذا توقفنا عن تجاهل اهتمامات العرب، واستمعنا بحق إلى ما تخبرنا به أصوات العرب عن احتياجاتهم وطموحاتهم.

وبينما يحقق العرب تغييرات داخل أوطانهم، فإن التحدي الذي علينا مواجهته يكمن في البحث عن طرق لإحداث تغيير حقيقي داخل الولايات المتحدة وأخرى للتعامل مع العالم العربي وشعوبه. هذا هو الوعد الذي قطعه باراك أوباما على نفسه عندما قال إنه سيقود الجهود الرامية إلى تغيير واشنطن،

وتغيير أمريكا والعالم أجمع. مازلنا، في الواقع، بحاجة إلى هذا التحول، ولسوء الحظ فإنه لم يتحقق بعد.

وعلى الرغم من ذلك، يبرز بصيص أمل وسط هذا الظلام. خلال عملية الترويج لكتابي هذا، أصوات عربية، شعرت بالبهجة عندما اكتشفت أن العديد من الطلبة والمجتمعات المختلفة بات يتابع عن كثب التطورات الجارية في الشرق الأوسط، وكيف اعتمد كثير منهم على أنفسهم، فاتخذوا خطوات نحو «الفهم الصحيح» لهذه الشعوب. فعلى سبيل المثال، بذلت مجموعة من الطلبة في جامعة رايس جهوداً واسعة النطاق لفهم العالم العربي. سافر هؤلاء إلى القاهرة في صيف عام 2010 لتعزيز خبراتهم التعليمية. وفي القاهرة، سكن الطلبة الأمريكيون مع طلبة عرب آخرين يدرسون في الجامعة الأمريكية. وفي عام 2011، تابع الطلبة الأمريكيون جهودهم فاستضافوا أصدقاءهم المصريين في تكساس.

وجدتُ الجهود ذاتها في كلية دافيدسون باستثناء أن برنامجها التعليمي أرسل الطلبة إلى دمشق. وعندما استمعت إلى وصف الطلبة الأمريكيين لما رأوه هناك، والدروس التي تعلموها، ومشاعرهم تجاه العائلات السورية التي تعرّفوا إليها، شعرتُ بالإثارة التي عاشوها وأدركتُ أن حياتهم تغيرت بفعل هذه التجربة الإيجابية. قام مجموعة طلاب من جامعة ميليرزفيل في ولاية بنسيلفانيا بتشكيل ما عُرف بمنظمة طُلاب الشرق الأوسط لتعزيز تعلمهم للغة العربية ومشاركتهم في برنامج نموذج جامعة الدول العربية (MAL) [1].

وعندما عُدت إلى واشنطن، التقيت مجموعة من الشباب المصريين والأمريكيين الواعدين الذين جمعهم برنامج تبادل الطلبة المصري (Learn Serve Egypt). لا يهدف هذا البرنامج إلى تشييد جسور عبر تعريف الطلبة

(1) تقوم فكرة نموذج محاكاة جامعة الدول العربية على تعريف الشباب بنظام عمل جامعة الدول العربية ومواثيقها وآليات اتخاذ القرار فيها، كما يهدف النموذج إلى رفع المهارات الشخصية للشباب ممثلة في مهارات العرض والتقديم والتفاوض والإقناع، بالإضافة إلى إثراء الثقافة السياسية للشباب ومعرفة تاريخ الدول العربية وأهم قضاياهم السياسية. (المترجم)

بعوالمهم المختلفة فقط، وإنما يسعى إلى منحهم سلطة معينة عبر مساعدتهم على البدء بإنشاء مشاريع تجارية. كانت مشاريعهم تلك رائعة للغاية، لكنني تأثرت بشدة بالروابط التي ولّدتها هذه الشراكة.

خلاصة القول، في هذه المرحلة، علينا أن نغير طريقة تفكيرنا حتى يتحقق التغيير الحقيقي الدائم.

(Footnotes)

1 Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll, November 1–18, 2009. Sample size: 3,989 adults.

2 Zogby International, Six-Nation Arab Opinion Poll, March 13–23, 2008. Sample size: 4,090 adults.

ملحــق

المصــادر

قد لا تتاح الفرصة للجميع للاتصال بالمجالس الأمريكية للشؤون العالمية أو الانضمام إلى مجموعات القرارات العظمى، لكن لحسن الحظ فنحن نعيش في عصر المعلومات، وهناك فرص عديدة لاستقاء المعلومات حول العالم العربي عبر الإنترنت. وفي معظم الدول العربية نجد عدداً من الصحف التي تصدر باللغة الإنجليزية، والتي تعرض الكثير من شؤون العالم العربي وأخباره، بالإضافة إلى الأخبار المحلية، وكذلك تعليقات المحللين على السياسات الدولية بصفة عامة، ويضم بعضها زوايا خاصة مفتوحة للنقاش والتعليقات التي يرسلها القراء.

سنقدم فيما يلي قائمة بأفضل الصحف المتوافرة باللغة الإنجليزية في العالم العربي:

–صحيفة ديلي ستار (لبنان) www.dailystar.com.lb وهي صحيفة ممتازة ومصدر مهم لأخبار لبنان.

–صحيفة ذا جوردان تايمز (الأردن) www.Jordantimes.com وتتابع هذه الصحيفة بالتفصيل أخبار الأردن وفلسطين.

–صحيفة الأهرام ويكلي (مصر) www.weekly.ahram.org.eg تتبع هذه الصحيفة صحيفة الأهرام الأم، وهي مصدر مهم لمتابعة الشؤون المصرية والعربية، بالإضافة إلى أخبار إفريقيا.

–صحيفة ذا ناشيونال (الإمارات العربية المتحدة) www.thenational.ae وهي من أحدث الصحف في المنطقة، لكنها قوية في مجال الأخبار المحلية في الإمارات بالإضافة إلى كل ما يتعلق بشؤون الخليج العربي.

–صحيفة غالف نيوز (الإمارات العربية المتحدة) www.gulfnews.com وهي الصحيفة الأوسع انتشاراً باللغة الإنجليزية في دولة الإمارات.

–صحيفة غالف دايلي نيوز (البحرين) www.gulf–daily–news.com وهي صحيفة يومية تصدر باللغة الإنجليزية في البحرين.

–صحيفة أراب نيوز (العربية السعودية) www.arabnews.com تقوم هذه الصحيفة بتغطية أخبار المملكة، بالإضافة إلى الأخبار المتعلقة بالمجموعات الآسيوية القاطنة في المملكة.

–الحياة (لندن) www.daralhayat.com/morenews/english ويتضمن موقع الصحيفة باللغة الإنجليزية مقالات وتعليقات من الصحيفة العربية الأم، وتُعد (الحياة) من الصحف اليومية الأكثر أهمية في العالم العربي.

–الشرق الأوسط (لندن) www.aawsat.com/english ويغطي الموقع الإلكتروني للصحيفة باللغة الإنجليزية مقالات وتعليقات من الصحيفة الأم حول ما يتعلق بالعالم العربي عموماً.

–الجزيرة (قطر) www.english.aljazeera.net ويعد الموقع الإلكتروني للقناة الفضائية العربية باللغة الإنجليزية مصدراً مهماً لأحدث الأخبار عن العالم العربي والشؤون الدولية.

–هآريتس (إسرائيل) www.haaretz.com صحيفة إسرائيلية ليبرالية، ويتضمن موقعها الإلكتروني باللغة الإنجليزية أخباراً وتعليقات مترجمة من اللغة العبرية، وهي مصدر مهم لأخبار الشؤون الإسرائيلية.

بالإضافة إلى المواقع الإلكترونية لهذه الصحف من الشرق الأوسط، يمكن للمشاهد أن يتابع ترجمةً لبعض البرامج الإخبارية عبر تلفزيون لينك Link، حيث برنامج موزاييك، وبرنامجي الأسبوعي بالاشتراك مع تلفزيون أبوظبي (وجهة نظر Viewpoint) الذي ينقل على الهواء مباشرة مساء كل خميس، ولمزيد من المعلومات يمكن زيارة الموقع www.linktv.org/mosaic كما يوجد أيضاً عدد من المواقع التي تشرف عليها منظمات عربية ومسلمة وأخرى يهودية ومسيحية، حيث توفر جميعها معلومات مفيدة حول العالم العربي ومنها:

-المعهد العربي الأمريكي (www.aaiusa.org) وهو المنظمة التي أنشأتها عام 1985، والذراع السياسي للمجموعة العربية الأمريكية، ويعد مصدراً مهماً للمعلومات حول السياسة الأمريكية والمبادرات المقدمة بالإضافة للإحصائيات الديموغرافية، كما يمكن للقارئ أن يشاهد على الموقع السابق الحوار التلفزيوني الذي أجريناه مع الطلاب العراقيين.

-اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز www.adc.org وهي لجنة ألفتها عام 1980، للدفاع عن الحقوق المدنية للعرب الأمريكيين، ويمكن متابعة أحدث السياسات التي تؤثر في العرب الأمريكيين عبر موقعها، بالإضافة لمعلومات حول فروع المنظمة في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

-جي ستريت www.jstreet.org وهي من أحدث المنظمات المؤيدة للسلام التي استطاعت في فترة وجيزة تقديم صوت مختلف يدعم السلام في واشنطن.

-المجلس الإسلامي للشؤون العامة www.mpac.org وهو منظمة تمثل أصوات المسلمين الأمريكيين في الحوارات حول السياسة الأمريكية.

-أمريكيون من أجل السلام الآن www.peacenow.org هي منظمة أمريكية يهودية تدعم جهود منظمة السلام الآن في إسرائيل. وتعد من أفضل المصادر للمعلومات حول النشاط الاستيطاني الإسرائيلي، بالإضافة إلى جهود الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط التي تؤثر في إسرائيل وعملية السلام في المنطقة.

-كنائس من أجل السلام في الشرق الأوسط www.cmep.org هو تحالف مجموعة من الكنائس المسيحية التي تساند السلام في الشرق الأوسط والمسيحيين في الأرض المقدسة.

-مؤسسة الأراضي المسيحية المسكونية www.hcef.org وهي منظمة هدفها رعاية المسيحية في الأراضي المقدسة، عن طريق برامج توثق التعاون بينهم وبين المستجيبين في كل مكان.

هناك منظمات أخرى متخصصة في الشؤون الخارجية وتمثل مصدراً للمعلومات والتحاليل حول العالم العربي مثل:

-مجلس العلاقات الخارجية www.cfr.org

-مجلة الشؤون الخارجية www.foreignpolicy.com

-مجموعة الكوارث الدولية www.crisisgroup.org وتقدم هذه المجموعة خلفية معلوماتية كبيرة حول المواضيع المهمة في العالم.

لقد ذكرت في هذا الكتاب عدداً من المجموعات التي تدعم برامج خاصة تخدم المواطنين في مجالات التعليم والحوارات المتعلقة بشؤون العالم العربي، وفيما يلي عناوين المواقع الإلكترونية لهذه المجموعات للمهتمين بالانضمام لها:

– World Affairs Council (www.worldaffairscouncils.org)

– Great Decisions (Foreign Policy Association (www.fpa.org)

– National Council on U.S – Arab Relations (www.ncusar.org)

هناك مجموعة أخرى تستحق الذكر هنا وهي مجموعة أعمال من أجل الجهود الدبلوماسية (BDA)، التي أسسها مجموعة من رجال الأعمال الذين ينتمون إلى كبرى الشركات الأمريكية، وتدعم هذه المجموعة برامج تشجيع المواطنة العالمية والتفاهم بين الثقافات. بالإضافة إلى برنامج الزمالة العربية–الأمريكية لرجال الأعمال الذي يقدم الفرص للعشرات من رجال الأعمال الشباب للاستفادة من برامج التبادل في القطاع الخاص.

www.businessfordiplomaticaction.org

وأخيراً، هناك بعض الكتب التي لا بد أن أشير إليها، والتي قد يجد فيها القارئ المهتم بالموضوع ما يفيده، ومنها ما هو كلاسيكي، وقد استفدت منه شخصياً، ومنها ما هو حديث كتبه بعض الضيوف الذين استضفتهم في برنامجي الأسبوعي:

-Albert Hourani, A History of the Arab People (Cambridge: Belknap Press, 1991).

ونجد في هذا الكتاب عرضاً تاريخياً شاملاً للمنطقة وأهلها من زمن

الرسـول محمد –عليه الصلاة والسلام– حتى اليوم.

-Edward Said, The Question of Palestine (New York Times Books, 1979).

لقد كان «سعيد»؛ الباحث العربي الأمريكي الأبرز، وسيبقى كتابه هذا من أفضل الكتب التي عالجت القضية الفلسطينية.

-Edward Said, Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World (New York: Pantheon Books, 1981).

يقدم سعيد في هذا الكتاب دراسة مستفيضة حول دور الإعلام الغربي في خلق نماذج نمطية سلبية عن الإسلام.

Karen Armstrong، Islam: A Short History (New York:– Modern Library، 2000).

ويعد هذا الكتاب أفضل عرض شامل للإسلام في كتاب واحد.

-Juan Cole, Engaging the Muslim World (New York: Palgrave Macmillan, 2009)

يقدم هذا الكتاب عرضاً قيماً للسياسات الأمريكية في العالم الإسلامي.

-Jimmy Carter, Palestine: Peace Not Apartheid (New York: Simon and Schuster, 2006).

لقي هذا الكتاب جدلاً واسعاً عند صدوره، مما يدل على صعوبة الخطاب المتوازن حول هذا الموضوع.

-John Mearsheimer and Stephen Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007).

-Jehan Sadat, My Hope for Peace (New York: Free Press, 2009).

كتاب قصير لكنه مهم في عرضه حياة أنور السادات ومصر والعالم الإسلامي اليوم.

-Queen Noor, Leap of Faith: Memoirs of an Unexpected Life (New York: Miramax, 2003).

لا بد أن أذكر كذلك عملين آخرين كنت قد استشهدت بهما في كتابي وهما:

-James Baker and Lee Hamilton (co-chairs), The Iraq Study Group Report: The Way Forward, A new Approach (New York: Vintage Books, 2006).

-Daniel C. Kurtzer and Scott B. Lasensky, Negotiating Arab-Israeli Peace (Washington: United States Institute of Peace, 2008).

بالإضافة إلى الوثيقة التاريخية المختصرة حول الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، التي نصحت بها أحد المتصلين في برنامج C–SPAN عام 2005، والتي يمكن الرجوع إليها إلكترونياً على الموقع التالي:

United Nations, Question of Palestine

http//www.un.org/depts./dpa/qpal.

شكر وعرفان

يعود الفضل في كل شيء لعائلتي؛ أبي جوزيف وأمي سيليا وأختي سلوى وأخي جون، وأفراد آخرين رائعين من عائلتي الكبيرة التي تضم أعماماً وعمات وأخوالاً بالإضافة إلى أبناء عمومتي الذين كان لهم الفضل جميعاً في تعلقي بتراثي، ولقد أشعروني بالحاجة الدائمة إلى التعلم من الآخرين والاستماع إليهم.

لقد سافرت قبل أربعين عاماً مع زوجتي إيلين إلى العالم العربي بعد ولادة طفلنا الأول، وأقمنا في أماكن مختلفة هناك، حيث زرنا قرية والدي الجبلية التي وُلد فيها في غرب بيروت، وأقمنا بعض الوقت مع قبيلة بدوية، وزرنا كذلك مخيماً للاجئين الفلسطينيين، وقد غيرت فينا كل هذه التجارب الشيء الكثير، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع زياراتنا أنا وزوجتي وأبناؤنا الخمسة، جوزيف، وإليزابيث وسارة هوب، وماثيو، وماري مارغريت للعالم العربي، ولا شك أنني استفدت كثيراً من ملاحظاتهم ومن تجاربهم التي عاشوها في أحد عشر بلداً عربياً مختلفاً.

لا شك أنني كنت محظوظاً جداً بلقائي أشخاصاً من العالم العربي، تركوا بصماتهم على حياتي إلى الأبد مثل رفيق الحريري والدكتورة أمل شمّا من لبنان، وتوفيق زياد، والأب إلياس شقور من عرب إسرائيل، بالإضافة إلى زاهي خوري وحنان ناصر وعبد الجواد صالح وحنان عشراوي وحاتم الحسيني وفيصل الحسيني من فلسطين، والأمير تركي الفيصل والأمير الوليد بن طلال والسيد عبد الرحمن الزامل والشيخ سليمان عليان وعبدالعزيز التويجري من العربية السعودية، والشيخ عبدالله بن زايد وأنور قرقاش من الإمارات العربية المتحدة، ومحمد الصقر من الكويت، ومن الولايات المتحدة، هناك إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد وكمال بُلاطة وإسماعيل الفاروقي.

لم يكن هذا الكتاب ليرى النور لولا دعم وكيليّ: رافي سغاليان ويريدجيت

فاغتنر اللذين آمنا بهذا الكتاب مثلما فعلت ريم الهاشمي منذ البداية. أوجه شكري كذلك إلى بالغراف أليساندرا باستاجلي على الدعم والإرشادات، وإلى هوارد وناثان مينز على مقترحاتهما المفيدة. أما ابنتي ليز زغبي فقد كانت العين الساهرة على مراحل إعداد الكتاب، أما مساعدي كايل هيلي فقد كان ذراعي الأيمن في هذا المشروع من البداية إلى النهاية. والشكر موصول كذلك لأشرف فؤاد ماكار وآمال مدللي وابني جوزيف الذي قرأ أجزاءً من الكتاب، ولم يبخل عليّ بملاحظاته الثمينة.

وبالطبع لا يمكن أن أنسى الدعم المعنوي الكبير الذي قدمه أخي جون زعبي، وزملائي في مؤسسة زغبي الدولية وبخاصة جو مزلوم وسام روجرز، بالإضافة إلى فريق العمل المخلص في معهد العرب الأمريكيين الذين تفهموا غيابي عنهم، وأخيراً أشكر أصدقائي في شيلي الذين تحملوا وجودي طوال فترة إعداد الكتاب ولم يتذمروا من رائحة السيجار الذي أدخنه.

نبذة عن المؤلف:

أمريكـــي ينحدر مـــن عائلة لبنانية هاجـــرت إلى الولايات المتحـــدة في مطلع القرن العشـــرين. وقـــد انهمك على مـــدى ثلاثـــة عقود فـي شـــؤون العـــرب الأمريكيـــين. وهو مؤســـس معهـــد العـــرب الأمريكيـــين (AAI) ومركـــزه واشـــنطن. ويدعم هـــذا المعهد المشـــاركة السياســـية للعرب الأمريكيين فـــي التيارات السياســـية الأمريكية. كما أسس زغبي حملة حقوق الإنسان الفلسطيني في الســـبعينيات. وأصبـــح لاحقـــاً المدير التنفيـــذي للجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز العنصري. وهو فاعل فـــي السياســـة الأمريكيـــة. إذ عمـــل نائباً لمديـــر الحملة الانتخابية الرئاســـية لجيســـي جاكســـون. ويشـــارك في البرامج الحوارية السياســـية على الشبكات التلفزيونية الأمريكية الرئيســـية. وقد قدم برنامج «وجهة نظر»على قناة أبوظبي.

نبذة عن المترجمين:

د. سرى خريس:

تعمل أستاذاً مساعداً في النقد والأدب الإنجليزي، وقد حصلت على درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية عام 2001، وتعمل حالياً في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة العلوم التطبيقية الخاصة (عمان- الأردن). من أعمالها المترجمة: (الإسلام والاستشراق في العصر الرومانسي: مواجهات مع الشرق) لمحمد شرف الدين، و(المؤلف) لأندرو بينيت، و(تسلق أشجار المانغا) لمادور جافري، وجميعها صادرة عن مشروع كلمة للترجمة- هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة.

عبلة عودة:

أكاديمية ومترجمة، حصلت على شهادة الماجستير في اللغويات من جامعة باث - إنجلترا، وهي عضو مؤسّس في جمعية المترجمين واللغويين التطبيقيين الأردنيين، لها ترجمات منشورة ككتابي: «مذاق الزعتر»، «وتكايا الدراويش»، وقد صدرا عن مشروع كلمة، كما فازت بجائزة أفضل كتاب مترجم عام (2010)، التي تمنحها جامعة فيلادلفيا، عن الكتاب الأول.

أصوات عربية

يقوم جيمس زغبي، عبر كتابه هذا (أصوات عربية) بإبراز النتائج المتعلقة باستطلاع شامل للرأي جديدٍ من نوعه، طرح عبره أسئلة مهمة على آلاف الأشخاص الذين يقطنون في ثماني دول تمتد من المغرب حتى المملكة العربية السعودية. وهو يفنّد هنا الأنماط الشائعة لدى الغرب عامة عن العرب. اعتمد زغبي على خبرة أربعين عاماً ليسلط الضوء على الافتراضات والادعاءات المتحيزة التي تحول دون فهم هذه المنطقة المهمة من العالم. ويزودنا زغبي بنظرة ناقدة نحو الأساطير التي حيكت حول العالم العربي، والناجمة عن إساءة فهمه. إن هذه النظرة الشاملة العميقة، لحياة العرب المعاصرة، تساعد على فهم العلاقة العربية -الأمريكية، بوضوح تام، ربما للمرة الأولى.







